

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والإعلام
قسم الدعوة والاحتساب

الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدعوة والاحتساب

إعداد الطالبة:

زلفى بنت أحمد بن محمد الخراط

إشراف:

الدكتور سليمان بن عبد الله الحبس
الأستاذ المشارك بقسم الدعوة والاحتساب

العام الجامعي

١٤٣٠/١٤٣١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نوقشت هذه الرسالة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

في تاريخ ١٤٣٢/٦/٧ هـ

وتألفت لجنة المناقشة من: د/سعد الجريد و د/علي الأحمد

ومُنحت الرسالة تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى

الإهداء

أرى نفسي تقف حائرة أمام عظيم صنعك ..
وأرى مداد قلمي يعجز عن وصف فضلك ..
ما فتئت منذ أن شببتُ عن الطوق .. خير المعين ..
وخير الأئیس ..
وخير الصديق ..
والدي ..
سيدي ..
يا صاحب القلب الكبير ..
أشرف هنا .. بأن أهديك باكورة إنتاجي العلمي ..
علّي أردّ لك بها قطرة من بحارك التي جدت بها عليّ ..

ابنتك ..

زلفی

شكر وتقدير

أشكر الله تعالى على ما يسّره لي من إتمام هذه الرسالة ، ثم الشكرُ موصولٌ لوالديّ الكريمين اللذان لم يألوا جهداً في توجيهي وتشجيعي على طلب العلم ، والدعاء الدائم لي بالتوفيق والسداد ، أسأل الله العلي العظيم أن يبارك في عمرهما ويوفقهما إلى ما يحب ويرضى .
والشكر الجزيل لزوجي ورفيق دربي الدكتور زبير عبد الحميد ولي والذي وقف إلى جانبي ، وكان لي خير المعين والمشجّع رغم كثرة الأعمال والمشاعغل المنوطة به .
كما أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي أتاحت لي فرصة مواصلة الدراسات العليا بمرحلة الماجستير .

وأخص بالشكر والتقدير فضيلة الدكتور سليمان بن عبد الله الحبس المشرف على رسالتي الذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته ، ومنحني من وقته الثمين الكثير ، وكان نعم المشرف العلمي أيام سفرني إلى الخارج مع زوجي وبعد عودتي إلى المملكة ، وقد استفدت الكثير من علمه وعلمه وخلقه النبيل الكريم لي طوال رحلتي العلمية في هذه المرحلة . والشكر لجميع من أعانني بالحصول على بعض المراجع ، وعلى كل مساعدة قدّمت لي من أجل إخراج هذه الدراسة على النحو المطلوب .
ولا يفوتني أن أشكر الأستاذين الفاضلين: الدكتور سعد الجريد والدكتور علي الأحمد على تكمّلهما وموافقتهما على مناقشة هذه الرسالة ، وبذلهما الجهد الكبير لخدمة العلم وأهله ، ولا شك أنني سأستفيد كثيرا من توجيهاتهما وإرشاداتهما الكريمة .

أسأل الله العلي العظيم أن يبارك عملي هذا ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا هداة متدين غير ضالين ولا مُضلين إنه وليّ ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، و نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

قال تعالى: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ^(١)

وقال تعالى: (يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) ^(٢)

وقال جلّ وعزّ: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؕ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ ؕ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) ^(٣)

أما بعد:

فقد خلق الله تعالى عباده مفظورين على حب الخير ، ميالين إلى سلوك الرشد، ولكن الانحراف طراً عليهم ، والأهواء تنازعتهم ، فضلّوا طريق الحق ، وتاهوا في ظلمات الجهل. فأرسل الله رسله مبشرين ومنذرين ، داعين إلى صراط الله القويم ، مُرشدين العباد إلى الهدى والرشاد .

وقد ختم الله الرسالات السماوية برسالة الإسلام ، فأكمل صلى الله عليه وسلم الرسالة ، وأتمّ الله النعمة ، ورضي لنا هذا الدين منهجاً قويمًا. وقد حمل لواء الدعوة من بعده رجال أكفء ساروا

(١) الآية ١٠٢ - سورة آل عمران.

(٢) الآية ١ - سورة النساء.

(٣) الآيات ٧٠-٧١ - سورة الأحزاب

على دربه ، واقتفوا أثره ، ففتحوا البلاد ، ونشروا الدين، وصحّحوا المعتقدات ، واضعين نُصْبَ أعينهم حقيقة هامة وهي وجوب حمل مشعل الهداية في هذه الأمة ليعمّ الخيرُ والفضيلة .
ولقد كان لأولئك الرجال الأفاضل عبر التاريخ مناهجهم الفريدة ، وأساليبهم المتميزة في الدعوة إلى الله ، والتصدي لما يواجهونه من عقبات ومشكلات في هذا الطريق .
ولا يخفى على أحد أهمية دراسة مسيرة الدعوة إلى الله عبر التاريخ الإسلامي ، وسرّ ما مرّت به من ازدهار ، وما واجهته من عقبات وعوائق ، والعناية بهذه الدراسة تحقّق رصيلاً طيباً من الخبرة وسعة الأفق ، والإفادة من التجارب التي مرّت برجال الدعوة والمحتسبين .
ويجدر بالدعاة اليوم أن يطلّعوا على تجارب مَنْ سبقهم من الدعاة لتذليل العقبات ، ونشرِ معالم الدعوة التي عزموا على إرسائها مع مدعوّيهم .

تعريف مصطلحات البحث :

في هذا البحث عدة مصطلحات تحتاج إلى إيضاح من أهمها :
الدعوة – الإسلام – عهد – الدولة

أولاً : الدعوة

١ - التعريف اللغوي للدعوة:

مصدر للفعل الثلاثي : دعا ، يدعو ، دعوة . ولها معان متعددة كلها تدور حول: الطلب والسؤال والنداء والتجمع والدعاء والاستمالة والاستغاثة^(١)

٢ - التعريف الاصطلاحي للدعوة :

للدعوة في الاصطلاح معنيان :

المعنى الأول : الإسلام الذي هو موضوع الدعوة

فالدعوة هي الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك^(٢)

(١) لسان العرب - ابن منظور - مادة(دعا) - ٢٥٧ / ١٤

(٢) ثلاثة الأصول وأدلتها- الإمام محمد بن عبد الوهاب- ٨

المعنى الثاني : عملية نَشْر الإسلام وتبليغه للناس .
فالدعوة هي نَشْر الإسلام وتبليغ أحكامه فهي تبليغ الإسلام للناس ، وتعليمه إياهم ، وتطبيقه في واقع الحياة^(١).

والمعنى المراد في هذا البحث هو النشر والبلاغ .

ثانياً : الإسلام :

١ - الإسلام والاستسلام لغةً : الانقياد ، والإسلام من الشريعة إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم^(٢)

٢ - الإسلام اصطلاحاً :

هو مجموع ما أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أحكام العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات في القرآن والسنة وقد أمره بتبليغها إلى الناس^(٣)

وقد جاء تعريف الإسلام في حديث جبريل عليه السلام ، فقد جاء بهيئة أعرابي يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسمع الحاضرين ، ويتعلّموا أمور دينهم . جاء في الحديث : (فأخبرني عن الإسلام) فقال: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)^(٤)

ثالثاً : العهد :

العهد : الزمان ، وعهدُ دولةٍ كذا : زمانها ووقتها الذي كانت فيه^(٥)

(١) المدخل إلى علم الدعوة - د/أبو الفتح البيانوني - ١٧

(٢) لسان العرب - مادة (سلم) - ٢٨٩/١٢

(٣) أصول الدعوة - عبد الكريم زيدان - ١١

(٤) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان - ١ / ١٣٤ برقم ٥٩

(٥) لسان العرب - مادة (عهد) - ٣ / ٣١٥ ، القاموس المحيط - مادة (عهد) - ١ / ٣٢٠

رابعاً : الدولة :

هي جمع من الناس مستقرون في إقليم معين الحدود مستقلون وفق نظام خاص^(١) ومن خلال ما تقدم يتبين أنني سأتناول في بحثي ما يتعلق بجذب الناس إلى الإسلام وتقويم سلوكهم وفق هديه القويم في زمان الدولة الأيوبية.

أهمية الموضوع:

تعدّ المدّة التي عاشها المسلمون في ظل الدولة الأيوبية مهمة ، عزّ فيها المسلم ودولة الإسلام وأعني الدولة الأيوبية . ومن يطّلع على حال الأمة قبل زمن صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- يعجب لحالها وما أصابها من التمزّق والهوان وغلبة أهل الصليب عليها وهيمنة المبتدعة . ومن هنا فإنّ الكشف عن جهود هذا الملك الصالح وملوك هذه الدولة في الدعوة إلى الله والاحتفاء بمذهب أهل السنة أمر ضروري ، لاسيما أن الدارسين القدماء والمحدثين قد أجمعوا على أنّ صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- قد أحدث في عصره نُقْلةً كبيرةً في عزّ الدولة المسلمة ، وقمّع المبتدعة ، والوقوف أمام الزحف الصليبي ، ورعاية العلم وأهله ورفع شأنهم .

والدراسة العلمية من جانب الدعوة وقضاياها ستكشف عن أبعاد ما تمّ إحكامه وبنائه في هذا العصر، وهو ما ستتمّ دراسته بإذن الله .

أسباب اختيار الموضوع :

- تتعدّد أسباب اختيار هذا الموضوع . ولعل من أهم هذه الأسباب ما يلي :
- ١- أهمية التعرف على تاريخ الدعوة ، لما تنضوي تحت هذه المعرفة من استخلاص الدروس والعبر الدعوية للحاضر .
 - ٢- ندرة تناول الدراسات السابقة للجوانب الدعوية في هذا الموضوع .

(١) المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية - ، قام بإخراجه: ابراهيم مصطفى وزملاؤه بإشراف عبد السلام هارون - ٣٠٤/١ .

٣- التعرّف على الجهود الدعوية التي بذلها الملوك والدعاة زمن العهد الأيوبي ، وتقويم هذه الجهود وفق ضوابط علم الدعوة.

٤- قد يواجه بعض الدعاة عدداً من العقبات في طريق الدعوة ، فيصاب بالملل والكسل ، ويفتر عن خدمة هذا الدين ، فلعل هذه الدراسة تقدم أنموذجاً رائعاً لجليل جادت نفوس أصحابه بفيضٍ من الجهود التي عزّزت الدعوة الإسلامية وأعلت من شأنها ، على الرغم من المصاعب الجمة التي واجهوها في سبيل هذا الدين. والمطلّع على ذلك ستشحذ همته ، وتنشط عزيمته ، بغية محاكاة رجالات هذا العصر والاقتراء بهم.

٥- بيان التحديات التي واجهت الدعاة من جانب المخالفين في العقيدة ، وبيان ما قام به ولاة الأمور من نشرٍ لمذهب السنة .

٦- التعرف على جهود أبرز الدعاة والمحتسبين في هذا العصر .

٧- الرد على الشبهات التي تُثار حول رجالات هذا العصر.

أهداف الموضوع :

- ١ - التعرف على السمات والمراحل التي مرّت بها الدعوة الإسلامية في الدولة الأيوبية.
- ٢ - الوقوف على تجربة الدعاة والمحتسبين في العصر الأيوبي ودورهم في مواجهة البدع والمنكرات، ونشر الدعوة ، وتقويم جهودهم في ضوء الكتاب والسنة.
- ٣ - التعرف على الجهود العلمية والدعوية المبذولة في هذا العصر لخدمة علوم السنة المتعددة
- ٤ - تبصير الداعية المعاصر بمرحلة تاريخية مهمة من مراحل التاريخ الإسلامي ، ظهر فيها عزّ المؤمنين ، وتمكنوا من قهر الطوائف المعادية المختلفة .

تساؤلات البحث:

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات ، تُمثّل الإجابة عنها أهداف الدراسة، وهذه التساؤلات هي :

- ١ - ما السمات والمراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية؟
- ٢ - ما موضوعات الدعوة في عهد الدولة الأيوبية ؟
- ٣ - ما أصناف الدعاة ، وما أصناف المدعوين في عهد الدولة الأيوبية ؟
- ٤ - ما الوسائل والأساليب والميادين الدعوية التي استُخدمت في عهد الدولة الأيوبية ؟
- ٥ - ما المعوقات التي واجهت الدعوة والدعاة في هذه المدة ، وما الأساليب التي اتُّبعت للتغلب عليها ؟
- ٦ - ما نتائج الدعوة الإسلامية في الدولة الأيوبية؟ وما العوامل التي ساعدت في نجاح الدعوة في تلك الدولة ؟
- ٧ - ما أوجه الاستفادة من الدعوة في عهد الدولة الأيوبية في العصر الحاضر؟

الدراسات السابقة :

لم أقف على دراسة علمية تخصصت بدراسة الجانب الدعوي في زمن الدولة الأيوبية (٥٦٤ - ٦٤٨ هـ) ، وما وقفتُ عليه هو:

رسائل علمية تحدثت عن الدولة الأيوبية ، أو عن صلاح الدين الأيوبي ، ولكن من زاوية محددة ، عيَّنها الباحث تبعاً لتخصصه كما سيتضح معنا ، ومن هذه الرسائل :

أ- (دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية)^(١)

(١) الطالبة : آسيا سليمان نقلي ، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في قسم التاريخ ، كلية التربية للبنات ، الرياض ، عام ١٤١١هـ.

وقد قسّمت الطالبة بحثها تقسيماً زمنياً وموضوعياً معاً مراعيةً فيه التسلسل الزمني للأحداث والوقائع ، مع إبراز دور الفقهاء والعلماء تجاه كل حدثٍ من هذه الأحداث تبعاً لموقعه الزمني في التسلسل التاريخي للبحث .

ويحتوي البحث على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ، جاء عنوان الفصل الأول : (الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين إبان الحركة الصليبية) وفيه ألقت الباحثة نظرة على أوضاع العالم الإسلامي والنصراني قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، ثم تقدّم هذه الحملة إلى بلاد الشام ، وموقف الخلافتين العباسية والعبيدية من الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ثم ألقت المزيد من الضوء على جهاد الرواد الأوائل للوحدة الإسلامية منذ وصول الصليبيين الشام ، وحتى نهاية الأسرة الزنكية ، ثم استعرضت جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين ، ثم انتقلت إلى الجهاد الإسلامي في عهد سلاطين المماليك حتى نهاية الحركة الصليبية من سنة ٦٤٨هـ حتى سنة ٦٩٠هـ .

أما الفصل الثاني فجاء عنوانه : (دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام حتى موقعة حطين) وقد تناولت الباحثة فيه استنكار العلماء والفقهاء المسلمين للغزو الصليبي ، ودورهم في إثارة حماسة المسلمين للجهاد ، ثم موقفهم من تحالف بعض الحكام المسلمين مع الصليبيين ، بالإضافة إلى مواقفهم من تعاطف بعض الحكام المسلمين مع طائفة الإسماعيلية ، ودورهم البارز في زمن حكم كلٍ من : عماد الدين زنكي و نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي .

أما الفصل الثالث فقد جاء عنوانه : (جهود العلماء والفقهاء في الجهاد ضد الصليبيين حتى نهاية الحركة الصليبية عام ٦٩٠هـ) وقد تحدثت فيه عن اشتراك الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين بعد معركة حطين ، ودورهم في بيت المقدس بعد استردادها من الصليبيين ، ثم دورهم في القضاء على فتور حركة الجهاد بعد استرداد بيت المقدس، ثم درست علاقتهم بأبناء البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين ، ثم ناقشت موقف الملك الكامل من الحملة الصليبية السادسة ، واستنكار العلماء والفقهاء لتسليمه بيت المقدس للصليبيين ، ثم انتقلت للحديث عن جهود العلماء والفقهاء في العصر المملوكي ضد الصليبيين .

أما الفصل الرابع فكان بعنوان : (موازنة بين دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي ورجال الدين المسيحي في الغرب الأوروبي وبلاد الشام أثناء الحروب الصليبية) وقد فصّلت

الباحثة في هذا الفصل عن موقف كلٍ من الفقهاء والعلماء المسلمين وموقف رجال الدين النصراني من الحملات الصليبية وتطور أحداثها

وبهذا نخلص إلى أنّ الباحثة هدفت من رسالتها إلى : إبراز دور العلماء والفقهاء المسلمين في ميادين الجهاد ضد الصليبيين ، ذلك الدور الذي كان له التأثير الكبير والخطير في الحياة العامة في المجتمع الإسلامي آنذاك ، إذ شاركوا مشاركةً إيجابيةً فعّالة في ذلك الجهاد العظيم .

ولقد نهجت الباحثة في جمعها للمعلومات وعرضها لها المنهج التاريخي -تبعاً لتخصصها- ومن زاوية محددة وهي ميادين الجهاد الإسلامي ، دون تفصيل للمسائل الدعوية من مناهج ووسائل وأساليب ومعوقات ، وغيرها مما هو متفقٌ عليه في علم الدعوة ، إلا أنني استفدت من هذه الرسالة في التمهيد التاريخي لرسالتي ، وفي إرشادي إلى المصادر التاريخية التي نُثرت في بطونها قضايا الدعوة ؛ لأستنبطها وأوظفها التوظيف الدعوي المناسب .

وبناءً على هذا اختلف تناولي للأحداث التاريخية عن تناول الباحثة اختلافاً جذرياً ، فهي تناولتها من منظور تاريخي بحت ، علاوةً على اقتصرها على قضايا الجهاد، بينما عالجت رسالتي قضايا الدعوة المختلفة في أزمان العهد الأيوبي المتتابعة معالجةً تحليلية استنباطية بهدف إبراز كل ما يتعلق بهذا العلم وقضاياه الرئيسة .

ب- (الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي) ^(١)

وقد قام الباحث بتقسيم رسالته إلى أربعة فصول ، تحدث في الفصل الأول عن الأصول التاريخية لنظام الإقطاع الحربي ، عرض فيه بدايةً ما عُرف في الإسلام من الإقطاع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم في عهد الأمويين من بعدهم ، ومن ثم الإقطاع في العصر العباسي ، ثم انتقل في الحديث بعد ذلك عن الإقطاع في الدويلات التي قامت في فترة لاحقة من عهد الدولة العباسية والتي بدأت ببني بويه ، ثم السلاجقة من بعدهم ، وعرض من بعد ذلك

(١) الطالب طلال العصيمي ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، عام

للإقطاع الزنكي ونشأته ، وكيف كان له أثرٌ مهمٌ في تشجيع الجند ، ودفعهم إلى القتال والاستبسال فيه ، ثم بيّن الباحث سياسة الإقطاع الحربي عند الأيوبيين .

أما الفصل الثاني فقد تحدث فيه الباحث عن الدولة الأيوبية وصلة صلاح الدين الأيوبي وأبيه وعمه بالدولة الزنكية ، ثم فصّل في نظام الإقطاع عند الأيوبيين ، ثم أجرى موازنة بين الإقطاع الأيوبي والإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى .

أما الفصل الثالث فقد تناول فيه الباحث حقوق المقطّعين في العصر الأيوبي ، وبيّن ما كان يُؤدّى من الخراج ، وعرض أسباب تأثر الضريبة الخراجية زمن صلاح الدين ، وتخصيصه ديوان الجيش للإنفاق على الشؤون العسكرية ، كما بيّن أنواع الضرائب المختلفة ، كما ناقش كيفية التصرف في الإقطاع بعد وفاة صاحبه ، وما قيل من آراء في هذا الشأن .

أما الفصل الرابع فقد كان عن كيفية توزيع الأراضي في ظلّ النظام الأيوبي ، والتنظيمات والأسس التي قام عليها الإقطاع الحربي الأيوبي ، كما عرض الفصل أنواع الوثائق التي تُسجّل الإقطاع وتُثبتته في ديوان الجيش ، وللمراحل التي تمرّ بها ، وتناول أيضاً أساليب التوقيعات السلطانية التي تُمنح التوقيعات بمقتضاها ، وانتقل بعد ذلك إلى تقويم الإقطاعات في النظام الأيوبي، ثم تناول انتقال الإقطاع من مقطّعٍ لآخر، ثم درس ديوان الجيش دراسة مفصّلة ؛ إذ كان هو المختص بالإقطاعات ، كما تناول الأعمال المنوطة بديوان الإقطاع ، وعرض في نهايته تنظيم ديوان المقطع في الإقطاع ، وبيان أهم الوظائف في الإقطاع .

وبهذا يتبيّن لنا جليّاً أن هدف الباحث الرئيس من هذه الرسالة هو الحديث بإسهابٍ تاريخي عن نظام الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي نظراً للأهمية البالغة لهذا النظام ؛ فقد كان عاملاً رئيساً في حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزو الصليبي للبلدان الإسلامية. ولا نلمح في هذه الرسالة أي تطرّق دعوي من الباحث من قريبٍ أو بعيد، بل كانت الرسالة تاريخية محضة - انعكاساً لتبعيتها لقسم الحضارة والنظم الإسلامية - إلا أنني استفدت منها في التمهيد التاريخي لبحثي .

منهج البحث :

جمعت المادة العلمية من المظان الأصلية التي عاصرت الدولة الأيوبية ، أو كتبها رجال كانوا من مسؤولي هذه الدولة ، ولم أتوسع في التفاصيل التاريخية البحتة .

وقد تمّ استخدام المنهجين التاليين:

١ - المنهج التاريخي: وهو عبارة عن النظر في الماضي بواسطة جمع الأدلة وتقويمها ، ومن

ثمّ تمحيصها ، وأخيراً تأليفها ؛ ليتمّ عرض الحقائق أولاً عرضاً صحيحاً في مدلولاتها

وفي تأليفها ، وحتى يتمّ التوصل حينئذ إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين

العلمية الواضحة^(١). لذا قمتُ في هذا البحث بدراسة تاريخ العصر الأيوبي وما

شهده من أحداثٍ دعوية ، وما رافقه من تقلبات وتطورات ، لمعرفة مدى تأثيرها في

مسيرة الدعوة الإسلامية . واجتهدتُ في استقراء المادة العلمية استقراء تاماً لكيلا

أُتخِز إلى جانبٍ دون جانب ، والقاعدة العامة : أنّ رجال العصر ليسوا معصومين ،

وينبغي ذكْر ما لهم وما عليهم.

٢ - المنهج الاستنباطي: وهو الذي يقوم على التأمل في أمور جزئية ثابتة لاستنتاج أحكام

منها^(٢)، واستفدتُ منه في التعامل مع القدر الكبير الذي حشده المؤرخون وأصحاب

التراجم والمواقف من أحداث العصر ؛ للوقوف على الجهود الدعوية المبذولة ، وهي

القضية الرئيسة التي عزمت على إجلائها وسبرها في هذه الرسالة .

وفي مرحلة كتابة البحث اجتهدتُ للوفاء بقائمة الموضوعات لرصد ما يتعلق بالدعوة في

العصر الأيوبي ، معتمدة الأسلوب العلمي في الكتابة ، لكيلا تسيطر على البحث العاطفة والمنحى

الإنشائي ، و اجتهدتُ كذلك في توثيق المادة العلمية وعزّؤها إلى مظانّها في الحواشي ، للتمييز بين

النقول التي أقتبسها والاستنباطات والتحليلات التي قمت بها^(٣).

(١) المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية - د/ صالح بن حمد العساف - ٢٨٢

(٢) البحث العلمي - عبد العزيز الربيعة - ١٧٨ / ١

(٣) انظر : مناهج البحث وتحقيق التراث ، د/ أكرم العمري ، ص ٦٨ .

ومن أهم الأمور التي راعيتها في هذه الرسالة:

- ١ - عزوتُ الآيات إلى مواضعها في المصحف الشريف بكتابة ، برقم الآية واسم السورة معتمدةً الرسم العثمانيّ وفق برنامج الحاسوب.
- ٢ - العناية بتخريج نصوص الأحاديث والآثار التي وردت في البحث من مصادرها الأصلية ، وإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيْتُ بعزوه إلى أحدهما ، متجاوزة الحكم عليه ؛ لإجماع العلماء على صحة ما فيهما من أحاديث ، أما إذا لم يكن في الصحيحين فخرَّجته من مصنّفات الحديث كالسنن والمسانيد ، وحرصتُ على بيان الحكم على الحديث ممّن خدمه ودرس رجاله ، واستبعدتُ الأحاديث الضعيفة ؛ لأن لي في الصحيحة والحسنة غنية . وعُنيْتُ بضبط نص الحديث ، وشرح غامضه ، والتفصيل في بيان توثيقه ؛ لتيسير العودة إليه في حال اختلاف الطبعات.
- ٣ - عُنيْتُ بتوثيق النصوص والشواهد من مصادرها المعتمدة.
- ٤ - عزوتُ النصوص المقتبسة من غير الكتاب والسنة إلى مصادرها في الحاشية ، وإذا كان هناك اختصار أو تصرّف ، فيما يُعرف بالاقْتباس المعنويّ كتبتُ في الحاشية: "انظر" أمام المصدر أو المرجع.
- ٥ - أغفلتُ ترجمة الأعلام الذين ذُكروا في البحث في الحواشي ؛ نظراً لكثرتهم ، ولكيلا تطول الرسالة ، وتُثقل بالحواشي.
- ٦ - شرحتُ الألفاظ الغريبة أو المصطلحات التي تردّ في ثنايا البحث على نحوٍ موجز .
- ٧ - عُنيْتُ باستخلاص الدروس الدعوية من الوقائع التاريخية وسير الحكّام والدعاة ؛ لإبراز طابع التخصص ، وتوجيه هذه الوقائع وفق الكتاب والسنة.
- ٨ - التزمْتُ بالفقرات التي اعتمدها المجالس العلمية بالجامعة ، واجتهدتُ في الوفاء بكلّ تقسيماتها.

وأودّ أن أُشير في بيان منهجي أنني أوردتُ أخباراً عن مؤسس الدولة صلاح الدين أكثر ممّا أوردته عن باقي الملوك من إخوانه وأبنائه الذين تسلّموا إدارة الدولة من بعده ، ولم يأتِ هذا من طريقٍ مباشرٍ ، وإنما أنا مرتبطةٌ بما أُصادفه في المصادر والمراجع التي رصدتُ أخبار العصر ، وحفلتُ ببيان

ما جرى فيه ، وهذه المصادر والمراجع في الحقيقة تحرص على ملك الدولة الأول أكثر من حرصها على الملوك الآخرين.

حدود الدراسة:

أ- الحدود الزمانية للبحث :

نظراً لأن البحث يهدف إلى الحديث عن الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية فإن الإطار الزمني للدراسة يتحدد بالمدة الواقعة بين عامي: ٥٦٤-٦٤٨ هـ .

ب- الحدود المكانية للبحث:

شملت الدراسة المناطق التي كانت واقعة تحت حكم الدولة الأيوبية في مدة حكمها ، ويمكن تحديدها بالمناطق التالية: مصر ، بلاد الشام ، الحجاز ، اليمن ، خلاط ، والجزيرة الفراتية.

تقسيمات البحث :

المقدمة :

أولاً : أهمية الموضوع

ثانياً : تحديد مصطلحات البحث

ثالثاً : أسباب اختيار الموضوع

رابعاً : أهداف الموضوع

خامساً : تساؤلات البحث

سادساً : الدراسات السابقة

سابعاً : منهج البحث

ثامناً : حدود الدراسة

تمهيد :

المبحث الأول : الموقع الجغرافي

المبحث الثاني : الأحوال السائدة قبيل الدولة الأيوبية

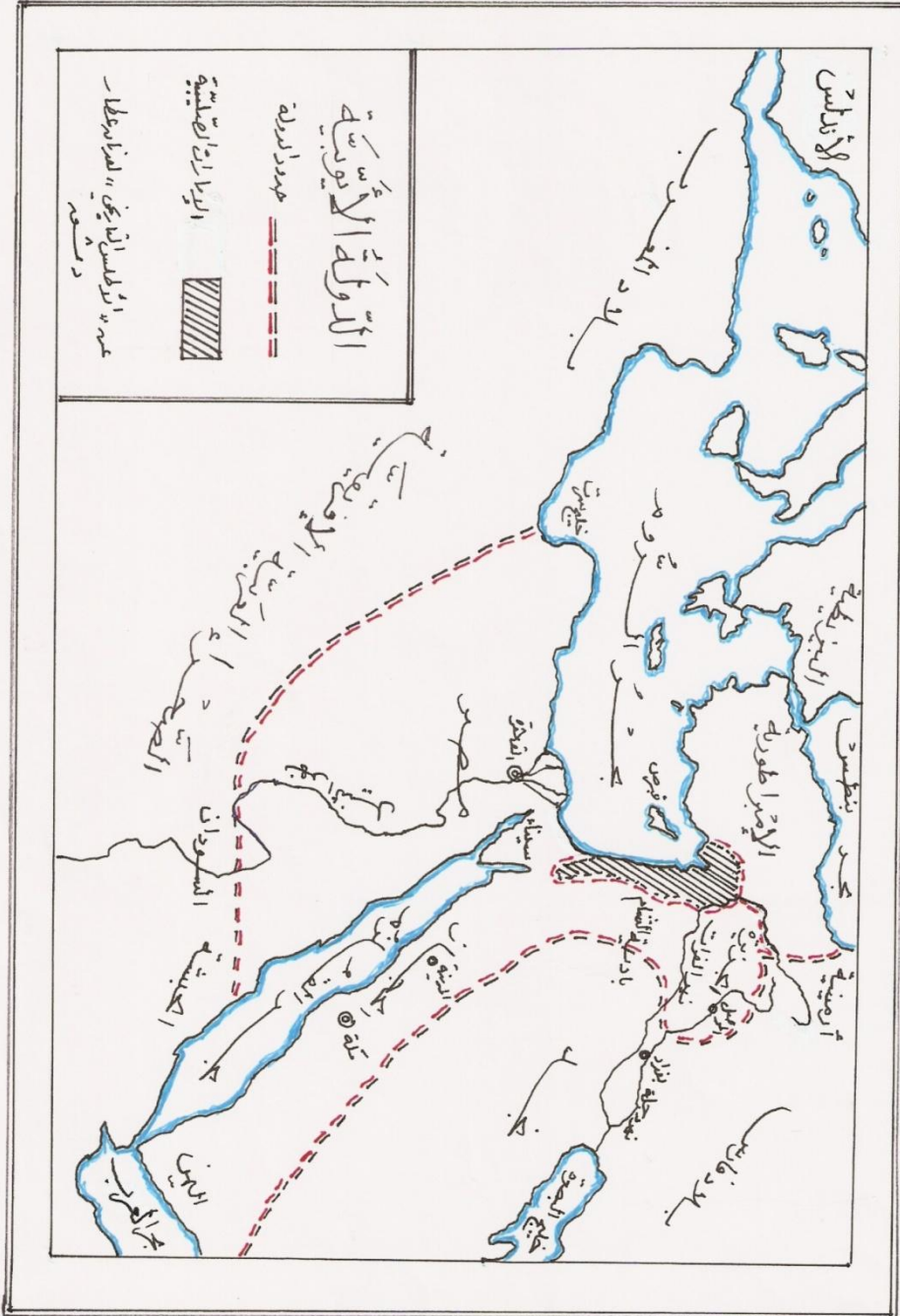
المبحث الثالث : نشأة الدولة الأيوبية والأحوال السائدة فيها

الفصل الأول : سمات الدعوة الإسلامية ومراحلها في عهد الدولة الأيوبية :

- المبحث الأول : سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- المبحث الثاني : مراحل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- الفصل الثاني : موضوع الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية :**
- المبحث الأول : في مجال العقيدة
- المبحث الثاني : في مجال الشريعة
- المبحث الثالث : في مجال الأخلاق
- الفصل الثالث : أصناف الدعاة والمدعوين في عهد الدولة الأيوبية :**
- المبحث الأول : أصناف الدعاة في عهد الدولة الأيوبية
- المبحث الثاني : أصناف المدعوين في عهد الدولة الأيوبية
- الفصل الرابع : وسائل الدعوة الإسلامية وأساليبها وميادينها في عهد الدولة الأيوبية:**
- المبحث الأول : وسائل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- المبحث الثاني : أساليب الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- المبحث الثالث : ميادين الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- الفصل الخامس : معوقات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية وسبل التغلب عليها :**
- المبحث الأول : عوائق داخلية
- المبحث الثاني : عوائق خارجية
- الفصل السادس : نتائج الدعوة الإسلامية وعوامل نجاحها في عهد الدولة الأيوبية:**
- المبحث الأول : نتائج الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- المبحث الثاني: عوامل نجاح الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- خاتمة : وفيها نتائج البحث والتوصيات**
- الفهارس : أ- فهرس الآيات**
- ب- فهرس الأحاديث
- ج- فهرس الأعلام
- د- فهرس الموضوعات
- هـ- قائمة المصادر والمراجع

الفصل التمهيدي

المبحث الأول الموقع الجغرافي



موقع الدولة الأيوبية

امتدّ حكم الأيوبيين على رقعة واسعة شملت بلاد مصر من حدودها مع ليبيا ، بما في ذلك الوجه البحري مع مصر ، واستولوا على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس سنة ٦٥٨هـ، كما وصل نفوذهم إلى بلاد النوبة والسودان ، وشملت أيضاً رقعة حكمهم بلاد الشام، والجزء الجنوبي الشرقي من تركيا ، وكذلك الجزيرة الفراتية الواقعة اليوم بين نهر الفرات غرباً ودجلة شرقاً مع الموصل . وكانت الجزيرة في نظرهم مهمة لأسباب سياسية واقتصادية ، إلى جانب موقعها الجغرافي بين بلاد الشام والعراق ، فنجحوا في ضمّ بعض مدن الجزيرة كالرها، ونصيبين ، وسنجر وآمد وكيفا وميافارقين^(١) ، فقد كانت الجزيرة إبان الحكم الأيوبي مركزاً لإعداد الجيوش ضدّ الصليبيين فضلاً عن كونها تُمثّل جسراً بين طرق المواصلات البحرية في جنوبي آسيا^(٢) . وامتدّ حكمهم أيضاً في الإقليم الغربي من الجزيرة العربية المحاذي للبحر الأحمر ممتداً حتى اليمن جنوباً ، كما وصل حكمهم زمنياً محدوداً إلى الجزء الجنوبي من بلاد القوقاز ، وهو بلاد أرمينية اليوم^(٣) .

قال صاحب شفاء القلوب: "وقد نُخطب له -لصلاح الدين- على المنابر من باب همدان إلى الفرات ، ومن الفرات إلى حضرموت ، ومن الغرب إلى أفريقيا ، وفتح ستين حصناً ، وفتح البلاد الفرنجية ، ولو عاش لفتح الدنيا"^(٤) .

وقال صاحب الأعلام: "دانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً ، وبرقة غرباً ، إلى بلاد الأرمن شمالاً ، وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً"^(٥) . وقد اعترف الخليفة العباسي بحكم هذه الدولة ، فأرسل من بغداد إلى صلاح الدين يُقلّده البلاد المصرية والشامية واليمينية ، وذلك في خطاب مُطوّل^(٦)

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - د/محمود ياسين التكريتي - ١٠

(٢) المصدر السابق - ١١

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - د/ أحمد شلي - ٥ / ١٧٨ ، ١٩١

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - أحمد بن ابراهيم الحنبلي ، تحقيق: ناظم رشيد - ١٨٧

(٥) الأعلام - خير الدين الزركلي - ٨ / ٢٢٠

(٦) انظر نصّ الخطاب في حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - السيوطي - ٩

المبحث الثاني

الأحوال السائدة قبيل نشأة الدولة الأيوبية

شهدت الأحوال السائدة قبيل نشأة الدولة الأيوبية فوضى عارمة ، وحروباً دامية في كثير من جوانبها .

أما مصر فقد حكمها العبيديون ، ودعوتهم باطنية إسماعيلية ، ومنهم انتشر دعاة الباطنية ، وكانوا يُنزلون القرآن الكريم على معانٍ موافقة لرأيهم ، ويصرفونه عن ظاهره^(١)، وكان آخر خلفائهم أبو محمد عبد الله العاضد بالله ، وهو الخليفة الحادي عشر من بني عبيد ، بويح بالخلافة سنة ٥٥٥هـ، وكانت مدة خلافته اثني عشرة سنة^(٢)، وكانت الخلافات قد استبدت بين الوزراء^(٣)، وتعددت الثورات ، وتدخل نور الدين الزنكي والفرنجية في شؤون مصر، وتطور التنافس على الوزارة في أواخر العهد العبيدي إلى الاستعانة بأمراء الدول المجاورة والإفرنجية ، فاستعان الوزير شاور بنور الدين محمود صاحب دمشق ليساعده على الإفرنج وإعادة نفوذه ، فأرسل إليه أسد الدين شيركوه^(٤)، عمّ صلاح الدين ، فلما دخل شيركوه مصر وانتصر على الصليبيين ، تصالح شاور مع العاضد ، وتسلم الوزارة ، وطلب من شيركوه العودة إلى بلاد الشام، وظهرت منه أمارات الغدر به ، فلما لم يستجب شيركوه لطلبه ، حالف شاور الصليبيين فحاصروا شيركوه في بلبس ، فاضطر للعودة إلى بلاد الشام . وفي الشام قام شيركوه مدة عامين بإعداد حملة قوية ، وسار إلى مصر بجيش كبير ، وتمكّن من هزيمة المصريين ، ثم هزم الصليبيين في عدة وقائع في السنوات التالية حتى تمكّن من دخول مصر والاستقرار فيها ، ثم بدأ بالتفكير في التخلص من شاور؛ لأنه أدرك أن الأمور لن تستقر إلا بذلك فقد تبين له أن شاور كان سبباً لدخول الإفرنج ، فكان يُكاتبهم بالسرّ ، فاستشار شيركوه صلاح الدين ، وكان لا يقطع أمراً دونه ، فأشار عليه بالقضاء على شاور فأمر بشنقه^(٥).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب في أخبار بني أيوب- جمال الدين بن واصل - تحقيق: جمال الدين الشّيتال- ١ / ٢٠٦

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- جمال الدين بن تغري بردي - ٥ / ٣٣٥ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور- محمد بن أحمد بن إياس - تحقيق: محمد مصطفى - ١ / ٢٣٠

(٣) الدولة الفاطمية في مصر - د/ محمد جمال الدين سرور- ١٣١

(٤) سير أعلام النبلاء-الذهبي- ٢٠ / ٥٨٧ ، التاريخ الإسلامي - محمود شاكر- ٦ / ٣٠٣

(٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٣٢ ، وانظر: الكامل في التاريخ - ابن الأثير- ١١ / ٢٩٨ ، ٣٣٦ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٥ / ٣٤٨ ، التاريخ الإسلامي- ٣٠٤-٣٠٦

ولما علم العبيديون بقدوم جيش شيركوه تحالفوا مع الفرنجة لصدّه ، وانتصر شيركوه ، وبدا أن مصر ضعيفة مع هذه الانقسامات^(١) ، إلى أن تسلّمها صلاح الدين كما سيتبيّن لنا.

وكان شيركوه يعتقد أنه لن يستطيع ملك مصر ما بقي الوزير العبيديّ شاوور فيها ، ولكنه استطاع القضاء عليه سنة ٥٦٤ هـ ، وأصبحت البلاد ضعيفة ، واستمر الاختلاف والتنافس بين الوزراء إلى أن توطّدت أقدام صلاح الدين في مصر ، واستولى على القصر ، وبدأ بالدعاء للخليفة العباسي^(٢) المستضيء بالله . وبعد وفاة العاضد وتولّى صلاح الدين الخلافة بدأ يسعى سعياً حثيثاً إلى إضعاف المذهب الشيعيّ، وإعلان مذهب السنة^(٣).

وكان العاضد آخر خليفة عُبيديّ بعد أن حكمت الدولة العبيدية مصر قرنين وثمانين سنين^(٤). ثم قُتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ ، وانقسمت أملاكه بين أبنائه ، فتولّى نور الدين محمود حلب ، وسار على سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، وتولّى سيف الدين غازي الموصل وبلاد الجزيرة ، ثم عمل محمود على توحيد البلاد الشامية ليستطيع محاربة الصليبيين.

وقد سعت الدولة العبيدية في جمع الضرائب من الحجّاج الذين يأتون من المغرب ، ومن عجز عن الأداء حُبس ، وربما فاته الوقوف بعرفة^(٥)، وقد أثرى القائمون على أمور الدولة العبيدية إثراءً كبيراً ، وقد ذكر ابن خلكان أنّ ثروة هائلة وُجدت عند الوزير العبيدي بدر الجمالي بعد وفاته^(٦)، واقتفى الجند آثار الأمراء والوزراء ، فكانوا إذا ما نشبت الفتن بين الأمراء والسلاطين انتهزوا الفرصة ، ونهبوا المدن والمحلات والبيوت ، وكذلك تفنّن التجار في رفع الأسعار، ولاسيما خلال نُدرّة الأوقات^(٧).

(١) انظر: الدولة الفاطمية في مصر - ١٣١

(٢) الكامل في التاريخ - ١١ / ١٤٩

(٣) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - المقرئزي - ١ / ٣٥٨ ، وانظر: الحروب الصليبية - رفيق التميمي - ١٢٣

(٤) الكامل في التاريخ - ١١ / ٣٧٠

(٥) البداية والنهاية - عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير - تحقيق: د/ عبدالله التركي - ١٢ / ٢٩٩ - هكذا ظهر جيل

صلاح الدين وهكذا عادت القدس - د/ ماجد عرسان الكيلاني - ٧٥ - ٧٦

(٦) وفيات الأعيان - أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان - تحقيق: د/ إحسان عباس - ٢ / ١٦٠ - ١٦٢

(٧) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٧٦

وتمسك العبيديون باعتقادهم الباطلة ، فعملوا على لعن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ؛ لأنهم كانوا في نظرهم أعداء لعلي ، وكان الخطباء يلعنون الصحابة على منابر مصر كافة^(١) ، وألزم جميع الموظفين اعتناق المذهب العبيدي ، وحثهم على القضاء أن يكون حكمه وفق المذهب العبيدي ، وكانت العقوبة الصارمة تنزل بمن تمدح بذكر الخلفاء السنيين ، وأبطل الخليفة الفاطمي العزيز صلاة التراويح ، وعندما أنكر عليهم أبو القاسم الواسطي سجنوه ، وقطعوا لسانه وضربوه خمسمئة سوط ثم صلبوه . وفي عهد هذا الخليفة ضرب رجل ، وطيف به لأنه وجدوا عنده كتاب "الموطأ" ، وأمر بنقش سب الصحابة على الجدران والمقابر والحوانيت ، ولون ذلك بالذهب ، وكان لهذه السياسة أثر في تحويل كثير من السنيين إلى المذهب العبيدي ، وقُبض في القاهرة على رجال يُصلون الضحى ، وكان العبيديون لا يعترفون بها^(٢) ، وعزم الخليفة الحاكم على إرسال من ينبش قبر أبي بكر وعمر بالمدينة النبوية ، وكان آخر الخلفاء العبيديين العاضد من غلاتهم ، وكان له ولع بلعن الصحابة وقتل أهل السنة^(٣) .

أما الموصل والجزيرة والشام فكانت تحت حكم الدولة الزنكية ، وقد أظهر عماد الدين شجاعة نادرة أمام الزحف الصليبي ، وبذلوا جهوداً كبيرة في قتالهم^(٤) ، واستطاع أن يكسب رضا سلاطين السلاجقة ، وأن يُسيطر على مساحة واسعة يعمها الأمن والأمان^(٥) ، وكان هذه الدولة منارة خير تشع بالعدل والتمسك بمذهب السنة والجماعة ، فكان نور الدين بن عماد الدين مثلاً وقدوة للحاكم المسلم ، وقد فصل صاحب كتاب "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"^(٦) أخبار مملكة نور الدين ، وتحدث عن جوانب تمسكه بالسنة والعدل والعناية بالرعية بالرعية.

(١) الفاطميون في مصر - د/ حسن إبراهيم حسن - ٢١٨

(٢) المصدر السابق - ٢٢٠

(٣) المصدر السابق - ٢٢٤

(٤) الحروب الصليبية - ١٠٥

(٥) تاريخ الإسلام السياسي - ٧٠ / ٤

(٦) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١ / ١٦٧ - ٤٤٠ ، ٣١١/٢ - ٣١٦

أما بلاد اليمن فقد أرسل العبيديون دعواتهم إليها ليقوموا بالدعوة لإمامهم أبي عبد الله المهدي ، وكانت مقسّمة إلى دويلات تحكمها أسر ، ولم تشهد الاستقرار قبيل زمن الأيوبيين ، ولقد كان للدعوة العبيدية نفوذ في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي^(١) ، والذي كتب إلى الخليفة العبيديّ مُعلنًا ولاءه له ، ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان علي الصليحي قد ملك معظم اليمن^(٢).

وعندما توفي الصليحي هذا تسلّم ابنه المكرم ، وتابع الدعوة العبيدية في اليمن، بل وأوصلها إلى الحجاز ، وأعاد الخطبة للخليفة العبيدي على منابرهما ، فأشاد المستنصر بفضله ، وخلق عليه لقب عمدة الخلافة ، وتابعت زوجته أروى الحرة الصليحية من بعده سياسة الولاء للعبيديين ، وكانت ترسل دعاة ينشرون الدعوة في البلاد^(٣).

أما الحجاز فكان تابعاً للخلافة العبيدية ، وذلك لأن الحجاز عادة كان مرتبطاً بمصر واليمن اللتين كان الولاء فيهما للعبيديين. وقد تنافس العباسيون والعبيديون على السيادة في بلاد الحجاز إلى أن رجحت الكفة للعبيديين سنة ٥٥١ هـ ، وأصبح أمراء مكة والمدينة يحرصون على كسب رضاهم^(٤).

وقد تابع الصليبيون هجماتهم على بلاد المسلمين قبيل نشأة الأيوبية ، ولكنهم كانوا يواجهون مقاومة شرسة من طرف نور الدين الزنكي ، الذي قوي مركزه في الشام باستيلائه على دمشق أولاً سنة ٥٤٩ هـ ، ثم حلب سنة ٥٥٤ هـ ، واضطر الصليبيون إلى التقهقر ، فاستولى نور الدين على حصونهم ، وهدّد بيت المقدس ، ثم انتقل مسرح القتال إلى مصر بسبب ضعف الدولة العبيدية.

(١) انظر: التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية - ٧ / ٤٥٣

(٢) تاريخ الإسلام السياسي - د/ حسن إبراهيم حسن - ٤ / ٢٤١

(٣) المصدر السابق - ٤ / ٢٤٢

(٤) بلاد الحجاز في العصر الأيوبي - عائشة عبد الله باقازي - ٢٨

المبحث الثالث

نشأة الدولة الأيوبية والأحوال السائدة فيها

اختلف المؤرخون في أصل الأسرة الأيوبية^(١)، فقيل: إنهم من الأكراد الروادية، وقيل: إنهم عرب نزلوا عند الأكراد وتزوجوا منهم^(٢).

وترتبط الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ) بمؤسسها الأول صلاح الدين الأيوبي، الذي وُلد سنة ٥٣٢هـ بقلعة تكريت^(٣)، وهي بلد بين بغداد والموصل، ثم خرجت الأسرة الأيوبية من تكريت ليلة ولادة صلاح الدين، ولحقت بعماد الدين، فأحسن إلى هذه الأسرة، وأولاًها رعاية كاملة، وأقطعها أراضي شاسعة. ثم انتقل نجم الدين والد صلاح الدين إلى الموصل، فبعلبك، وأصبح والياً عليها^(٤)، فقد كان من الرجال المعروفين بالعقل والخبرة^(٥)، وكان كثير البذل، حسن النية والطوية^(٦). والطوية^(٦). وفي بعلبك تربى صلاح الدين في خدمة والده وتحت حجره، وارتضع ثدي محاسن الأخلاق، حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة^(٧).

و لما بلغ عمر صلاح الدين (١٤) عاماً في سنة ٥٤٦هـ غادر بلاد بعلبك إلى حلب، ودخل في خدمة عمه أسد الدين شيركوه؛ لاستكمال تربية أبناء الأمراء من أمثاله من الناحية العسكرية الميدانية، وقدمه بين يدي نور الدين، فقبله، وأقطعه إقطاعاً حسناً، وكانت هذه هي بداية خبرته العسكرية، واستقلاله المالي^(٨).

وقد وثق نور الدين بصلاح الدين، فألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر^(٩).

(١) انظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١ / ٣

(٢) انظر: الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد - تحقيق: جمال الدين الشيال - ٦

(٤) انظر: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٤، وانظر: الأعلام - ٨ / ٢٢٠،

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٨

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٥٨٩

(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١ / ٢٣٠

(٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٦

(٨) صلاح الدين - القائد وعصره - د/ مصطفى الحيارى - ٢٥، وانظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية -

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة - تحقيق: ابراهيم الزبيق - ٨٣/١ - ٤٨

(٩) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٤

وتعاقبت الأحداث لصالح والد صلاح الدين نجم الدين وأخيه أسد الدين شيركوه ، فقد كُلفا من طرف نور الدين زنكي بمهام عسكرية في دمشق ؛ وذلك لأن نور الدين كان يَعُدُّهما من أمراء الدولة الزنكية ، وقادتها العسكريين.

وكان الحكم في مصر آنذاك للوزراء ، وحدث أن وصل وزير الخليفة العبيدي العاضد ، واسمه شاور ، إلى دمشق وطلب النصرة من نور الدين على منافسه ضرغام ، على أن يكون شاور تحت أمر نور الدين ونهيه^(١). فاستجاب نور الدين ، وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة أسد الدين شيركوه ، الذي الذي صار له نفوذ كبير ، وإلى جانبه ابن أخيه صلاح الدين الذي لمع صيته^(٢) ، وصار يباشر الأمور الأمور بنفسه، ثم قتل الوزير العبيدي شاور^(٣) ، وتولّى أسد الدين شيركوه الوزارة ، إلا أن المنية عاجلته عاجلته وتوفي بعد ثلاثة أشهر من تولّيه الوزارة ، فتقلّدها بجدارة صلاح الدين بأمرٍ من العاضد ، فقد كان قد وقع من العاضد بموقع ، وأعجبه عقله ، وسداد رأيه ، وشجاعته ، وإقدامه على شاور في موكبه ، وأنه قتله حين جاءه أمره ، ولم يترّث ولا توقّف ، فسارع إلى تقليده الوزارة ، ولقّبهُ بالملك الناصر ، وذلك في سنة أربع وستين وخمسمئة^(٤).

وتمّ الأيام ، وصلاح الدين يزداد نفوذه في الديار المصرية ، وصار يتقرّب إلى الناس ، ثم إن نور الدين زنكي كتب إليه يأمره بقطع خطبة العاضد^(٥) ، وابتداء الخطبة للخليفة العباسي. وكان صلاح الدين قد اتّبع سياسة الحذر والمداراة ، فبدأ بالدعاء للخليفين العبيدي والعباسي ، إلى أن اكتفى بالدعاء للخليفة العباسي ، وساعده على ذلك مرض الخليفة العاضد^(٦) ، وكان مبدأ انقطاع الخطبة العباسية بمصر سنة ٣٥٨هـ ، وعادت إليه سنة ٥٦٧هـ ، فكانت مدّة الانقطاع (٢٠٩ سنوات)^(٧).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١ / ١٣٨

(٢) انظر: تاريخ الإسلام السياسي - ٤ / ١٠٥

(٣) الكامل في التاريخ - ١١ / ٣٣٥ ، وانظر: الأعلام - ٨ / ٢٢٠ ، وانظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٥ / ٣٣٨

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٦ ، الأعلام - ٨ / ٢٢٠ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١١٥

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١ / ٢٠٠

(٦) انظر: الكامل في التاريخ - ١١ / ٣٦٨

(٧) المصدر السابق - ١١ / ٣٧١

وأحسن صلاح الدين بنظرات نور الدين المفعمة بالرؤية والخوف من اتّساع نفوذه ، ونسيان فضل البيت الزنكي عليه وعلى أبيه وعمه ، ولكن صلاح الدين ما يزال مقرّراً بهذا الفضل^(١)، ولم يشأ أن يدخل مع نور الدين في أي نزاع عسكري ، ثم قرّر إرسال حملة عسكرية إلى اليمن لتكون له عدّة وملاذاً وقوة^(٢).

ثم توفي نور الدين ، فتملّك بعده صلاح الدين ، وصفت الأمور لصالحه ، واتّسعت بلاده^(٣)، وصار يخطّط لجمع شمل الأمة ، وإصلاح البلاد ، ومحاربة الصليبيين الذين حقّق عليهم لاحقاً انتصارات مشهورة.

ولا تزال شمس العبيديين تنحو نحو الغروب ، فالعاضد الخليفة يثنّ في مرض الموت ، وأصبح للقائد الأيوبي اليد الطولى ، حتى إذا ما توفي العاضد ، وصار صلاح الدين على رأس الوزارة ، استحوذ على القصر بما فيه ، ووجد فيه أشياء لا توصف من النفائس والتحف^(٤)، ثم بدأ يخطّط للقضاء البات على البيت العبيديّ ، ليحلّ مذهب السنّة مكانه ، ونشط في إعمار المدارس السنّيّة ، وتعيين القضاة من الشافعية ، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي بعد أن قُطعت من مصر أكثر من مئتي سنة بسبب استيلاء العبيديين عليه^(٥). واستطاع القضاء على المؤامرات التي دبرها ضده فلول العبيديين وبقاياهم^(٦)، ومن هذه الثورات تمرّد الشاعر عمارة اليمني ، والذي استنجد بالصليبيين ، وحركة العبيد السودانيّين^(٧).

ثم استدعى أمراء دمشق صلاح الدين بعد أن فشلت الخلافات بينهم ، وعرضوا عليه تسلّمها، فاستولى عليها سنة ٥٧٠هـ^(٨)، فصار صاحب الأمر في دمشق ثم حمص ثم حماة ، واستعصت عليه في المرحلة الأولى حلب ، فعاد إلى مصر ، وتابع تنظيم أمورها وفق السياسة

(١) الكامل في التاريخ - ١١ / ٣٧١

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١ / ٢١٨

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٧٩

(٤) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد - بدر الدين العيني ، تحقيق: فهيم شلتوت - ١٩٧

(٥) العبر في خبر من عبر - الذهبي - تحقيق: محمد السعيد زغلول - ٣ / ٤٩

(٦) انظر: الكامل في التاريخ - ١١ / ٣٦٨

(٧) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - ٥ / ١٧٤

(٨) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٣٤٢ ، وانظر: الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٨١

الجديدة، كما شرع في تحصينها ضدّ الصليبيين ومؤامرات العبيديين الذين كانوا يُدبّرون له المكائد لإعادتها إلى سابق عهدها. إلا أنه انقطع عن مصر بعد رحيله عنها سنة ٥٧٨ هـ ، إذ تتابعت أمامه حوادث الغارات ، وصدّ الاعتداءات الفرنجية في الديار الشامية ، فشغلته بقية حياته^(١). وبعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بسط صلاح الدين سلطانه على حلب^(٢)، ثم اتّجه نحو الموصل سنة ٥٧٩ هـ ، ودخل في طاعته حكام الجزيرة ، وبذلك ملك الأراضي الممتدة بين النيل والفرات^(٣).

ثم كان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي يوم حطين التاريخي ، وفيه انهزم الصليبيون ، وكادت هذه المعركة تقضي على النفوذ الصليبي بسوريا ، ومهدت لفتح بيت المقدس ، وسائر البلاد السورية التي كانت خاضعة لهم ، وكانت سنة ٥٨٣ هـ^(٤)، وظلّ صلاح الدين الدين يطارد حصون الصليبيين حتى تسلّم بيت المقدس في تلك السنة . ومضى يُرمّم ما دمّرتة الحروب من مبانيها ، وأعاد تشييد المساجد والمدارس ، وتثبيت مذهب أهل السنة^(٥).

ثم سيّر عسكرياً لابن أخيه تقيّ الدين بن عمر ، فأخذوا أوائل المغرب ، وخطبوا بها لابن العباس^(٦).

واستولى الأيوبيون سنة ٦٠٤ هـ على مدينة خِلاط عاصمة أرمينية ، وأقام الملك العادل ابنه الأوحّد أميراً عليها ، ثم خلفه أخوه الأشرف . ولما مات العادل استقلّ الأشرف بحكم هذه البلاد ، ووسّع رقعة مُلكه حتى بلغت بلاد الأكراد^(٧).

وفي سنة ٦٤٢ هـ سقطت هذه المملكة الإسلامية ، وكان يحكمها المظفر غازي ، الذي يُعدّ آخر ملوك الأيوبيين ، باستيلاء هولاكو عليها.

(١) الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٥٦ ،

وانظر: الكامل في التاريخ - ١١ / ٤٩٦ ، والأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ١٠٢

(٣) انظر: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة - أحمد سعيد سليمان - ١٤٠/١ ، وانظر: الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٩

(٤) الحروب الصليبية - ١٦٢

(٥) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٤٤٠ ، والكامل في التاريخ - ١١ / ٥٣٤

(٦) الكامل في التاريخ - ١٢ / ١٢٦

(٧) المصدر السابق - ١٢ / ١٢٦

أما اليمن فقد دخلت تحت الحكم الأيوبي ، وكان فيها منازعات ، وتقلُّبات ، كما كانت أقاليم موزعة بين الأمراء المختلفين ، الذين كتبوا إلى صلاح الدين يستنجدون به ، فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ . ويُعدّ الفتح الأيوبي لليمن أعظم حدث في تاريخ العرب الوسيط^(١) ، فقد تمّ توحيد اليمن ومصر وسوريا وبلاد الجزيرة تحت راية الأيوبيين ، وفتح توران شاه زبيد وصنعاء وعدن ، وتوالى ولاية الأيوبيين على بلاد اليمن نصف قرن (٥٦٩-٦٢٥ هـ) ، بدءاً من الملك توران شاة وانتهاء بالملك المسعود يوسف بن الكامل^(٢) ، إلى أن زال مُلك الأيوبيين، وخلف بعدهم بنو رسول سنة ٦٢٦ هـ^(٣) ، وقد حكم الأيوبيون اليمن من سنة ٥٦٩ هـ إلى سنة ٦٢٦ هـ^(٤) .

أما بلاد الحجاز التي كان ولاء حكامها للخلافة العبيدية ، فقد بدأت الأمور تتغيّر باستلام الأيوبيين مقاليد الحكم ، فقد جاء رسل صلاح الدين إلى الحجاز سنة ٥٦٧ هـ ، وعاد الدعاء للخليفة العباسي ، وتطلّع الأيوبيون لحكم الحجاز^(٥) . وكانت أسرة بني هاشم حاكمة لمكة والمدينة ، ولم يتدنّخ الأيوبيون في السياسة الداخلية لحكّام الحرمين ، فكان حكمهم للحجاز على نحو غير مباشر ، وكلّما أحسّوا بتمرد حاكم أرسلوا إليه حملةً لتأديبه^(٦) ، وقد حذف الأيوبيون الجمل الزائدة من الأذان الشرعي وهي : (حيّ على خير العمل)^(٧) .

وقد بقي السلطان الأيوبي على الحجاز حتى سنة ٦٥١ هـ ، وذلك عندما جعل الملك المسعود مكة لنائبه ابن رسول اليمني ، وكان الأيوبيون في الحجاز يتبعون سياسة متوازنة بين حكام المدينة ومكة ، ولا يُريدون أن يغلب أحدهما الآخر^(٨) .

(١) تاريخ الإسلام السياسي - ٤ / ٢١٤

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٩٢

(٣) تاريخ الدول الإسلامية - ١ / ١٤٠

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨١

(٥) بلاد الحجاز في العصر الأيوبي - ٣٧

(٦) المصدر السابق - ٤٠

(٧) بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية - د/ سليمان عبد الغني مالكي - ١٥

(٨) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي - د/ جميل حرب - ٤٠

ثم توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ^(١)، وكان قد حكم مصر (٢٤) سنة ، والشام (١٩) سنة^(٢)، ولقد كانت وفاته خسارة عظيمة لمجد مؤنثل ، وتوفيق كبيرٍ حظي به التاريخ الإسلامي في هذه الحقبة^(٣).

وبعد وفاته قُسمت مملكته إلى:

- ١ - مصر للملك العزيز
- ٢ - فلسطين مع سوريا الوسطى للملك الأفضل
- ٣ - سوريا الشمالية للملك الظاهر
- ٤ - اليمن لتوران شاه أخي صلاح الدين^(٤).

ثم بدأ يدبّ الشقاق بين أولاده وأحفاده ، وآلت هذه الدولة المترامية الأطراف إلى الانحسار، وقد بقيت سلطة الأيوبيين في مصر حتى سنة ٦٤٨هـ ، ثم آل الأمر إلى المماليك ، كما أن سلطانهم في الشام تحوّل إلى المماليك سنة ٦٥٨هـ ، وكان آخر الأيوبيين في الحجاز سنة ٦٢٥هـ^(٥).

ويُقَسَّم المؤرّخون^(٦) عهد صلاح الدين إلى ثلاثة أطوار:

- ١- طور الدفاع: وهو الطور الذي كان فيه صلاح الدين متربّعاً على أرض مصر ، وقد واجه الصليبيين والعبيديين ، وكان حريصاً في هذا الطور على إرضاء نور الدين ، فلم يُظْهِر التفردَ بالحكم، وقَطَعَ العلاقة معه ، ولكنه سعى إلى تقوية سلطانه السياسي والحربي.
- ٢- طور الإعداد والتأهب: وهذا بعد وفاة نور الدين ، إذ ظهر صلاح الدين على أنه أكبر حاكم إسلامي ، ونشر نفوذه في الشام والجزيرة ، وبدأ يُعِدُّ العدة ضدّ الصليبيين.
- ٣- طور الهجوم على الصليبيين في فلسطين.

(١) انظر: وفيات الأعيان - ٢ / ٦٦

(٢) الحروب الصليبية - ٢٠٥

(٣) انظر في أحوال الدولة بعد وفاته : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٠٦

(٤) الحروب الصليبية - ٢١٢

(٥) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - ٥ / ١٨٤

(٦) تاريخ الإسلام السياسي - ٤ / ١٠٧

وبعد صلاح الدين استؤنفت المعارك بين المسلمين والصليبيين في عهد الملك العادل وابنه الكامل الذي حقق عليهم انتصاراتٍ ملحوظةٍ إلى أن عقد الهدنة معهم.

وقد حكم أبناء صلاح الدين وأحفاده المملكة الأيوبية من بعده ، فحكم الأفضل دمشق ، وحكم العزيز القاهرة ، وحكم الظاهر حلب ، وكان آخر ملوكهم على مصر هو الأشرف موسى ، وهو من أحفاد الكامل ، وكان صبيّاً ، فخلعه آيبك المملوكي سنة ٦٥٠ هـ ، وبخلعه انقرض الأيوبيون في مصر^(١) ، لتبرز بعدهم دولة المماليك البحرية .

ولم يُعمّر من شعب الأيوبيين إلا شعبتان: أيوبية حماة ، وقد حكموا حتى سنة ٧٤٢ هـ ، وأيوبية حصن كيفا في أرض الجزيرة حتى سنة ٩٣٠ هـ^(٢) .

(١) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة - ١ / ١٤١ ، وانظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا-أبو العباس أحمد بن

علي القلقشندي - تحقيق: محمد حسين شمس الدين - ٣ / ٤٩٨

(٢) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة - ١ / ١٤١

الفصل الأول

سمات الدعوة الإسلامية ومراحلها

في عهد الدولة الأيوبية

المبحث الأول سمات الدعوة

الدعوة الإسلامية رسالة ربانية ، جاءت لهداية البشرية جمعاء ، وإخراجها من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . وقد اتّصفت هذه الدعوة بعدد من الصفات ، من مثل: ربانية المصدر والعالمية والشمولية والوضوح والتوازن ، إلى غيرها من صفات الدعوة ^(١). كما أن هذه الدعوة لها سمات خاصة اتّسمت بها في كلّ عصر من العصور الإسلامية .

ويحسن بي في هذا المقام أن أبيّن الفرق بين السمة والصفة ، فالسمة هي: الأثر، وسمتُ الشيء وسمّاً إذا أثرت فيه بسمةٍ ، والسمة أيضاً: العلامة ^(٢).

والمتوسّم: المتحلّي بالسمة ، ويقال: فلان موسومٌ بالخير ، وتوسّمتُ فيه خيراً أي: رأيت فيه أثراً منه ، ومأخذه من الوسم أي: عرّفْتُ فيه علامته ^(٣).

أما الصفة فهي: ذكُر الشيء بحليته ونعته ، والصفة هي: الحالة التي عليها الشيء من نعته وحليته ^(٤).

ويتّضح مما سبق أن الفرق بين السمة والصفة واضح ، فصفت الدعوة الإسلامية هي حالتها التي عليها هذه الدعوة ، مثل كونها خاتمة الدعوات السماوية ، وكونها إلى الناس كافة . أما السمات فهي العلامات التي عُرفت بها الدعوة في تلك الحقبة من الزمن ، وما نجم عنها من آثار تميّزت بها على نحو خاص.

وقد اتسمت الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية بعدد من السمات ، تكوّنت انعكاساً لطبيعة العصر والظروف المحيطة بالدعوة في ذلك الوقت.

ومن أهم سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية:

-وجود نموذج الداعية الأمثل

-الفتوحات

-الجهاد ضد الصليبيين

(١) انظر تفصيلاً لهذه الصفات في كتاب "الخصائص العامة للإسلام" للدكتور يوسف القرضاوي ، وكتاب "خصائص الدعوة الإسلامية" لمحمد أمين حسين ، وكتاب "خصائص الشريعة الإسلامية" لعمر سليمان الأشقر ، وكتاب "أصول الدعوة" للدكتور عبد الكريم زيدان .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - ٥٢٤

(٣) لسان العرب - مادة وسم - ٦٣٦ / ١٢

(٤) مفردات ألفاظ القرآن - ٢٥٢

-النشاط العلمي

-دعوة غير المسلمين

المطلب الأول: وجود نموذج الداعية الأمثل

الدعوة الإسلامية مهمة سامية كلف الله بها الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم ؛ لذا فإن على القائمين بها من الدعاة في كل زمان ومكان أن يسعوا ليكونوا نموذجاً أمثلاً في كل جوانب حياتهم: عبادتهم ، وعلمهم ، ومسؤولياتهم، وجهادهم ، وتعاملاتهم ، إلى غير ذلك .

وقد وُجد في التاريخ عددٌ من الشخصيات الإسلامية الرائدة التي استطاعت بفضل الله تعالى التميّز في جوانب حياتها كافة ، فكانوا نماذج مثلى للدعاة من بعدهم يقتفون أثرهم ، ويهتدون بهديهم ، ويسيروا على خُطاهم في أشرف مهمة ، وأعظم وظيفة .

ومن سمات الدعوة البارزة في هذا العصر وجود نموذج أمثل للداعية الحقّ ، ففي عهد الدولة الأيوبية رزق الله المسلمين هذا النموذج الفريد الذي لم يتكرّر في الأجيال التي تلتها ، وقد تمثّل في شخصية مؤسس الدولة صلاح الدين الأيوبي ، إذ توافرت في شخصيته -رحمه الله- ما يحتاج إليه الداعية من صفات أساسية وصفات لازمة .

إن ما يتصف به الداعية من صفات حميدة يعد من أبرز العوامل الهامة المؤثرة على نجاح الدعوة ، وذلك لأن الصفات التي يتصف بها الدعاة تعكس للمدعويين ماهية تعاليم الإسلام والتطبيق العملي لها ، وإنّ حرص الداعية على الاتّصاف بهذه الصفات له أثر كبير في تقدم الدعوة الإسلامية وانتشارها ، والتأثير بالمدعويين.

وسأحاول إلقاء الضوء على ما تميّز به هذا السلطان من صفات أهّلت له هذه المكانة المرموقة في التاريخ الإسلامي ، راجية أن أوفّيه حقه في الوصف والتحليل.

أولاً - صفات الداعية الأساسية^(١):

١ - قوة الصلة بالله :

الداعية الحق قويّ الصلة بالله تعالى ، مجتهد في العبادة ، مُكثر من الطاعات ؛ لتكون دعوته نابعة عن قوله وفعله ، وليفوز برضا الله وسعادة الدارين .
ولقد كان صلاح الدين مثلاً يُحتذى به في هذا المجال . ومن الشواهد على ذلك: ما روي أنه كان شديد المواظبة على الصلاة جماعة ، حتى إنّه ذكّر يوماً أنّ له سنين ما صلّى إلا في جماعة . وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ، ويُكلّف نفسه القيام ، ويُصلّي جماعة . وكان يُواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يُصلّيها إذا استيقظ في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى^(٢) .

٢ - الإخلاص:

الإخلاص هو تخلص القلب من شائبة ما يُكدر توجّهه لله ، فلا يطلب المرء شاهداً للعمل غير الله^(٣) .

والداعية المخلص لله تعالى لا يريد بدعوته إلا وجه الله تعالى ، فلا يَأْبَهُ ولا يلتفت لأي غرض آخر دنيوي ، لذا فهو متحمّس في أداء مهمّته هذه ، باذل في سبيلها كل غالٍ ورخيصٍ من مال وجهد ووقت وفكر وإمكانات ، مستجيباً لأمر الله تعالى: (وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ)^(٤) .

وبالاطلاع على رسائل صلاح الدين يتّضح لنا جليّاً حرصه رحمه الله على إخلاص النية لله تعالى ، وسموّ غايته في الجهاد ، وهاكم إحدى رسائله للخليفة العباسي في بغداد والتي جاء فيها: (إنّ مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ، ومغنمه من الدنيا إذا مُنحها ثلاثة مقاصد: الجهاد في سبيل الله ،

(١) أفدث من كتاب الدعوة للدكتور حمد العمار "الدعوة" في تفاصيل الصفات الأساسية والصفات اللازمة.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٧-٨ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٧

(٣) التعريفات - الجرجاني - تحقيق: إبراهيم الأبياري - ٢٨

(٤) آية ٥ - سورة البينة

والكفّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة لخليفة الله ، والله العالم أنّه لا يُقاتل لعيشٍ أَلين من عيش ، ولا لغضب يملأ العنان من نَزَقٍ وطيش ، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسّم أنّها تلزم ، ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يُسَطَّر في الصحيفة ويرقّم^(١)

٣ - العلم:

الداعية الحصيف دائم الحرص على تثقيف نفسه ، والرقي بها في مجال العلم ؛ وذلك ليدعو إلى الله على علم وبصيرة ودراية ، استجابةً لأمر الله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)^(٢)، وطلباً للخيرية التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْ فِي الدِّينِ)^(٣).

وقد اهتم صلاح الدين بطلب العلم اهتماماً واضحاً مع كثرة أشغاله ومسؤولياته ، فقد روي أنه شرع في قراءة "الموطأ" ثاني يوم دخوله إلى الاسكندرية^(٤)، ودرس على الشيخ قطب الدين النيسابوري الذي كتب عقيدة الإسلام له ولأولاده^(٥). وكان -رحمه الله- شديد الرغبة في سماع الحديث ، ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد^(٦)، فإذا سمع عن شيخ رواية عالية استحضره ، وسمع عليه ، وأسمع أولاده ومماليكه ، وإن لم يحضر الشيخ تردّد هو إليه ، وقد تردّد إلى الحافظ الأصفهاني بالاسكندرية ، وروى عنه أحاديث كثيرة^(٧). وقد سمع من القاضي بهاء الدين بن شداد واستحضره وأكرمه وسأله عن جزء

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٧٩

(٢) جزء من آية ٩ - سورة الزمر

(٣) رواه البخاري في كتاب الكسوف ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، ٣٩/١ ، برقم ٧١

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - تقي الدين أحمد بن علي المقرئ - تحقيق: محمد مصطفى زيادة - ١ / ٧٦

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٧ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٧٨

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٧

(٧) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٢ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨-٩

حديث ليسمع منه ، فأخرج له جزءاً فيه أذكار من البخاري، فقرأه عليه بنفسه ، ثم جمع كتاباً مجلداً في فضائل الجهاد وأحكامه وآدابه وقدمه له ولازمه^(١).

وبالجملة فإن كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" للقاضي ابن شداد كله في الحديث عن مآثره وفضائله ، وهو كتاب موثوق مهم في هذا المجال ؛ لأن مؤلفه كان مُعاصراً لصلاح الدين ، إذ يقول: "ومن تاريخ صلاح الدين ما أُسطّر إلا ما شاهدته ، أو أخبرني به من أثق به خبراً يُقارب العيان"^(٢).

٤ - القدوة الحسنة:

القدوة هي: طلب موافقة الغير في فعله^(٣). ولقد دعا الإسلام أتباعه إلى الاقتداء بالأنبياء والصالحين ، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ أَقْتَدِهٖ)^(٤). وعلى هذا ينبغي للداعية ألا يخالف فعله قوله ، فيتعدى ضرره إلى المجتمع ، فيكون قدوة سيئة ، فيُفسد بدل أن يُصلح.

ولقد اقتدى أصحاب صلاح الدين به في كثيرٍ من المجالات ، فكان لهم خير قدوة، يوجههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة . وشهد معاصرو صلاح الدين بذلك ، وأبرز مثال على هذا ما كتبه الموفق عبد اللطيف - أحد معاصري صلاح الدين - في وصف تطبيق صلاح الدين لأسلوب القدوة الحسنة فقال: "رأيت صلاح الدين على القدس ، فرأيته ملكاً عظيماً، يملأ القلوب روعةً ، والعيون محبة ، سهلاً ومحبباً ، وأصحابه يتشبهون به ، ويتسابقون إلى المعروف ، وكان رحمه الله مهتماً في التفقه في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، ولقد كان يعتني ببناء سور القدس وحفر خندقه ، ويتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء"^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٣٨٥ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣ - ٤ ، ٨٦ ، كتاب الروضتين في أخبار

الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٩

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨٧

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية - محمد بن علي الشوكاني - ٢ / ١٣٧

(٤) جزء من آية ٩٠ - سورة الأنعام

(٥) كتاب الاعتبار - أسامة بن منقذ - تحقيق: قاسم السامرائي - ١٥١

٥ - الرفق:

الرفق صفة لازمة للدعاة ، امتثالاً لأمر الله تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)^(١)، وتطبيقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه)^(٢) ، وحديث: (إن الله يحب الرفق في الأمر كله)^(٣)، واقتداءً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والدعاة الصالحين من السلف الصالح.

ولقد كان صلاح الدين رقيقاً لئناً حريصاً على التعامل الحسن مع أفراد المجتمع كافة . ومن الشواهد على ذلك ما رواه ابن شداد: (فما أحضِرَ بين يديه يتيم إلا وترحّم عليه ، وجبَرَ قلبه ، وأعطاه ، وجبَرَ مصابه ، وإن كان له من أهله كبيرٌ يُعتمد عليه سلّمه إياه ، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته ، وسلّمه إلى من يعتني بتربيته ويكفله ، وكان لا يرى شيخاً إلا ويرقّ له ويعطيه، ويُحسن إليه)^(٤).

وكان رحمه الله يحترم كلَّ مَنْ خدمه ، ويعاملهم معاملة لئنة ، فإذا وقع من أحدهم ما يُسيئه كتّمه ولم يُظهره)^(٥).

أما جنده فكان يتعهدهم بالعبادة ، ويسمح للمحارب أن يُحارب ساعات ثم يستريح ، أو يذهب إلى ذويه كما هو الحال في أرقى الجيوش الحديثة^(٦).

(١) جزء آية ٨٣ - سورة البقرة

(٢) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب ، باب: فضل الرفق ، ١٢٥/١٦ ، برقم ٦٥٥٤

(٣) رواه البخاري في كتاب الأذان ، باب الرفق في الأمر كله ، ٢٢٤٢/٥ ، برقم ٥٦٧٨

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣٤

(٥) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - د/ محمد رجب البيومي - ٢٧٢

(٦) الحروب الصليبية - ٢٠٣

٦ - الصبر:

الصبر هو: ترك الشكوى لغير الله من ألم البلوى^(١).

ولقد أمر الله عباده بالصبر وحثهم عليه مبشراً أنه جلّ وعزّ مع الصابرين ، قال تعالى: (يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(٢) ، وبين الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة الصبر ومكانته فقال: (ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر)^(٣).

والصبر صفة ملازمة للدعاة إلى الله تعالى ، وهي الزاد المعين لهم ، فالدعوة إلى الله طريقها صعبة وعرة مليئة بالأشواك والمصاعب . وإذا كان الصبر ضرورياً لكل مسلم فهو بالنسبة للداعية أشدّ ضرورة ؛ وذلك لأن الداعية يعمل في ميدانين: ميدان نفسه يجاهدها ويحملها على الطاعة ، ويمنعها من المعصية ، وميدان الدعوة الفسيح ومخاطبة الناس ، ومخالطتهم ، وتحمّل أذاهم^(٤).

ولقد ضرب لنا صلاح الدين أروع الأمثلة في الصبر والتحمّل في سبيل الدعوة، من ذلك: لما فتح صلاح الدين حلب أخذ يحتفل مع الناس بفتحها ، وبينما هو على لذته بالدعوة ، والأخذ والعطاء والإنعام إذ حضر إليه من يُعرّفه وفاة أخيه تاج الملوك ، فصبر على مصيبتة واحتسب ، ولم يتغيّر لذلك ولا اضطرب ، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح والإحسان ، وأمر بسنّ ذلك ، وتوعدّ عليه إن ظهر ، وكظّم حزنه ، ولم يُرد أن يُفسد على الناس فرحهم ، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر ، فلما انقضت الدعوة ، وتفرّق الناس قام رحمه الله ، واسترجع، وبكى على أخيه ، ثم أمر به فغسّل وكفّن ، وصلى عليه ودفنه ، وكان يقول: "ما أخذنا حلب رخيصة ، أخذناها بقتل تاج الملوك"^(٥).

(١) التعريفات - ١٧٢

(٢) آية ١٥٣ - سورة البقرة

(٣) رواه البخاري في كتاب: الزكاة ، باب: الاستغفاف عن المسألة ، ٥٣٤/٢ ، برقم ١٤٠٠

(٤) الدعوة - د/ حمد بن ناصر العمار - ١٢٦

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٦٦ ، وفيات الأعيان - ١ / ٢٩٢

إنّ هذا التصبر العظيم ، والتجلّد عند الصدمة الأولى لوقوع المصيبة لا يستطيعه إلا مَنْ لديه نفس عالية ، وذلك تطبيقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الصبر عند الصدمة الأولى) (١). ومثال آخر يدلّ على صبره وتحمله ، ما روي أن صلاح الدين أرسل إلى ريتشارد كتاباً عندما هدّده بالاستمرار في الحرب حتى نهاية الشتاء القادم ، وقد جاء في ذلك الكتاب: (وأنا ما يُسهّل علي أن أشتي وأصيف ، وأشتي وأصيف ، وأنا في وسط بلادي ، وأنا أعتقد أنّي في أعظم العبادات (الجهاد) ، ولا أزال كذلك حتى يُعطي الله النصر لمن يشاء) (٢).

ثانياً - صفات الداعية اللازمة:

١ - التخطيط للدعوة:

تحتاج الدعوة إلى الله تعالى إلى تخطيط قويم يُعنى به دعاة اليوم ، كما عُني بها دعاة الأمس ابتداءً بالنبّي صلى الله عليه وسلم وسلف هذه الأمة رضوان الله عليهم. إن ذلك التخطيط الواعي للدعوة هو الذي يُوصل إلى النتائج المثمرة بأقصر الطرق بعد توفيق الله تعالى ، وهو الذي ينقل الدعوة من قالبها التقليدي الجامد إلى روح عصريّة جديدة تُستخدم فيها أفضل الوسائل ، وأرقى الأساليب لتصل إلى هدفها المنشود (٣). والداعية في تخطيطه لدعوته مقتدٍ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي كان لا يُقدم على شيء إلا بعد تخطيطٍ مُحكمٍ . ومن الأمثلة على ذلك السريّة التامة للدعوة مدّة ثلاث سنوات ، فلمّا ثبتت جذور هذه الدعوة في المجتمع المكي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوةً إسلاميةً على الملأ ضمن خطة مدروسة متقنة. ولقد عُني السلطان صلاح الدين بعنصر التخطيط للدعوة عناية بالغة ، فلم يكن يخبط خبط عشواء ، لذا آتت دعوته أُكلها ، وأثمرت نتائج طيبة ، وقد نقلت المراجع الكثير من الشواهد على تخطيطه المحكم.

(١) رواه البخاري في كتاب: الجنائز ، باب: الصبر عند الصدمة الأولى ، ٤٣٨/١ ، برقم ١٢٤٠

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣٣٩

(٣) الدعوة - ١٣٢

من ذلك أن صلاح الدين بدأ مشروع إحياء السُّنة في مصر بالتخطيط للقضاء على الدولة العبيدية ، ومهد لذلك بالتدرّج في إلغاء الخطبة للخليفة العبيدي ، وعزل قضاتهم ، وإبطال الأذان بحجّي على خير العمل ، وساعده على ذلك مرضُ آخر ملوك العبيديين العاضد لدين الله . ولقد نجح صلاح الدين في الوصول إلى هدفه المنشود بزمن قياسيٍّ بعون الله ثم بفضل تخطيطه المبتقن^(١) .

ومثال آخر على حرصه على التخطيط: أنه في سنة ٥٧٩هـ خرج الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين إلى معسكر جسر الخشب ، ثم توجهوا إلى بيسان ، وقد احتار الصليبيون في الجهة التي سيوجه المسلمون حملتهم إليها ، فقاموا بتحسين المدن والقلاع القريبة من الحدود ، ولكن قائد الجيش صلاح الدين كان يعرف إلى أين سيتجه ؛ لأن المبادرة في التخطيط والقتال بيده ، وتقدّمت القوات الإسلامية إلى موقع الفوّار القريب من نهر الأردن ، وهناك تعباً الجيش ليعرف كلُّ مكانه أثناء وقوع القتال ، فالأمر الأساس في القتال عند المسلمين ليس رهن الظرف نفسه أثناء القتال ، وإنما هو تخطيط سابق مرّن قابل للتعديل إذا اقتضى الحال^(٢) .

٢ - انتهاز الفرص:

الداعية الحضيف يتحَيّن الفرص ، ولا يدعُها تضيع منه هدرًا ، بل يُوظّفها لمصلحة الدعوة التوظيف المناسب الذي يوصله إلى أهدافه الدعوية المرجوة . والداعية في هذا المجال متأسّ بنبي الله يوسف عليه السلام وموقفه مع صاحبيه في السجن ، وذلك عندما سأله عن الرؤية التي رآها ، فانتهاز يوسف عليه السلام الفرصة في نشر الدعوة ، وبدأ يعرض عليهم توحيد الله سبحانه وتعالى وضلال الآلهة التي يعبدوها ، ثم فسّر لهما الرؤية ، وذلك في الآيات: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ^ط قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا^ط وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُرْقِي أَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُ مِنْهُ^ط نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ^ط إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ^ط إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ^ط قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا^ط ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي^ط إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١٨٤/٢ وما بعدها

(٢) انظر صلاح الدين - القائد وعصره - ٢٥٥ - ٢٥٦

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَتَّبَعْتَ مَلَآءِئِبَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْكُرَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ يَصْصِحِّي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ ﴿٧٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ سُلْطَنٍ إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ءَأَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ يَصْصِحِّي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا ط وَأَمَّا الْآخَرُ
فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ءَقُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٨١﴾.

ولصلاح الدين قصب السبق في انتهاز الفرص ، ومن الأمثلة على ذلك: أن صلاح الدين لما
تولّى الوزارة بمصر بعد وفاة عمه شيركوه بدأ يعمر أسوارها وأبراجها ويترتب أمورها ، ثم انتهاز فرصة
مرض العاضد ، فقبض على مَنْ بالقصور ، وسَلَّم القصور لقراقوش الخادم ، وعزل أمراء دولة
العاضد، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية ، وقطع من الأذان (حيّ على خير العمل) ، وشرع في تمهيد
الخطبة لبني العباس . ولما عَلم العاضد بعزل صلاح الدين لأمره دولته أرسل يسأله عن السبب ،
فبعث إليه صلاح الدين بأنّ هؤلاء كانوا عُصاة لأمرك ، والمصلحة بقتلهم ، وإقامة غيرهم ممن يمثّل
أمرك ، فسكت العاضد^(٢).

ومن الأمثلة على انتهاز صلاح الدين للفرص أنه لما فَشَّت الخلافات بين أمراء دمشق استدعى
كبيرهم شمس الدين بن المقدّم صلاح الدين ، وعرض عليه تسلّمها ، فانتهاز صلاح الدين الفرصة
التي كان ينتظرها منذ زمن لتوحيد قواته ضد الصليبيين ، وسارع واستولى على دمشق سنة ٥٧٠هـ^(٣).

٣ - ترتيب الأولويات:

(١) الآيات ٣٦-٤١ - سورة يوسف

(٢) انظر: الكامل في التاريخ-١١ / ٣٦٨ ، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية- ١٨٤/٢

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٣٤٢

ينبغي للداعية مراعاة الأولويات في دعوته ، فيبدأ بالأهم ثم الأقل أهمية ، كما يعتني بالأصول قبل الفروع ، وبالكليات قبل الجزئيات ، فترتيب الأولويات في الإسلام له عنايته ، فالعبادات المفروضة مقدمة على السنن ، ويوضح ذلك الحديث القدسي: (ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)^(١).

وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيب الأولويات ، وذلك في وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن: (إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى ، فإن عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا صلّوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم ، فإذا أقرّوا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموال الناس)^(٢).

ولقد راعى صلاح الدين الأولويات في دعوته وجهاده ، فكان مثلاً يُحتذى به في هذا المجال ، والمثال التالي يوضح ذلك بجلاء: فقد زوي أنه لما قرّر تقي الدين عمر - أبرز رجال الدولة وقائد العسكر - التوجّه إلى المغرب ، والسيطرة عليه وإقامة ملك فيه ، أرسل إليه صلاح الدين قائلاً له: "لعمري إن فتح المغرب مهم ، لكنّ فتح بيت المقدس أهم ، والفائدة منه أتمّ ، والمصلحة منه أخصّ وأعمّ ، وإذا فتحنا القدس والساحل طوبينا إلى تلك الممالك المراحل"^(٣).

وأستشهد هنا بأقوال بعض معاصريه التي تؤكّد استحقاق هذا القائد لأن يكون نموذجاً أمثل في كلّ جوانب حياته ، فهذا أبو شامة يقول عنه: "ومن حين استتبّ له الأمر غشي الناس من سحائب الأفضال والنعيم ما لم يؤرّخ غير تلك الأيام ، وهو إلى جانب ذلك مُقوّم لمذهب السنّة، غارس في البلاد أهل العلم والفقّه والدين ، والناس يُهرعون إليه من كلّ صوب ، ويفدون عليه من كلّ جانب ، وهو رحمه الله لا يُجيب قاصداً ، ولا يعدم وافداً"^(٤).

(١) رواه البخاري في صحيحه ، ٢٣٨٤/٥ ، برقم ٦١٣٧ ، كتاب الجماعة والإمامة ، باب التواضع .

(٢) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، ١٧٢/١ ، برقم ٨٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٥٦ - ٢٥٧

(٤) المصدر السابق - ٢ / ٦٩

أما صاحب "شفاء القلوب" فيقول عنه: "كان صلاح الدين حسن العشرة ، طيب الخلق ، حافظاً لأنساب العرب ، لا يلتفت للمنجمين ، طاهر اللسان والقلم ، ما شتم أحداً ، ولا كتب بيده أذى مسلم ، ولا حضر عنده يتيمٌ إلا أعطاه ، وقد يكفله"^(١).
ويصف الذهبي حُزن الناس لموته فيقول: "وَجَدَ الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء ، وما رأيت مَلِكاً حَزِنَ الناس لموته سواه ، لأنه كان مُحَبِّباً، يُحِبُّه البرّ والفاجر ، والمسلم والكافر"^(٢).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٦

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٣

المطلب الثاني: الفتوحات

كان فتح الأيوبيين لعدد من البلاد الهامة سمة بارزة من سمات الدعوة الإسلامية في العصر الأيوبي . ففتَح الأيوبيون لتلك البلاد ، وضَمُّها للدولة الأيوبية يُوسِّع رقعة الدولة المسلمة ، ويقوِّبها لمواجهة أعدائها ، بزيادة مواردها وإمكاناتها ؛ لأن هذه الدولة تواجه ظروفاً حربية خاصة ، وتحديات صعبة من مناوئتها ، كما أسهم في نشر الإسلام في بلاد لم يصلها من قبل .

كانت مصر هي أول مدينة يفتحها الأيوبيون ، فقد استطاعوا القضاء على الدولة العبيدية، وتسَلَّم صلاح الدين زمام الأمور سنة ٥٦٤ هـ ، وأحيوا فيها السُّنَّة، واستقرُّوا فيها ، وربَّوا أمور دولتهم ، ونَحَّوْل الناس من بيئة رافضية إلى مناخ سُنيّ قويم^(١) .

ولما استتبَّت الأمور للدولة الأيوبية امتنع أهل النوبة عن دفع الجزية ، وأغاروا على أسوان، فأراد الأيوبيون فَتَح بلاد النوبة لحماية مصر من الناحية الجنوبية ، ولتأمين طريق قوافل الحجاج والتجارة ، فذهب توران شاه إلى بلاد النوبة عام ٥٦٨ هـ ، ففتح إبريم ، وسبي وغنم^(٢) .

ثم توفي نور الدين ، وبوفاته اضطرت البلاد الشامية ، فدُعي الأيوبيون بقيادة صلاح الدين لضبطها ، ودخل إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ ، فاستقبله أهلها بحفاوة ، ومَلَكها الأيوبيون من غير مدافع، ثم انطلقوا بقيادة صلاح الدين يزحفون على مدن الشام ، فتوجَّهوا إلى حمص ، واستولوا عليها وعلى حماة وبعليك^(٣) . ثم توجَّه الجيش الأيوبي إلى حلب سنة ٥٧٠ هـ ؛ وكان صلاح الدين مُصرّاً على ضمِّها إلى أملاكه بغرض توحيد القوى الإسلامية ، وإمداد الثغور مع الصليبيين بالعساكر والمؤن^(٤)، وقد وقعت عدد من المعارك والمعاهدات ، انتهت بدخول الأيوبيين إلى حلب سنة

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٦٨-٦٩

(٢) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الشام - د/محمد سهيل طقوش - ٤٩

(٣) الحروب الصليبية - ١٤٤ ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٨٤ ، الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٤) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ١١٤ - ١٢٣

٥٧٩هـ، وضمّها إلى الدولة الأيوبية ، مما ترتّب عليه تقوية الجبهة الإسلامية وتماسكها ، والتفرغ بعدها لقتال الصليبيين^(١).

وفي جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ استطاع الأيوبيون فتح مدينتي **خِلاط** و**ميفارقين** ، ودخلت ضمن أملاك الدولة الأيوبية^(٢).

وتتابعت فتوحات الأيوبيين للبلاد الشامية ، ثم جدّوا في فتح **بيت المقدس**، واستطاعوا تسلّمه بالأمان ، وكان فتحاً عظيماً شهدته من أهل العلم خلق عظيم بحيث إنه لم يتخلّف رجل معروف عن الحضور^(٣).

وفي أثناء فتوحات الأيوبيين لبلاد الشام ظهر **باليمن دَعِيٌّ** اسمه عبد النبي بن مهدي ، زاعماً أنه المهدي المنتظر ، فوجّه صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه في سنة ٥٦٩هـ إلى اليمن فوصل إلى زيد ، وملكها ، وقتل عبد النبي بن مهدي ، وأقام الخطبة العباسية ، كما ضمّ بعض بلاد اليمن إليه^(٤)، ثم وجّه صلاح الدين أخاه الملك العزيز فملك جميع اليمن. وكان آخر عهد الأيوبيين باليمن هو الملك المسعود سنة ٦٢٥هـ^(٥).

وقد فصّلت في أمر هذه الفتوحات في مكان آخر من هذه الرسالة تحت عنوان وسيلة الجهاد^(٦).

(١) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام - ٥٩ - ٧٥

(٢) انظر: تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر - المؤيد بن أيوب - تحقيق: محمود ديبوب - ١٣٩/٢ ،

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٣٠ - ٣٥٣ ،

وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي - العماد الكاتب الأصفهاني ، تحقيق: محمد محمود صبح - ٨٨ - ١١٧

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٤٦ ، انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام - ٤٨

(٥) بلوغ المرام فيمن تولّى اليمن - القاضي حسين أحمد القرشي - ٤٠ - ٤٢ ، سير أعلام النبلاء - ٣٣٣/٢١ ، تاريخ أبي الفداء

المسمى المختصر في أخبار البشر - ٢ / ١٣٣

(٦) انظر: ص ٢٠٥ - ٢١٣

المطلب الثالث: الجهاد ضد الصليبيين

كان جهاد المسلمين ضد الصليبيين سمة واضحة من سمات الدعوة في هذا العصر ، فقد بذلوا في جهادهم ذلك جهوداً حثيثة عظيمة حفظها التاريخ لهم ؛ لتأثيرها البالغ في مستقبل الأمة الإسلامية^(١).

وقد اتّسمت الدعوة الإسلامية بقوة جهادها ضدّ الصليبيين في عهد الأيوبيين -ولا سيما في عهد صلاح الدين- ، وأكبر دليل على تلك القوة ما شهد به العدو الصليبي من قوة المسلمين وشدة بأسهم ، بل وصل الأمر بهم إلى الاستسلام وطلب الأمان ؛ خوفاً من بطش المسلمين وبأسهم، وكما قيل: (الحق ما شهدت به الأعداء).

ومن تلك الشهادات:

- قال ملك الفرنج لمن معه من الفرنج الشاميين: "مدينة القدس لا يمكن حصارها مادام صلاح الدين حيّاً ، وكلمة المسلمين مجتمعة" ، وأشار لهم بالعودة إلى الرملة ، فعادوا خائبين^(٢).

- كان من جملة ما قاله ملك الفرنج عن صلاح الدين: "هذا السلطان عظيم ، وما في الأرض للإسلام ملك أكبر ولا أعظم منه. والله إنه لعظيم ، والله ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف يأخذها في يومين؟" ثم قال للرسول: "تُسَلِّم على السلطان ، وتقول له: "بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمرٌ لا بدّ له من آخر، وقد هلكت بلادنا وراء البحر ، وما دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم". فأرسل السلطان إليه في الجواب: "إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن قد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صور"^(٣).

- ونتيجة للتطوّرات المتسارعة ، والنجاحات المتكرّرة التي حقّقها الأيوبيون في جهادهم ضدّ الصليبيين بدأ يظهر في مملكة الصليبيين تحوّل جذريّ في أفكارهم عن الدولة الأيوبية ، وقوّتها

(١) انظر مبحث "الوسائل" للاطلاع على تفاصيل جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين : ص ٢٢٦-٢٢٩

(٢) الكامل في التاريخ- ابن الأثير- ١٢ / ٧٥

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٢٠

وسياستها الهجومية ، وتمثّل هذا التحوّل بخوف وقلق متزايد من قوة قائد هذه الدولة الذي ركّز كل جهوده العسكرية ضدّ الصليبيين ، إضافة إلى تمكّنه من توحيد الشام مع مصر في جبهة متماسكة تحت قيادة واحدة ، لها هدف رئيس واحد ، وهو استعادة الأراضي المقدّسة وقلبها القدس من أيدي الصليبيين ، محقّقاً نبوءة برناردي بلاكفورت مقدّم الجيش في رسالة بعث بها إلى البابا في روما قبل تولّي صلاح الدين وزارة مصر ، وقد قال فيها: إنّ أعظم همّ يشغله هو: " أن يتمكّن أمير مسلم واحد من توحيد الإقليمين العظيمين مصر والشام ، وبذلك سيقتضى على اسم المسيحيين في الشرق كلياً"^(١).

إنّ أقوال الصليبيين السابقة تعطينا صورة واضحة عن مدى القوة التي وصل إليها المسلمون في عهد الدولة الأيوبية ، وعن التأثير البالغ الذي تركوه في نفوس أعدائهم من خوف وقلق واضطراب من تلك الدولة وقائدها . فما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى اتحاد الكلمة ووحدة الصف لحماية بلادهم من أطماع الطامعين، وكيد الكائدين ، وما أحوجها أيضاً إلى مَنْ ينهض بها ، ويوقد في أبنائها جذوة الجهاد، فتعود كما كان أسلافها: عزيزةً ، قويةً ، مُهابةً ؛ لتستطيع إعادة مجدها وعزتها المسلوبة.

(١) صلاح الدين - القائد وعصر - ٢٥٠

المطلب الرابع: النشاط العلمي

ازدهر النشاط العلمي في العصر الأيوبي ازدهاراً واسعاً ، وكان ذلك النشاط سمة واضحة لهذا العصر ، فقد ضمّ بين جنبيه جمعاً غفيراً من العلماء المتبحّرين المتخصّصين: من فقهاء ، ومحدّثين ، وأدباء ، ومؤرّخين ، ومفسّرين ، ولغوّيين ، وأطباء ، وانتشرت فيه المدارس والمساجد ودور العلم والمكتبات ، وألّفت فيه الكثير من المؤلّفات الضخمة في شتى العلوم ، أسهمت كثيراً في رقيّ تراث الأمة الإسلامية ، وحفظه للأجيال القادمة من الضياع.

ولم يكن الاهتمام بالعلم من جانب العلماء فحسب ، بل مجّد الملوك الأيوبيون العلم ، واهتمّوا به اهتماماً كبيراً ، وجعلوا لأهل العلم الرّيادة والسيادة في دولتهم ، ودعموا العلماء وطلاب العلم ، وشجّعوا العلم والتعليم ، وسخّروا الإمكانيات اللازمة كافة ، ووفّروا ما يحتاج إليه العلماء وطلبة العلم ، ولاسيما المأكل والمسكن . ولم يتوقف دور الملوك عند هذا فحسب ، بل كان منهم عدد لا بأس به ممّن طلبوا العلم وجالسوا العلماء ، وحرصوا أشد الحرص على نشر العلم وتعلّمه ، فجمعوا بين طلب العلم وقيامهم بتدبير شؤون الملك ، واختار بعضهم النخبة من العلماء ليكونوا بطانة صالحة لهم لاستشارتهم في شؤون الملك، فكانوا بحقّ مثلاً عُليا في تقديس العلم والاهتمام بالعلماء ، وصاروا بارزين في هذا المجال .

ولم يكن الاهتمام بالعلم مقتصرأ على الرجال فحسب ، بل شاركت النساء في الحركة العلمية، وكانت هنّ البصّمات الواضحة في هذا المجال.

وهكذا يتضح أن المناخ العام في العصر الأيوبي كان مُهيئاً وملائماً للنهضة العلمية وازدهارها. وسأتحدّث بإذن الله بالتفصيل عن النشاط العلمي ، واهتمام الدولة الأيوبية به ملوكاً وعلماء في ثنايا هذه الرسالة عموماً ، وفي مبحث وسائل نجاح الدعوة خصوصاً.

المطلب الخامس: دعوة غير المسلمين

استطاع المسلمون في عهد الدولة الأيوبية توسيع رقعة دولتهم ، ووصلوا إلى بلاد لا تحكمها الشريعة الإسلامية ، كما تمكنوا من فتح بيت المقدس ، وفيه الكثير من الإفرنج الصليبيين .
وقد نشط المسلمون - ملوكاً وعلماء وعامة- في ذلك العصر في مجال دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، فوجهوا الدعوة الإسلامية إلى غير المسلمين ، سواء كان أولئك المدعوون من فئة الرؤساء أو من العامة ، وذلك بمخاطبتهم مباشرة بقبول الإسلام والانقياد له ، أو بشكل غير مباشر وذلك ببذل جهود دعوية تخدم الإسلام وتدعو إلى اعتناقه .

أولاً- توجيه الدعوة إلى الرؤساء:

كان السلطان صلاح الدين من أبرز الملوك الأيوبيين الذين حرصوا على دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، وقد بذل رحمه الله في سبيل ذلك قصارى جهده ووقته ، فكان كلما وفد إليه أحد من رؤساء النصارى للزيارة أولاه غاية الإكرام والإحسان ؛ تأليفاً لقلوبهم ، ورغبة في أن يدخل في قلوبهم شيء من الإيمان^(١) .

وكان يستغلّ علاقاته الحسنة مع بعض قادتهم من أجل التمكين للدعوة ، ومن ذلك تفاهمه مع صاحب طرابلس الصليبي بأن يوعز الأخير لأتباعه باعتناق الإسلام ، لكن أدركته المنية قبل إتمام ذلك^(٢) .

وكان حُسن خلقه وئبل شمائله من أبرز الأسباب التي دفعت كثيراً من الإفرنج ليغيروا صورة الإسلام التي علقوا في أذهانهم ، بل وليعتنق عدد كبير منهم الدين الإسلامي . ومن الشواهد على ذلك ما حدث بعد معركة حطين ، ومنه على كثير من أسرى الصليبيين ، ورحمته بنسائهم وضعفائهم

(١) البداية والنهاية-١٦/٦٤٦ ، وانظر: الدعوة إلى الإسلام - توماس أرنولد-ترجمة: د/حسن إبراهيم حسن وآخرين-١١٠

(٢) انظر: الدعوة إلى الإسلام - ١١١

مما جعل أعداداً كبيرة منهم يعتنقون الإسلام^(١) ، بل وانضمّ أعداد كبيرة منهم إلى معسكر المسلمين بعد إسلامهم ليقاتلوا معه ضد أقوامهم^(٢) .

ومن الشواهد على دعوة الرؤساء غير المسلمين إلى الإسلام أنه لما وصل أمير أنطاكية الصليبي بوهمند إلى بيروت استقبله صلاح الدين واعتنى به^(٣) . ولما وصل صاحب صيدا السابق رينالد برسالة إلى معسكر المسلمين ، استقبله السلطان صلاح الدين بحفاوة مناسبة ، واحترمه ، ونُصبت له خيمة خاصة ليستريح ، ثم اجتمع بالسلطان ، وأكل معه الطعام ، وعرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه وحثّه عليه^(٤) .

وقد روي أنه جيء بالملوك الأسرى إليه بعد حطين ومعهم صليب الصلبوت ، فلما رآهم نزل وسجد شكراً لله . ولما رأى ملكهم أجلسه عن يمينه ، وأمر له بقدر من ماء ثلج - وقيل ماء ممزوج بالورد - لِمَا رآه يلهث عطشاً^(٥) .

وهذا ترغيباً له في الإسلام ، ومن باب مراعاة منزلة كبار القوم ، وإنزال الناس منازلهم ، امتثالاً للحكمة الشهيرة: (أنزلوا الناس منازلهم) .

ومن الملوك الذين حرصوا على دعوة غير المسلمين **الملك العادل** ، فقد روي أنه وُزر له أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال ، مدة يسيرة ، وكان نصرانياً ، فأسلم على يده بعد عودته مع الأفضل علي بن صلاح الدين إلى مصر^(٦) .

ومن الجهود التي بذلها الملك العادل محادثاته ومراسلاته واجتماعاته مع قادة الفرنج ورسلمهم ، وقد نتج عن هذه الجهود ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين . ومن الأمثلة على ذلك: لقاءاته بملك الإنجليز ، والتفاوض معه للوصول إلى الصلح وفق الشروط التي وضعها المسلمون^(٧) .

(١) انظر: المصدر السابق - ١٠٨ - ١٠٩

(٢) انظر: المصدر السابق - ١٠٨ - ١٠٩

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ٤٧١

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣٢

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢١ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ١٩٤

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٩٢

(٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٧٤

وقد أسفرت هذه اللقاءات عن تنازل الصليبيين عن القدس ، وعدم مطالبتهم بها ، والاكتفاء بالزيارة والحج إلى بعض الأماكن المقدسة لديهم فيها^(١).

ومن الملوك الذين كانت لهم جهود في هذا المجال الملك الكامل بن العادل ، فقد روي أنه بعد أن انتصر على الفرنج في دمياط وسيطر المسلمون عليها ، حضر مجموعة من قادة الفرنج عند الملك الكامل الذي أعد لهم سِباطاً عظيماً ، فاجتمع عليه المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، ثم قام أحد شعراء الملك الكامل أثناء ذلك ، وهنّأه بقصيدته ، ثم وجه الكلام فيها إلى قادة الفرنج الموجودين على سفرة الملك قائلاً:

أَعْبَادَ عَيْسَى إِنَّ عَيْسَى وَحِزْبَهُ وَموسى جميعاً يَخْدِمُونَ محمداً^(٢)

وفي هذا الموقف دعوة لقادة النصارى إلى الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبطلان اتخاذهم لعيسى عليه السلام إلهاً ، وبيان لهم بأن موسى وعيسى عليهم السلام لو كانوا أحياء ما وسعهم إلا اتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وللملك الكامل مراسلات عديدة مع بعض قادة الفرنج في شؤون مختلفة ، وكان من أهمها مراسلاته مع فريدريك الثاني ملك صقلية ، فقد أرسل هذا الملك إلى الملك الكامل عدة أسئلة ، فأجاب عنها أحد علمائه ، ثم أرسلت إليه^(٣). كما أوفد إليه الملك الكامل عدة سفارات منها ما قام به أحد علماء مصر في ذلك الوقت^(٤) حيث دارت بين هذا العالم وبين الملك الصقلي عدة محاورات علمية^(٥).

وقد ظهرت نتائج حسنة لدعوة الملك الكامل على الملك الصقلي ، فقد روي أنه لما زار القدس ، وتجوّل بالأماكن المقدسة الإسلامية أبدى إعجابه بالمسلمين ، وكان من قوله: "والله إن أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين ، وتسييحهم بالليل"^(٦).

(١) المصدر السابق - ٢٩٠

(٢) البداية والنهاية - ١٠٧/١٧

(٣) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك - ٢٣٠/١

(٤) العالم هو: فخر الدين بن شيخ الشيوخ يوسف بن حمويه.

(٥) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك - ٢٣١/١

(٦) انظر: المصدر السابق - ٢٣١/١

ومن الملوك الذين اشتهروا بدعوة غير المسلمين عن طريق المعاملة الحسنة: **الملك الظاهر** ، فقد روي أنه لما فُتح حصن بُرزية كانت صاحبة الحصن أميرة إفرنجية، فسُبيت وأحضرها للظاهر، فمنّ عليها بالإعتاق ، وحلّ عنها وعن زوجها قيد الوثاق ، وأحضر أيضاً ابنة لهما وزوجها وعدّة من أصحابهم ، وأدخلهم معهم في الإطلاق ، وأشبعهم وقد تجوّعوا ، وسيرّ معهم إلى أنطاكية من أوفدهم^(١).

وقد طبّقت الدولة الأيوبية الحكم الشرعيّ على مَنْ أُسر من الصليبيين ، فقاموا بقتل من استحقّ القتل ، ولكنهم قبل ذلك حرصوا على عرض الإسلام عليهم ، فمنّ أبي قتلوله .
ومن الشواهد على ذلك ما روي أنه لمّا وقع (أرناط) -أحد قادة الصليبيين- في الأسر بعد معركة حطين ، قتله صلاح الدين بعد أن عرض عليه الإسلام فأبى^(٢). وفي إحدى المعارك أُحضر بين يدي قائد المسلمين أفرنجي قد أُسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد أن عرض الإسلام عليه وأبى^(٣).

كما روي أنه بعد فتح حطين أمر صلاح الدين بقتل أسرى الكفار جميعاً ، وتطهير الأرض منهم ، ومن خيانتهم وغدرهم ورجسهم ، ولكنه ما قتل إلا مَنْ عُرض عليه الإسلام وأبى أن يُسلم ، وما أسلم إلا آحاداً حسن إسلامهم^(٤).

ثانياً-توجيه الدعوة إلى العامة:

ومن الشواهد على توجيه الدعوة إلى غير المسلمين من العامة ما يذكره صاحب النوادر أنّه كان إلى جانب صلاح الدين في بعض حروبه مع الفرنجة ، وقد وصلت إلى عتبتة امرأة منهم كانت شديدة التخوّف ، كثيرة البكاء ، متواترة الدقّ على صدرها ، وقد سألت الحضور بين يدي السلطان، فأمر صلاح الدين الترجمان بأن يسألها عن قصّتها فقالت: "اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي ، وبثّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لي جند السلطان: هو أرحم ، ونخرجك إليه تطلبين ابنتك ، فأخرجوني إليك وما أعرف ابنتي إلا منك" ، فرقّ لها

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي-٢٥١-٢٥٢

(٢) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية-٣/٢٧٥-٢٩٧ ، والفتح القسي في الفتح القدسي-٧٦-٨٧

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٤-٢٥

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٩٠-٢٩١ .

صلاح الدين ودمعت عينه وحركته مروءته ، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعثر وجهها في التراب وهي ترفع وجهها إلى السماء ، ولا نعلم ما تقول ، فسئمت إليها ابنتها وأعيدت إلى عسكر الفرنجة^(١). ومن هنا فإن تعامله الحسن مع هذه المرأة الإفريقية ، وتقديم المساعدة لها دعوة إلى الإسلام بإظهار محاسنه ، وبيان للأخلاق الإسلامية السمحة.

ومن ذلك أيضاً: أنه كانت امرأة إبرنس أنطاكية عيناً للسلطان على العدو ، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم ، والسلطان يكرمها لذلك ، ويهدي لها أنفس الهدايا . فلما فتح السلطان حصن بُرزية ، وحصل في أسره جماعة ، خلصهم من الأسر ، وأنعم عليهم ، وجهّزهم ، وسيرهم إلى أنطاكية ؛ لأجل امرأة الإبرنس ، فشكرته على ذلك، وداومت مودتها ونفعها للمسلمين^(٢)، وقد منّ السلطان على صاحب القلعة وأهله وكانوا سبعة عشر نفساً^(٣).

ومن الشواهد أنه كان قد استأمنه من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلى المسلمين ، ثم قالوا له: نحن نخوض البحر في مركب ، ونكسب من العدو ، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين. فأذن لهم السلطان ، وأعطاهم المركب ، فركبوا وكسبوا ، وأحضروا ما كسبوه من بضاعة وفضة ، فأعطاهم رحمه الله كل ما غنموه، فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمّة، وأسلم منهم شطّهم ، وأهدوه هدايا ثمينة^(٤). وإسلامهم هذا كان بفضل الله ثم بفضل المعاملة الحسنة والأخلاق الكريمة التي عوملوا بها.

وقد روي أنه في سنة ٥٨٨ هـ عُقدت هدنة بين المسلمين والفرنج مدتها ثلاث سنين وثلاثة عشر شهراً ، وتُودي: ألا إن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً عمّ فيه الطائفتان الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب. فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين ، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة فأكرمهم المسلمون بأمر من

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣٣ ، وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي - ٤٨٠

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٥

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٦٦ - ٣٦٧

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٣٦

السلطان، ومدّوا لهم الأطعمة وباسطوهم^(١). وكان هذا دأبه رحمه الله مع مَنْ يَرُدُّ عليه ، يمدّ لهم الطعام ويكرمهم ، ويُنعم عليهم بما تطيب به قلوبهم^(٢) .

وبعد الهدنة وصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج ، وفتح السلطان لهم الباب في ذلك، وأرسل معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردّوهم إلى يافا . وكان غرض السلطان بذلك أن يُريهم حقيقة الإسلام وأخلاقه ، ويقضوا وطهرهم من الزيارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرّهم .
وشرع المسلمون في إكرام مَنْ يرد ، ومدّوا لهم الطعام وباسطوهم وحادثوهم. وقد طلب الملك الإفرنجي من السلطان منع الزوّار ، واقترح ألا يؤذن لأحد إلا بعد حضور علامة منه ، إلا أن السلطان اعتذر إليه ، وكتب له: (إن قوماً قد وصلوا من ذلك البعد ، ويُسرّ لهم زيارة هذا المكان الشريف لا أستحلُّ مَنْعهم)^(٣).

ويحرص المسلمون على إعطاء الفرنج صورة راقية عن الإسلام ، وحسن تعامله مع الأعداء ، ترغيباً لهم في الدخول إلى الإسلام ، وذلك أنه لما حاصر المسلمون القدس استقرّت المفاوضات بينهم وبين الفرنج على أنهم يدفعون عن كلّ رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير ، وعن كل صغير أو صغيرة ديناران . وكانت هذه المهلة أربعين يوماً ، ومَنْ عجز عن أداء ما عليه ضُرب عليه الرّق بحكم الشريعة الإسلامية . وقد قيل للسلطان بشأن ذلك : "إنهم لم يحفظوا العهد" . فكان السلطان يقول: نحن نجزيهم على ظاهر الأمان ، ونُغريهم بمحاسن الإسلام^(٤).

والملك الكامل من الملوك الذين اشتهروا بالمعاملة الحسنة مع غير المسلمين ، فقد روي أنه في سنة ٦١٣ هـ اختلفت فرقة من النصارى على تنصيب أمير عليهم ، فلم يُردّ الكامل أن يعظّم الشقاق بينهم ، فأمر بتطيب قلوبهم^(٥).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٠

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٢١

(٣) المصدر السابق - ٤ / ٣٣٠ - ٣٣١

(٤) المصدر السابق - ٣ / ٤٠١

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٨٤

ثالثاً- جهود العلماء في دعوة غير المسلمين:

ولم يقتصر أمر دعوة غير المسلمين على الملوك الأيوبيين فحسب ، فقد بذل العلماء في ذلك العصر جهوداً عظيماً في هذا المجال. ومن العلماء البارزين في دعوة النصارى من الإفرنج إلى الإسلام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، فقد بذل جهده في بيان ضلالهم ، ونقّد بعض عقائدهم ، والتحذير منها^(١).

وقد قال عن آثار دعوته للنصارى : (وأسلم على يديّ نحو مئتين من أهل الذمة)^(٢) ، وفي رواية أخرى: (وأسلم على يدي عشرون ألفاً)^(٣).

وقد نشط العلماء في مناظرة النصارى ، وتأليف الكتب في الردّ عليهم ، وبيان بطلان مذهبهم ، ومن أولئك العلماء علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي ، الذي ولد بمصر ، وسكن حلب ، وتولّى قضاءها أيام الملك الظاهر ، ثم تولّى الوزارة للملك العزيز^(٤) ، وله كتاب: "الردّ على النصارى"^(٥).

ومن العلماء الذين كان لهم جهد واضح في هذا المجال الشيخ صالح بن الحسين الجعفري^(٦) ، ومن جهوده تأليفه لكتابه: الرد على النصارى" ، وقد بيّن أن ما دفعه لتأليف هذا الكتاب هو الردّ على أسئلة وردت من الفرنج يمتحنون بها المسلمين ، فيقول: "... وقفتُ على مسائل دُكر أن الفرنج بعثوا بها يمتحنون أهل الإسلام ، فنظرت فيها فإنها خالية من الفوائد الدينية، عاطلة عن المنافع الدنيوية"^(٧). وللجعفري كتاب "تحجيل مَنْ حَرَفَ التوراة والإنجيل" ، وقد بيّن فيه أن من أسباب تأليفه لهذا الكتاب رجاء هداية أهل الكتاب ، إذ يقول: "فعسى الله أن يُقدّر هداية بعضهم ، ونحن

(١) انظر: تلبس إبليس-عبد الرحمن بن علي بن الجوزي- دراسة وتحقيق وتعليق: د/السيد الجميلي-٩١-٩٢، كيد الشيطان

لنفسه قبل خلق آدم - عبد الرحمن بن علي الجوزي- تحقيق: أبي الأشبال الزهيري- ٨٨

(٢) لفظة الكبد إلى نصيحة الولد- عبد الرحمن بن علي بن الجوزي - تحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم - ٣٧

(٣) المصدر السابق- ٣٧

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢٢٣/٢٢٧

(٥) انظر: علم دراسة الأديان عند المسلمين - د/ محمود قدح- ١٢٩

(٦) انظر: دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية - د/ سليمان الرومي - ٤٠٩-٤١١

(٧) الرد على النصارى- صالح بن الحسين الجعفري - تحقيق: د/ محمد محمد حسانين- ٥٦

مأمورون بدعائهم إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة" ، كما دفعه للتأليف تعليم الحجّة في الردّ عليهم ، فيقول: "وهذا مما يُعين على دعوتهم" (١).

ومن جهود الجعفري في دعوة غير المسلمين مناظرة رهبان النصارى ، وقد دلّ على ذلك بعض الإشارات في كتبه ، ومن ذلك مثلاً قوله: "ولقد فاوضني بعض الرهبان ممّن يُدعى بنانا في البيان... " (٢) ، وقوله: "لقد فاوضت بعض النصارى فيما يتعلّق بألفاظ النبوة... " (٣) ، وقوله: "قلت لنصراني من عقلائهم...." (٤).

ومن العلماء الذين كان لهم جهود في دعوة غير المسلمين الشيخ أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي القرافي ، والذي ناظر النصارى ، وردّ على شبههم ، ودعم الحاكم في مواجهتهم. ومما يدلّ على ذلك قوله في أحد كتبه: "... اتفق لي مع كثير منهم في المناظرة أي أطالبه بتصوير مذهبه كيف يمكن إقامة الدليل عليه...؟" (٥). وقد خصّص باباً في كتابه "الأجوبة الفاجرة" في الردّ على شبههم وتفنيدها ، فقال: "الباب الثاني في أسئلة لأهل الكتاب النصارى واليهود عادتهم يتولّعون بإيرادها ، والجواب عنها..." (٦).

أما دعمه للحاكم في مواجهته للنصارى ودعوتهم فقد روي أنه ألّف كتاب "أدلة الوجدانية في الرد على النصرانية" ، وأهداه للملك الكامل الذي كان في خضمّ جهاده مع الصليبيين ، وقد قال القرافي في ذلك: "... فرأيت أن أوّل لمولانا السلطان أعزّه الله في الرد عليهم كتاباً أتخفه فيه بغريبه ، وأنفرد فيه بطريقة عجيبة ، أجمع فيه مذاهبهم على جليّتها ، وأخاطبهم بفصوص نصوصهم ، وأجادهم بها مجادلة الأقران ، وأبارزهم على نقضها مبارزة الشجعان" (٧).

(١) تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل - صالح بن الحسين الجعفري - تحقيق: د/ محمود قح - ١ / ١٠٣

(٢) المصدر السابق - ١ / ٢٠٥

(٣) المصدر السابق - ١ / ٢٣٣

(٤) المصدر السابق - ١ / ٢٥٣

(٥) الأجوبة الفاجرة على الأسئلة الفاجرة - أحمد بن إدريس القرافي - ١١١

(٦) المصدر السابق - ٣

(٧) أدلة الوجدانية في الرد على النصرانية - أحمد بن إدريس القرافي ، تحقيق: عبد الرحمن دمشقية - ٢٠

رابعاً- جهود العامة من المسلمين في دعوة غير المسلمين:

المقصود بالعامّة: ما سوى الحكام والعلماء ، والذين لا يتميّزون بسلطة أو علم، ويمثّلون السواد الأعظم من المجتمع ، ويتفاوتون فيما بينهم في النواحي المختلفة إلا أنهم يجمعهم اعتناقهم للدين الإسلامي ، والتزامهم بتعاليمه وتشريعاته. لذا فإن هذه الطبقة من المجتمع إن أحسن العلماء توجيهها أثرت تأثيراً إيجابياً في الآخرين على نحو ملموس.

وهذه الطبقة لا يُتصوّر منها أن تقوم بواجب الدعوة على الوجه الصحيح المطلوب ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، والدعوة تحتاج إلى علم وبصيرة ، وهذا في الغالب محدود في العامة .

لذلك فإن المقصود بقيامهم بدعوة غير المسلمين هو تأثيرهم في النصارى سواء بإسلام بعضهم تأثراً بالتعامل الإسلامي ، والأخلاق القويمة ، أو بنقل الإسلام لهم^(١) .

ومن الأمثلة على قيام العامة بواجب الدعوة: ما روي أن صلاح الدين بعد أن فتح حلب أراد صاحب حصن حارم القريب منها مكاتبة الفرنج ضدّ صلاح الدين ، فقبض عليه عامة أهل حارم ، ونادوا بالبيعة لصلاح الدين^(٢) .

ويظهر دور العامة أيضاً في دعوة النصارى عن طريق المحاورة ، وذلك بالإحسان إلى الجيران وإظهار محاسن الإسلام وتشريعاته أمامهم . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الشيخ عبد الله بن أبي الحسن الجبائي الطرابلسي المتوفى سنة ٦٠٥ هـ ، والذي كان نصرانياً فأسلم ، وكان والده من علماء النصارى، فقد قال عن نفسه: "كنا نصارى فمات أبي ونحن صغار ، فقدر الله أن وقعت حروب ، فخرجنا من القرية ، وكان فيها جماعة مسلمون يقرؤون القرآن فأبكي إذا سمعتهم ، قال: فأسلمت وأنا عمري إحدى عشرة سنة"^(٣) .

وبيّن توماس آرنولد أثر العامة في تحوّل الكثير من النصارى إلى الإسلام بسبب الضغط الاجتماعي ، فقال: "....وكان عدد المرتدّين عن المسيحية كثيراً كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يُطلق عليها مجالس قضاء بيت المقدس....وقد لا يكون من الممتع أن تعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحوّلوا إلى الإسلام"^(٤) .

(١) انظر: دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية - ١ / ٤٢٥-٤٢٦

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٧٢

(٣) سير أعلام النبلاء - ٤٨٨/٢١

(٤) الدعوة إلى الإسلام - ١١٠

ومما يدل على أثر العامة في دعوة غير المسلمين ما ذكّرته بعض المصادر النصرانية من تحوّل أعداد كبيرة من نصارى الصليبيين إلى الإسلام في مدن القاهرة والشام ، فقد قدّرتّه بعض المصادر بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً في القاهرة وحدها^(١).

وبعد هذا العرض لسّمات الدعوة الإسلامية في العصر الأيوبي ، أودّ أن أُبيّن بأنّ من المعلوم أنّ خير الناس من عاش في عصر قريب من ضياء النبوة ، ثم يتعدّد الناس عن هذا الضياء شيئاً فشيئاً كلما ازداد بعدهم عن عصر النبوة ؛ لما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء من بعدهم قوم : تسبق شهادتهم أيمانهم ، وأيمانهم شهادتهم)^(٢). وفي الزمن الذي سبق العصر الأيوبي نجد أن الفتن والضلالات بدأت تعشّش في بلدان العالم الإسلامي ، فقد أصبح لها كيان متمثّل في الدولة العبيدية التي كان لها نفوذ جغرافي واسع ، كما أن هيبة الخلافة العباسية السنيّة ضعفت ، وتقطّعت أوصالها إلى دويلات. وقد ورث الأيوبيون تركةً مُثقلّة بالهوى ، وإعجاب كلّ ذي رأيٍ برأيه ، بالإضافة إلى تهديد سيادة الدولة بالاحتلال الصليبي ، وأطماعه الواسعة في حكم الشرق ، واحتلال المناطق المقدّسة . وقد نجح الأيوبيون -ولاسيما في أوائل حكمهم- في الاعتداد بحكم الكتاب والسنة ، وإعلاء شأنهما ، وتشجيع العلم والعلماء ، والوقوف أمام الزحف الصليبي . بيد أن الطرق الصوفية التي لا تستند إلى الأدلة الشرعية ، والابتداع الذي ناء بكلّكه على أصقاع الدولة الأيوبية جعل التطبيق العملي لمعالم العقيدة والشريعة والأخلاق الإسلامية على غير ما يُرام ، وإن كان الخير الذي حقّقه هذه الدولة خيراً جمّاً ، ولكن اختلط الحق بالباطل ، ولم نعد نلمس الصفاء المنشود في الصلة العلمية بالكتاب والسنة سواء عند الحاكم أو عند الرعية.

ولكن وجود نموذج أمثل للداعية الحق في هذا العصر ، وتوسّع رقعة الدولة الإسلامية بفضل الله ثم بفضل فتوحات الأيوبيين ، وجهادهم ضدّ الصليبيين ، والنشاط العلمي الواسع ، والحرص على توجيه الدعوة لغير المسلمين كانت معالم بارزة مميّزة للدولة الأيوبية ، أهلتها لأن تكون دولة من أكابر الدول الإسلامية على مرّ التاريخ.

(١) الدعوة إلى الإسلام - ١١٣

(٢) رواه البخاري في كتاب: الشهادات ، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، ٩٣٨/٣ ، برقم ٢٥٠٩

المبحث الثاني
مراحل الدعوة الإسلامية في عهد
الدولة الأيوبية

مرّت الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية بعدد من المراحل نتيجة الظروف الدينية والسياسية التي كانت محيطة بها في ذلك الوقت ، ويمكن أن نُحمل تلك المراحل فيما الآتي:

١-مرحلة المداراة

٢-مرحلة الجهر

٣-مرحلة الانكماش

المطلب الأول: مرحلة المداراة

المداراة تعني ملاينة الناس وملاطفتهم ، والرفق بهم ، وحسن صحبتهم ، واحتمالهم ؛ لئلا ينفروا ، وأصله من دَرَيْتُ الظَّيَّ أَي: احتَلَّتْ عليه ، وَخَتَلْتَهُ حتى تصيده^(١). وذكر الحافظ ابن حجر- رحمه الله - أنَّ المراد بالمداراة: الدفع برفق^(٢). ونظراً لأهمية المداراة بؤب البخاري- رحمه الله - باباً كاملاً في كتاب الأدب وأسماءه (باب المداراة مع الناس)^(٣).

والدليل على مشروعية المداراة من القرآن الكريم قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون:
(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)^(٤).

(١) أساس البلاغة - جار الله أبو القاسم الرمخشري ، تحقيق: عبد الرحيم محمود -مادة دري - ١٢٩ ، لسان العرب- مادة

دري - ١٤ / ٢٥٥

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري -الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، عناية: محمد فؤاد

عبد الباقي ومحب الدين الخطيب - ١٠ / ٥٢٨

(٣) صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري- ٥ / ٢٢٧١

(٤) آية ٢٨ - سورة غافر

قال السعدي: (وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاته الكافرين بالحبّة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين ، إلا أن يخاف المسلمون على أنفسهم ، فحينها يحلّ لهم أن يفعلوا ما يعصمون به دماءهم من التقيّة باللسان ، وإظهار ما به تحصل التقيّة) (١).

وقال جل وعز: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَدَّةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (٢).

قال القرطبي: (إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان) (٣).

أما من السنة النبوية الشريفة فالدليل عليها ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال: (ائذنوا له فبئس ابن العشيّة . أو بئس أخو العشيّة)، فلما دخل ألان له الكلام ، فقلت له: يا رسول الله قلت ما قلت ثم أنت له في القول ؛ فقال: (أي عائشة : إن شرّ الناس منزلةً عند الله من تركه - أو ودعه - الناس اتقاءً فحشيه) (٤).

وقد علّق الحافظ ابن حجر - رحمه الله - على هذا الحديث بقوله: (قال ابن بطلال: المداراة من أخلاق المؤمنين ، وهي خفضُ الجناح للناس ، وليئزّ الكلمة ، وتركُ الإغلاظ لهم في القول ، وذلك من أقوى أسباب الألفة ، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك) (٥).

وعلى هذا فالمداراة: لين الكلام ، والبشاشة للفُسّاق وأهل الفحش ؛ اتقاءً لفحشهم ، ولعل في مداراتهم ترغيباً لهم وكسباً لقلوبهم.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ١٢٧ - ١٢٨

(٢) آية ٢٨ - سورة آل عمران

(٣) الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد القرطبي - تحقيق: د/عبد الله التركي - ٨٧/٥

(٤) رواه البخاري في كتاب: الأدب ، باب: المداراة مع الناس ، ٢٢٧١/٥ ، برقم ٥٧٨٠

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ٥٢٨/١٠

ومرحلة المداراة هي مرحلة مهمة للداعية ، فالذي يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم ، خير من الذي يعتزلهم ، ويترك تعليمهم ، وأمرهم ونهيهم ، كما أخبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولا بد لمن يخالط الناس أن يُداريهم ليدفع شرهم ، ويوصل الدعوة إليهم ، فلولا مداراة الرسول صلى الله عليه وسلم للأعداء من اليهود والمنافقين ، وصبره على الأعراب الغلاظ الجفافة لما تمكّن من نشر دعوته ، ولا سيما في بداية أمره ، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالترث والصبر ، ويحذّرهم من الاستعجال ، وينهاهم عن العجلة والتهور .

وقد كانت المرحلة الأولى التي مرّت بها الدولة الأيوبية عند بداية نشأتها هي مرحلة المداراة ، فصلاح الدين مؤسس هذه الدولة لم يُعلن عن قيام دولته صراحة منذ اليوم الأول من قيامها ، بل آثر العمل مع أصحابه في الخفاء ، ومداراة العبيديين في العلن خوفاً من غضب الدولة العبيدية واتقاءً لشرّها ، وليتمكّن من إرساء قواعد دولته وتأسيسها على نحوٍ قوي . ولمداراة الأيوبيين للعبيديين شواهد عدّة لعل من أبرزها:

أ- التقرب من الناس والإحسان إليهم :

لم يعمل صلاح الدين بدايةً على تقوية مركزه في مصر ، بل عمِل على توطيده تدريجياً ، لكي يكسب قلوب المصريين ، ولا يفقد ثقتهم ، فعمل أولاً على اكتساب ثقة عامة الناس ، ثم أسند مهامّ الدولة إلى أنصاره ، وأضعف نفوذ الخليفة^(١) .

وقد بدأت سلطة الأيوبيين تصفو لهم في مصر ابتداءً من سنة ٥٦٤ هـ ، ولكنهم مع ذلك ظلّوا في مرحلة المداراة والترقّب ثلاث سنوات كاملة ، فكانوا خلالها يُظهرون الودّ للناس . وقد رفع السلطان صلاح الدين عن المصريين المظالم ، ولم يتجرأ على الخطوات العملية في القضاء على الخلافة العبيدية إلا سنة ٥٦٧ هـ ، وبعدها أمر القاضي الفاضل بإحراق الكتب الشيعية في مكتبة القصر^(٢) .

(١) الفاطميون في مصر - ٣٠٨

(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - ١٧٢ / ٥

وقد أظهر صلاح الدين الوُدَّ والمعاملة الحسنة لجميع المصريين بمختلف دياناتهم، ومن هؤلاء: الأقباطُ ، إذ فسح لهم الحرية الدينية ، وقضى حوائجهم ، ورفع عنهم المظالم ، وكان الأقباط يحبونه حباً جمّاً ، ويُعلّقون صورته في كنائسهم^(١).

ولم يكتفِ صلاح الدين بمداواة الناس والتقرّب إليهم ، بل دارى أيضاً الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء العبديين ، وأحسن إليه ، ومن مداراته للعاضد: إشارته بمعاونة العاضد له بقوله: "ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دميّ ألف ألف دينار ، سوى ما أرسله إليّ من الثياب"^(٢).

ومن الإحسان إلى العاضد ما ذكره أبو شامة أنه-أي أبا شامة- اجتمع بأبي الفتوح بن العاضد ، وهو محبوس مقيّد بقلعة الجبل بمصر ، فأخبره أنّ أباه العاضد استدعى صلاح الدين ، فلما حضر أوصاه بأبنائه ، وهم جماعة صغار ، فالتزم صلاح الدين إكرامهم واحترامهم^(٣). ولما علم العاضد بعزل صلاح الدين لأمره أرسل يسأله عن السبب ، فبعث إليه صلاح الدين بأن هؤلاء كانوا عُصاة لأمره ، ومن المصلحة قتلهم ، وإقامة غيرهم ممن يمثل أمره، فسكت العاضد^(٤).

ب-جلوس صلاح الدين لعزاء العاضد:

روي أنه بعد موت العاضد جلس صلاح الدين وبطانته للعزاء^(٥). وقد ندم رحمه الله على الاستعجال بقطع خطبة العاضد وهو مريض ، وقال: "لو علمت أنه يموت من هذا المرض في هذه الجمعة ، ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة ، وما قطعناها إلى أن يموت"^(٦).

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - ٥ / ١٦٨

(٢) الدولة الفاطمية في مصر - ١٣٤

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٩٢

(٤) صلاح الدين - القائد وعصره - ١٤٥

(٥) تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر - ٢ / ١٢٩

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٩٢

ج- تأخير الخطبة للعباسيين:

لم يسارع صلاح الدين إلى إقامة الخطبة للمستضيء بنور الله العباسي رغم تمكّن صلاح الدين من أمور مصر وثبات قدمه فيها ، بل أعرض في بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين الذي أرسل إليه يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة العبيدي ، واعتذر بتخوّفه من أن يُثير هذا العمل غضب المصريين ، غير أن نور الدين أبي قبول هذا العذر ، وبعث إليه يُلزمه بذلك رغبة منه في تحقيق المداراة المنشودة قبل الشروع في مرحلة إعلان الدولة السنيّة ، والقضاء على الخلافة العبيدية ، فرأى صلاح الدين أن يُشاور أمراءه ، وكان متردداً خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى نتائج غير مُرضية^(١)، فاكتفى بأن أمر بذكر اسم نور الدين في الخطبة بعد الخليفة العبيدي^(٢) متوقفاً الوقت المناسب لإعلان الدولة الجديدة .

(١) الفاطميون في مصر - ١٣٥ - ١٣٦

(٢) الدولة الفاطمية في مصر - ١٣٢ ، وانظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١ / ١٧٣

المطلب الثاني: مرحلة الجهر

لما رأى صلاح الدين أن الوقت غداً مناسباً لإعلان قيام الدولة المسلمة ، والجهر بالمذهب السنيّ بدأ يرتّب نفسه ليُتقوّي مركزه ، ورأى أن يُحيط نفسه بأهل بيته ، فطلب من نور الدين أن يُرسل إليه أباه وأقاربه ، فجهّز نورُ الدين نجمَ الدين والد صلاح الدين وأهله ، وأرسلهم إلى القاهرة . وقد سلك صلاح الدين مع والده من الأدب ما هو اللائق بمثله ، فجمع إخوته والكبار من أسرته ، وأخبرهم أنه اعتزم أن يتنازل عن الحكم لوالده فهو أدري منه وأولى . وقد أكبر نجم الدين ما سمع من ولده ، فقد رأى فيه من أمارات الوفاء ، ودلائل الإخلاص ما أثلج صدره ، وأبهج نفسه ، وأبى ذلك العرض قائلاً له: "يا ولدي ، ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر إلا وأنت أهلٌ له ، ولا ينبغي أن تُعيّر موضع السعادة ، وأنا مستشارك الأمين وناصرحك الودود" ، ولم يزل عنده حتى استقل صلاح الدين بالبلاد^(١).

وبعد ذلك بمدة يسيرة نُهض أحد المستشارين وهو الشيخ الخبوشاني في المحرم سنة ٥٦٧ هـ ، ودعا لكلّ من الخليفة العباسي مع الخليفة العبيدي ، وكان العاضد مريضاً ، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء بإسقاط اسم العاضد ، ودُكر الخليفة العباسي^(٢) . ولمّا أيقن الأيوبيون أن سلطتهم قد استقرّت وجّه صلاح الدين اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي^(٣) ، ثم تمكّن - كما سنرى لاحقاً- من فتح بعض من بلاد الشام ، وانصرف بعدها إلى عمليتين جديديتين: أحدهما الإصلاح الداخلي في مصر والشام ، بحيث كان يتردّد بين القطرين ، والثاني دفع غارات الصليبيين ، ومهاجمة قلاعهم في بلاد الشام^(٤).

ولتحقيق أهدافه هذه سعى إلى تقوية الجيش الإسلامي^(٥) لحماية الدولة الأيوبية ، وتوسيع رقعتها ، وتحقيق الوحدة الإسلامية ؛ استعداداً لمواجهة أعداء الأمة الإسلامية ولاسيما الصليبيين.

(١)وفيات الأعيان - ١ / ٢٥٨ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي - ٤ / ٢٢٧ ، صلاح الدين

الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٨٧-٨٨

(٢) الفاطميون في مصر - ١٣٥ - ١٣٦

(٣) الدولة الفاطمية في مصر - ١٣٥

(٤)الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٥)انظر مبحث عوامل نجاح الدعوة ص ٤٥٠-٤٥٥

وقد حقق الأيوبيون في هذه المرحلة الكثير من الانتصارات ضد أعدائهم ، وفتحوا العديد من البلاد ، وانتقلوا من نجاح إلى آخر بفضل الله تعالى ثم سياستهم الحكيمة ، وتخطيطهم المتقن كما سيبيّن لنا في ثنايا هذا البحث.

المطلب الثالث: مرحلة الانكماش

سعى صلاح الدين في توحيد سورية ومصر ، واسترداد بيت المقدس ، وإنجاز بطولات متميّزة إلى أن توفي سنة ٥٨٩ هـ ، ثم انقسمت الدولة إلى دويلات يتآمر بعض أمرائها على بعض ، فالعزير على مصر ، والأفضل على دمشق ، والظاهر على حلب ، وطغتكين على اليمن ، والعاقل على الكرك والشوبك ، أما بقية أبناء صلاح الدين وإخوته فكانت لهم مناطق ثانوية صغيرة في أملاك الدولة الأيوبية^(١).

وبعد وفاة صلاح الدين رحمه الله تنازع أولاده واختلفوا ، فكانوا فرقا وأحزاباً متفرقين^(٢) ، وقد أثّرت هذه النزاعات والخلافات بين أبناء البيت الأيوبي في وحدة دولتهم ، وأدّى بها إلى الانهيار في نهاية المطاف سنة ٦٥٠ هـ في مصر ، وبانهيارها يُسدل الستار عن مسرح حياة تلك الدولة التي كان لها أثر كبير في توحيد الدولة الإسلامية والوقوف في وجه الصليبيين .

وهكذا تتضح لنا المراحل التي مرّت بها الدعوة في عهد الدولة الأيوبية ، فمن الإدارة قبل الدعوة ، إلى الجهر والقوة والتمكين ، ثم ختاماً إلى الانكماش والانهيار والغياب . وما ذقت الدولة الأيوبية هذه النهاية السيئة إلا لتهاون أبنائها بأمور الدعوة الإسلامية وعدم تمسّكهم بها ، فالدعوة كالبذرة إن لم تجد لها تربة صالحة خصبة ، أولم تُسَقِّ بماء صاف رقيق ، أو انشغل عنها ، ولم يُعتن بها فإنها لن تثمر ما يُراد جنيّه من ثمار ، ولن تحقق ما يُنتظر تحقيقه من نتائج.

(١) السيف المهند - ١٩٨ ، الفتح القسي في الفتح القدسي - ٦٢٩ - ٦٣٦ ، زبدة الحلب من تاريخ حلب - كمال الدين

ابن العدم - تحقيق: سامي الدهان - ١٢٤/٣ ، العز بن عبد السلام - د/ محمد الزحيلي - ٢٢

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٣ ، البداية والنهاية - ١٧ / ١٧٤

سأُحدّث عن صور من هذه النزاعات والخلافات في مبحث معوقات الدعوة الداخلية ص ٣٧٠-٣٧٣

الفصل الثاني

موضوع الدعوة

المبحث الأول موضوع العقيدة

تمهيد

تبوّأت الدعوة الإسلامية زمن الدولة الأيوبية مكانةً عظيمةً ، فاهتم ملوكها وعلمائها بموضوع هذه الدعوة المباركة - عقيدة وشريعة وأخلاقاً - اهتماماً كبيراً ، وإن أول ما ينبغي للداعية الاهتمام به ومعرفته وفهمه هو الدعوة إلى العقيدة الإسلامية، ثم الاهتمام بدعوة الناس إليها لإخراجهم بها من الظلمات إلى النور ، كما قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ^(١) . فالدعوة إلى هذه العقيدة هو الأساس والمنطلق ، فلا يُدعى إلى شيء قبلها من فعل الواجبات وترك المحرمات ، حتى تقوم هذه العقيدة وتتحقق ؛ لأنها هي الأساس المصحح لجميع الأعمال ، وبدونها لا تصح الأعمال ولا تُقبَل ولا يثاب عليها ، ومن المعلوم بداهة أن أيّ بناء لا يقوم ولا يستقيم إلا بعد إقامة أساسه. والدعوة إلى العقيدة الإسلامية هي أول ما دعا إليه الرسل جميعاً ، فلم يكونوا يبدؤون بشيء قبلها ، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ) ^(٢) ، وكل رسول يقول لقومه أول ما يدعوهم: (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^ط أَفَلَا تَتَّقُونَ) ^(٣) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم عندما يبعث الدعاة يوصيهم ابتداءً بالدعوة إلى تصحيح العقيدة: فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: (إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عز وجل فإذا

(١) آية ٢٥٦ - ٢٥٧ - سورة البقرة

(٢) آية ٣٦ - سورة النحل

(٣) جزء من آية ٢٣ - سورة المؤمنون

عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا فَأْخَبَرْتَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيُنَائِهِمْ فُتْرُدُّ عَلَى قُرَائِهِمْ فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ^(١). فمن هذا الحديث الشريف ، ومن استقراء دعوة الرسل في القرآن ، ومن استقراء سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يؤخذ منهج الدعوة إلى الله، وأن أول ما يدعى الناس إليه هو العقيدة المتمثلة بعبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه. وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعث يدعو الناس إلى تصحيح العقيدة بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام قبل أن يأمر الناس بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وترك المحرمات من الربا والزنى والخمر والميسر.

لذا يجب على الدعوة إلى الله أن يركزوا على جانب العقيدة تركيزاً هادفاً ، ويُقبلوا على دراستها وتفهمها أولاً ، ثم يعلموها لغيرهم ، ويدعوا إليها من انخرق عنها أو أخلَّ بها. قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي^ط وَسُبِّحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(٢). فالآية الكريمة تدل على أهمية معرفة العقيدة الإسلامية والدعوة إليها ، وبيّنت أن أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هم من اقتدى به في ذلك واتصف بالصفتين: العلم بالعقيدة والدعوة إليها ، فمن لم يتعلم أحكام العقيدة ويهتم بها ويُحسن الدعوة إليها فليس من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم على الحقيقة .

ولقد اعتنى دعاة الدولة الأيوبية بالعقيدة الإسلامية وتصحيحها في نفوسهم بداية ، ثم الدعوة إليها وتصحيحها في نفوس الناس. وفي هذا المبحث سألقي الضوء بإذن الله على اهتمام الملوك والعلماء الأيوبيين بعقيدة أهل السنّة ، والدعوة إلى تدريسها وتطبيقها ومحاربة من يقف ضدها .

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، ١/١٧٢ ، برقم ٨٩

(٢) آية ١٠٨ - سورة يوسف

محاربة الباطنيين

ابتليت البلاد المصرية بحكم دولة باطنية هي الدولة العبيديّة مدة ٢٧٢ سنة^(١) ، ويذكر صاحب "النجوم الزاهرة" أنّ بني عبيد يعود نسبهم إلى القداح الملحد الجوسي. قيل إن والد عبيد هذا كان يهودياً من أهل سلمية ، ودخل المغرب وتسمى بعبيد الله وادّعى نسباً ليس بصحيح^(٢).

وتعاقب ملوك هذه الدولة الراضية على حكم البلاد بالحديد والنار ، ونشروا عقائدهم الباطلة بين الناس ، وأضافوا إلى شعيرة الأذان جملة (حي على خير العمل) ، إلى أن استطاع صلاح الدين الأيوبي إزالة آخر ملوكهم -العاضد- وجعله صورةً من غير أي نفوذ تمهيداً لإزالة ملكه . والعاضد هذا كان ذا سيرة مذمومة ، فقد قال عنه ابن كثير: (وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كلِّ مَنْ قَدِرَ عليه من أهل السنة)^(٣).

وبعد موت العاضد اعتقل صلاح الدين أقرابه ، فقبض على أولاده وحبسهم في مكان واحد بالقصر ، وعقّى آثارهم ، وقمع مواليتهم وسائر نسائهم ، وفرّق بين رجالهم ونسائهم لينقرضوا . قال صاحب النجوم الزاهرة : (وكانت هذه الفعلة من أشرف أفعاله ، فلنعم ما فعل ؛ لأنهم كانوا زنادقةً دَعَوْا إلى مذهب التناسخ واعتقاد حلول الجزء الإلهي في أشباحهم)^(٤).

ويقيناً كان صلاح الدين عارفاً بخباياهم ونحلتهم ، وما عانى منهم أهل السنة، وكيف أرادوا أن يُحوّلوا مصر إلى بيئةٍ غريبة عن عقيدة أهل السنة والجماعة .

واستولى صلاح الدين أيضاً على قصر العاضد ، وكان عنده من الجواهر ما لا يملكه خلقٌ مثله ، وأخرج جميع ما في القصر ، فباع بعضه ، ووهب بعضه ، وأعتق مَنْ أعتق من عبيده^(٥)، وأمر بتغيير شعارهم ، وألغى من الأذان جملة (حي على خير العمل) ، وشرع بتمهيد أسباب الخطبة لبني العباس^(٦).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٧٦

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٣٤٠/٥

(٣) المصدر السابق - ٣٤١/٥

(٤) البداية والنهاية - ٤٥١/١٦

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٧٦

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١٨٤/٢

وقد بدأ علماء السنّة يجترئون على التنديد بالعبديين من يوم بروز صلاح الدين الأيوبي في مصر ، ولكنهم كانوا يتهمون من إعلان شيء حاسم ضدّهم ؛ نظراً لاستحكام قوتهم السالفة ، وطول عهدهم بالحكم ، ولكنّ الجميع كانوا على فوهة بركان . ومن هؤلاء الذين صرّحوا بكرهيتهم للدولة العبيدية زمن نفوذها : الشيخ نجم الدين الخبوشاني ، والذي عُرف بالجرأة ، فكان يشتم العبيديين ، ويعدّد مساوئهم، ويسلب عنهم الإيمان^(١)، فوصل خبره إليهم ، فأرسلوا إليه أربعة آلاف دينار رشوةً ثمناً لسكوته ، فردّ الشيخ المبلغ بين يديه ، وضرب الرسول على رأسه، وكان يقول بملء فيه : أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عُبيد اليهودي ، وجعل تسيبته سبّهم^(٢)، وبعد أن انقضت الدولة العبيدية وتمكّن صلاح الدين من زمام الأمور، وقف الخبوشاني بعصاه أمام المنبر ، وطلب من الخطيب قطع الخطبة للعاقد وتحويلها للخليفة العباسي المستضيء^(٣).

وقد حاول نفر من رؤوس العبيدية إعادة الدولة العبيدية ، فانفقوا على مكاتبة الفرنجة واستدعائهم ؛ ليتفقوا بهم على صلاح الدين ومملكته السنّية ، فعلم صلاح الدين بذلك وقتلهم جميعاً ، وكان منهم رئيس القضاة زمن العبيديين واسمه المفضّل^(٤). وممّن قتلهم في هذه الواقعة الشاعر عمارة اليميني الذي قال شعراً وهو يتأسّف على ذهاب الدولة العبيدية:

يا عاذلي في هوى أبناءِ فاطمةٍ لك الملامةُ إن قصّرتَ في عدّلي
بالله زُرّ ساحةَ القصرينِ وأبكِ معي عليهما لا على صقّينِ والجمل
وقل لأهلِهما والله ما التحمّت فيكم قروحي ولا جرحي بمندمل^(٥)

أما الخطوة الثانية لصلاح الدين فهي السعي إلى إصلاح القضاء ، وعزل القضاة العبيديين الذين كانوا يُجبرون الناس على عقائدهم الباطلة ويحكمون بها ، فتمّ له ذلك في عام ٥٦٦هـ^(٦)، واستبدل بهم قضاة أهل السنّة على مذهب الشافعية ، وعيّن الشيخ صدر الدين بن درياس الشافعي

(١) وفيات الأعيان - ١١١/٣ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٣٤٣/٥

(٢) تاريخ الإسلام - الذهبي - تحقيق: عمر تدمري - ٢٧٩ - وفيات سنة (٥٨١-٥٩٠هـ)

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٠٤

(٤) البداية والنهاية - ١٦ / ٤٧٢

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٧٨ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٤٧٩

(٦) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٣٣

بمنصب رئيس القضاة^(١). ثم مضى صلاح الدين في هدم المعالم العبيدية الفكرية ، فأمر بمصادرة تراثهم العلمي المودع في المكتبات ، وقرر إتلاف بعض هذا التراث وبيع بعضه^(٢).

ووصل ضرر العبيديين إلى مكة ، فقد مضت مدة من الزمن كان الأذان في الحرم المكي يتردد بحجّي على خير العمل^(٣)، إلى أن دخل سيف الإسلام أخو صلاح الدين إلى مكة ، وقضى على نفوذ العبيديين فيها . ومثل هذا الصنيع كان يجري في المدينة المنورة أيام امتداد نفوذ الصليبيين إلى الحرمين، وكان يحكم المدينة آل مهنا ، وهم من الروافض ، ولكن صلاح الدين استطاع إقناع أمير المدينة - واسمه القاسم - بحذف عبارة (حي على خير العمل) من الأذان^(٤).

وبهذا يتضح لنا أن من أبرز الطوائف التي حرص صلاح الدين رحمه الله على محاربتها: الباطنية ، إذ تذكر كتب التاريخ أنه حاصر قلاع الباطنية وضيّق عليهم ، وذلك سنة ٥٧٢هـ^(٥). وما وما ذلك إلا لإدراكه رحمه الله وعلمه بعظم خطرهم على الأمة الإسلامية.

وتعود الحركة الباطنية إلى القرن الرابع الهجري ، فقد ضمت بين صفوفها جماعات مختلفة يجمعها هدف مشترك هو إفساد العقيدة الإسلامية ، وتدمير المؤسسة الحكومية التي تُمثّل هذه العقيدة، ولقد وضعت الباطنية للعبادات والعقائد الإسلامية قاموساً يُناسب التأويلات التي ابتدعوها^(٦).

ولقد انتشر دعاة الباطنية في غرب العالم الإسلامي وشرقه ، وأخذوا يدعون إلى إسقاط الحكومات السنيّة وعلى رأسها الخلافة العباسية ، واستطاعوا من خلال ذلك أن يُفسدوا عقائد الأمة، ويثيروا الفتن والقتال ، ومضوا يغتالون الشخصيات المعارضة لهم ، فقتلوا مئات القادة من الوزراء والعلماء والسلاطين^(٧).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٧٤ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٤٤٨ ، حسن المحاضرة - ٧

(٢) مكتبات المساجد - د/ محمد مكي الرفاعي - ٢٥٢

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ١٠٣

(٤) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - د/عبد الباسط بدر - ٢ / ١٨٣

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ١ / ١٥٨

(٦) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٦٣ - ٦٤

(٧) المصدر السابق - ٦٥

وكما أعلن صلاح الدين الحرب على الدولة العبيدية لكونها دولة رافضية باطنية ، أعلن أيضاً الحرب على فئة باطنية أخرى تُعرف بالإسماعيلية^(١) ، وكانت حصونهم في سوريا محصورةً ببيئة جبلية في مدينة مصياف^(٢) ، ويُعرف أميرهم بأبي الحسن سنان بن سلمان^(٣) . وكان الإسماعيليون هؤلاء من أكثر الناس تشيّعاً لآل عليّ، ويعتقدون أن الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق هو المهدي المنتظر الذي سيعود إلى الأرض بعد اختفائه عن الأنظار ؛ ليملاًها عدلاً كما ملأها غيره جوراً ، واستطاع هؤلاء إنشاء إمارةٍ إسماعيلية في المغرب ، ثم استطاعوا أن يستولوا على مصر بقيادة جوهر ، ونقلوا مركز الخلافة إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ ، ثم استولوا على الحجاز والشام ، وبقوا في السلطة حتى سنة ٥٧٦ هـ^(٤) .

ولقد كان من أمراء الإسماعيلية في عهد صلاح الدين : راشد الدين سنان الملقّب بشيخ الجبل ، صاحب مدينة سلمية ، فأراهم تخييل أشخاص من مات منهم على طاعة أئمتهم أنهم في جنات النعيم ، وأشخاص من مات منهم على عصيان أئمتهم أنهم في النار ، فثبت عندهم ذلك ، واعتقدوه حقاً^(٥) .

وقد تحدّث الذهبي عن أبي الحسن سنان راشد الدين بن سلمان ووصفه بأنّه كبير الإسماعيلية، وصاحب الدعوة النزارية ، وكان له نظر في علوم الفلسفة ، وفيه دهاءٌ ومكرٌ وغورٌ، ودعوته سمّيت بالنزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر الخليفة العبيدي، وأصبح له أتباعٌ غلّوا فيه ، واعتقدوا فيه الإلهية ، واستغواهم بسحرٍ وسيمياء^(٦) ، وكان له مطالعات في الكتب ، وأحلّ وطء

(١) الإسماعيلية: فرقةٌ مُغالِيةٌ تُثبت الإمامة لإسماعيل بن جعفر ، ويقولون: إنه لم يمّت ، وأظهر موته تقيّةً ، ويؤمنون بالأئمة المستورين الذين يسرون في البلاد سرّاً ، وأشهر ألقابهم الباطنية ، وخلطوا كلامهم بالفلسفة. انظر الملل والنحل - الشهرستاني - ١ / ١٩٩

(٢) مصياف: مدينةٌ حصينةٌ اتخذها الإسماعيلية مقراً لهم في الساحل الشامي قرب طرابلس.

معجم البلدان - شهاب الدين ياقوت الحموي - ٥ / ١٤٤

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٢٩٤ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٥١٦

(٤) الحروب الصليبية - ١٢٨

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ١٣ / ٢٤٧

(٦) السيمياء: السحر وحاصله إحداث خيالات لا وجود لها في الحس . انظر المعجم الوسيط - ٤٦٩

الأمهات والأخوات والبنات ، وأسقط عن أتباعه صوم رمضان ، ودام له الأمرُ نيفاً وثلاثين سنة ، وهلك سنة ٥٨٩ هـ^(١) .

وحارب السلطان هؤلاء الإسماعيلية وحاصر قلعة مصياف ، فأرسل سنان زعيمهم يطلب الأمان^(٢) .

ولما حاول هؤلاء الإسماعيلية الوثوب على صلاح الدين ، وأرادوا قُتله أكثر من مرّة ، قصد صلاح الدين بلادهم في المحرم سنة ٥٧٢ هـ ليقاتلهم ، فنهب بلادهم وخربه وأحرقه ، وحاصر قلعة مصياف ، فنصب عليها المجانيق ، وضيق على من بها^(٣) .

وتكررت الجولات بين جيش صلاح الدين وفلول الإسماعيلية ، ولم تنته إلى نتيجة حاسمة نظراً لانشغال صلاح الدين بحروب أخرى ، وكون مناطقهم في تحصينات جغرافية حصينة .

وفي سنة ٦٠٤ هـ توفي داود بن العاضد في محبسه ، وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليهم ، وأن منهم الإمام من بعده ، فاستأذن أصحابه من الملك الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه فأذن لهم ، فخرجت النساء حاسرات والرجال في ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا في ندبه والنياحة عليه ، واجتمع معهم من كان في الاستتار من دعائهم ، فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم من الأجناد ، وقبضوا على المعروفين منهم فملاً بهم السجون ، واستصفى أموال ذوي اليسار منهم ، ففرّ من بقي ، وزال من حينئذ أمر الإسماعيلية من ديار مصر ، ولم يجسر أحدٌ بعدها أن يتظاهر بمذهبهم^(٤) .

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ١٨٢

(٢) الكامل في التاريخ - ١١ / ٤٣٦ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٩٢ ، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في

أخبار البشر - ٢ / ١٣٩

(٣) الكامل في التاريخ - ١١ / ٤٣٦

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٦٩

دعاة باطل

شهد العصر الأيوبي قيام رجال عُرفوا بالغلوّ والعقائد الفاسدة ، وكان ملوك الأيوبيين يواجهون هؤلاء بالحزم والحرب الشعواء . ومن ذلك:

١- ما حدث سنة ٥٧٠ هـ ، فقد ظهر رجلٌ من قرى دمشق وادّعى النبوة ، وقام بأعمال تنتمي إلى السحر ، فافتتن به طوائف من العوامّ ، فتطلبه السلطان ، فهرب^(١).

٢- ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة ٥٩٥ هـ ، حيث ظهر داعية فاسد في دمشق زعم أنه عيسى ابن مريم ، وأضلّ طائفة من أتباعه ، وأفتى العلماء بقتله^(٢)، فأمر صلاح الدين أميره على دمشق -صارم الدين برغش- بالقبض عليه وصلّبه أمام الناس .

٣- وكان وراء فتح صلاح الدين لليمن سبب يتصل بالدعوات الباطلة ، ففي سنة ٥٦٩ هـ بلغ صلاح الدين أن في اليمن رجلاً زنديقاً من دعاة الباطنية يقال له عبد النبي بن مهدي دعا لنفسه في الخطبة بدعوات غالية ، وزعم أنه سيملك الأرض كلها، وكان سيّئ العقيدة والسيرة ، زُوي أنه بنى على قبر أبيه قبّةً عظيمةً وزخرفها، وعمل أستار الحرير عليها وقناديل الذهب ، وأمر الناس بالحج إليها ، وأن يحمل كل أحد إليها مالاً ، وكان لا يسمع عن أحدٍ يعارض ما دعا إليه إلا قتله، كما منعهم من حج بيت الله ، فتجمّع له من ذلك أموالٌ لا تحصى . فما كان من صلاح الدين إلا أن وجّه إليه أخاه شمس الدولة توران شاه فقتله ، وامتلك زيد وعدن وصنعاء^(٣).

٤- وذكر صاحب الروضتين أنّ داعيةً خبيثاً ظهر في الإسكندرية يسمى : قديد القفاص ، وفشت دعوته ووصلت إلى الشام وعموم الديار المصرية ، وكان أرباب المعاش يحملون إليه جزءاً من كسبهم، وكانت النساء يبعثن إليه الأموال ، ووُجد في منزله بالإسكندرية عند القبض عليه كُتب فيها صريح الكفر ، وقد تمّ القضاء عليه^(٤).

(١) البداية والنهاية - ١٦ / ٥٠٧ ، كنز الدرر وجامع الغرر- دوادري - تحقيق: د/سعيد عبد الفتاح عاشور- ٧ / ٥٦

(٢) العبر في خبر من عبر - ٣ / ١١١ ، تاريخ الإسلام - ٢٥ وفيات سنة (٥٩١-٥٩٥ هـ)

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥٨٢ ، ٢١ / ٥٣ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٤٧٢ ، وفيات الأعيان - ١ / ٣٠٦ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٧١

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٩٠

٥- كما عاش في زمن الأيوبيين داعية الضلالة الكبير إلى نحلة وحدة الوجود نزيل دمشق: محيي الدين بن العربي ، الذي توفي سنة ٦٣٨ هـ^(١) ، والعجب كل العجب من الملوك الأيوبيين الذين عاصروه: كيف يدعونه يدعو إلى ضلاله وإلحاده ؟ مع أنّ علماء السنّة أفتوا بضلاله ، ويقيناً إنّ هذا يُمثّل ضعف هؤلاء الملوك غفر الله لهم.

٦- وإن كان الأيوبيون قد أخطؤوا حين لم يتصرفوا ضدّ ابن العربي التصرف السليم ولم يقتلوه ، إلا أنّهم أحسنوا حين قضوا على القاضي عبد العزيز بن عبد الواحد ، فقد ذكر صاحب "النجوم الزاهرة": أنه في سنة ٦٤٢ هـ قُتل القاضي عبد العزيز بن عبد الواحد لأنه كان دهرياً مُسْتَهْتَرًا بأمور الشريعة ، يخرج إلى الجمعة سكران ، وكانت داره حانة ، فقبض عليه الوالي وباع أملاكه^(٢).

(١) العبر في خبر من عبر - ٣ / ٢٣٣

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٣٥٠

علوم المنطق والأوائل

ذهب بعض علماء العصر مذهباً جافياً بعيداً عن المناهل الأصيلة التي نهل منها السلف الصالح ، فَعَبَّوا من علوم العقل والفلسفة والمنطق متأثرين بعلوم اليونان والمعتزلة وأهل الكلام وغيرهم .

وقد وضع الفلاسفة في هذا العصر- أتباع ابن سينا مؤسس هذا الاتجاه- الفيلسوف في مستوى النبي ، وجعلوه أعلى من العلماء الدينيين والمجتهدين الفقهاء ، وفتحوا الباب إلى استنتاج وجوب تَوَلَّى الفلاسفة مركز الإرشاد والتوجيه في المجتمعات طالما أن النبوة انتهت وخُتِمت بنبي الإسلام^(١) .

وقد سُئِل الإمام عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري عمَّن يشتغل بالمنطق والفلسفة فأجاب: "الفلسفة أسُّ السَّفَه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثال الزندقة والزيغ ، ومَن تفلسف عَمِيَت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيَّدة بالبراهين ، ومَن تلبَّس بها قارن الخُذْلان والحِرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأظلم قلبه عن نُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس في الأحكام الشرعية افتقار إلى المنطق أصلاً ، وهو فقاقع قد أغنى الله عنها كلَّ صحيح الذهن ، فالواجب على السلطان - أعزّه الله - أن يدفع عن المسلمين شرَّ هؤلاء المشائيم ، ويُخرجهم من المدارس ويُبعدهم"^(٢) .

وما هذه الحملة الشديدة التي شنَّها الإمام الشهرزوري إلا دليل على أنّ هذه الفئة من الناس قد صار لهم مراكز يتقوون بها ويثبون فيها أفكارهم ، وفي طليعة هذه المراكز: المدارس العلمية ، ومن أبرز الذين كانوا يُدرِّسون الجليل على طريقة المتكلمين وبرعوا في المنطق والفلسفة: علي بن أبي علي الآمدي . يقول الذهبي: "وكان أولاد العادل كلُّهم يكرهونه ؛ لِمَا اشتهر عنه من الاشتغال بالمنطق وعلوم الأوائل"^(٣) ، وكان يدخل على العادل والمجلس غاصُّ بأهله ، فلا يتحرَّك له ، ويقول: "ما يقبله قلبي"^(٤) .

أما الملك الأشرف فقد بلغه عِظَمِ خطر هذه الفئة وتمكُّنها من ناصية كثيرٍ من المدارس فاضطر إلى أن يُنادي : (مَنْ ذكر غير التفسير والفقهِ أو تعرَّض لكلام الفلاسفة -أمثال الآمدي- نفيته) ،

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٦٨

(٢) تاريخ الإسلام - ١٨٧ وفيات سنة (٦٤٠-٦٥٠ هـ)

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٣٦٥ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٢٨٥

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٣٦٥

وقد نفَّذ الأشرَف تهديدَه ، فطُرد الآمديّ من التدريس في مدرسة العزيزية ، وأُخذ ذكره إلى أن مات^(١).

ويذكر ابن كثير أنه لما ملك الأشرَف موسى بن الملك العادل دمشق سنة ٦٢٦ هـ نادى مناديه فيها ألا يشتغل أحدٌ من الفقهاء بشيءٍ من العلوم سوى التفسير والحديث والفقهِ ، ومَن اشتغل بعلوم الأوائل نُفي من البلد^(٢).

وكان الشيخ المحدثُ أبو عمرو بن الصلاح شديد التنديد بعقائد الفلسفة ، وبينَ خطرَها في إفساد العقائد السليمة . قال في فتاويه: (الفلسفة رأسُ السفه والإنحلال ومادةُ الحيرة والضلال ، ومثارُ الزبغ والزندقة ، وأمَّا المنطقُ فهو مدخلُ الفلسفة ، ومدخلُ الشرِّ شرٌّ ، واستعمال الاصطلاحات المنطقيّة في مباحث الأحكام الشرعية من المنكرات المستبشعة)^(٣).

وذكر الشيخ ابن تيمية في فتاواه أنّ الشيخ ابن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من الآمدي هذا ، وقال مبيّناً خطر الآمدي على الناس: "أخذها من الآمدي أفضلٌ من أخذ عكا"^(٤).

أما السهروردي الساحر فقد أشاع نِخلته التي تنصّ على التعطيل والإلحاد ، وكان يعتمد مذهب الحكماء المتقدمين ، وذاع شأنه في حلب ، وناظر الفقهاء ، وحاول أن يغلبهم ، ولقد خاف العلماء أن يُفسد اعتقاد الملك الظاهر بن صلاح الدين ، فبعثوا إلى السلطان صلاح الدين محاضر بكفره ، وخوِّفوه أن يُفسد الساحرُ اعتقادَ ولده ، فكتب السلطان إلى ولده بخطّ الفاضل يأمره بقتله ؛ لأنه متهمٌّ بالإنحلال والتعطيل ، كما أن كُتبه ليست من علوم الإسلام^(٥)، فنفَّذ الظاهر أمر والده وقتله

(١) البداية والنهاية - ٢٣٣/١٧ ، سير أعلام النبلاء - ٣٦٥/٢٢ ، الدارس في تاريخ المدارس - عبد القادر بن محمد النعيمي ،

تحقيق: جعفر الحسني - ٣٩٢ / ١

(٢) البداية والنهاية - ١٥٨ / ١٣

(٣) فتاوى ابن الصلاح - تحقيق عبد المعطي قلججي - ٢٠٩ / ١

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية - جمع عبد الرحمن قاسم - ٧ / ٩

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية والمحاسن اليوسفية - ١٠ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٣ ، سير أعلام

النبلاء - ٢١ / ٢٠٨ ، تاريخ الإسلام - ٧٤ وفيات سنة (٦٣٠-٦٤٠ هـ) ، العبر في خبر من عبر - ٩٦ / ٣ ، الدارس في

تاريخ المدارس - ٣٩٢/١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٢٩٠/٤

صبراً ، وأُحرقت جُثته^(١). وما تَصَرَّف صلاح الدين هذا مع ذلك الساحر إلا مظهرٌ لسلامة عقيدته، وبغضه الشديد لكتب الفلاسفة والمنطق^(٢).

وقد عُرف عن الملك الكامل هذا الاتجاه نفسه ، فكان يُعادي مَنْ يشتغل بعلوم الأوائل والفلسفة^(٣).

ومن العلماء الذين يُذكرون بالشدّة على مَنْ يشتغل بكتب المنطق والجدل والفلسفة : محمد بن عليّ الزكي أبو الفضل القرشي الدمشقي الشافعي المتوفّي سنة ٥٩٨هـ^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٢١٤

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٣

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٢٨٥

(٤) تاريخ الإسلام - ٣٦٩ - وفيات سنة (٥٩١ - ٦٠٠ هـ)

المنجمون

تعلق كثير من الناس في هذا العصر بما يتنبأ به المنجمون ، وتابعوا أخبارهم وتطلّعاتهم بشغفٍ واهتمام ، ولقد كان لهم بضاعةٌ رائجةٌ وتأثيرٌ كبيرٌ في العقول .

ومن ذلك أن المنجمين أجمعوا على أنّ شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ هـ سيكون فيه نهاية للعالم ، وأنه سوف يُصيبه الخراب والدمار ، وسوف تقتزن الكواكب السيارة في برج الميزان ، فتؤثر تأثيراً مباشراً يُؤدّي إلى اضمحلال العالم ، وسوف تهبّ سَمومٌ مُحرقَةٌ تحمل رملاً أحمرّاً ، بل إنهم عيّنوا يوماً لِمَا أسموه ربح عاد ، وشرعوا في حفر مغاراتٍ في التخوم ، وتعميق بيوتٍ في الأسراب وتوثيقها وسدّ منافذها على الريح ونقلوا إليها الماء والأزواد وانتقلوا إليها^(١) فتأثر الناس من ذلك كثيراً ، وخافوا منه خوفاً عظيماً .

ولكنّ صلاح الدين تبرّأ من أباطيلهم ، وقابل تنبؤاتهم بالرفض ، ولم تتؤثر تنبؤاتهم فيه . وفعلاً مرّت السنة كلّها هادئةً راسخةً ، ولم يحصل شيءٌ من كلامهم^(٢) . يقول أبو شامة: "وقد شارفنا الميعاد ونحن جلوس عند صلاح الدين في فضاء واسع ، وما تحرك نسيم ، وما رأينا مثلها في ركودها وركونها وهدوئها"^(٣) .

وقد يواجه هؤلاء المنجمون صلاح الدين في تحركاته الحربية ، ويُحذرونه من عاقبتها ، فعندما نزل المسلمون مدينة صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان ، فقال له صلاح الدين : "أنا أجيء إليكم" فقال له المنجمون: "إنّ رؤيتنا تنصّ على أن تذهب عينٌ واحدة منك" ، فأجابهم مُصرّاً على موقفه الشجاع: "قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد"^(٤) .

وقد عرف المحيطون بصلاح الدين أنه لم يكن يُصغي إلى المنجمين^(٥) . وفي هذه المناسبة قال الشاعر أبو الغنائم محمد بن المعلم ، وهو يخاطب المنجم المعروف بأبي الفضل:

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ١٠١/٦ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢٦٣ / ٣

(٢) تاريخ الإسلام - ١٠ وفيات سنة (٥٨١-٥٩٠ هـ)

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢٦٤ / ٣

(٤) المصدر السابق - ٣ / ٣٢٩ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٢٧٥/٤ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢٨

(٥) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٦٥٩

قل لأبي الفضل قولَ معترفٍ مضي جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزع كما حكموا ولا بدا كوكب له ذنب^(١)

وعندما وصل السلطان صلاح الدين إلى دمشق من بعلبك فأقام فيها ، كان العام عامَ جَدْب ،
فقييل للسلطان: "هذا العام ليس عام جهاد ، فإن استمنحوك السلام فامنحهم ، وإن جنحوا للسلم
فاجنح لها" ، فقال السلطان: "إنّ الله أمر بالجهاد وتكفل بالرزق ، فأمره واجب الامتثال ، ووعدده
ضامن الصدق ، فنأتي بما كلفنا به لنفوز بما كفله لنا ، ومن أغفل أمره أغفله"^(٢)

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ١٠١/٦

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١٩ / ٣

الوقوف أمام المنكرات العقديّة

تمرّ بنا في عصر الدولة الأيوبية نماذج كثيرة تُمثّل الوقوف أمام المنكرات ومحاربتها بشتّى الوسائل لأنها غريبة عن مذهب أهل السنّة والجماعة ، كما أن سرّياتها في أوساط المجتمع يجلب لهذا المجتمع انقطاعه عن منهج الوحي الذي جاء بالعقيدة الصحيحة البعيدة عن كلّ ما يشوبها .

ومن ذلك : ما حدث مع الملك الأجدد بعد وفاة الإمام اليونيني ، فقد أخذته الحماسة ، وهَمَّ ببناء بِنْيَانٍ على قبره ؛ ليشاهد الناس منه آية ، ولكنّ فئة من علماء عصره راجعوه في هذه الغفلة ، ووصفوها بأنّها ليست من السنّة^(١).

ولما توفي صلاح الدين الأيوبي همّ الكثيرون من المشييعين بحمّله على أعناقهم ، تعبيراً عن حبّهم له وإكبارهم ، فقال ابنه الأفضل : كَفَّفْتُهُ أدعيّتكم الصالحة التي هي في المعاد جنّته^(٢).

وقد يعرّض أحد المبتدعة مشهداً يجذب العامة ويثير اهتمامهم ، وقد يجعلهم ينساقون إلى ما معه من الأباطيل والشبهات ، فقد نقل صاحب بدائع الزهور أنّ صلاح الدين قد نزل الميدان ، فجاءه رجلٌ أعجميٌّ وطلب من صلاح الدين أن يُريّه بعض العجائب ، وهي أن يصعد في الهواء ، ويُنزل جسمه قطعة قطعة ، فأثار إعجاب العامّة وأذهلهم ، فما كان من أحد أمراء صلاح الدين المعروف بسنقر إلا أن حنق عليه ، وجرد سيفه ، وضرب عنق هذا المشعبد وقال : "مِثْلُ هَذَا لَا يُؤْمَنُ أَنْ يَكُونَ جَاسُوساً لِلْفَرَنْجِ" ، كما همّ سنقر أن يضرب عنق رفيقه إلا أنه زعم أنه لا يعرف شيئاً عن صاحبه ، فطلب منه الجند أن يخرج^(٣).

ومن البدع التي كان لها سوق رائجة ما سُمّي بصلاة الرغائب ، وصالاة النصف من شعبان ، فوقف الإمام العز بن عبد السلام - وهو أحد العلماء الذين عاصروا الدولة الأيوبية - من ذلك موقفاً شديداً ، فأفتى بمنع ذلك وقال : (إنّ صلاة الرغائب موضوعة على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبٌ عليه)^(٤).

(١) البداية والنهاية - ١٧ / ١٠٤

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٦٨

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٤٥

(٤) طبقات الشافعية الكبرى - عبد الوهاب السبكي - ٨ / ٢٥١

ومن المواقف المشهورة للعز بن عبد السلام في حرب مظاهر البدع: أنه لما ولي خطابة دمشق خطب خطبة بليغة خالية من البدع ، فقد كانت البدع تكتنف البلاد من كلِّ جانب ، وأزال الأعلام المذهَّبة ، وأقام عوضها أعلاماً سوداً ببيض ، ولم يؤدِّن قدامه سوى مؤدِّنٍ واحدٍ^(١).

وقد صاغ العزّ قاعدةً ذهبيةً في ردِّ البدع فقال: "وليس ردُّ البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن، فإن الله أمر العلماء بذلك وأمرهم ببيان ما علّموه"^(٢)، وقال أيضاً: "القيام للمصحف بدعة لم تُعهد في الصدر الأول" ، مع أن الإمام النووي كان يستحب ذلك ويرى أن في هذا القيام شيئاً من التعظيم^(٣)، وكان العزّ يُعرف بقامع البدعة^(٤).

ومن العلماء الذين وقفوا أمام مدِّ الابتداع الذي عشنش في أوكار كثيرٍ من البيئات في هذا العصر: الإمام الطرّاز ، فقد أوصى ألا يُقرأ على قبره ولا يُبنى عليه ، وكان هذا الإمام ممن وضع الله له وُدّاً في قلوب العباد ، كما كان مُعظماً عند جميع الناس^(٥).

ومن الأئمة الفضلاء الذين عُرفوا برفض البدعة وردّها : الإمام السُّلَفيّ ، فقد ذكر الذهبي أنه كان أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر حتى إنه أزال من جواره منكرات كثيرة ، وقد رآه الذهبي يوماً وقد جاءه جماعةٌ من المقرئين بالألحان ، فأرادوا أن يقرؤوا ، فمنعهم وقال: "هذه القراءة بدعة بل اقرؤوا ترتيلاً" ، فقرؤوا كما أمرهم^(٦).

(١) تاريخ الإسلام - ٣٧ وفيات سنة (٦٣٠-٦٤٠ هـ)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٧٣

(٣) العزّ بن عبد السلام - ١١٥

(٤) ذيل الروضتين - للحافظ أبي شامة المقدسي - ١٧٠

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٦٠

(٦) المصدر السابق - ٢١ / ٢٥

الحرص على العقيدة الصحيحة

كان من بين ملوك العصر الأيوبي رجالٌ عُرفوا بحسن الاعتقاد والحرص على طلب العقيدة الصحيحة ، واجتهدوا في دراستها دراسة علمية تتسم بالحرص على كسبها ، ومن ثمّ تطبيقها وتعليمها . وأول الملوك الذين يُشار إليهم بالبنان في حُسن الاعتقاد: صلاح الدين ، فقد وصفه المؤرّخون بأنه: "كان حسن العقيدة كثير الذكر لها ، أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم ، وكان بعيداً عن كَدْر التشبيه ، وبعيداً عن التعطيل"^(١).

كما كان أيضاً -رحمه الله- كثير التعظيم لشعائر الدين ، يقول بيعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، مُصدّقاً بجميع ما ورد به الشرع ، مُنشرحاً بذلك صدره ، مبغضاً للمُعطلّة ولكلّ مَنْ يُعاند الشريعة^(٢).

وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدّة حرصه عليها يُعلّمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصِغر^(٣). يقول ابن شدّاد : "ورأيتُه وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم"^(٤)، كما ذكر رحمه الله : "أنّ السلطان كان يُلمّ بكل ما يدور في مجلسه من أحاديث الفقه ، فيشارك فيها برأيه ويقول قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل له من ذلك سلامة عقيدته من كَدْر التشبيه"^(٥)، كما أن أسامة بن منقذ-أحد معاصريه- كان يقول عنه: "أحيا سنّة الخلفاء الراشدين"^(٦).

أما الملك المعظم بن العادل فذكر الذهبي أنه كان يقول: "اعتقادي في الأصول ما سطره الطحاوي" ، وأوصى ألا يُبنى على قبره ، ولما مَرِضَ مَرِضَ الموت كان يقول: "لي في قضية دميّاط ما أرجو به الرحمة"^(٧)، كما أمر أن يُكفّن في البياض ، وأن يُلحد له ، ويُدفن في الصحراء^(٨)، وأمر أن

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٧ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٢

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٠

(٣) وفيات الأعيان ٥ / ١٩٥-١٩٦ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٤٢ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٢

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٧

(٥) المصدر السابق - ٥

(٦) كتاب الاعتبار - ١٨٤

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٠

أن يُرتَّب له مسند الإمام أحمد بن حنبل^(٢). وقد وُصف أبوه الملك العادل بأنه كان حسن العقيدة ، وكان يُحافظ على أداء الصلوات في أوقاتها ، ويحرص على نشر السنّة^(٣).

ومن الملوك الذين كان لهم نفس الاتجاه العقدي الحسن: الملك الصالح ، فقد وُصف بأنه كان حسن العقيدة ، كثير الميل إلى العلماء ، وكان لا يُسمع منه شتيمة^(٤).

وكذلك الحال بالنسبة للملك الأشرف ، فقد قيل إنه كان حسن العقيدة ، جميل الطويّة ، يميل إلى أهل الدين والصلاح والعلم^(٥). كما وُصف الملك الكامل بأنه كان مُعظماً للسنّة ، راغباً في نشرها والتمسك بها^(٦). والأمير مظفر الدين كوكوري أيضاً منهم ، فقد كان حسن العقيدة ، سالم البطانة ، شديد الميل إلى أهل السنّة والجماعة ، لا يعطي أرباب العلوم شيئاً سوى الفقهاء والمحدثين ، ومنّ عداهما لا يعطيهم شيئاً إلا تكلفاً^(٧).

وكان يعيش في هذا العصر أئمة من أتباع منهج الهدى والصلاح ، حرصوا أشدّ الحرص على التمسك بالعقيدة النقية الصافية ، والدعوة إليها وتعليمها ، ومن هؤلاء الحافظ العماد المقدسي ، قال عنه الذهبي: "كان داعية إلى السنّة ، يُمرّ آيات الصفات من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل"^(٨). ومنهم أيضاً الشيخ ابن قدامة الذي كان حسن الاعتقاد ، على قانون السلف^(٩).

ومنهم أيضاً الشيخ مُوفق الدين المقدسيّ ، فقد وصفه الحافظ ابن كثير بأنه كان مُتبعاً لطريقة السلف الصالح^(١٠). ومن هؤلاء : الشيخ ابراهيم بن عبد الواحد ، والشيخ الطراز فقد وصفه الذهبي

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٥٨٠

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ١٦٧

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٩٤

(٤) كنز الدرر وجامع الغرر - ٧ / ٣٧١

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٩٢

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٧-١٢٩

(٧) وفيات الأعيان - ٤ / ١١٩

(٨) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٥١ ، ١٦٥

(٩) تاريخ الإسلام - ١٨٢ وفيات سنة (٦١٠-٦٢٠ هـ)

(١٠) البداية والنهاية - ١٧ / ١١٦

بأنه: "كان من أشدّ الناس بُغضاً لأهل الأهواء والبدع"^(١)، أما خطيب دمشق الدوّلي فقد عُرف عنه أنه كان شديداً على الرافضة^(٢).

وعلى نهج هؤلاء الأفاضل كان ابن القابلة الحنبلي ، فقد كان شديداً على أهل البدع ، أماراً بالمعروف^(٣). كما سار على نهجهم أيضاً الضياء المقدسي الذي وصفه الذهبي بأنه: "كان أماراً بالمعروف ، مجتهداً في نشر السنة"^(٤) ، ومن المبرزين منهم : محمود بن همام الدمشقي الذي وُصف بأنه كان لأهل السنة مناصراً^(٥).

ومن وُصف أيضاً أنه كان أماراً بالمعروف داعية إلى السنّة : الحافظ عبد الغني ، والذي ابتلي بفتنة الأشاعرة في سنة ٥٩٥ هـ ، فقد قاموا عليه وأفتوا بقتله ، فأخرج من دمشق طريداً^(٦) ، وما دارى^(٧). وعندما رُفع أمر الحافظ عبد الغني المقدسي للملك الكامل - وقد اتّهمه بعض أهل العلم باتهامات عقديّة باطلة - أمره أن يكتب اعتقاده الذي يعتقده ، فكتب الحافظ يقول: "أقول كذا وكذا لقول الله تعالى : كذا ، وأقول كذا وكذا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: كذا" حتى فرغ من كلّ المسائل التي يُخالفه فيها بعض أعدائه ، فلمّا اطّلع الملك الكامل على ما كتبه الحافظ عبد الغني قال: "أيش أقول في هذا ، يقول بقول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم" ، ونحلي سبيله^(٨).

وقد ذُكر أنّ الموقّق ابن قدامة لما بلغه عمّا يُشاع عن الحنابلة في موضوع التشبيه قال: "التشبيه مستحيل لأنه من شرط التشبيه أن نرى الشيء ثم نُشَبِّهه ، من الذي رأى الله ثم شَبَّهه لنا"^(٩).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٦٠

(٢) المصدر السابق - ٢٣ / ٢٥

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٢٤٠

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ١٢٦

(٥) تاريخ الإسلام - ٨٥ وفيات سنة (٦٣١-٦٤٠ هـ)

(٦) العبر في خبر من عبر - ٣ / ١١٠ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٣١٩ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٤٣

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٥ ، ٤٦٣ ،

ومعنى ما دارى: أي إنه لم يُدار ، ولم يتهاون في الثبات على قوله .

(٨) تاريخ الإسلام - ٤٥٦ - وفيات سنة (٦٠٠-٦١٠ هـ)

(٩) المصدر السابق - ٤٩٢ - وفيات سنة (٦١٠-٦٢٠ هـ)

وقد ذكر الذهبي عن الحافظ اليونيني أنه لما سمع ما يُقال عن الحنابلة قال: "عزمت على سؤال الشيخ الموفق ، وبقيت أشهراً أريد أن أسأله ، فقال لي : التشبيه مستحيل" ^(١).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٦٥

مخالفات بعض ملوك الدولة الأيوبية

يلحظ المتأمل في النصوص التاريخية التي تتحدث عن ملوك العهد الأيوبي وأمرائه : وقوع جانب من المخالفات العقدية التي تُخالف منهج السلف في الاعتقاد والتطبيق ، وقد يكون سبب هذا عُمق هذه المخالفات في نفوس بعض الأمراء والعلماء ، والذهاب إلى جوازها والسكوت عنها ، بل الدعوة إلى إقامتها ، وضعف من يعارضها.

ومن ذلك ما روي أن صلاح الدين هو أول من اتخذ قيام المؤذنين أواخر الليل ، وطلوعهم إلى المآذن للتسبيح حتى يطلع الفجر^(١).

وإذا ثبت ذلك ، فإن الكمال لله ، ولا يجوز أن نتقرب إلى الله بما لم يشرعه ، وكل عمل لم يكن عليه الهدي النبوي فهو مردود على أصحابه ، ولا ندري ما الذي جعل العلماء في عصره يسكتون على أمثال هذه الزيادات في العبادات ، وهذا ما لم يعرفه السلف .

وقد ذكر ابن واصل في "مفرج الكرب" أن الملك المظفر كوكبوري قد أحيا بدعة المولد النبوي^(٢)، وكان في يوم المولد يُخرج المواشي ، ويُرَقُّها بالطبول والمغاني ، ويُشعل الشموع^(٣).

وقد روي أنه أول من احتفل بالمولد النبوي ، وجمع له أبو الخطاب ابن دحية أخبار المولد ، فأعطاه ألف دينار ، وكان ينفق في كل سنة على الاحتفال بالمولد النبوي ثلاثمئة ألف دينار ، قال ابن خلكان -وقد كان والده في ديوانه-: "وأما احتفاله بالمولد ، فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، كان الناس يقصدونه من الموصل وبغداد وسنجار والجزيرة وغيرها خلائق من الفقهاء والصوفية والوعاظ والشعراء ، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل ربيع الأول ، ثم تنصب قباب خشب نحو العشرين ، منها واحدة له والباقي لأعيان دولته ، وكل قبة أربع أو خمس طبقات ، ثم تزين في أول صفر ، ويقعد فيها جوق المغاني والملاهي وأرباب الخيال ، ويطل معاش الناس للفرجة. وكان ينزل كل يوم في العصر ، ويقف على قبة قبة ، يسمع غناءهم ، ويتفرج على خيالاتهم ، ويبيت في الخانقاه يعمل السماع ، ويركب عقيب الصبح يتصيد ، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر ، هكذا يفعل

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٤٧

(٢) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥١

(٣) المصدر السابق - ٥ / ٥٥

كل يوم إلى ليلة المولد ، وكان يعمله سنة في ثامن الشهر وسنة في ثاني عشرة منه للاختلاف ، فيخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً زائداً عن الوصف ترافقها الطبول والمغاني إلى الميدان ، ثم تنحر وتطبخ الألوان المختلفة ، ثم ينزل وبين يديه الشموع الكبيرة ، وفي جملتها شمعتان أو أربع من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة على بغل يسندها رجل ، حتى إذا أتى الخانقاه نزل. وإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع على القلعة على أيدي الصوفية في البقج، فينزل شيء كثير ، ويجتمع الرؤساء والأعيان وغيرهم ، ويتكلم الوعّاظ ، وقد نصب له برج خشب له شبايك إلى الناس وإلى الميدان - وهو ميدان عظيم يعرض الجند فيه يومئذ- ينظر إليهم تارةً وإلى الوعّاظ تارة ، فإذا فرغ العرض مدّ السّماط في الميدان للصعاليك وفيه من الطعام شيء لا يحُدُّ ولا يوصف ، ويمدّ سماًطاً ثانياً في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي ، ولا يزالون في الأكل ولبس الخلع وغير ذلك إلى العصر، ثم يبيت تلك الليلة هناك ، فيعمل السّماعات إلى بكرة^(١).

أما الملك الظاهر فقد كان مُولعاً بالنجوم ، فأخبر أنه سيموت ملكاً في هذه السنة بالسّم ، فوجّه لذلك^(٢).

ولعلنا نذكر الحرب الشعواء التي شنتها أهل التأويل على الحافظ عبد الغني الجماعيلي المقدسي إلى درجة أنهم أباحوا دمه ، وقالوا فيه قولاً شديداً حتى حملوه على الخروج من دمشق إلى مصر^(٣)، واتهمه فقهاء مصر بالتجسيم والتشبيه ، وقالوا عنه: "يُفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم" ، فكتب الوزير بنفيه إلى المغرب ، فمات الحافظ قبل وصول الكتاب . ولكن الذهبي استبعد موضوع تكفيره وإباحة دمه ، واتهم من يذكر ذلك عنه بقلة الورع فيما يُؤرّخ^(٤).

وقد يتصرّف الملك بتصرّفٍ قد يراه هو ومن حوله من مستشاريه تصرّفاً سليماً ، مع أنّه في ميزان العقيدة الصحيحة باطل ، ومن ذلك : ما ذكره عن الملك الكامل أنّه عمّر قبةً على ضريح الشافعي^(٥). أما الملك الأشرف فقد حدثت بينه وبين العز بن عبد السلام واقعة انتصر فيها العز، وأظهر الله الحقّ ، وخذل الباطل .

(١) وفيات الأعيان - ٤ / ١١٧

(٢) المنهل الصافي - يوسف بن تغري بردي - تحقيق: د/ محمد محمد أمين - ٧ / ٣٦٤

(٣) تاريخ الإسلام - ٤٤٣ - وفيات سنة (٥٩١-٦٠٠ هـ) ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٦٠

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٦٣

(٥) تاريخ الإسلام - ٢٥٤ - وفيات سنة (٦٣٠-٦٤٠ هـ) ، السيف المهتد في سيرة الملك المؤيد - ٢٠٠

وتتلخص هذه الواقعة في أن جماعة من المبتدعة أوغروا صدر الملك الأشرف على الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، واستطاعوا أن يُقنعوه بأن العز مبتدع يتكلم في مسائل عقديّة كلامية ، ويُخالف أهل السنّة فيها. فما كان من الملك الأشرف إلا أن أرسل إلى العز يسأله عن رأيه في مسائل الكلام ، فقدم الشيخ رحمه الله للملك كتاباً كتب فيه مذهبه واعتقاده في هذه المسائل ، والذي هو بلا شك الاعتقاد الموافق لمذهب أهل السنّة ، فلم يقتنع الملك الأشرف بكتاب العزّ ، وأمره بلزوم بيته ومنعه من الفتيا والاجتماع بأحد . عندها قام العلماء والقضاة المعاصرون للعز بإعداد منشور يبيّن فيه صحة ما ذهب إليه العزّ ، وموافقته لمذهب أهل السنّة ، وأنّ ما عداه بدعة وضلالة ، وقدّموه للملك الأشرف ، فاقتنع الملك ، وعاد إلى صوابه ، وكشف الله عن بصيرته ، وأدرك الفتنة التي حرّكها المبتدعة ، وأرسل إلى الشيخ واسترضاه وطلب محالّته . فاجتمع الشيخ عز الدين بالأشرف وعنّفه قائلاً له: "تساوي بين أهل الحقّ وأهل الباطل؟! وتمنع أهل الحقّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! وكان الطريق أن تُمكن أهل السنّة أن يُلحنوا بحججهم ، وأن يُظهروا دين الله ، وأن تُمكن الموحّدين من إرشاد المسلمين ، وأن يُبينوا طريق المؤمنين"^(١).

وفي المقابل وقعت فتنةٌ بين بعض علماء الشافعية والحنابلة بسبب الاختلاف في العقائد ، وكتب عز الدين بن عبد السلام إلى الملك الأشرف يقع فيهم ، فكتب له الأشرف: "يا عز الدين الفتنة ساكنة ، لعن الله مثيرها"^(٢).

ومما تقدّم يتبيّن لنا كثيرٌ من الجوانب المشرقة في جانب العقيدة في عهد الدولة الأيوبية ، فقد عزّت عقيدة أهل السنّة في أرجاء هذه الدولة المباركة بعد أن قضى ملكهم الصالح صلاح الدين على الدولة العبيدية الباطنية التي عششت ما يُقارب من ثلاثمئة سنة ، وفي القضاء عليها تنحسر عقائدها التي راموا أن يفرضوها على الشعب. كما مرّ بنا أيضاً مقاومة الدولة الأيوبية لنحلّ باطنية أخرى ، كما شهد العصر الأيوبي جهود كثيرٍ من العلماء الذين عُرفوا بسلامة العقيدة، فكانوا يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر .

كما أننا لا نعدم في هذا العصر مظاهر سيئة للعقيدة غير الصحيحة متمثلة بانتشار التنجيم والكهانة وإحياء البدع ، وظهور الاحتفال بمظاهر ما أنزل الله بها من سلطان ، كما أنّ مظاهر سيئة

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٣٣ - ٢٣٧

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٦

للتعصّب المذهبي أسفرت عن وجهها وأدّت إلى شحناء وبغضاء بين أهل العلم ، ولكنّ العصر في الجملة كان أقرب إلى سلامة العقيدة ، وكان حُكّامه أقرب إلى مساندة أهل السنّة والجماعة ودراستها وتطبيقها وتدريسها والدعوة إليها ، ويكفي ملوك هذه المدة فخراً أنّهم قضوا على دولة الروافض ، وفساد عقائدهم بعد استحكامهم ردها من الزمان.

المبحث الثاني موضوع الشريعة

تمهيد

تبين في المبحث السابق الاهتمام الكبير الذي أولته الدولة الأيوبية لموضوع أساس الدعوة وهو العقيدة ، وحرص هذه الدولة على تثبيت دعائم العقيدة وتوطيد ركائزها . ومما يلاحظ على هذه الدولة في باب موضوع الدعوة اهتمامها -ملوكاً وعلماء- بالشرعية، وتعظيمها لركائز هذا الدين القويم ، وسعيها الحثيث إلى الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه ، والدعوة إلى تطبيق أحكام الكتاب والسنة ، واستفتاء العلماء والرجوع إليهم في الفتاوى والأحكام ، وحرصهم على مجالستهم والاستماع إليهم .

يقول د/ ماجد الكيلاني: (ومما يدل على تعلقهم بالدين اختيارهم لأسمائهم على نحو يتفق مع هذه النزعة ، فكانوا يختارون عماد الدين وسيف الدين وصلاح الدين وهكذا . كما يدل على ذلك التعلق حرصهم على الجهاد والاستشهاد ، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد ، أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة ، كما فعل أسد الدين شيركوه ، وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين)^(١) .

ومن يتتبع نشأة الدولة الأيوبية وقيامها على أنقاض الدولة العبيدية الراضية يلمس بوضوح الأساس الشرعي الذي قامت على أساسه هذه الدولة السنية ، فقد كان مؤسسها الرجل الصالح صلاح الدين الأيوبي معنياً كل العناية بإقامة دولة مسلمة قائمة على نهج الكتاب والسنة ، وكان معنياً طوال مدة حكمه بازدهار الشرع الحنيف ، ولا ننسى أنه ورث ميراثاً عريضاً من الجهل المطبق ، والبعد الشاسع عن ينابيع الشريعة الصافية ، ولذلك كان أمامه طريق طويل من الإصلاحات المتنوعة، وقد ساعده في ذلك انتقاؤه للبطانة الصالحة من أمثال القاضي الفاضل وطبقة العلماء الذين كان يعتد بمشورتهم ، وفي الصفحات التالية سوف أبين مظاهر عناية الدولة الأيوبية بجانب الشريعة.

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٦

المطلب الأول

تعظيم أوامر الشريعة الإسلامية

أولاً : الاهتمام بأصول الدين الإسلامي وركائزه الأساسية

اهتم الأيوبيون اهتماماً كبيراً بأصول الإسلام العظيمة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ويذكر صاحب "النوادر السلطانية" - وكان قاضياً لعسكر صلاح الدين ولازمه ملازمةً تامةً ، ويروي سيرته عن مشاهدة مباشرة - أنّ صلاح الدين كان شديد المواظبة على الصلاة بالجماعة ، حتى إنّه ذكر يوماً أنّ له سنين ما صلّى إلا في جماعة . وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ، ويكلّف نفسه القيام ويصلي جماعة . وكان يُواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يُصَلِّيها إذا استيقظ في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح . كما ذكر أنه رآه يُصَلِّي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي غاب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى^(١) . أما صاحب كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" فذكر أن صلاح الدين كان شديد التمسك بالشريعة ، وله إمام راتب^(٢) .

إنّ وليّ أمر المسلمين هذا شأنه: مداومة على صلوات الجماعة ، وقيام ليل ، وحرص أكيد على أداء النوافل ، وعدم ترك الصلاة إلا عند غياب الذهن ، وهو مقتدٍ برسول صلى الله عليه وسلم، مُسْتَقِّم من توجيهاته الكريمة حين حض المسلمين على هذا الركن العظيم.

أما الملك المعظم -رحمه الله- فكان يقول: (ما فاتني صلاة قطّ)^(٣) . وكذلك الأمر بالنسبة للملك المظفر -رحمه الله- فقد ذكر عنه ابن واصل أنه: (كان قائماً بوظائف الصلوات في أوقاتها)^(٤) . ومثلهم كان شيركوه أمير حمص ، فقد روي أنه كان يلازم الصلاة في وقتها^(٥) . وهكذا نلاحظ أن أولاد السلطان وأقرباءه سائرون على منهجه من حيث الالتزام الكامل بهذه الفريضة العظيمة وهذا نتاج التربية الإسلامية واليقظة في تطبيق أحكامها ، على الرغم من أنّ شأن الملك أن تتفتّح الدنيا بمباهجها على الحاكم ، مما يجعله أحياناً ينسى واجبه تجاه ربّه .

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية -٧-٨ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٧

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك في معرفة الملوك - ١ / ١١٣

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٨٥

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥١

(٥) تاريخ الإسلام - ٣٢٨ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ)

أما اهتمام ملوك الدولة بالزكاة فتذكر كتب التاريخ أنّ صلاح الدين كان أول من جباها في مصر ، فسرى نظامها إلى الشام وبلاد الجزيرة ، وجرى توزيعها حسب الوجوه المقررة في الشريعة^(١) ، وهذا يعني أن هذه الفريضة كانت غائبة عن التطبيق العملي قبل تمكّن هذه الدولة.

ومما يُروى في ذلك أنه في سنة ٥٧٧ هـ ورد إلى السلطان طائفة من تجار عدن ، فطلب منهم زكاة أربع سنين^(٢).

وقد ذكر صاحب "النوادر السلطانية" أن صلاح الدين مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال ، فإنه ملك ما ملك ولم يُخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك^(٣).

أما صوم رمضان فقد تحدث عن حاله فيه أبو شامة فقال: (كان السلطان إذا دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحفظه ، واشتغل بالصيام والتقليل من الطعام)^(٤).

كما روى ابن شداد حرص السلطان -رحمه الله- على قضاء ما فاته من رمضان مع ما به من تعب ومرض فقال: (كان على صلاح الدين منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام ، وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها ، وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ، ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ، ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم ، وأنا أثبت الأيام التي يصومها لأن القاضي كان غائباً ، وكان الطبيب يلوم وهو لا يسمع ويقول لا أعلم ما يكون ، فكأنه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى)^(٥) ، ولعل مقصوده من قوله: (ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه): أنّ ضعف جسم السلطان ونحوه في هذه المرحلة من العمر بعد الشدائد التي لاقاها ، تجعل الصيام يحتاج منه إلى جهد ومصابرة وطاقة كبيرة.

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٣٨٠

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٢

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣/٢٣٥

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨

أما عن الحج الركن الخامس لشرع الله القويم فبعد أن وقع صلاح الدين الصلح والهدنة بين المسلمين والفرنج ، أشاع - رحمه الله - أن طريق الحج قد فُتِح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس ، وصمّم على إبراء الذمّة منه^(١).

وشرع - رحمه الله - يُرتّب الأمور لأداء هذا الركن العظيم ، فأمر أن يُحمل له في المراكب كلّ ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات والثياب والكِسوات ، فقليل له: (هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث ، وهذه المعازل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور ، ولا تغترّ بعقد الهدنة فإن القوم على ترقّب المكنة والغدر دأبهم) ، وما زال به الجماعة حتى حلّوا عزمه على الحج^(٢). وهكذا كان السلطان قاب قوسين أو أدنى من أداء فريضة الحج هذا العام لولا أن مستشاريه ، وهم طائفة من علماء الشريعة ورجال الحرب ، أثنوه عن عزمه بسبب ظروف الحصار وصدّ الفرنجة ، وحالة التعبئة التي كانت الدولة الإسلامية تمرّ بها.

ولقد حرص قاضي السلطان الخاص: القاضي الفاضل على أداء هذه الشعيرة المباركة ، فبعث إلى السلطان يستأذنه في السفر إلى مكة للحج ، فأذن له وبعث له برقعة في سطر البسملة بخط السلطان - رحمه الله - ما صورته: (على خيرة الله تعالى ، ياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً)^(٣)، والسلطان هنا صادق في حسرته على فوات الحج ، وعدم لحاقه بركب إخوانه من الحجاج إلى بيت الله العتيق ، فكُتِب التاريخ تذكراً أن السلطان حزن كثيراً لعدم إقامته لهذا الركن العظيم من أركان الدين الإسلامي ، فقد اجتمع مع الحُجَّاج بعد عودتهم من الحج وبكى وتأسّف لفوات الحج^(٤).

ويُوضّح لنا القاضي ابن شداد السبب الذي منع السلطان من أداء الحج فيقول: (وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه وناوياً له سيّما في العام الذي توفي فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ، ولم يبق إلا المسير ، فعدل عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وخلو اليد ، عما يليق بأمثاله ، فأخّر إلى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى ، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام)^(٥)

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣٢٩/٤ - ٣٣١

(٢) المصدر السابق - ٣٣٩/٤

(٣) المصدر السابق - ٢٤/٣

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٧٩

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨-٩

ثانياً: الحرص على استفتاء العلماء

إن الفتوى من الأمور الجليلة الخطيرة ، التي لها منزلة عظيمة في الدين ، قال تعالى: (وَدَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۗ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَالِمًا) (١)، وقال تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۗ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَوَلَدٌ لَهُ وَوَلَةٌ لَهُ وَاتُّمَّتْ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۗ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَوَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أَثْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۗ وَإِن كَانُوا إِحْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢)، والنبى صلى الله عليه وسلم كان يتولّى هذا الأمر في حياته ، وكان ذلك من مقتضى رسالته ، وكلفه ربه بذلك قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٣)، والمفتي خليفة النبي صلى الله عليه وسلم في أداء وظيفة البيان. وقد وعى دعاة العصر الأيوبي هذا الأمر جيداً ، فكانوا حريصين على استفتاء العلماء ، والرجوع إليهم فيما يُشكّل عليهم في أمورهم .

وبالمقابل كان علماء الدولة الأيوبية حريصين على إصدار الفتاوى عند الحاجة إليها كالعز ابن عبد السلام ، ومن الأمثلة على فتاويه :
(لا يجوز ترك السنة بحجة أن بعض المبتدعة يطبقونها ، إذ لا يُترك الحق لأجل الباطل) ، و (لا خير في ورع يؤدي إلى إسقاط فرائض الله) (٤).

ومن أبرز الحكّام الذين حرصوا على استفتاء العلماء السلطان صلاح الدين ، فقد روي أنّه لما استولى على الديار المصرية ، وعزم على قبض العاضد وأشياعه ، استفتى الفقهاء في ذلك فأفتوه

(١) آية ١٢٧ - سورة النساء

(٢) آية ١٧٦ - سورة النساء

(٣) آية ٤٤ - سورة النحل

(٤) العز بن عبد السلام - ٢٤٩

بجوازه لما كان عليه من انحلال العقيدة ، وفساد الاعتقاد ، وكثرة الوقوع في الصحابة والاشتهار بذلك ، وقد كان أكثرهم مبالغةً في الفُتيا الصوفيِّ المقيم بالمسجد ، الشيخ نجم الدين الخبوشاني^(١) .
ثم إن صلاح الدين استطاع - كما مرّ - إنهاء حكم هذه الدولة الشيعية في مصر ، وإقامة دولة سُنِّيَّةٍ مكانها ، فأدّى ذلك إلى حقد أتباع العاضد على صلاح الدين ، وتآمرهم على قتله والقضاء عليه ، إلا أنّ الله فضّحهم وكشّف مؤامرتهم ، واستطاع السلطان أن يقبض عليهم ليتصرّف إزاءهم التصرّف المناسب . ولقد استفتى صلاح الدين العلماء في أمر هؤلاء المتآمرين ، فأفتوا بقتلهم ، وعندما تردّد صلاح الدين في التنفيذ طالب أهل التقوى والمشورة بالإسراع في التنفيذ ، فصدر الأمر بقتلهم وصلّبهم ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وضلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ؛ ليكونوا عبرة لغيرهم^(٢) .

وممن حرص على استفتاء العلماء ومشورتهم الملك العادل ، فقد رُوي أنه لما توفي الملك العزيز ، خلف بنين صغاراً ، وكان ولده البكر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على العشر ، فاجتمع الأمراء الصلاحية وعقدوا الأيمان لولده ناصر الدين . فأحضر الملك العادل جماعةً من الفقهاء والقضاة ، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصحّ ولاية الصغير ؟ فقالوا: (هذا مُؤلّى عليه فلا يلي ، وغيابات الحوادث بنظره لا تنجاب ولا تنجلي) . فقال الملك العادل: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر ويرتّب الأمور بحكم النيابة ويُدبّر؟ فقالوا: (إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة ، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة ، لا سيّما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة ، فلا حقّ فيه إلا للكبير الذي يُعيّن على الحقيقة) . فلما عرف الملك العادل رأي الشارع الحكيم ، أحضر الأمراء والتمس منهم السمع والطاعة ، وخاطبهم في اليمين له والميثاق ، وألزمهم فأبوا ، فخاطبهم بما راعهم ، وملاً بالتقريع أسماعهم ، ثم قال: (قد علمتم ما هو الواجب في التظافر على حفظ ثغور الإسلام ، وتدبير الممالك بمصر والشام ، وما هذا أمرٌ يُنأط بالصبيان) ، فأذعنوا وأطاعوا، وحصل الائتلاف ، وُرفِع الخلاف . فلما قدم الملك العادل إلى مصر أمر الخطيبين بجامعي مصر

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٥ / ٣٤٣

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره - ١٧٢-١٧٣

والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ، وليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما ، وانقطعت الخطبة لابن العزيز^(١) .

ثالثاً: الحرص على إزالة المنكر

كان من أبرز القضايا التي حرص الدعاة في عصر الدولة الأيوبية على التركيز عليها إزالة المنكرات المنتشرة في المجتمع ، والتي كانت إما نتيجة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس أو بسبب القوانين التي وضعها حكماء الدولة العبيدية .

أ-إنكار منكرات تتعلق بالجانب الاقتصادي:

وكان من أهم هذه المنكرات تلك المتعلقة بالجانب الاقتصادي ، ومن أبرز من اعتنى بذلك: صلاح الدين الأيوبي ، وظهر هذا الاهتمام قبل توليه مسؤوليات الحكم والخلافة ، فقد رُوي أنه في عام ٥٥٠ هـ لما تولّى أسد الدين شيركوه دمشق عيّن على إشراف ديوان أموالها أبو سالم بن همام الحلبي ، كما عيّن توران شاه على الشحنة ، ثم إن أسد الدين غاب إلى حلب فعزل نجم الدين ابنه توران شاه ، وولّى مؤقتاً صلاح الدين مكانه . وبعد أيام قلائل من ولايته اصطدم صلاح الدين مع أبي سالم بسبب خيانات مالية وسوء إدارة ، وتوجّه مباشرة إلى حلب لإعلام نور الدين وأسد الدين بذلك ، فقام نور الدين بعزل أبي سالم ، وعاقبه عقاباً شديداً ، ونفاه إلى حلب ، وعيّن صلاح الدين على الشحنة أصالةً على الرغم من صغر سنه ، فقد كان عمره لم يتجاوز العشرين عاماً^(٢) إلا أنه عيّن بسبب ملكاته الخاصة ، ولحرصه الشديد على الإنكار .

وبعد تولّى صلاح الدين أمور الحكم أولى الحياة الاقتصادية عنايةً فائقةً اقتداءً بسابقه نور الدين ، فأزال الضرائب والمكوس عن البلاد كافة . وكان لهذه السياسة أثرها في تشجيع النمو الاقتصادي وإقبال الناس على الإسهام في العمل والبناء^(٣) . يقول صاحب الروضتين: (قرأت نسخة

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٦٠-٤٦١ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٥٢

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٣ - ٣٤

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٨٥

سجل بإسقاط المكوس بمصر قُرى على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ، عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين^(١) .

ولقد كان إسقاط الضرائب عن الحجاج من أبرز الخدمات التي قدّمها صلاح الدين للأمة الإسلامية ، فقد كان الحجاج يدفعونها زمن العبيديين ، وكانوا يلاقون بسببها ضغوطاً كثيرةً إلى حدّ الضرب والتعذيب بأليم العذاب والحبس وفوات عرقة . كما أبطل ما يزيد على مئة ألف دينار تُردّ إلى الخزائن^(٢) ، وعوّض أميرها بألفي دينار، وألف إردب قمح سوى إقطاعات بصعيد مصر وباليمن ، وقرّر للمجاورين غلات وصلات^(٣) .

وفي سنة ٥٦٦ هـ رفع رحمه الله جميع المكوس بديار مصر وأبطلها^(٤) ، كما أبطل المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج في البحر إلى مكة عن طريق عيذاب في سنة ٥٧٢ هـ ، وكانت سبعة دنانير مصرية ونصفاً على كل إنسان ، وعوض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمح تُحمل إليه في البحر ، وقرّر للمجاورين غلات ، وأقام للحجاج أماكن يأوون إليها خلال إقامتهم ، ويُقدّم لهم فيها الغذاء^(٥) .

كما أبطل صلاح الدين أيضاً ما يُؤخذ من حجاج المغاربة من المكوس وعوّض أمير مكة عنها أشياء كثيرة^(٦) . وفي حلب كشف صلاح الدين المظالم وأزال المكوس^(٧) .

ومن الملوك الذين اهتموا برفع المكوس عن الحجاج : الملك المعظم ، إذ تروي كتب التاريخ أنه لما ولي أبطل المكوس ، وردّ المظالم ، وكسر الإفرنج غير مرة^(٨) .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٣٢

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٣٨

(٣) البداية والنهاية - ١٦ / ٤٩٥ ، ٥٢٨ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٦٤

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٢٠-١٢١

(٥) رحلة ابن جبير - ٣٠ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٢٠-١٢١ ، حسن المحاضرة - ٢٠ ،

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٧٨ ، إتحاف الوري بأخبار أم القرى - النجم عمر بن فهد بن محمد - تحقيق:

فهيم محمد شلتوت - ٢ / ٥٣٨-٥٣٩ ، التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ١٨٣/٢

(٦) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٤٩

(٧) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٤٧ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ١٤٧

(٨) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٨١

وعلى هذا النهج القويم سار الملك الظاهر ، فأسقط بحلب كثيراً من المكوس.^(١) ومن الملوك المهتمين بذلك: الملكة الصالحة ضيفة خاتون بنت الملك العادل فقد رُوي أنها أزالَت المكوس والمظالم في حلب^(٢).

وبهذا يتضح لنا جلياً اهتمام ملوك بني أيوب بإجراء إصلاحات في نظام ضرائبهم ، مما يدلّ على مدى اهتمامهم بمصلحة شعوبهم^(٣)، وذلك على الرغم من أن الدولة كانت تمر بظروف حربية صعبة ، وكانت حاجتها إلى الأموال والدعم المادي المتنوع حاجة شديدة.

ولقد سار على نهج الملوك الأيوبيين أمير مكة مُكثّر بن عيسى الهاشمي ، الذي رفع المكوس عن الحجاج لقاء المبالغ التي أرسلها إليه صلاح الدين ، كما ألغى عبارة (حي على خير العمل) من الأذان في مكة^(٤).

ب- إنكار منكرات تتعلّق بالمساجد:

بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس كانت أكثر الأمور إلحاحاً بالنسبة له هو إعادة الطابع الإسلامي إليها والحرص على إزالة ما أحدثه الصليبيون من رسوم ومنكرات كثيرة في منطقة الحرم الشريف . لذا طلب رحمه الله من أمرائه ورجاله إزالة كل الإضافات العمرانية التي أدخلها فرسان الفرنج في المسجد الأقصى ، ورهبان الكنيسة في قبة الصخرة خلال مدة السيطرة الصليبية^(٥)، وأزال آثار الشرك ببيت المقدس ، وأمر بإقامة شعائر الدين فيه ، وخطب أحد القضاة عن صلاح الدين ، فكان رحمه الله فاتحاً له ثانياً بعد عمر بن الخطاب^(٦).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٣ / ٢٣٩

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٥ / ٣١٢

(٣) انظر : المصدر السابق - ٣٨٢

(٤) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢ / ١٩٥

(٥) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٣٥

(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ٢١٧

وقد أشهدَ رحمه الله الفتحَ للقدس أهل العلم ، وارتفعت الأصوات بالدعاء والتهليل ، ودخل السلطان الصخرة وهو يبكي ، ومحا الصور منها ، وكسر الصلبان ، وعمّر المسجد الأقصى، وخلّص الأسرى ، وكان على رأس قبة الصخرة صليب عظيم من الذهب ، فتسلّق المسلمون وقلعوه^(١). وإنّ بكاء الملك المجاهد صلاح الدين في هذا الموقف الجليل دليل ساطع على صدقه وشكره لخالقه على ما أنعم به وتفضل بهذا النصر المؤزر، وفي المقابل كان ثمة فاتحون لا يشغلهم سوى الغرور والتكبر وجمع الغنائم ، وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء.

ولم يكن اهتمام الملوك الأيوبيين منصباً على إزالة المنكرات من المسجد الأقصى فحسب ، بل حرصوا على إزالة المنكرات الأخرى من المناطق التي فتحوها وانتصروا فيها على الصليبيين ، ومن ذلك : تحويل صلاح الدين لبيت الأحزان - وهو بيعة نصرانية - إلى مسجد^(٢) . كما حوّل كنيسة صندحتة إلى مدرسةٍ للفقهاء الشافعية ووقف عليها وقوفاً جليلاً وعيّن دار البطريرك رباطاً للفقهاء^(٣). كما سار رحمه الله إلى عكا ، واستنقذ ما فيها من الأسرى ، وكانوا أربعة آلاف ، وجعل الكنيسة جامعاً^(٤).

وفي دمشق كان خان ابن الزنجاري يُعمل فيه الفسوق ، فبلغ خبره الملك الأشرف فاشتراه وهدمه وبناه جامعاً وسمّاه جامع التوبة ، وولاه الجمال السبتي الذي عُرف بالصلاح^(٥). ولما سيّر صلاح الدين حسام الدين بن لاجين نحو نابلس وبلادها ، استولى في طريقه على سبسطية^(٦) ، وحوّل مشهد زكريا فيها إلى مسجد بعدما حوّل الصليبيون من قبل إلى كنيسة^(٧). وفي رواية أن الملك الأشرف هو من هدمه وبنى موضعه مسجداً^(٨).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢٩

(٢) المصدر السابق - ٩٦

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ٢٣٠

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢٢

(٥) المصدر السابق - ٢٩٦ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٤٦

(٦) سبسطية: بلدة من نواحي فلسطين ، من أعمال نابلس . انظر: معجم البلدان - ٣ / ١٨٤

(٧) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٠٤

(٨) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ١٤٣

ومن المساجد التي اهتم بها صلاح الدين رحمه الله المسجد النبوي ، فعمل جاهداً على إزالة ما فيه من منكرات ، ومن ذلك ما روي أنه لما كان صلاح الدين على حرّان^(١) ، توجه جماعة من فرنج الكرك لينبشوا الحجرة النبوية وينقلوه إليهم ، ويأخذوا من المسلمين جُعللاً على زيارته ، فقام صلاح الدين لذلك وقعد ، ولم يمكنه أن يتزحزح من مكانه ، وكان على حرّان ، فأرسل إلى نائبه بمصر أن جهّز لؤلؤ الحاجب ، فتداركهم وأوقفهم ، وسلّموا أنفسهم ، فصنّفدهم وقدم بهم القاهرة ، وتولّى قتلهم الفقهاء^(٢).

ج- إنكار منكرات تتعلّق بجوانب متفرقة:

رُوي أن صلاح الدين أبطل الخمر والمكوس ونفى المغاني عن البلاد^(٣)، كما ذكر العماد - وزير صلاح الدين- أنه رأى معه يوماً دواءً مُحلّلاً بفضة فأنكر عليه حيازتها وقال : هذا حرام، فقال العماد : (في جوازه وجه ذكره أبو محمد الجويني ، ولم أعد أكتب بتلك الدواة)^(٤).
أما الملك العادل بن أيوب فقد رُوي عنه أنه كان مُجاهداً دينياً أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، طهر ولايته من الفساد والخمر والمكوس والمظالم والفواحش^(٥). كما روي أنه أبطل ضمان الخمر والقيان في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٦١١ هـ ، وظل الأمر إلى وفاته سنة ٦١٥ هـ^(٦).
ومن الملوك الذين اعتنوا بإزالة المنكر أمير حمص شيركوه بن محمد ، والذي كان شجاعاً يباشر الحرب بنفسه ، وقد حفظ المسلمين من الفرنج ، وبلاد طاهرة من الخمر والخواطئ والمكوس ، وهو دين عاقل يعاشر العلماء ، ومنع النساء أن يخرجن من باب حمص مدة ولايته حفظاً لهن^(٧).

(١) حرّان: مدينة عامرة قديمة بالجزيرة على حدود العراق. انظر: معجم البلدان - ٢/٢٣٥

(٢) تاريخ الإسلام - ٣٦٤ وفيات (٥٩١ - ٦٠٠ هـ)

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٣٠٤

(٤) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٦٥٩ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ٤٢٩ ، سير أعلام النبلاء - ٢١١/٢٨٧ ،

شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٢ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١١٣/١

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١١٦ ، تاريخ الإسلام - ٢٦٩ وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ)

(٦) ذيل الروضتين - ٨٧ ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٣٢٠ .

(٧) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٣٢ ، تاريخ الإسلام - ٣٢٨ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)

ومنهم الملك العزيز الذي شرع في نسخ مصحف بيده ، وأزال المنكرات ، وكان كثير الخير ، روي أنه جاء إليه رجلٌ وعرض عليه مالاً ليؤتيه الصعيد فقال : "والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الدنيا"^(١). ومثله الملك الجواد- رحمه الله- فقد رُوي أنه أبطل الخمر والمكوس ونفى المغاني عن البلاد^(٢).

أما الكامل ناصر الدين فقد روى صاحب "بدائع الزهور" أنه لما أمر ببناء دار الحديث في القاهرة حُفر أساسها فوجد فيه صنمٌ كبير من الذهب ، فأمر الملك الكامل أن يُسبك دنانير ويُصرف على بناء المدرسة فبُنيت من حلال^(٣).

مما تقدم نخلص إلى أن العصر الأيوبي شهد جوانب من عزّ الإسلام ونهضته في كثير من أصقاعه وأزمته ، وكان هذا العهد نجماً أضاء بنور عميم على الرغم مما أحيط به من ظلمات.

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٤٠

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٢٧٣

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٥٨

تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية

أولاً: الحرص على تنفيذ الأوامر الشرعية والدعوة إليها

فرض الله تعالى علينا في الكتاب والسنة أوامر شرعية فيها صلاح ديننا ودنيانا، وأمرنا بتطبيقها والدعوة إليها ، ووعده من التزم بتطبيقها بالجنان كما توعد من خالفها بالنيران . وانطلاقاً من هذا الاعتقاد حرص كبراء الدولة الأيوبية ملوكاً وعلماء على تنفيذ أوامر الشرع الإسلامي والدعوة إليها .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تذكره كتب التاريخ عن السلطان صلاح الدين أنه (كان يتلقى الأمور الشرعية بأحسن انقياد)^(١).

وهذا يُعطينا أمودجاً لما ينبغي أن يكون عليه المسلم الحقّ مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٢). ولنلاحظ جملة "أحسن انقياد"، فهي تُظهر انشراح صدره للحكم الشرعي ، كما تظهر ارتياحه له ، وحرصه على تنفيذه ، وهذا قبس من دروس قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَالًّا مُبِينًا)^(٣).

وهذا أبو شامة -رحمه الله- صاحب "كتاب الروضتين" يصف لنا حال صلاح الدين في شهر رمضان ، وحرصه على تنفيذ ما أمر به الشارع الحكيم فيقول: "عُدنا من الإسكندرية في شهر رمضان ، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة ، والسلطان متوفّر في ليله ونهاره على نشر العدل وانتشاره ، وإفاضة الجود وإعزازه ، وإبداء شعار الشرع وإظهاره ، وإبقاء المعروف على قراره ، وإعدام أعلام

(١) النوار السُلطانية والحاسن اليوسفية -٢١٧- ، تاريخ الإسلام - ٨٣ وفيات (٥٨١-٥٩٠هـ)

(٢) آية ٥١ - سورة النور

(٣) آية ٣٦ - سورة الأحزاب

الباطل وإنكاره" (١) ، فوليُّ أمر المسلمين مرتبط بإقامة الشرع ليلَه ونهاره ، حريص على إقامة أعلامه ، وهو مباشر لذلك بنفسه.

كما ذكر ابن واصل أنه رحمه الله تأخر في بعض أسفاره وذكر دِيناً ، فأحضر عُرماءه ، وتفاهم معهم (٢) ، وما ذاك إلا لحرصه غفر الله له على إيصال الحق لأصحابه وإبراء ذمته منه ، انقياداً لأوامر الشرع وتعاليمه ، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (٣) ، ولأن مال المسلم محترمٌ محفوظٌ في الشريعة ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله ، وعرضه) (٤) ، وقد مرّ معنا في المبحث السابق كيف نبّه ابن نجية على الفقيه عمارة اليميني وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من إثارة الفتنة وإعادة الباطنية العبيدية ، وكيف طبّق صلاح الدين حكم الشرع عليهم وقام بشنقهم (٥).

وعلى نهج السلطان صلاح الدين سارت زوجته الفاضلة : عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، فقد كانت من أعفّ النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة وأحزمهن، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ، ولها معروفٌ وصدقاتٌ ورواتب للفقراء (٦) ، وملتزمة بشرع الله ، وقد كان هذا هو ما دفع صلاح الدين إلى الزواج منها بعد أن توفي زوجها السابق نور الدين محمود.

ومُنَّ عُرفٌ بالاستقامة في هذا العصر الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، فقد روي أنه لما اشتدّ به المرض وصف له الأطباء شرب الخمر تداوياً بها ، فقال : لا أفعل حتى استفتي الفقهاء ، فأفتاه أحد العلماء بجواز شربها ، فقال له الملك الصالح: (إن كان الله قد قرّب أجلي فهل يُؤخّره شُرْبُ الخمر؟) قال: لا والله . فقال: والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرّمه عليّ (٧).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٤٥٠

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ٤٧٢

(٣) آية ٥٨ - سورة النساء

(٤) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب ، باب: تحريم ظلم المسلم وحذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، ١٠٣/١٦ ،

برقم ٦٤٩٣

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢/٢٨٢ - ٢٨٤ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٣٩٤

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٤٣

(٧) المصدر السابق - ٣ / ٧٦

ومعروف عند أهل العلم حرمة التداوي بالخمر لورود أحاديث صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم تحرم ذلك ، منها أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي عن الخمر؟ فنّها ، أو كره أن يصنعها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: (إنه ليس بدواء ، ولكِنَّه داءٌ) (١) .

لم يكتف دعاء هذا العصر - من ملوك ودعاة - بتنفيذ الأوامر الشرعية ، بل سارعوا إلى دعوة الناس إليها . فهذا صلاح الدين - رحمه الله - يرسل إلى أحد ولاته بقلم القاضي الفاضل رسالة جاء فيها: (البلاد لك فيها عدة سنين ، وأنت فيها مؤتمنٌ على مال الله ، فأدّه إلى من يُجاهد به أعداء الله ، ويُقيم كلمة الله ، ويحفظ به البيضة، ويذبّ فيه عن الملة ، ويُقاتل به أعداء القبلة ، ويضرب بين الكفر والإسلام ، وما نطلب منك الباطل الذي لا يجوز لنا أن نطلبه ولا لك أن تدفعه، ولا نريد إلا الحق الذي لا يحلّ لنا أن نتركه ولا لك أن تمنعه) (٢).

كما كتب - رحمه الله - لأخيه سيف الإسلام باليمن يُبشّره بفتح الموصل ، ويروي له كيف تمّ تطبيق شرع الله على أهل الموصل ، فيقول في رسالته : (ونزل لنا صاحب الموصل عن جميع البلاد والقلاع ، والحصون والضياح ، وقرّرنا عليه الموصل وأعمالها على أن يكون بحكمنا ، وينفذ عسكره إلى خدمتنا ، وتكون الخطبة والسكّة باسمنا ، وأن يُطلق المظالم ، ولا يرتكب المآثم. وقد حصل لنا منهم الطاعة والسكّة والخطبة ، وعمّت الهيبة والرهبّة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد زالت العوائق ، وارتفعت الموانع) (٣).

أما العلماء فقد صدعوا بالدعوة إلى دين الله ، وتنفيذ أوامره ، ومن أبرز من قام بهذه المهمة الجليلة : سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، وكان له مواقف نبيلة يعتز بها كل مسلم غيور حريص على إعزاز كلمة الله وشرعه في الأرض. ومما قاله في هذا المجال : (والشرع ميزانٌ يوزن به الرجال ، وبه يتبيّن الريح والخسران، فمن ربح في ميزان الشرع كان من أولياء الله ، وإن رأيت إنساناً يطير في الهواء أو يمشي على الماء أو يُخبر عن المغيبات ثمّ يُخالف الشرع بارتكاب المحرّمات بغير سببٍ ويترك الواجبات بغير سببٍ ، فاعلم أنّ شيطاناً نصبه الله فتنّةً للجهلة ، وليس ذلك ببعيد من الأسباب

(١) رواه مسلم في كتاب: الأشربة ، باب: تحريم التداوي بالخمر ، ١٢٨/١٣ ، برقم ٥٠٩٧

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٩٧-٩٨

(٣) المصدر السابق - ٣ / ٢٣٦

التي وضَعَهَا اللهُ لِلضَّلَالِ)^(١). فلنقف وقفة تأمل مع هذا الالتزام الدقيق بشرع الله الذي لا تستهويه المظاهر الشيطانية التي تشجع على الانحراف والضلال ، ولْنأخذ من ذلك التأمل أبلغ المواعظ والعبر.

ثانياً: الابتعاد عما نهى الشارع الحكيم عنه والدعوة إلى ذلك

كما فرض علينا الشارع الحكيم واجبات أمرنا بالالتزام بها ، نُهانا عن أشياء وأمرنا بالابتعاد عنها ، وما ذلك إلا لحكم عظيمة علمناها أو جهلناها . وبالقدر الذي اهتم به الأيوبيون بتنفيذ الأوامر ، كان اهتمامهم بالابتعاد عن النواهي والدعوة إلى اجتنابها .

فهذا صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - يتوب عن الخمر^(٢) بعد أن هداه الله بفضل التوجيه الإسلامي من قبل نور الدين ، واتخذ موقفه صريحاً من الارتباط بأحكام الشرع القويم.

ويصف ابن شداد هذا التحول في حياة صلاح الدين واستقراره على النهج الإسلامي بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وتوليئه أمر مصر : (وفوض الأمر بعده إلى السلطان ، واستقرت القواعد، واستتبّت الأحوال ، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّاً إلى أن توفاه الله إلى رحمته)^(٣). ويؤكد الذهبي تحول صلاح الدين إلى المنهج الإسلامي فيقول: (منذ تسلطن طلق الخمر واللذات)^(٤)، ويشهد على ذلك الدوادري بقوله: (كان صلاح الدين في مبتداه قليل المال والرجال ، صاحب أكل وشرب وطرب ، فلما فتح الله عليه بالملك تاب عن جميع ذلك)^(٥).

وقد ربّى صلاح الدين أبناءه على الاستقامة والابتعاد عما نهى الله عنه ، فهذا الملك المجاهد ابن صلاح الدين - رحمه الله - يحكي عنه ابن واصل أنه لم يشرب الخمر، ولم يقبل على اللهو ، بل أوقاته كلها مصروفة إلى الجند والنظر في المصالح^(٦). وعلى غرارهِ كان الملك المظفر - رحمه الله - فقد

(١) العز بن عبد السلام - ١٢٦

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣٩

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٧٩

(٥) كنز الدرر وجامع الغر - ٧/٣٥ ، وانظر: تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر - ٢/١٣٩، المدارس في تاريخ المدارس - ١٨٠/٢.

(٦) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٢٥٤

كان لا يُمكن أحداً من إدخال الخمر إلى بلده^(١). ومثله شيركوه أمير حمص فقد كانت بلاده طاهرة من الخمر والمكوس^(٢).

ولم يكتف السلطان صلاح الدين وأبناؤه بالابتعاد عن المناهي فحسب ، بل قاموا - رحمهم الله - بدعوة الناس إلى ذلك ، فقد رُوي أنّ صلاح الدين لما حاصر مدينة آمد وفتحها، وهبها إلى صاحب حصن كيفا ، واستحلفه أن يُظهر العدل ويقمع الجور ، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان على معاداة أعدائه ، وموالاته أوليائه ، وأنه متى استمدّه لقتال الفرنج سارع إليه^(٣). كما ألغى السلطان صلاح الدين المكوس (الضرائب غير الشرعية) في كلِّ البلاد التي خضعت لسلطته مباشرة أو غير مباشرة ، فهذا هو دأب السلطان في جميع البلاد ، يقتصر منها على ما يُبيحه الشرع وهو: الخراج والأجور والزرع^(٤) ، كما روي أن الملك العادل رحمه الله أبطل سنة ٦١٢ هـ ضمان الخمر والقيان^(٥).

ويروي ابن واصل أنّ رجلاً اشتكى من سوء عشرة زوج ابنته لابنته وحبسه لها ، وأثبت للحاكم ضرره ، فمضى القاضي بنفسه إلى الدار التي فيها الزوجة المحبوسة، ورام فتح باب الدار التي هي فيه فلم يقدر ، فأحضر شهوداً ونُقَّاباً ، ونقب جانب الدار ، واستخرج المرأة ، وسلّمت إلى أبيها ، ثم أحضر بناءً فسدّ النقب . فما كان من زوج المرأة إلا أن قدّم للعزير خمسة آلاف دينار ليُوَلَّى قضاء الاسكندرية نكايَةً بالقاضي الأول ، وكان العزير محتاجاً للمال ، ولكنه سأل عن جهة المال ، فلمّا عَرَفَ القصة قال لوزيره: (أعد المال إلى صاحبه وقل له : إيّاك والعود إلى مثلها ، فإنني إذا قبلتُ المال أكون قد بعثُ أهل الاسكندرية ، وهذا لا أفعله أبداً)^(٦).

وخير شاهدٍ على حرص السلطان على الابتعاد عن المناهي ، ذلك الكتاب الذي خطّه يرَاعِ القاضي الفاضل ، لصيق السلطان وملازمه في غالب حِلّه وترحاله ، فقد جاء فيه وصف السلطان صلاح الدين: (هل يُعرف راية يُقاتل تحتها إلا رايته؟ هل يُعرف مال يُنفق في سبيل الله إلا ماله؟ هل

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥٥

(٢) تاريخ الإسلام - ٣٢٨ وفيات (٦٣٠ - ٥٦٤٠ هـ)

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ١٩٧

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٥٢

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٨١-١٨٢

(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٣ / ٨٤ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٤٤

يُستمع في مجلسه إلا كتاب الله يُتلى ، وسنة رسوله تُقرأ؟ أو يُرى به إلا الخيل تُعرض والسلاح يُقلَّب؟ لا أقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنّين ، ولا رقائع الكذّابين ، ولا سعايات النّمّامين) ^(١).

ولقد سار كثير من العلماء الأفاضل على هذا المنهج الإسلامي المبارك في عهد الدولة الأيوبية ، فحضّوا على الابتعاد عن المناهي ، ومن هؤلاء الأفاضل: الإمام اليونيني الذي يُروى عنه أنه لم يُقْم لأحدٍ تعظيماً له ، ولما أظهر العادل قراطيس سوداً لغاية في نفس يعقوب ، قال الشيخ اليونيني: "يا مسلمون ، انظروا إلى هذا الفاعل يُفسد على الناس معاملاتهم" ، فبلغ العادل ذلك فأبطلها ^(٢).

ثالثاً: تطبيق أحكام السنة النبوية الشريفة

عُني ملوك الدولة الأيوبية وعلمائها بعناية كبيرة بالمصدر التشريعي الثاني وهو السنة النبوية، وحرصوا على إحيائها وتطبيقها والدعوة إليها في دولتهم العامرة ، ولا سيما مصر، فقد كانت السنة غامرة ميّنة فيها بسبب الدولة العبيدية التي أحييت البدعة وقمعت السنة ، فلما تمكّن صلاح الدين من القضاء على دولتهم ، أظهر السنة ^(٣). وتروي لنا كتب التاريخ نماذج من حرص صلاح الدين - رحمه الله - على تطبيق السنة وأحكامها في حياته ، ومن ذلك أنه كان لا يلبس إلا ما يحلّ لبسه كالكتّان والقطن ، وكانت مجالسه مُنرّهة من الهزل ، ومحافله أهلة بالفضلاء ^(٤).

كما ذكر ابن شداد في النوادر أن صلاح الدين بنى مستشفى بالقاهرة ومدرسة بالقدس وجدّد أماكن كجامع عمرو ، إلا أنه لم ينسب ذلك لنفسه إدراكاً منه - رحمه الله - بالفضل العظيم والأجر الجزيل لصدقة السر ^(٥)، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: (سَبَعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢١٥

(٢) تاريخ الإسلام - ٣٤٢ وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

(٣) المصدر السابق - ١٤٠ وفيات سنة (٦٣٠-٦٤٠هـ)

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢ / ٢٨٧

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٩٠

ظَلَّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، وذكر منهم : وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ^(١) .

كما ذكر أبو شامة نموذجاً رائعاً لهذا التطبيق فقال: (رزق الله مولانا ذريةً تودّ لو قدّمت أنفسها بين يديه ، ولو اكتحلت أجفانها بغبار قدميه ، ولهم أولاد مدّ المولى لهم الآمال ، كما قال مولى الأمة لها: (تناكحوا تناسلوا فيني مُكاثِر بكم الأمم)^(٢)، لطالما قال لهم المولى: (لِدُوا وَعَلَيَّ تَجْهِيْزِ الْإِنَاثِ ، وَغَنِي الذُّكُورِ)^(٣) .

ولقد سار أبناء السلطان على نهج أبيهم في إحياء السنّة وتطبيقها ، ومنهم الملك المظفر الذي رُوي عنه أنه كان شديد الميل إلى السنّة^(٤)، ومثله الملك الأفضل والذي كان حريصاً على حث العلماء على الدعاء لوالده بعد وفاته ليغفر له تعالى ذنوبه ، ولتزيد تلك الأدعية من رصيد حسناته ، فقد روي أنه بعد وفاة صلاح الدين أراد العلماء حمّله على أعناقهم ، فمنعهم ابنه الملك الأفضل ، وقال لهم: (يكفيه أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته)^(٥)، وكأنّه بذلك يلفت انتباههم إلى ما هو خيرٌ وأنفع لوالده المتوفى ، والذي هو الدعاء له بالمغفرة ، فالدعاء الشرعي ينفع الميت بإجماع أهل السنة والجماعة ، لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(٦)، ولقوله صلى الله عليه وسلم إذا زار المقابر: (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)^(٧). وحذا حذوهم حذوهم الملك الكامل فقد وُصف بأنه كان مُعظّماً للسنّة وأهلها ، راغباً في نشرها والتمسك بها^(٨).

(١) رواه البخاري في كتاب: الجماعة والإمامة ، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ، ٢٣٤ / ١ ،

برقم ٦٢٩

(٢) المستدرک علی الصحیحین - ٢ / ١٧٥ برقم ٢٧٢٧ - كتاب النكاح - وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد".

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٦١

(٤) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥٥

(٥) المصدر السابق - ٢ / ٤٢٣

(٦) آية ١٠ - سورة الحشر

(٧) رواه مسلم في كتاب: الجنائز ، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ، ٣٦ / ٧ ، برقم ٢٢٠٨

(٨) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٧ - ١٢٩

ومن كبراء القوم الذين اهتموا بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم: الأمير عز الدين موسك الهذباني ، وهو من أقارب السلطان صلاح الدين ومقدمي كتائبه ، فقد كان للقرآن حافظاً ، وعلى الإحسان محافظاً ، ولقضاء حقوق الناس ملاحظاً^(١)، اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، فقد جاء في الحديث الشريف: (المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يُسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)^(٢).

ولم يكن أمر إحياء السنة وتطبيقها مقصوراً على الملوك والأمراء فحسب ، بل أسهم العلماء في ذلك إسهاماً كبيراً ، من ذلك ما رُوي عن الحافظ العماد أنه كان جوهرة عصره ، أحيا السنة ببلاد الشام ، وجمع بين العلم والعمل ، وكان صاحب ليل واجتهاد ، وكان يتألف الناس ، ومن إكرامه لأصحابه يظنّ كل أحد أن ما عنده مثله من كثرة ما يُكرمه^(٣). وفي هذا الموقف من هذا العالم الجليل تنبيه هام للداعية ، ودرس عظيم في الاهتمام بالمدعو بالإقبال عليه ، والاحتفاء به ، وحسن الخلق معه ؛ وذلك اقتداءً بمعلمنا صلى الله عليه وسلم ، والذي وصفه خادمه أنس بن مالك بقوله: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا)^(٤).

وأبو عمر المقدسي الجماعيلي ممن حرص على تطبيق السنة ، فكان رحمه الله لا يسمع دعاءً إلا ويحفظه في الغالب ، ويدعو به ، ولا حديثاً إلا وعمل به ، ولا صلاة إلا صلاحها^(٥).

رابعاً: التطبيق العملي لأحكام الشريعة الإسلامية

لم تكن الشريعة الإسلامية في أيّ حقبة من حقبة التاريخ مجرد مثاليات يتشدّق بها أبناءها، بل هي نظام ومنهج وضعه الله تعالى لسعادة الإنسانية شريطة تطبيقهم لهذا النظام وسيرهم عليه في حياتهم . ولقد كانت الدولة الأيوبية من الدول التي جعلت الشريعة الإسلامية دستوراً أساسياً الذي يُنظّم أمور حياتها ، وطبّقته تطبيقاً عملياً في شؤونها وقضاياها كافة.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٠٨

(٢) رواه البخاري في كتاب: المظالم ، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، ٨٦٢/٢ ، برقم ٢٣١٠

(٣) تاريخ الإسلام - ١٨٧- وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

(٤) رواه مسلم في كتاب: الفضائل ، باب: كان رسول الله أحسن خلقاً ، ٦٠/١٥ ، برقم ٥٩٧٠

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٥

وكان من أبرز مظاهر التطبيق العملي لأحكام الشارع الحكيم في العهد الأيوبي حرصُ القضاة على الحكم بموجب أحكام الشريعة الإسلامية ، بل والإشراف المباشر على تطبيق هذه الأحكام ، فمِمَّا يُلاحظه المؤرخون احتفاظ القضاة بنزاهته ومكانته في هذا العهد^(١) .

أما في دمشق فقد كان أول من ولي قضاء الحنابلة الإمام أبو محمد شيخ الجبل شمس الدين ابن أبي عمر ، ولقد كان رحمة للمسلمين ، ولولا الله عز وجل ثم هذا القاضي لراحت أملاك الناس إذ قام فيها خير قيام ، وعاداه جماعة من الحكام وتحدثوا فيه بما لا يليق ، وقد نصره الله بحسن نيته^(٢) .

ومن القضاة الذين عُرفوا بالعدل والصرامة واتباع طريقة السلف الشيخ عبد الصمد بن محمد بن الحرساني ، فقد رُوي أنه ثبت عنده حقّ لامرأة على بيت المال ، فأحضر وكيل بيت المال الجمال المصري ، وأمره أن يُسلم لها ما ثبت لها ، وكان بُستاناً ، فاعتذر بالمساء ، وقال : في غدٍ أُسلمه إليها فقال: (ربما أموت أنا إلى الغد ويتعوّق حقها) ، فما برح حتى تسلّمت حقها^(٣) .

وقد يتعرّض بعض القضاة إلى ضغوط خارجية تُجبرهم على الحكم بما يُخالف بعض أحكام الشريعة إلا إنهم يُبدون ثباتاً وتمسكاً بكلمة الحقّ والقضاء بما شرع الله وأمر به . ومن ذلك ما رُوي أن رئيس القضاة شمس الدين بن عطاء لما وقعت الحوطة على أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم بما يقتضي مذهبه ، فغضب من ذلك وقال: (هذه الأملاك بأيدي أربابها وما يحلّ لمسلم أن يتعرّض لها) ، ثم نهض من المجلس وذهب ، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً ، ثم سَكَن غضبه ، فكان يُثني عليه بعد ذلك ويمدحه ويقول: (لا تُثبتوا كتاباً إلا عنده)^(٤) .

ومن الشواهد على ذلك أيضاً ما تذكّره كُتب التاريخ عن القاضي عبد الصمد الحرساني كان يقول للعادل: (أنا ما أحكم إلا بالشرع ، وإلا فأبصر غيري) ويقول: (الشرع ما يكون فيه وصية لا فرق بين السلطان وغيره في الحق) ، وقد روي أنّ الملك العادل كتب إليه يوصيه في حكومته ، فقال القاضي: (كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب) ، فبلغ العادل قوله فقال: (صدّق ، كتاب الله

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٣٤١

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ٣٣/٢

(٣) تاريخ الإسلام - ٢٠٦ وفيات (٦١٠-٦٢٠هـ)

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٣٠

أولى من كتابي^(١). أرايت إلى هذا الموقف النبيل من هذا الملك الجليل ، فهو لم تأخذه العزة بالإثم ، ولم ينتصر لنفسه مع أنّ المجال مفتوح للمنافقين والمتزلفين لكي يُسوّلوا له ألف باب وباب على أن ينحرف أو يطيش.

وهاتان الحادثتان تُعطيان الداعية درسين مهمين جداً وهما : أهمية الثبات على الحق ، والرجوع عن الخطأ عندما يتبين هذا الخطأ ويتضح ، ثبات كلا القاضيين على الحق ، وإصرارهما على العمل بمقتضاه ، كان بمنزلة المنبّه للسلطان من الوقوع في الخطأ والمخدر له منه .

ومن أبرز المواقف التي تعكس لنا صورة مشرقة عن إصرار الداعية على تطبيق شرع الله القويم موقف الشيخ العز بن عبد السلام من المماليك وإصراره على بيعهم لصالح بيت المال ، وذلك أن الملك نجم الدين أيوب اشترى المماليك الأتراك لتقوية جيشه ، وهم في حُكم الرِّق لبيت المال ، وكانوا أمراء ، فولايتهم لا تجوز ، فتعطلت مصالحهم^(٢) ، فانزعجوا وساوموا الشيخ ، ولكنه أصبر على بيعهم لصالح بيت المال ، ثم يُعتقون ليُصبحوا أمراءً ، فرفضوا ، فتدخل نجم الدين ، فقرّر الشيخ عز الدين الرحيل عن القاهرة ، وحمل أغراضه على حمار ، فلحقه الناس ، فقيل للسلطان: أدرك ملكك، وإلا ذهب بذهاب الشيخ ، فاسترضاه السلطان ، ووقف العزّ ينادي على أمراء الدولة ، ورفع سعرهم ، واشتراهم نجم الدين من ماله ، ثم أعتقوا ، وقبض ثمنهم لصالح بيت المال^(٣) .

وللعز موقف قويّ آخر في الإصرار على الحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وهو موقفه في رفض ولاية شجرة الدرّ على المسلمين ، فقد قال للخليفة المستعصم بالله: "أرسل إليهم من يقول لهم: (أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل إليكم من يصلح لها ، أما سمعتم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ فَارِسًا مَلَكَوا ابْنَةَ كِسْرَى قَالَ لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ)^(٤) ، وأنكر عليهم . فلما سمعت شجرة الدرّ بذلك جمعت الأمراء والقضاة ، وخلعت نفسها من السلطنة برضاها ، وكانت مدتها ثلاثة أشهر إلا أياماً^(٥) .

(١) تاريخ الإسلام - ٢٠٧ - وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢١٦

(٣) المصدر السابق - ٨ / ٢١٧

(٤) رواه البخاري في كتاب: الفتن ، باب: الفتنة التي تموج كموج البحر ، ٦/٢٦٠٠ ، برقم ٦٦٨٦

(٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٨٦

ومواقف العز بن عبد السلام هذه تُعطي درساً عظيماً في ضرورة ثبات الداعية على ما يُؤمن به من أسس ومبادئ وقيمٍ شريطة أن تكون مستقاة من ينبوع الشريعة وأحكامها مهما تعرّض لمصاعب ومحن فهو المنتصر - بإذن الله - في نهاية الطريق لأن الله معه وآخذٌ بيده مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (١).

ولم يكن التطبيق العملي لأحكام الشرع حكراً على العلماء والقضاة فحسب، بل كان الملوك والولاة من المرزبين في ذلك المسارعين إلى حياة هذا الفضل العظيم. من ذلك ما يُروى أنّ صلاح الدين لما افتتح صيدا وجبيل وبيروت صدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وقرئ القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست الفوانيس، ورفع المسلمون رؤوسهم (٢).

وبهذا يتضح لنا جلياً الدور العظيم الذي قام به هذا السلطان في إعادة العزّ والسؤدد للدين الإسلامي العظيم بتطبيق أحكامه وتنفيذها على أرض الواقع، كما ظهر ذلك جلياً في إقامة الجهاد في سبيل الله تعالى الذي هو ذروة سنام الإسلام.

ومما يؤكد حرص صلاح الدين على تنفيذ أوامر الشارع ما يرويه لنا أبو شامة أن السلطان كتب إلى الملك العادل في شأن الوقف الخاص بالدهم نجم الدين فقال: (الأخ الأجل الملك العادل أدام الله دولته، غير خافٍ عنك قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين على الشيخ الفقيه ابن الصابوني، وأنه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه الجبوشاني ما جرى اقتضت المصلحة انتقاله لموضع آخر لقطع الكلام، وتسكين الفتنة والخصومة بينهم، مع بقاء الوقف في تصرّفه وتصرف من عنده من الفقهاء. والأخ الأجل العادل يتقدّم بمراعاة وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار إليه، ومنع ما يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات، وحسن مادة الشكوى منه ممن يتعدّى عليه إن شاء الله تعالى) (٣).

واقتردى إخوة صلاح الدين به فاهتموا بتطبيق أحكام الشرع وساروا في الطريق الذي سار فيه، فهذا الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب صاحب اليمن يقدم في رمضان إلى مكة،

(١) آية ١٢٨ - سورة النحل

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣/٣٢٢٣-٣٢٤

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ٣ / ٢٥٠

ويستولي عليها ، ويخطب لأخيه صلاح الدين ، ويقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس ، وقد شرط على العبيد ألا يؤذوا الحاج ، ومنع من الأذان في الحرم بحي على خير العمل^(١) .

ومن الملوك الذين يشهد لهم التاريخ بالشدة والصرامة في تطبيق الأحكام الشرعية: الملك الكامل ، فقد رُوي أن الإنسان كان في عهده يمرّ بالصحراء ومعه الأحمال من البضائع فلا يخاف سارقاً ولا قاطع طريق ، وقد سُرق في الصحراء الرملية بساط ، فأحضر العرب الذين يجرسون الطريق وقال: (أريد البساط بعينه وأريد سارقه وإلا أذهبت نفوسكم ونهبت أموالكم) ، فبدلوا في عوضه الكثير ، فأبى إلا إحضار البساط نفسه^(٢) .

ومن الولاة الذين اهتموا بهذه القضية اهتماماً كبيراً صاحب سنجار عماد الدين زنكي صهر نور الدين ، فقد رُوي أنّ عدله عمّ البلاد وعمّر العباد ، وأريقّت الخمر ، وحُدّ شارها ، كما كانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد^(٣) .

ومن أبرز الحوادث التي حدثت في عهد الدولة الأيوبية والتي تُظهر على نحو جليّ غيرة السلطان صلاح الدين على حرّامات الله ، واهتمامه بتطبيق ما شرعه الله تعالى: حادثة أرناط صاحب الكرك والشوبك . وملخص ما حدث أنّ السلطان كان وقّع على هدنة بينه وبين أرناط، فقد أخذ هذا الأخير الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه ، وبقي ملتزماً بالهدنة حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل ، واستخفّ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال: (قولوا لمحمدكم يخلصكم) ، فأرسل إليه السلطان مذمماً فعاله ، فأبى إلا الإصرار والإضرار ، فحمل السلطان الدين والحمية ، وغضب غضباً شديداً ، وأقسم ونذر ليقتلنه بيده إن ظفر به^(٤) . ولما انتصر صلاح الدين في حطين وقى بنذره ، وقام إليه ، وتلقاه بالسيف ، فحلّ عاتقه بالنيمجاه^(٥) ، ثم أمر برأسه ففُطع وجُرّ برحله فُدّام الملك ورُمي على باب الخيمة ، فارتاع الملك وانزعج وما شكّ في أنّ صلاح الدين سيُثني به ، فأمنه السلطان وطمأنه وقال له: (لم تجرّ عادة الملوك أن تُقتل الملوك ، ولكن ذاك غدار

(١) إتحاف الوري بأخبار أم القرى - ٥٥٣/٢

(٢) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب - ١٥٦/٥

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤١٧/٤ - ٤١٨

(٤) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ١٩٠ / ٢ - ١٩١

(٥) خنجر مقوس يشبه السيف القصير - التوثيق من المصدر التاريخي نفسه وهي مشروحة فيه وليس من كتب اللغة لأنها ليست عربية.

كذاب جاوز حدّه فأردته رداءته ، وَعَدْرَتَهُ كما تراه غادرته ، وقد هلك بغيّه وبغيّه وجرى له ما جرى^(١).

وقد وقعت واقعة مشابهة لهذه مع الملك الكامل ، وذلك عندما انتصر على الصليبيين في معركة دمياط سنة ٦١٦ هـ ، فقد علم الملك أنّ أحد الصليبيين كان يسبّ النبي صلى الله عليه وسلم جهاراً نهاراً ، فلمّا أُسر هذا الصليبي في المعركة أمر الكامل بإرساله إلى أمير المدينة كي يُقتل فيها ، فلمّا وصل الأسير إلى المدينة أُقيم قريباً من قبر الرسول صلى الله عليه وسلّم ، فقيل: (يا رسول الله هذا عدوّ الله وعدوك) فتهادته أيدي الناس ضرباً بالسيوف^(٢).

ومن الأحكام التي طبّق فيها الأيوبيون حكم الشريعة الإسلامية أحكام أسرى الحرب وأهل الذمّة ، فبعد فتح حطين طلب صلاح الدين الأسرى من الكفار ، وأمر بقتلهم جميعاً ، وتطهير الأرض منهم ومن خيانتهم وغدرهم ورجسهم ، ولكنه ما قتل إلا من عُرض عليه الإسلام وأبى أن يُسلم ، وما أسلم إلا آحاداً حسن إسلامهم ، وتأكد بالدين غرامهم ، وكان بحضرتة جماعة من المتطوّعة المتورّعة والمتصوّفة والمتعمّمة ، ومن تّمت له المعرفة بالزهد ، فسأل كلّ واحد منهم في قتل واحد ، فسئل وحسر عن ساعده ، والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس^(٣).

كما ذكر أبو شامة أنه أغارت طائفة من الفرنج على بلدة حماة ، فخرج إليها عسكر حماة ، فأسر المقدّمين ، وسفك بسيفه دم الباقين ، وجاء بالأسرى إلى السلطان صلاح الدين بظاهر حمص ، فأمر السلطان بضرب أعناقهم ، وأن يتولى ذلك أهل الثّقى والدين من الحاضرين ، فتقدم الإمام الضياء الطبري ، وضرب عنق بعضهم ، وتلاه الشيخ سليمان المغربي ثم الأمير أيطغان بن ياروق^(٤).

ومثل ذلك حدث أيضاً عندما وصلت مراكب صليبية إلى عيذاب ، واستولوا على أموال بعض التجار ، ثم توجّهت إلى رابع بقصد التوجّه إلى الحجاز ، وفي هذه الأثناء جهّز العادل -نائب صلاح الدين في مصر- المراكب ، ونقلها إلى خليج السويس ، فساروا وراء المراكب الصليبية ،

(١) النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية - ٣٣ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢٠ ، سير أعلام النبلاء -

٢١/٢٨٥ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣/٢٧٤ ، ٢٨٨-٢٨٩ ، ٢٩٦-٢٩٧

(٢) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢/٢٠٦-٢٠٧ ، نقلا عن وفيات الأعيان - ٥/٩١

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٩٠-٢٩١

(٤) المصدر السابق - ٣ / ١٥

واستولوا عليها ، وأسروا من فيها ، ولاحقوا من هرب إلى البر ، فقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم الآخر ، وكان عدد المأسورين مئة وسبعين رجلاً ، فصدر الأمر السلطاني إلى العادل بقتلهم جميعاً ؛ لأنهم - كما يقول القاضي الفاضل -: (ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ، ولو جرى في ذلك سبب لضاعت الأعدار إلى الله والخلق ، وانطلقت الألسن بالمدمة في الشرق والغرب ، ولا بد من تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواء من أنفاسهم ، بحيث لا يعود منهم مخبرٌ يدل الكفار على عورات المسلمين)^(١).

أما تطبيقهم لأحكام أهل الذمة فقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان صلاح الدين لما فتح بيت المقدس أخذ الجزية من أهل الذمة البالغين دون النساء والرهبان والعبيد والمجانين والشيوخ والفقراء وحسب قدرة الشخص ، فالشخص من الطبقة العليا يدفع أربعة دنانير ، والذي من الطبقة الوسطى يدفع دينارين ، أما من كان في الطبقة السفلى فيدفع ديناراً واحداً^(٢) . وقد فرضت عليهم هذه الجزية على أن يسكنوا ولا يُزعجوا ويؤمنوا ولا يُخرجوا ، فأقرّوا بوساطة الفقيه عيسى الهكاري^(٣) . وبعد ، فإن القارئ لتاريخ الدولة الأيوبية ، والمتأمل فيه يدرك المكانة الكبيرة ، والمنزلة الرفيعة التي أوّلتها هذه الدولة لموضوع الشريعة ، تعظيماً لأوامرها ، وتطبيقاً لأحكامها . فأدى ذلك التعظيم والتطبيق بفضل الله تعالى إلى استمرار مسيرة الدعوة الإسلامية المباركة ، ونجاحها ، وتقدمها .

(١) صلاح الدين - القائد وعصره - ٢٥٥

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٣٧٨

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٤٠٢

المبحث الثالث موضوع الأخلاق

جاءت الشريعة الإسلامية بمنهج شامل للحياة ؛ لإصلاح مفاسدها ، وتقويم اعوجاجها ، وذلك بالدلالة على محاسنها ، والتحذير من مساوئها . وإن من نواحي الحياة المهمة التي اعتنى هذا الدين العظيم بها ، واهتمّ بتربية أبنائه عليها ، موضوع الأخلاق ، فلقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدف الأساس لهذا الدين فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)^(١).

ولقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بالكثير من الشواهد الدالة على أهمية الأخلاق ، فقد مدح الله نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم بأخلاقه الحسنة فقال عز وجل: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)^(٢)، وبنّبه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على أهمية التعامل مع المدعوين بالخلق الحسن ، فقال تبارك وتعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ^ط وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ^ط فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ^ط وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)^(٣).

ولما سُئلت عائشة رضي الله عنهما عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن^(٤).

والأخلاق الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنة وتطبيقاتهما تؤلف معلماً كبيراً من موضوعات الدعوة في العهد الأيوبي ؛ وذلك لأن طائفة كبيرة من أعلام هذه الدولة عُرفوا بالتمسك بالخلق الإسلامي في تعاملهم مع أنفسهم ومع الآخرين . وكان هؤلاء الأعلام دعاة إلى الله عزوجل بهذه الأخلاق التي عُرفوا بها . ولعلهم بهذا ينتهجون منهج النبي صلى الله عليه وسلم الذي وصّفته الآثار بأنه قرآن يمشي على الأرض ؛ وذلك لأنه بأخلاقه العمليّة أعطى للأجيال من بعده درساً في هذه الأخلاق يفيد بأن المسلم بدون تطبيق عملي لما سمعه من الهدى ، لم يُفد مما قرره هذا الدين من خلال نصوصه . والفارق بين العصرين النبوي والأيوبي أنّ عُثاءً كبيراً وفساداً عريضاً لحق جماهير الأمة من خلال تتابع القرون ، وتمكّن الغفلة من القلوب والسير مع الهوى ، وألْقَةُ الابتداع ، ولكن

(١) رواه أحمد في المسند، ٥١٣/١٤، برقم ٨٩٥٢ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، ١/ ١١٢ ، برقم ٤٥

(٢) آية ٤ - سورة القلم

(٣) جزء من آية ١٥٩ - سورة آل عمران

(٤) رواه أحمد في المسند ، ١٨٣/٤٢ ، برقم ٢٥٣٠٢ ، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"

تبقى النماذج الحيّة التي نلقاها في هذا العصر الأيوبي متمثلة بالعلماء والدعاة نماذج سامية تُنبئ بخير وتمسك بالينبوع الصافي السالف. ومن هذه الأخلاق الإسلامية التي تستوقف المتأمل في هذا العصر:

- ١ - خلق العدل
- ٢ - خلق التواضع
- ٣ - خلق الكرم
- ٤ - خلق الحلم
- ٥ - خلق الوفاء
- ٦ - خلق الورع
- ٧ - أخلاق متنوعة

المطلب الأول: خلق العدل

العدل هو أسمى الأخلاق وأعظمها ؛ وذلك لأنه يجمع بين الإنصاف والصدق والمروءة والنبيل وحفظ العهد وأداء الأمانة ، قال الله تعالى: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ۗ اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ اِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (١).

وأمر الله تعالى نبيه بالعدل والقسط فقال جل وعز: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۗ اِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (٢) ، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۗ اِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ اِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (٣).

وإن من أشنع الأخلاق وأرذلها الظلم الذي هو نقيض العدل ؛ وذلك لأن العدل ميزان يضبط حياة الناس ، ويحقق أسمى المعاني في المجتمع ، أما الظلم فهو يهدم كل هذه المعاني الفاضلة، ويحدث هوة سحيقة بين أفراد المجتمع الاسلامي . ومن شدة شناعة الظلم وبشاعته أن حرّمه الله على نفسه فقد جاء في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) (٤).

ولخلق العدل شواهد متعددة عند دعاة الدولة الأيوبية-علمائها وملوكها- ومنها:

١- مظاهر من عدل صلاح الدين:

عُرف رأس ملوك هذه الدولة صلاح الدين بالعدل ، فقد كان يعيش في عصر سادت فيه أساليب ظالمة من الجور وعدم إحقاق الحق ، وللعالم أن يتصرف بالمغلوب كيف يشاء ، ومع كل ذلك لم تأخذه أبهة الظفر ، وعامل خصومه معاملة قلما جاد بمثلها الزمان (٥). وقد ذكر صاحب

(١) آية ٨ - سورة المائدة

(٢) جزء من آية ٤٢ - سورة المائدة

(٣) آية ٥٨ - سورة النساء

(٤) رواه مسلم في كتاب: البر الصلة والآداب ، باب: تحريم الظلم ، ١١٢/١٦ ، برقم ٦٥٢٤

(٥) الحروب الصليبية - ٢٠٢

"السلوك لمعرفة دول الملوك" عنه أنه كان يسوّي في المحاكمة بين أكبر الناس وخصمه^(١). كما وصفه المؤرخون الذين عاصروه وكانوا قريين منه ، وشهدوا مجالسه وقاصديه من الرعية ، فلاحظوا مواقفه فيها . يقول صاحب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية": (كان رحمه الله عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي ، وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سقراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يُعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يردّ قاصداً)^(٢).

وقد رُوي أنه لما استقرّ رحمه الله بدمشق بعد فتح بيت المقدس ابتداءً بالجلوس في دار العدل، وبحضرتة القضاة والعلماء من أهل الفضل^(٣).

ويُفهم من ذلك تخصيص هذا الملك الصالح يومين لعموم الرعية في السفر والحضر ، كما كان لا يعرف التمييز بين أصناف الرعية ، فيقبل بعضها ويردّ بعضها ، وذلك خلق نبويّ كريم طالما ترددت الآثار والنصوص لتؤكدّه .

ويذكر صاحب "شفاء القلوب" أن رجلاً يقال له ابن زهير الدمشقي استغاث بصلاح الدين من أجل مظلمةٍ اقترفتها ابن أخي السلطان واسمه المظفر ، فلما بلغه نبأ هذه المظلمة لم يتردد أن يطلب من ابن أخيه أن يحضر معه مجلس الشرع ، على الرغم من أن المظفر كان من أعزّ الناس عند الملك صلاح الدين ، ولكنه لم يُجابه على الحق^(٤). وهذا يُذكرنا بالخلق الإسلامي في إنصاف المظلوم، وكون الرعية سواسية أمام القاضي المسلم .

ويذكر المؤرخون أن جلسة صلاح الدين فيما يُعرف بدار العدل استمرت طوال مدة حكمه التي تُعدّ زمناً طويلاً ، ولم يُقعد عنها إلا مرضه الأخير الذي توفيّ فيه^(٥).

كما يذكرون أنّهم مظالم الناس ودعاويهم كان يُشغلُه أثناء فتوحاته المتتابعة، فهو مثلاً عندما أراد أن يفتح نابلس استقبله أهلها بالترحاب ، وعرضوا عليه الظلم الذي كانوا يلقونه من

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٣

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٣ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ١٠

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١١

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٣ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٤٠

(٥) انظر : صلاح الدين - القائد وعصره - ٤٧٦

واليها ، فبدأ بصلاة الجمعة في هذا البلد ، ثم شرع يُصلح أمور الرعيّة ، وكشف مظلّمها ، وإسقاط رسومها الجائرة^(١). وعندما فتح السلطان دمشق يوم الأربعاء سنة ٥٨٨ هـ توجه إلى قلعتها واستقرّ فيها ، وفي اليوم التالي جلس في مجلس المظالم ، وعمّ ذلك المجلس العام والخاص ، وأقام ينشر جناح عدله ، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة ، وعُرف عنه أنه حدّد لذلك يومي الاثنين والخميس ، فكان يستقبل رعاياه في هذين اليومين^(٢). وقد أشاد معاصروه بجانب عدله وإشفاقه على رعيّته ، وأن كثيراً منهم أنصفهم وكشف عنهم ظلم المظالم ، يقول أسامة بن منقذ: (أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله ، والرحمة التي تدارك بها العباد ، وأحيا سنة الخلفاء الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين ، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماءه ، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع ، ومن عدله في أنوارٍ تكشف عنهم ظلم المظالم)^(٣).

وحدث عند حصار عكا أن هُزم المسلمون أول الأمر ، فتحركت نوازع الطمع لدى فريق طائش من غلمان السلطان ، فقاموا بنهب أموال عظيمة من الخيام ، ومنها الأقمشة التي كانت من أموال الناس وممتلكاتهم ، وأخبر السلطان صلاح الدين بهذا ، فأمر بجمع الأقمشة من أكفّ الغلمان الذين نهبوها ، وأعادها إلى أصحابها بنفسه احتساباً لله تعالى ، وقد لقي في ذلك مشقة عظيمة ، يقول ابن شدّاد: (ولقد حضرت يوم تفرقة الأقمشة على أربابها ، فرأيت سوقاً للعدل قائمة ، لم يُر في الدنيا أعظم منها)^(٤).

ويذكر ابن شدّاد أيضاً إنصاف الملك صلاح الدين لدعوى تاجر يُدعى عمر الخلاطي ، وذلك في مجلس الحكم الذي كان يعقده بالقدس الشريف^(٥). والأمر اللافت للنظر لإصرار صلاح الدين على مباشرة هذا المجلس بنفسه على الرغم من كثرة أشغاله ، وسعة فتوحاته ، وتعدّد المهمات الجليلة التي كان عليها ، وما ذاك إلا لأن إنصاف المظلومين أمرٌ من مهام الدولة الإسلامية بما تتخذه من أنظمة إدارية ، قال العز ابن عبد السلام: "والغرض من نصب القضاة إنصاف المظلومين من

(١) انظر : صلاح الدين-القائد وعصره - ٤٦٩

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٤٤ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٤١

(٣) كتاب الاعتبار - ١٨٤

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٩١

(٥) المصدر السابق - ١٦

الظالمين ، وتوفير الحقوق على المستحقين ، فلذلك كان سلوك أقرب الطرق في القضاء واجباً على الفور ؛ لما فيه من إيصال الحقوق إلى المستحقين ، ودرء المفسدة عن الظالمين"^(١).

٢- مظاهر من عدل الملك الكامل:

ومن ملوك الدولة الأيوبية الذين عُرفوا بالعدل الملك الكامل^(٢)، فكان لا يتجاسر أحد أن يظلم أحداً في دائرة مملكته ، قيل: إنه حكم بالتعزير بالشنق على أجنادٍ له اغتصبوا شعيراً بأرض آمد^(٣). كما روي أنه كان في حال إقامته وسفره لا يقدر أحد أن يأخذ من فلاحٍ عِلافَةً تَبْن . ولعدله البالغ كانت الطرق في أيامه آمنة بحيث يسير الراكب وحده بلا عدّة^(٤). ويذكر الذهبي في ترجمة (الكامل) أن أحد العمال استخدمه أستاذه ستة أشهر بلا راتب ، فاشتكى إلى الكامل فأمر بإنصافه طوال المدّة^(٥).

٣- مظاهر من عدل الملك العزيز:

ومن الملوك الأيوبيين العادلين : الملك العزيز ، فقد رُوي أنه عندما استقرّ له الأمر بدمشق في الرابع عشر من شعبان سنة ٥٩٢ هـ أظهر العدل وأبطل عدة مكوس^(٦). كما يُذكر عنه أيضاً أنه نال محبة الرعية وعُرف بعدله^(٧). كما روي أنه كان يجلس للمظالم في يومي الاثنين والخميس^(٨). وثمة حادثة حدثت معه تؤكد لنا اهتمام هذا الملك بخلق العدل ، فقد روي أن كمال الدين العجمي طلب القضاء بحلب ، وبذل الأموال فردّه ، ولم يلتفت إليه ، ورأى أنّ ذلك يكون ذريعة إلى

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام - عز الدين بن عبد السلام- ٢ / ٤٣

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٧

(٣) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد- ٢٠٠ ، تاريخ الإسلام - ٢٥٧ وفيات (٦٣١-٦٤٠ هـ) ، سير أعلام النبلاء- ١٢٩

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٠٠

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٧

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١٥٣/١

(٧) المصدر السابق - ١ / ١٤٤

(٨) المصدر السابق - ١ / ١٣٦

الجور ، فمن يدفع مالاً ليصير قاضياً لا يكون مأموناً ، وعيّن بدله القاضي ابن شداد المعروف بالنزاهة^(١).

٤- مظاهر من عدل القضاة الأيوبيين:

وقد لمع في الدولة الأيوبية بعض القضاة الذين تميّزت سيرتهم بالعدل والبعد عن المحاباة ، فكان القاضي ابن الشيرازي الدمشقي يتصف بذلك ، ويستوي عنده الخصمان في النظر والإقبال عليهم بالتساوي^(٢). ومنهم جمال الدين بن الحرساني ، فقد ذُكر عنه أنه كان عادلاً في ولايته صارماً ، وكان عديم الالتفات إلى شفاعة الأكابر عنده^(٣). وثمة حادثة وقعت معه تؤكّد حرصه البالغ على العدل ، فقد روي أن الملك العادل كتب لبعض خواصّه يوصيه به في خصومة بينه وبين آخر ، فجاء إلى جمال الدين بن الحرساني ودفع إليه الكتاب ، فقال: أيُّ شيء فيه؟ قال: وصية بي، قال: أحضر خصمك ، فأحضره ، والكتاب بيده لم يفتحه ، وادّعى على الرجل ، فظهر الحق لغيره ف قضى عليه ، ثم فتح الكتاب ، وقرأه ، ورمى الكتاب لحامله ، وقال: "كتاب الله تعالى قد قضى وحكم على هذا الكتاب" ، فمضى الرجل إلى العادل ، فبكى بين يديه ، وأخبره بما قال ، فقال العادل: "صدق ، كتابُ الله أولى من كتابي"^(٤).

وهذه القصة في الحقيقة مصداق حي لما وصل إليه هذا القاضي النزيه من سمو ورفعة في خلقه الإسلامي الذي صاغته التوجيهات النبوية التي سرت في كيانه ، وما أشدّ حاجتنا في كل عصر إلى مثل هؤلاء القضاة الذين يقضون بقضاء الله ، ولا يلتفتون إلى شفاعة حاكم أو وجيه أو مسؤول أياً كان ، إذن والله لساد العدل بين الرعية ، ونال كل ذي حقّ حقه ، وذلك بمقولة هذا القاضي الذي شفع لخصمه الملك نفسه ، ولكنه أجاب: " كتاب الله تعالى قد قضى وحكم".

٥- مظاهر من عدل النساء في العصر الأيوبي:

ولم يكن هذا الخلق النبيل مقصوراً على الرجال فقط ، فقد اتصفت به نساء كريمات فضليات ، ومن هؤلاء النساء صاحبة ضيفة خاتون بنت الملك العادل وزوجة الملك الظاهر ، فقد

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ١١٦

(٢) تاريخ الإسلام - ٢٦٢ وفيات (٦٣١-٦٤٠)

(٣) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٨٩

(٤) المصدر السابق - ١ / ٣٩١

كانت تَتَصَرَّفُ تصرُّفَ السلاطين ، وتنهض بالملك أتمَّ نهوض: بعدلٍ وشفقة ، وأزالت المظالم والمكوس في بلاد حلب وآثرت الفقراء والعلماء^(١).

المطلب الثاني: خلق التواضع

التواضع خلق نبوي كريم ، وحلية جذابة ، وشيمة عظيمة ، يستهوي القلوب ويستثير الإعجاب والتقدير ، وقد حثَّ عليه الإسلام ورعَّب فيه وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم به فقال تعالى: (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٢).

وعد التواضع الكبر ، وهو خلة مذمومة ، وحسبنا أن نعلم أنه السبب في طرد إبليس من الجنة ، وذلك عندما رفض السجود لآدم عليه السلام ، تكبراً واستعلاءً ، فكانت النتيجة أن حلَّ عليه الغضب الإلهي: (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ)^(٣) ، ولقد توعدَّ الله تعالى المتكبرين عذاب النار يوم القيامة ، فقال جل وعز: (أَلَيْسَ فِي

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)^(٤)

ولقد تمثل رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق التواضع ، واتخذ منهجاً عملياً في حياته ، ومع صحابته ، فقد كان صلى الله عليه وسلم مع علو قدره ، ورفعة منصبه أشد الناس تواضعاً ، وألينهم جانباً ، وقد روي عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم: (ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)^(٥).
والتواضع من الأخلاق الإسلامية التي نجد لتطبيقاتها أمثلة عند دعاة الدولة الأيوبية، ومن ذلك:

١- مظاهر من تواضع صلاح الدين:

وقد عُرف عن صلاح الدين هذا الخلق العظيم حتى إنَّه اشتهر به^(١). فقد روي أنه لما تولَّى أمور الملك وشرع في ترتيب الأمور ، أحبَّه من كان تحت ألويته وراياته ، وما زالت محبته غالبية على

(١) تاريخ الإسلام - ٤٣٧ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ)

(٢) آية ٢١٥ - سورة الشعراء

(٣) آية ١٣ - سورة الأعراف

(٤) آية ٦٠ - سورة الزمر

(٥) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب ، باب: استحباب العفو والتواضع ، ١٦/١٢٠ ، برقم ٦٥٤٤

مهابته ، وهو يبالغ في تقريبيهم كأنهم ذوو قرابته ، وما زاده الملك ترفُّعاً ، وما أفاده إلا تأصلاً في السماح وتفرُّعاً^(٢).

وروى عنه معاصروه مَن كانوا قريبين منه في السفر والحضر روايات كثيرة تُؤكِّد أنه كان قريباً من الناس كثير الاحتمال . ومن هؤلاء الذين ذكروا كثيراً من الأمثلة عن خلق التواضع ابن شداد إذ يقول: (لقد كانت طرَّاحته تُداس عند الترحام عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر بذلك)^(٣). وذكر عنه أيضاً أنه زاحم وركه حتى آلمه ذلك ، فما كان منه إلا أن تبسّم ، ويقول أيضاً : (ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ریحٍ مطيرٍ إلى القدس الشريف وهو كثير الوَحْل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يتبسم ، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني)^(٤). أية سعة صدرٍ هذه التي اتَّسم بها صلاح الدين؟ لقد جعلته يستوعب خطأ صديقه غير المقصود في وقتٍ عزيز ، فلم يُعاتب وإنما تبسم على الرغم مما جرَّ عليه من بأسٍ وإتلاف ، إنَّه والله خُلِقَ شبيهه بأخلاق الصالحين من عباد الله.

ويذكر الذهبي أن صلاح الدين لم يتكبر على أحدٍ من أصحابه ، وكان يعيب على الملوك المتكبرين ، وكان يحضر عنده الفقراء ، فإذا قام أحدهم يُؤدي أمراً بين يديه قام صلاح الدين ، فلا يقعد حتى يفرغ^(٥).

إنَّ تصرُّف صلاح الدين مع الفقير يُعدُّ أمراً طبيعياً عند مَنْ تربَّى في محراب الإسلام ، ولكننا في الحقيقة نعدم هذا الخلق عند الكثير من ملوك التاريخ الذين يأنفون أن يكونوا بقرب الفقير والمسكين ، ناهيك عن تقديم العون لهما مباشرة.

وكان رحمه الله يدور على الجيش ويقول: أنا واحد منكم ، وكان في الشتاء يعطي العساكر إجازة ، ويقيم هو مع نفر يسير^(٦).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٣

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٧٣

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٩

(٤) المصدر السابق - ٢٩

(٥) الكامل في التاريخ - ١٢ / ٩٧ ، سير أعلام النبلاء - ١٢ / ٩٧

(٦) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٥

ومن تواضع صلاح الدين ، ما رُوي أنه لما دخل دمشق سنة ٥٧٠ هـ ، مشى بنفسه إلى دار القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، فأسرع القاضي لتلقيه ، ولكن السلطان دخل البيت وبأسطه قائلاً: طب نفساً فالأمر أمرك والبلد بلدك^(١) .

كما ذكر ابن الأثير في "الكامل" أن بناء أسوار بيت المقدس اقتضت جَمْع الحجارة ، وعندما قَلَّتْ كان صلاح الدين يركب ، وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به الجند ، وقد جمع في اليوم الواحد ما يجمعه الآخرون عادة في عدة أيام^(٢) .

أليس في تصرف هذا الملك الصالح ما يذكرنا بمشاركة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في جَمْع الحجارة ، فقد روي عن البراء بن عازب: (لما كان يوم الأحزاب، وخذق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيته ينقل من تراب الخندق ، حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعتة يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أينا

قال: ثم يمدّ صوته بأخرها^(٣) .

ولا يعيب هذا عظماء النفوس ، والذين يشعرون أنهم قدوة لجندهم وأصحابهم، وكأني بصلاح الدين بذلك الموقف يتابع منهج النبوة ، ويقتفي أثره.

ويذكر صاحب "شفاء القلوب" أن صلاح الدين كان يلين لمن جالسه ، فلا يعلم جليسه أنه مع سلطان ، ويظن أنه مع أخٍ من الإخوان^(٤) . وصفة القرب من الناس ، وكثرة الاحتمال لهم صفة بارزة من صفات صلاح الدين^(٥) .

ولقد مدحه الموفق عبد اللطيف-أحد معاصريه- بذكر عدد من محاسنه ، ومنها التواضع فقال عنه: (أتيت وصلاح الدين بالقدس ، فرأيت ملكاً يملأ العيون روعة والقلوب محبة ، قريباً بعيداً،

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٥٧

(٢) الكامل في التاريخ - ١٢ / ٧٤ ، انظر : سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢

(٣) رواه البخاري في كتاب: القدر ، باب: وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ٢٤٤١/٦ ، برقم ٦٢٤٦

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٢

(٥) المصدر السابق - ١٩٠

سهلاً محبباً ، وأصحابه يتشبهون به ، ويتسابقون إلى المعروف ، كما قال الله تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَبِلِينَ)^(١)(٢).

وقد شهد الأعداء أيضاً على تواضع صلاح الدين ، فقد زُوي أن أحد الرسل قال: (رأيت صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف ، وتحت سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة ، وإلى جانبه سيفه ، وجعبته معلقة في عمود الخيمة ، ولقد فارقت الأمراء وهم على طنائف الحرير ، والخمور تُراق ، والطبول تُقرع ، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المحرمات ، فأدّيت إليه الرسالة ، وجاء وقت الظهر ، فضجّ العساكر بصوت الأذان ، وفي كل خيمة إمام)^(٣). وأود أن أقف قليلاً أمام موازنة واردة: المشهد الأول فيها ملوك عليهم سيماء البطر والأشر والبدخ والتترف، في أسرة رقيقة، وحشود مزدحمة تحرص على راحته، وفي المشهد الثاني ملكٌ يحمل مصحفه، ويفترش سجادته في خيمة متواضعة، وهذا هو الفرق بين مَنْ هم أحرصُ الناس على حياة، وبين مَنْ هم أحرصُ الناس على رحمة ربه.

وذكر الذهبي أنّ بطانة السلطان كانوا على شاكلته في التواضع ، فكان القاضي الفاضل والعماد يحملون الحجارة لبناء سور بيت المقدس^(٤). ويشاركهم في ذلك أولاده وأمرأؤه وأجناده ، ومعهم القضاة والولاة . ويذكرون عن القاضي الفاضل كثيراً من الروايات التي تؤكد تواضعه ، وعيادته للمرضى ، والإحسان إلى الفقراء^(٥) . وخيرٌ كبيرٌ للأمة إذا كانت بطانة السلطان تُظهر صلاحه ، وتساعد على تحقيق مصالح رعيته .

(١) آية ٤٧ - سورة الحجر

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢

(٣) الحروب الصليبية - ١٤٤

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢

(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٢

٢- من مظاهر تواضع الملك الأشرف:

ومن ملوك الدولة الأيوبية الذين عُرفوا بالتواضع : الملك الأشرف ، فقد رُوي أنه كان يُبالغ في الخضوع للفقراء ، ويزورهم ويبعث في رمضان بالحلوى لهم^(١). ويروون عنه قصة تحكي تواضعه ، فقد جاءه رجلٌ بجِيارٍ ، فقصّره وأكله ، ولم يُطعم أحداً منه ، فتعجبوا منه فقال: "والله ما قشّرت منه واحدةً إلا وجدتها مُرّةً ، فما أمكنني أن أذكر ذلك ، وأن أرمي منه واحدةً ؛ لئلا أكسر قلب الذي جاء به ، فكنت كُلّما تطعمت بواحدةٍ التزمتُ أكلها حتى أتيت على الجميع"^(٢).

٣- من مظاهر تواضع الملك المعظم:

ومنهم أيضاً الملك المعظم^(٣)، فقد كان مع هيبته قليل التكلّف ، وكان يركب في بعض الأحيان وحده ، ثم يلحقه بعض غلمانه^(٤)، ولما زار القدس كان الرجال والصبيان يُراحمونه ولا يردهم أحدٌ عنه ، ولما كثر ذلك منه ضُرب به المثل ، فكان الإنسان إذا فعل فعلاً لا تكلف فيه يقولون فعلاً مُعظّماً^(٥).

ومن الملوك المتواضعين الملك المحسن ، فقد مدحه المؤرخون لانتصافه بالتواضع^(٦).

٤- من مظاهر تواضع العلماء:

- من الأعلام المتواضعين الذين عاصروا الدولة الأيوبية القاضي الفاضل ، فقد كان متقللاً في مطعمه ومنكحه ولباسه ، ولا يبلغ جميع ما عليه من ثياب دينارين ، ويركب ومعه غلام وركابي^(٧) .
- ومنهم الشيخ عماد الدين المقدسي الجماعيلي ، وقد أقام بدمشق يُعلّم الفقراء ويُقرئهم ويُطعمهم ويتواضع لهم ، وكان من أكثر الناس تواضعاً واحتقاراً لنفسه وخوفاً من الله^(٨).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٢

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٥ / ١٤٠

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٢٦٨

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٨٠

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٨٢ ، الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٨٢

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٠٣

(٧) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٩٢

-ومن هؤلاء الأعلام الموقق بن قدامة ، فقد عُرف بالتواضع الشديد مع أهل بيته ، فلا يُكَلِّفهم بشيء من غسيل أو طعام ، فإن جاؤوا بشيء أكل وإلا سكت^(٢).

-ومنهم القطب النيسابوري الشافعي ، ويُرَوى أنه كان حسن الأخلاق ، قليل التصنع ، مُطَّرَح التكلُّف^(٣).

-ومنهم أيضاً: ابن العديم الحنفي ، فقد روي أن الملك الظاهر حضر ، وهو لم يأت بعد ، فطلبه فقبل له: حتى يُنهي ورد الضحى ، ثم جاء وقد تكامل الناس ، فقام كلهم ولم يقم هو لأحد ، ثم ولي قضاء دمشق ولم يعبأ بالمنصب ، ولم يُغيِّر زيَّه ، ولا وسَّع كُمَّه^(٤).

-ومن اشتهر بالتواضع جمال الدين بن الحرستاني ، فقد ذُكر عنه أنه كان مقتصدًا في ثيابه ومعيشتته ، ولم يدع أحداً من غلمان القضاة يمشي معه^(٥).

إن تواضع هؤلاء الدعاة يذكرنا بوصف الله تعالى لعباده المؤمنين في قوله: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)^(٦) ، فلقد طبق هؤلاء الأفاضل هذه الآية الكريمة ، وتمثلوا هذا الخلق العظيم في تعاملهم مع الناس ، ويظهر أن دعوتهم كان لها أثر كبير ؛ فقد أزال التواضع ما بينهم وبين المدعوين من حواجز، فصار تبليغهم للرسالة أبلغ وأيسر.

المطلب الثالث: خلق الكرم

الكرم والسخاء خلق نبوي كريم ، وفضيلة قويمه ، تنبئ عن سمو صاحبها ، ونبيل أصله ؛ وذلك بترفعه عن الزائد من حطام الدنيا وأموالها ، ببذلها بطيب نفس لغيره من المسلمين ، ولقد

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٤٩

(٢) تاريخ الإسلام - ٤٩١ وفيات (٦١١-٦٢٠)

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٢ / ٢٦٣ ، وفيات الأعيان - ٥ / ١٩٦

(٤) المنهل الصافي - ٧ / ٢٠٣

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٩١

(٦) آية ٦٣ - سورة الفرقان

اشتهر نبي الله ابراهيم عليه السلام بالكرم واليد المعطاء ، فكان يستضيف الضيفان دائماً ويكرمهم ، قال تعالى عنه: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) ^(١) .

ولقد ربّى الله تعالى نبيه محمداً صلى الله على هذا الخلق العظيم ، ومدّحتّه زوجته خديجة رضي الله عنها به ، وعدّت تلك الصفة من الخلال التي تميّز بها ، وبها استحق معونة الله له وإكرامه ، وقد جاء في الصحيح: (أبشر ، فوالله لا يُخزيك الله أبداً ، فوالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرّي الضيف ، وتعين على نوائب الحق) ^(٢) .
ونلاحظ في سيرة أعلام الدولة الأيوبية أن من أبرز الأخلاق الإسلامية التي اتصفوا بها: الكرم، وتوزيع الهبات الكثيرة على العباد ، والبعد عن ملء الخزائن الشخصية بالغنائم أو حبسها على النفقات الخاصة بالقصور ، ومن الشواهد على ذلك:

١- من مظاهر كرم صلاح الدين:

ومن أبرز من اشتهر بذلك الخلق القويم صلاح الدين ، فقد كان في مُمكنته أن يجمع من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ؛ نظراً لكثرة فتوحاته وغنائمه واتساع موارد الدولة ولكنه - كما يقول ابن الأثير - : "كان كثير البذل لا يقف في شيء يُخرجه ، ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يُخلّف في خزائنه غير دينار واحد صوريّ وأربعين درهماً ناصريّة ، وبلغني أنه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة ، وأما العين والثياب فإنه لا يدخل تحت الحصر ، ولما انقرضت الدولة العبيدية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرّقه جميعه" ^(٣) .

وهذا ابن شداد يقول: "هو كلما استولى على خزانة من المال وهبها ، وكلما فُتح له خزائن ملك أنهبها ، ولا يُبقي لنفسه شيئاً" ^(٤) .

(١) آية ٢٤ - سورة الذاريات

(٢) رواه البخاري في كتاب: التفسير ، باب: تفسير سورة اقرأ ، ١٨٩٤/٤ ، برقم ٤٦٧٠

(٣) الكامل في التاريخ - ٩٧ / ١٢

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٤٥ ، وانظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢٢٤/٢

وما كان أسهل على هذا الملك أن يُبقي لنفسه ما يريد من حرّ المال وصفوته، ولا سيما مع سعة موارد الدولة ، وما كان أسهل عليه أن يكون له من الثروات العينية ما يفوق الحصر، ولكنه أعرض عن هذا ، وآثر توزيع هذه الثروات على مستحقيها.

وذكر الذهبي أن صلاح الدين لم يُخلف مُلكاً ولا عقاراً^(١)، وأن أكثر ما يصل عطاؤه إلى العلماء ، وأرباب البيوت ، والذين يُظهرون شجاعة في المعارك ، ولم يكن يصل مُبتلاً أو مَرّاحاً^(٢). كما زُوي أنه كان يُكارم الناس مكارمةً عظيمةً^(٣). ولم يكن من عادة هذا الملك الصالح أن يستأثر بالغنائم التي يصل إليها في حروبه ، فقد ذكر المؤرّخون أن صلاح الدين عندما استولى على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزانته بل ورّع ما وجد على الأهالي^(٤). وعندما فتح دمياط بالغ - كما يقول أبو شامة - في الهدايا والعطايا والهبات^(٥)، كما يُؤكّد رحمه الله أن صلاح الدين كان إذا عرف في خزانته شيئاً لا يستطيع له تلك الليلة المقام حتى يُفرّقه جوداً^(٦).

وما أشبه هذا الموقف بموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حث على هذه الخلة العظيمة في قوله: (إن الله كريم يحب الكرم ويجب معالي الأخلاق ويكره سفسافها)^(٧)، كما وصفه ابن عباس قائلاً: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)^(٨). وهذا صلاح الدين ممن تربّى على هذه المدرسة النبوية: "لا يستطيع له تلك الليلة المقام حتى يفرّقه جوداً".

ومن المواقف الرائعة في حياة السلطان صلاح الدين والتي تحكي كرمه وجوده ما حصل أثناء حصاره لآمد ، حيث زُوي أنه لم يزل الحصار عليها حتى استسلم أهلها ، وخرجت نساؤهم سحرّاً إلى المخيم الفاضلي يطلبين الأمان ، فأتمتهم السلطان على أن يخرجن بعد ثلاث ، ويحملن ما يقدرن

(١) انظر: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٩٠

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٨

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٠٣

(٤) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٢٧٢

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٤١

(٦) المصدر السابق - ٣ / ٢٦٩

(٧) المستدرک على الصحيحين - ١ / ١١١ ، برقم ١٥١ - كتاب الإيمان - وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد .

(٨) رواه مسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب: كان النبي أجود الناس بالخير - ٥٨/١٥ ، برقم ٥٩٦٢

عليه من المال والأثاث ، وقد أعانهم السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال ، فلما انقضت مدّة الأمان تسلّمها السلطان ، وسلّمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان وأعمالها ومَن فيها^(١) .
ومن مواقفه الكريمة أيضاً أنه لما وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود نائباً عن أبيه ، فرح به السلطان فرحاً عظيماً ، وتلقاه عن بعيد هو وأهله ، وأنزله عنده في الخيمة ، وكارمه مكارمة عظيمة ، وقدم له تحفاً حسنةً ، وأمر بضرب خيمته بين ولديهِ الأفضل والظاهر.

٢- من مظاهر كرم الملوك الأيوبيين:

ومن ملوك هذه المدة الذين يصفهم المؤرخون بالكرم وكثرة الخير والبذل والعطاء أسد الدين شيركوه^(٢) ، والملك المعظم^(٣) ، والملك العادل^(٤) ، والملك الناصر^(٥) ، وتوران شاه بن أيوب^(٦) .
ومنهم أيضاً الملك العزيز الذي قيل عنه أنه بلغ من كرمه أنه لم تبق له خزانة إلا وأنفق ما فيها^(٧) ، كما روي أنه كان يعطي العشرة آلاف دينار ، ويعمل سماطاً عظيماً يجمع الناس لأكله^(٨) .
أما المظفر فيذكرون عنه أنه لم يكن شيء أحب إليه من الصدقة ، كان له كل يوم قناطر مقنطرة من الخبز تُفَرَّق على المحاويج ، ويجتمع خلق كثير عند بابه ، فيدخلهم إليه ، ويدفع لكل واحد منهم كسوة على حسب الفصل من الشتاء أو الصيف^(٩) .
والملك الأشرف أيضاً عُرف عنه الكرم ، فكان يزور الفقراء ويُعطيهم ، ويبعث بالحلوات لهم في رمضان^(١) ، كما روي أنه لم يكن في خزائنه مالٌ مع اتساع ملكه ، ولا تزال عليه ديون للتجار^(٢) .
للتجار^(٢) .

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٤٨-١٤٩

(٢) المصدر السابق - ٢ / ١١٤

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٠

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ١٦٧

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٠٤

(٦) المصدر السابق - ٢١ / ٥٣

(٧) المصدر السابق - ٢١ / ٢٩١ - ٢٩٣

(٨) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٤٤

(٩) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٥ / ٥٤

ويذكر المؤرخون عن الملك عز الدين بن فرخشاه أنه كان من أكرم الناس يداً ، ومما يُحكى عن كرمه أنه رأى رجلاً قد افتقر بعد غنى ، فأمر له بشياب وركوب وبألف دينار ، وأجرى له راتباً عشرين ديناراً كل شهر^(٣) .

ومن أمراء الدولة المشهود لهم بالكرم : عماد الدين الهكاري بن المشطوب^(٤) .

٣- من مظاهر كرم العلماء:

أكثر ما وجدت من أمثلة الكرم كانت عند الملوك ، ولم أقف على الكثير من عند العلماء ، وأعتقد أن سبب ذلك هو توفّر الأموال عند الملوك أكثر منها عند العلماء ، إضافة إلى اشتهاار العلماء بالزهد والقناعة ، وعدم الالتفات إلى جمع الأموال.

ومن الشواهد التي حصلت عليها عن كرم العلماء في هذا العصر: كرم الحافظ ابن عبد الغني، فقد روي أن أهدي إلى بيته مشمش ففرقه قائلاً: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^٥ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ^(٥))، وقد فتح له بكثير من الذهب وغيره ، فما كان يترك شيئاً ، ولقد كان الحافظ في الغلاء بمصر ثلاث ليال يؤثر بعشائه ويطوي على الجوع، وكان الحافظ يؤثر بما تصل يده إليه سراً وعلانية ، قال بدر بن محمد الجزري: ما رأيت أحداً أكرم من الحافظ ، كنت أستدين يعني لأطعم به الفقراء ، فبقي لرجل عندي ثمانية وتسعون درهماً ، فلما تهيأ الوفاء أتيت الرجل فقلت: كم لك ؟ قال : ما لي عندك شيء! ، قلت: من أوفاه ؟ قال: قد أوفى عنك ، فكان وقاه الحافظ وأمره أن يكتم عليه^(٦) .

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٢

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٩٨

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٢٧

(٤) وفيات الأعيان - ١ / ١٨٠

(٥) آية ٩٢ - سورة آل عمران

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٧

المطلب الرابع: خلق الحلم

الحلم هو كظم الغيظ ، والبعد عن الغضب ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، والترفع عن شتم الناس وسبهم ، وهو صفة من صفات الله تعالى على ما يليق به جلّ وعزّ ، قال تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)^(١).

ولقد مدح الله نبيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لاتصافهما بهذه الصفة العظيمة ، قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)^(٢)، وقال عن اسماعيل عليه السلام: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)^(٣).

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس ، فكان لا يضيق صدره بما يصدر عن بعض أصحابه من أخطاء ، كما أنه كان يعلمهم الحلم وكظم الغيظ.

ولقد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحد الصحابة-أشج عبد قيس- لاتصافه بالحلم حيث قال له: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)^(٤)، ويين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحلم يُظهر قوة إرادة صاحبه ، وتحكّمه في انفعالاته ، فقد جاء في الحديث: (ليس الشديدُ بالصُّرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)^(٥).

والحلم وسعة الصدر والتغافل عن هفوات الآخرين وإعذارهم ، من الأخلاق السامية التي اشتهر بها دعاة هذا العصر ، ومن الشواهد على ذلك الخلق الكريم:

١- من مظاهر حلم صلاح الدين:

كان صلاح الدين رحمه الله من أبرز مَنْ تميّز بالحلم ، وتزخر كتب المؤرّخين بكثير من الروايات التي تؤكّد ذلك . وهذا الخلق خلقٌ نبوي أصيل استقى منه هذا الملك الصالح ، فقد ذُكر

(١) جزء من آية ٢٣٥ - سورة البقرة

(٢) جزء من آية ١١٤ - سورة التوبة

(٣) جزء من آية ١٠١ - سورة الصافات

(٤) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين ، ١/١٦٤، برقم ٨٣

(٥) رواه البخاري في كتاب: الآداب ، باب: الحذر من الغضب ، ٥/٢٢٦٧ ، برقم ٥٧٦٣

عنه أنه كان كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع ما يكره فلا يتغيّر على صاحبه^(١) . وكان رحمه الله يحترم كل من خدمهم ، ويعاملهم معاملة ليّنة ، فإذا وقع من أحدهم ما يُسيئه كتّمه ولم يُظْهره^(٢) . كما رُوي أن صلاح الدين لما واجهه الملك الصالح بالاتهامات لأطماع شخصية لم يُقابله إلا باللين والرفق والتبسّم^(٣) .

وقد حكى القاضي شهاب الدين ما يدلّ على حلم صلاح الدين فقال: (نفرت بغلتي فرحمت وركه وأوجعته ، فما كان منه إلا التبسّم)^(٤) . وكان يوماً جالساً وإلى جانبه بعض الغلمان يلعبون ، فرمى أحدهم بجذء ، فأخطأته ، ووقعت بالقرب من السلطان ، فالتفت صلاح الدين إلى الجهة الأخرى ، وكأنّه تغافل عنها وعن صاحبها^(٥) . ويتحدث عنه ابن شداد الذي كان جليسه في الحضر والسفر فيقول: (كان متجاوزاً ، قليل الغضب^(٦)) ، ولا يرى الإساءة إلى أصحابه وإن أفرط في الخيانة ، ولقد أُبدل في خزائنه كيسان من ذهب بكيسين من الدراهم ، فما عمل بالمسؤولين شيئاً سوى أن صرّفهم من عملهم)^(٧) .

ويذكر عنه ابن شداد أيضاً أنّه مرّ به وقت كان فيه مُتضجّراً ، وفي حالة ضيق نفسي ، فتقدّم إليه أحد مماليكه بمعروضٍ فقال صلاح الدين: "أنا الآن ضجّرٌ ، آخرّ معروضك بعض الوقت" ، ولكنّ المملوك أصرّ وتقدّم إليه بالمعروض من طريقٍ آخرٍ ، فوقف صلاح الدين على المعروض فعرفه فقال: "رجل مستحقّ" ، وكانت الدواة التي سيوّع بها بعيدة عنه ، ولكنّه امتدّ على يده اليسرى ، ومدّ يده اليمنى ، فأحضرها ووقع بها وقال: "ما ضرنا شيئاً ، قضينا حاجته وحصل الثواب" ، يقول ابن شدّاد: "ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومن الذي يقدر أن يُخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك؟ وهذا غاية الإحسان والحلم"^(٨) . ويذكر أبو شامة أنه كان لصلاح

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٩٢ ، وانظر: سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٨

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٢٧٢

(٣) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب - ٢ / ٢١

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٩٢

(٥) المصدر السابق - ١٩٢

(٦) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٨

(٧) المصدر السابق - ٣٣ ، وانظر صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٢٧٢

(٨) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٨ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٩١ ، مفرج الكرب في أخبار بني

لصلاح الدين إمام يصلي به ، وهو يكتب له مثل خطّه ، فاستغلّ الإمام ثقة صلاح الدين ، وزوّر لأصدقائه أوامر سلطانية بمنحهم أموالاً ، وكان صاحب الديوان ومُتوَيّ الخزائن يشكّ في أنّ التوقيع صحيح ، ودام هذا الأمر سنين طويلةً ، ثمّ انكشف أمره لدى السلطان ، وجلس أمراء السلطان يُغرونه به ، فقال له مستشاره العماد سرّاً : "تعبه للقرآن" ، فقال: "نعم" ، ونقّس من خِناقِه وأمر بإطلاقه^(١).

ومن المواقف الدالّة على حِلْمه رحمه الله ، ما ذكر أبو شامة : أنّ مدينة حلب استسلمت لصلاح الدين بعد حصارٍ طويلٍ ، فعرف أهلها أنّ العقوبة أليمة والعاقبة وخيمة ، فدخلوا من باب التذلل ، وخاطبوه في التفضّل ، وطلبوا الصلح ، فأجابهم صلاح الدين ، وعفا وعفّ وكفى وكفّ ، واستقرى كلّ عثرةٍ لهم وأقالها^(٢).

وفي مرضه الأخير الذي مات بعده بمدّةٍ قليلةٍ ، جلس مُسنداً ظهره إلى وسادة وطلب ماءً ، فأحضر له ماءً فاتر ، فوجده شديد الحرارة ، فطلب تعديله ، فعرض له ماءً شديد البرودة ، فلم يغضب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات: "سبحان الله ، لا يمكن لأحدٍ تعديل الماء؟".

يقول القاضي ابن شداد: "فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده ، وقد اشتدّ منّا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: أبصِرْ هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أنّ هذا صدر من بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره"^(٣).

ويذكر المؤرّخون أنّ صلاح الدين ارتحل مع بعض إخوته وأمرائه إلى الشيخ أبي الطاهر السلفي لطلب العلم ، وفي أثناء أحد الدروس كان صلاح الدين يتحدّث مع أخٍ له ، فزَيَّرهما الشيخ مُعتزلاً على حديثهما قائلاً: (نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدّثان؟) ، فلم يبدُ من صلاح الدين أيُّ جفاء وإمّا قابله بحلم^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٩٨

(٢) المصدر السابق - ٢ / ٤٢٢

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٦٠ ، وانظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ٤١٧

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٥

ويذكر ابن الأثير أن بعض من خدمه أسقط سهواً وعاء الماء فوق الماء جميعه عليه ، وكان الماء بارداً ، والسلطان في مرضه ، فلم يزد على أن قال للغلام: "إن كنت تريد قتلي فعرفني" ، فاعتذر إليه ، فسكت عنه^(١). وقد حَكَمَ هذا المؤرخ على صلاح الدين بكثرة العفو والصفح^(٢).
وُزِي أنهُ طلب مرّة الماء ، فلم يُحْضِر له أحد شيئاً ، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات ، فلم يحضر ، فقال: "يا أصحابي والله قد قتلتني العطش" ، ولم يُنْكَر على خَدَمَتِهِ التمهّل في إحضار الماء^(٣).

ومن حلمه وسعة صدره ، والبُعد عن حَظِّ النفس والغدر، ومقابلة الإساءة بالغفران والصفح، ما ذكره أبو شامة أنّ القاضي كمال الدين بن الشهرزوري كان في أيام نور الدين الزنكي هو الحاكم المتحكّم وصلاح الدين إذ ذاك يتولّى ما يسمّى بالشحنكية بدمشق ، والقاضي الشهرزوري كان يُعارضه بمخالفة أغراضه ، وكان في نفس صلاح الدين على القاضي الشيء الكثير ، إلى أن نقله الله إلى الملك وصار القاضي أحد قضاة مملكه ، ولكنّ صلاح الدين أجراه على حكمه ، ولم يؤاخذه وخاطبه بإحسان ، ولم يزل يستفتيه ويأخذ برأيه ويعتدُّ بفتواه^(٤). ويُشير هذا المؤرّخ إلى أنّ صلاح الدين كان يبلغه عن بعض رجالات نور الدين زنكي أشياء تؤلمه، فكان يواجهها بصدرٍ رَحِبٍ وَخُلُقٍ عَذِبٍ ، وما قدر أحدٌ أن يوقع بينهما^(٥).

٢- من مظاهر حلم الملك الأفضل: ومن أعلام الدولة الأيوبية الذين يُذكرون بالحلم الملك الأفضل ، فقد وُصِفَ بأنه قلّ أن يُعاقب على ذنب^(٦)، كما قال عنه الذهبي: (تميّز بالحلم ولم يكن في الملوك مثله)^(٧).

٣- من مظاهر حلم الملك العادل: ومنهم أيضاً الملك العادل ، فقد رُوي أنه كان حليماً فيه صفح وإيثار^(١)، كما يذكر صاحب "النجوم" عن العادل أنه كان فيه حلم وأناة^(٢).

(١) الكامل في التاريخ - ٩٦ / ١٢

(٢) المصدر السابق - ٢٣ / ١٢

(٣) الكامل في التاريخ - ٩٦ / ١٢

(٤) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤٢٦ / ٢

(٥) انظر: المصدر السابق - ١١٩ - ١١٨ / ٢

(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١٥٥ / ٤

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢٩٦ / ٢١

٤- من مظاهر حلم الملك الكامل: من الملوك الذين اتصفوا بالحلم ، روي أن بعض الشعراء هجاه ، فلم يلتفت إليه^(٣).

٥- من مظاهر حلم الملك الصالح: روي أنه لم يقع له حال غضبه قط كلمة هَجْر^(٤)، وكان إذا غضب على أحد غلمانه يقول: يا سبحانَ الله ، ما كان الأمر كذا وكذا ، وكان لا يُسَمَع منه شتيمة^(٥).

٦- من مظاهر حلم العلماء:

اشتهر بالحلم الشيخ أبي طاهر السلفي ، فقد روي أنه كان حليماً متحملاً لجفاء الغرباء^(٦)، ومنهم أيضاً الحافظ عبد الغني ، فقد روي أنه لما حدثت فتنة في دمشق بين الحنابلة والشافعية ، ضاق صدره رحمه الله ، ومضى إلى بعلبك ، فأقام بها مدة ، فقال له أهلها : إن اشتهيت جئنا معك إلى دمشق نؤذي من آذاك ، فقال : لا، وتوجّه إلى مصر^(٧).

ومن العلماء الذين عُرفوا بالحلم والتعامل الحسن مع الناس ، وإن كانوا من المفسدين ، العز بن عبد السلام ، فقد روي أنه قصده جماعة من المفسدين وهو في بيته، فخاف أهله ، فنزل العز إليهم ، وفتح لهم الباب ، وقال: أهلاً بضيوفنا ، وأجلسهم في مقعدٍ حسنٍ ، وكان مهيباً ، فهابوه ، وتناولوا الضيافة ، وطلبوا منه الدعاء ، وعصمه الله منهم^(٨).

المطلب الخامس: خلق الوفاء

(١) المصدر السابق - ٢٢ / ١١٦

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ١٦٧

(٣) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد - ٢٠٠

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٨١

(٥) كنز الدرر وجامع الغرر - ٧ / ٣٧١

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٥

(٧) المصدر السابق - ٢١ / ٤٦٠

(٨) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٣٥

الوفاء خلق عظيم أمرنا الله تعالى به فقال جل وعز: (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (١).

ولقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ربه تعالى ، وتخلّق بخلق الوفاء، ومن يُطالع السيرة النبوية يجد الكثير من نماذج وفائه مع زوجاته وأقربائه وأصحابه ، وخير مثال على وفاء الرسول صلى الله عليه وسلم: وفاؤه لخديجة رضي الله عنها ، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما غرث على امرأة ما غرث على خديجة -وَلَقَدْ هَلَكْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ- لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا ، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، وَإِنْ كَانَ لِيَذْبُحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِي فِي خُلَّتِهَا مِنْهَا) (٢).

والوفاء والإنصاف من الأخلاق الإسلامية الراقية التي تُنبئ من يتمثل بها على جوهر صاحبه ونفاسة معدنه ، وذلك لأنه يتحقق فيها الإقرار الدائم بالفضل ، فالمرء الوفيّ معترفٌ غير جاحد ، والإنصاف يقتضي منه أن يُسدي إلى أرباب الحقوق حقوقهم.

ولقد قلبت المراجع التي اعتمدت عليها في هذه الرسالة فوجدت شواهد كثيرة لوفاء صلاح الدين رحمه الله جديرة بالذكر والتطبيق ، ولكنني لم أجد شواهد تدل على وفاء بقية الملوك والعلماء ، لذا اقتصر على ذكر ما وجدت.

فقد حرص صلاح الدين على الوفاء بالعهد فقد رُوي عنه قوله: (إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها ، ومتى لم نَفِ بما نَعِد ، ونُجزل العطاء ، لم يثق بنا أحد) (٣).

وفي هذا الصدد يذكر أبو شامة أن نور الدين زنكي أنشأ منبراً عظيماً أبداع في تزيينه وتركيبه ، وقد عرف بنور فراسته أن فتح بيت المقدس أمرٌ قادمٌ فكان يُجهز هذا المنبر لِنَصْبِهِ يوم الفتح ، وقد بقي هذا المنبر غير منصوب حتى أمر صلاح الدين بالوفاء بنذر نور الدين ونقل المنبر إلى موضعه في بيت المقدس (٤). وهذا الخلق من صلاح الدين وفاءً بسيرة مجاهدٍ كان يتشوق لفتح بيت المقدس ، ولكن الله لم يُقدِّر له ذلك ، فجاء صلاح الدين وحقق النذر النوري ، وهذا التحقيق من جانب

(١) جزء من آية ١٥٢ - سورة الأنعام

(٢) رواه البخاري في كتاب: الأدب ، باب: حسن العهد من الإيمان ، ٥ / ٢٢٣٧ ، برقم ٥٦٥٨

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٧٣

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٩٤ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢٩

صلاح الدين يُعَدّ اعترافاً منه لأهل الفضل. وهكذا كان صلاح الدين دائماً حريصاً على الوفاء لنور الدين زنكي أيّما حرص ، فكان يُقدّره ويترحّم عليه ، ولم يخطر بباله أن يطمس أثره العظيم حسداً واستعلاءً ، وإيّا أظهر أمامه كل اعتراف بفضله السابق . وعندما اتّهم رحمه الله بالإساءة لنور الدين ودولته بعد وفاة نور الدين قال: "إنا لا نُؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم ، وآلف كلمتهم ، وللبيت الأتابكي إلا ما حفظ أصله وفرعه، فالوفاء إيّا يكون بعد الوفاة ، والمحبة إيّا تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُدّة ، وبالجملة أنا في واد ، والظانون بي ظن السوء في واد ، ولنا في الصلاح مراد ، ولمن يُبعدنا عنه مراد ، ولا يقال لمن طلب الصلح إنك قاذح ، ولمن ألقى السلاح إنك جاح" (١).

ويذكر المؤرخون أنّ السلطان صلاح الدين حاصر قلعة أعزاز ، فقاوم أهلها عدّة أيام ، فلما يئس أهلها منها تراسلوا بالصلح ، فقَبِلَ السلطان ما عرضوا عليه من السِّلْم ، وفوجئ بابنة نور الدين زنكي تتقدّم إليه - وكانت من المحاصرين وهي في سنّ العاشرة- فتلقّاهما صلاح الدين بالحباء والإكرام نظراً لمكانة أبيها ، ومنحها الذهب والمال ، وسألها عما تريد ، فقالت: "إن أهل أعزاز يريدونها دون سلطان عليهم" ، فابتسم السلطان وقال: "وهبت البلدة لك أنت ، فامنحها لهم" ، وسألها عما تريد ، فقالت: "أحب أن أذهب إلى حلب جوار أسرتي" ، فأصرّ على أن يُرافقها بنفسه إلى أسوار المدينة إكراماً لذكرى أبيها . وإكراماً لابنة نور الدين أمر بفك الأسرى جميعاً ، وعالج جرحاهم ، وفيهم أناس من عليّة القوم ، فانقلبوا يهتفون بمروءته وذكره ، ثم أغدق عليهم من الهدايا ما لم يكونوا يتوقعونه (٢).

ومن وفائه بنور الدين أن ابن أخي نور الدين وزوج ابنته وصل إلى حيث مكان إقامة صلاح الدين ، فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ، واجتمع به في خيمته ، وأنزله عنده ، وصنع له طعاماً لائقاً ، وقدم له من من التحف والهدايا ما لا يقدر عليه غيره ، وطرح له طرّاحة مستقلّة إلى جانبه ، وبسط له ثوباً أطلس عند دخوله (٣).

(١) صلاح الدين-القائد وعصره - ١٨٥

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ١٠٧

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٢٣

ويُروى أن السلطان صلاح الدين تحلّى عن شرقيّ الفرات لآل زنكي على الرغم من حقه الشرعي فيها بتفويض الخليفة العباسي ، وذلك يعدّ اعترافاً منه بالبيت النوري^(١).
وقد أظهر صلاح الدين من خلق الوفاء والإنصاف الكثير حتى مع أعدائه الذين اختلف معهم ، فمن المعروف أنه هو الذي قوّض العرش العبيدي في مصر، واستبدل به دولةً لأهل السنة ، ولكنه كان يُقرّ بشيء من الفضل لأعدائه العبيديين ، فيُنصفهم ، ويعترف بأيديهم عليه ، يقول رحمه الله: "ما رأيت أكرم من العاضد - وهو آخر الخلفاء العبيديين - جهّز لي في حصار الفرنج لدمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها"^(٢). وقد جلس رحمه الله في عزائه ، ومشى في جنازته ، وتولّى غَسَلَهُ ، وتكفينه ، ودفنه عند أهله ، وودّعه إلى قبره^(٣).

المطلب السادس: خلق الورع

الورع هو أخذ الحلال ، وترك كل ما فيه شبهة ، وهو خلق نبوي حثنا الإسلام عليه ، ودعانا الرسول صلى الله عليه وسلم إليه ، قال صلى الله عليه وسلم: (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ)^(٤)، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بتمرة في الطريق ، قال: (لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها)^(٥).

ونجد هذا الخلق العظيم في كثير من المواقف الجليلة عند أعلام هذا العصر ملوكاً وأمراءً وعلماءً ، ومن ذلك:

١- من مظاهر ورع صلاح الدين:

تذكر كتب التاريخ الكثير عن ورع صلاح الدين رحمه الله ، ومن ذلك أنه لما سافر لفتح بيت المقدس ولّى دمشق بدر الدين مودود ، وكان معه الصفيّ بن قابض ، وبقيت معه الخزانة ، فبنى

(١) صلاح الدين-القائد وعصره - ١٩١

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٧/٦

(٣) المصدر السابق - ٣٣٦/٥

(٤) رواه البخاري في كتاب: الإيمان ، باب: فضّل من استبرأ لدينه ، ٢٨/١ ، برقم ٥٢

(٥) رواه البخاري في كتاب البيوع ، باب: ما يُتَنَزَّهُ من الشُّبُهَاتِ ، ٧٢٥/٢ ، برقم ١٩٥٠

الصفى للسلطان داراً ، وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، وبالغ في تحبيرها ؛ ظناً منه أنها ستقع من السلطان بمكان ، ولكن صلاح الدين عندما عاد ما أعارها طرفاً ، وما استحسناها ، بل كان هذا التصرف من جملة ذنوب الصفى التي أوجبت عزله عن الديوان . ولقد كان تعليق صلاح الدين على هذه الدار: "ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلّفنا إلا للعبادة والسعي للسعادة ، وما جئنا دمشق لنقيم"^(١).

وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين البشارة بالفتوحات ، فأرسل إليه الهدايا فقال: والله ما كان بنا حاجة إلى هذا^(٢).

٢- من مظاهر ورع الملك العزيز:

أما الملك العزيز فمن مظاهر ورعه أنه كان عفيفاً عن الأموال ، وقد احتاج في بعض حروبه إلى المال فامتنع من أخذ مال الرعية ، واقترض مالا من القاضي الفاضل^(٣)، ولقد قال عنه الذهبي: "وأما عفته عن المال ، فلا أقدر أن أصف حكاياته في ذلك"^(٤).

٣- من مظاهر ورع الملك الأشرف:

ومن الملوك الذين اشتهروا بالورع الملك الأشرف ، وكان من أعف الناس وأحسنهم سيرة وسريرة ، لا يعرف غير نسائه وسراريه ، عفيفاً عن المحارم ، فقد زوي أنه كان يحضر مجالس الوعظ ويكي ، وكان يعتز بورعه هذا ويقول: "ما مددت عيني إلى حريم أحد قط، لا أنثى ولا ذكر"^(٥). وشيء نفيس يُذكر لهذا الملك الذي في كان في مكنته أن يصل إلى شهوات نفسه وهواه ، وليس ثمة صارف أمامه ، ولكنه موقن بالله ، وما توعدده على هوى النفس وشطحاتها ، وذلك في قصة مشهورة تحكي ورعه ، إذ يروى أن عجزواً جاءته تشتكي من حاجب مدينة خللاط أنه أخذ

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١١/٤ ، الفتح القسي في الفتح القدسي - ٢١٦ ، صلاح الدين -

القائد وعصره - ٣٥٣-٣٥٤

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٧٩

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٣ / ٨٣ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٣

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٣

(٥) المصدر السابق - ٢٢ / ١٢٢ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٩٠

ضيعة ابنتها ، وذكرت أن ابنتها الشابة تريد أن تقابله ، وجاءت بها متميِّزة بحسن القوام والشكل ، وأسفرت عن وجهها ، فقال لها الأشرف: "استتري" ، فقالت: "مات أبي واستولى على المدينة الحاجب بكتمر ، ثم أخذ ذلك الحاجب ضيعتي" ، فتأثر الأشرف بقصتها ، وأمر بردّ حقوقها ، فقالت العجوز: "ألا تحظى الليلة بك؟ فقال الأشرف: فوق في قلبي تغير الزمان ، وأن مدينة خلائط يملكها غيري ، وتحتاج ابنتي أن تقعد هذه القعدة ، فقلت: "معاذ الله ما هذا من شيمتي" ، فقامت الشابة باكية تقول: "صان الله عواقبك"^(١).

وثمة حادثة أخرى تحكي ورعه وتغلبه على شهوات نفسه ما حكاها عن نفسه فقال: (كان لي مملوك أعز عندي من الولد ، وعمره عشرون عاماً قتل غلاماً ، فاستغاث أولياء المقتول ، وطلبوا الثأر ، فاجتمع عليهم ممالئكي ، وقالوا: (نعطيكم عشر ديات) ، فأبوا ، فسلمته إليهم ، فقتلوه ، ولو طلبوا ثلثي دية دفعته إليهم ، ولكن خفت الله أن أمنعهم حقهم لغرض نفسي)^(٢).

٤- من مظاهر ورع الملك العادل:

ومن تميّز بالورع الملك العادل ، فقد روي أنه كان عفيف الفرج لا يُعرف له نظرٌ إلى غير حلائله ، ولا يُدخل في داره غلام إلا دون البلوغ^(٣).
ومنهم أيضاً الملك عماد الدين أبو الفتوح عثمان فقد روي أن رجلاً جاءه يطلب قضاء الصعيد مقابل مال ، فامتنع وقال: "والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض" ، مع أن خزانته لم يبق فيها درهم في ذلك الوقت^(٤).

٥- من مظاهر ورع العلماء:

أ- ورع الحفاظ المقدسة:

(١) انظر: البداية والنهاية - ١٧ / ٢٣٢ ، سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٤ ، تاريخ الإسلام - ٢٦٩ - وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ)،

شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٩٢

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٩٢

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١١٦ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ١٦٧ ، تاريخ الإسلام - ٢٧٢ - وفيات

(٦١٠ - ٦٢٠هـ)

(٤) حسن المحاضرة - ٢٢

وفي أسرة الحُقَّاط المقداسة نماذج مضيئة عظيمة للورع والزهد والعفة ، وفي سيرة كل واحد أمثلة كثيرة.

-منهم الضياء المقدسي محمد بن محمد بن عبد العظيم ، فقد روي أنه رام بعض الكبار مساعدته ببناء مصنع للماء ، فأبى وقال: "لا حاجة لنا في ماله"^(١).

-ومنهم شمس الدين بن كمال المقدسي ، ومما يُحكى عن ورعه أنه حفر مكانا بالصالحية لبعض شأنه، فوجد جرّة مملوءة ذهباً ، وكانت زوجته تعينه ، فقال لزوجته: "هذا فتنة ولهذا مستحقون لعنا لا نعرفهم" ، فوافقتَه وطمّاه وتركاه^(٢).

-ومنهم أيضاً عماد الدين المقدسي ، فقد قال عنه الذهبي: (فما أعلم أنه أدخل نفسه في شيء من أمر الدنيا ، ولا تعرّض لها ، ولا نافس فيها ، وما علمت أنه دخل إلى سلطان ولا وال)^(٣).

ب-ورع ابن عساكر:

ومن الأعلام الورعين في العصر الأيوبي الحافظ أبو المنصور بن عساكر شيخ الشافعية بالشام، أرسل إليه الملك المعظم ليوليه القضاء ، فأبى ورجع إلى بيته ، ووقف يصلي ويتضرع ويكي إلى الفجر، وأصرّ على الامتناع وجَهَّز أهله للسفر ، وكان يتورع عن المرور في رواق الحنابلة ؛ لئلا يأثموا بالوقعة فيه ، وذلك لأن عوامهم ييغضون بني عساكر الشافعية^(٤).

ولقد اجتهد خاله القاضي أبو المعالي محمد بن يحيى القرشي أن ينوب عنه في الحكم ، فأبى^(٥).

وقد حكى يوماً عن نفسه فقال: "لما عزمت على التحديث ، والله المطَّلِعُ أي ما حملني على ذلك حب الرئاسة والتقدم ، بل قلت: "متى أروي كل ما سمعت؟ وأيُّ فائدة في كوني أخلفه صحائف؟" فاستخرت الله ، واستأذنت أعيان شيوخي ، فقالوا: "مَنْ أحقُّ بهذا منك؟" فشرعت في ذلك^(٦).

(١) تاريخ الإسلام - ٢١٤ وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠هـ)

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٠

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٤٩

(٤) تاريخ الإسلام - ٥٠٠ (وفيات عام ٦١٠ - ٦٢٠هـ) ، سير أعلام النبلاء - ٢ / ١٨٨

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٤٩٦

(٦) المصدر السابق - ٢٠ / ٥٦٧

ج- ويذكر الذهبي عن العماد ابراهيم بن عبد الواحد أنه كان إذا أفتى في مسألة احترز فيها احترازا شديداً ، وما دخل إلى عند سلطان ووالٍ ، ولا تعرّف بأحد ، وما أدخل نفسه في شيء من أمر الدنيا^(١).

د-ورع القاضي الفاضل:

ومن الورعين البارزين في هذا العصر القاضي الفاضل ، فقد رُوي أنه تنزّه أيام الملك العزيز عن ملابسة الدولة ومخالطته ، واعتزل المناصب الرفيعة التي كان يتقلدها لِمَا رأى من اختلال الأحوال برأيه^(٢).

هـ-ورع العز بن عبد السلام:

أما العز بن عبد السلام فهو علمٌ كبيرٌ من أعلام العصر الأيوبي الورعين ، ويذكرون أن الملك الأشرف أطلق له ألف دينار ، فردّها عليه وقال: "هذه اجتماعاً لله لا أكدرها بشيء من الدنيا"^(٣)، ولما أراد الخروج من القاهرة كان كل متاعه جَمَلٍ حمار واحد^(٤).

ولقد اختلف العزّ مع الملك الأشرف في مسألة من مسائل التوحيد ، وأصرّ كل من الشيخ العز والملك الأشرف على رأيه ، فأراد الملك الأشرف معاقبة العز ، فأرسل برسالة مع مندوبه للشيخ العز تتضمن عزله عن الإفتاء ، فقال له: من سعادتي لزومي لبيتي ، وتفرغي لعبادة ربي ، والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئته ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وهذا هدية من الله تعالى إلي ، أجراها على يد السلطان وهو غضبان ، وأنا بها فرحان ، والله لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك ، خذ هذه السجادة صلّ عليها ، فقبلها وقبلها ، وودعه وانصرف إلى السلطان ، وذكر له ما جرى بينه وبينه. فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به ، هذا رجل يرى العقوبة نعمة ، اتركوه ، بينا وبينه الله^(٥).

و-ورع جمال الدين الريغي:

(١) تاريخ الإسلام - ١٨٦ وفيات سنة (٦١١-٦٢٠هـ)

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٢٧

(٣) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٤٠

(٤) المصدر السابق - ٨ / ٢٣٦

(٥) المصدر السابق - ٨ / ٢٣٦

ومن الورعين البارزين قاضي الاسكندرية وخطيبها جمال الدين محمد عبد الله بن إبراهيم بن سعيد المغربي المالكي الريغي ، فقد روي أنه ولي الخطابة والقضاء من غير طلب ، ثم بعد دهرٍ عزل نفسه من الخطابة ، ثم ترك القضاء وقال: "دعوني أخدم ربي" ، وقد بقي في القضاء أربعين سنة^(١)

ز-ورع سيف الدين الحنبلي:

ومن أعلام العصر عبد الله بن عمر سيف الدين الحنبلي ، قال من سافر معه: (فرايت من ورعه وحسن خلقه ما تعجبت منه)^(٢).

ح-ورع الخبوشاني:

ومن هؤلاء الورعين الشيخ الخبوشاني فقد وصفه أصحابه بأنه كان كثير الورع ، سليم الباطن، قليل المعرفة بأحوال الدنيا ، لم يأخذ درهماً من مال الملوك ، ولا أكل من وقف مدرسةٍ لُقمةً^(٣).

ط-ورع النووي:

من العلماء الورعين النووي ، روي أنه كان لا يتناول من جهة مالاً أو طعاماً، ولا يقبل من أحد شيئاً^(٤).

ي-ورع الفقيه الحنبلي محاسن الدين بن عبد الملك الحموي:

كان زاهداً ورعاً ، ما نafs في منصب قط ولا دنيا ، ولا أكل من وقف ، ولا تنعم في ملابس ولا مأكلاً ، ولا زاد على ثوب وعمامة^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٧٣

(٢) تاريخ الإسلام - ٢٤٠ وفيات (٦٣١-٦٤٠هـ)

(٣) وفيات الأعيان - ٤ / ٢٤٠

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٨ / ٣٩٧

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ٢ / ٩٩

المطلب السابع: أخلاق متنوعة

وإذا كنت قد أفردت في الصفحات السابقة لكلِّ خلقٍ أمثلته من بعض أعلام الدولة ، فإن المؤرخين خصّوا رجالاً ممن عاصروا الدولة الأيوبية ، وعُرفوا بجوامع هذه الأخلاق العالية ، فكانت أخلاقهم نبوية متكاملة جمعوا فيها صنوفاً عجيبة من رُقي المسلم وكمالاته. ومن هؤلاء:

-الملك الأفضل ، فقد قال عنه ابن الأثير: (كان من محاسن الدنيا ، لم يكن في الملوك مثله، كان خبيراً عادلاً فاضلاً كريماً)^(١).

-الملك العزيز صاحب مصر ، كان ملكاً كريماً عادلاً رحيماً حسن الأخلاق شجاعاً سريع الانقياد مفرط السخاء ، وكانت الرعية تحبه كثيراً^(٢).

-الموفق بن قدامة المقدسي ، قال عنه اليونيني: (ما أعتقد أن شخصاً ممن حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه ، وقد رأيت من كرم أخلاقه وحُسن عشرته ونور حلمه وكثرة علمه وغزير فطنته وكمال مروءته وكثرة حيائه ودوام بشره ، وعُزوف نفسه عن الدنيا وأهلها والمناصب وأربابها ما قد عجز عنه كبار الأولياء ، وكان لا يُري لأحدٍ ضجراً ، وربما قُرئ عليه وهو يتعشى ، لا يكاد يراه أحدٌ إلا أحبه ، صجبناه في الغزاة فما رأينا أكرم منه ولا أحسن صحبةً ، كان لا يُناظر أحداً إلا وهو يتبسّم فسمعت بعض الناس يقول : هذا الشيخ يقتل خصمه بتبسّمه)^(٣)، كما قال عنه الذهبي: (كان نبياً ، غزير الفضل ، ورعاً، عابداً، عليه النور والوقار، متواضعاً، ذو أناة وحلم ووقار)^(٤).

وهكذا ندلف إلى نهاية هذا المبحث ، الذي يعدُّ موضوعاً من موضوعات الدعوة في العصر الأيوبي ، وثمره يانعة من ثمارها ، وقد نمت هذه الأخلاق في بيئة حسنة تشجع عليها وتستكثر من مظاهرها ، وما ذكرته غيظ من فيض ، وذلك ليس بمستغربٍ من دولة مترامية الأطراف قامت على إحياء السنة ، وحرصت على تطبيق مفرداتها ، على الرغم من الظروف العصيبة التي كانت تمر بها.

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٦

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٤٤

(٣) تاريخ الإسلام - ٤٨٤ وفيات سنة ٦١٠ - ٦٢٨ هـ

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٦٥

الفصل الثالث
أصناف الدعاة والمدعوين
في عهد الدولة الأيوبية

تمهيد

بذل الدعوة في عهد الدولة الأيوبية جهوداً حثيثة في حمل مشعل الدعوة الإسلامية وتقديمه مشرقاً للمدعوين ، غير عابئين بما قد يصيبهم من مخاطر وعقبات في سبيل نشر هذه الدعوة المباركة، قدوتهم في ذلك خير دعاة البشرية رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد تنوعت أصناف الدعوة في هذا العصر ، فلم يقتصر أمر الدعوة على مَنْ حمل العلم الشرعي - كما هو المفهوم السائد بين عامة الناس - بل شمل الملوك والأمراء والوزراء والمستشارين أيضاً. كما تنوعت أصناف المدعوين كذلك ، فوجّهت الدعوة إلى الملوك والعامة والإفرنج.

وفي هذا الفصل سأعرض لأبرز أصناف الدعوة الذين كان لهم جهد واضح في مجال الدعوة، كما سأعرض لأبرز أصناف المدعوين الذين وُجّهت لهم الدعوة في العصر الأيوبي.

المبحث الأول
أصناف الدعاة في عهد الدولة الأيوبية

يمكننا أن نصنف الدعاة في هذا العصر إلى ثلاثة تصنيفات هي:

أ - الملوك

ب - الأمراء والوزراء والمستشارون

ت - العلماء

المطلب الأول: الملوك

كان معظم ملوك الدولة الأيوبية في طليعة الدعاة الذين ضربوا أروع الأمثلة في الالتزام بشعائر الدين قولاً وعملاً ، فكانوا القدوة المثلى التي ضربت أروع الأمثلة ، فوصفوا بكثرة العبادات والطاعات ، واليد السخية المعطاء في وجوه الخير والبر ، والحرص على طلب العلم ، والنهل من موارده الأصيلة ، وتشجيع الناس على ذلك ، والعمل الدؤوب على تطهير البلاد من كل رجس وذنس وخطيئة ، والإحسان إلى الرعية ، والسهر على راحتهم ، والقيام بمصالحهم ، وتوفير احتياجاتهم ، والتطلع لنشر الدعوة ، وتوحيد الأمة ، وحرب أعدائها . ومن أهم الملوك الذين عُرفوا بذلك: صلاح الدين ، والعاقل ، والكمال، والمظفر ، والمعظم ، وشيركوه وغيرهم . وقد تحدثت بالتفصيل عن صور من دعوة الملوك الأيوبيين في ثنايا هذا البحث ، وبيّنت الجهود الحثيثة التي بذلوها في كافة مجالات الدعوة .

المطلب الثاني: الأمراء والوزراء والمستشارون

تميّز كثيرٌ من أمراء الدولة الأيوبية ، ووزرائها ومستشاري الملوك الأيوبيين بالصلاح والاستقامة، وتقديم النصح الطيب لأولي الأمر ، وفي هذا سندٌ عظيم للملوك ؛ لأن الملك يحتاج عادةً إلى مَنْ يُعِينُهُ على إدارة شؤون مُلكه ، كما أن له بطانة قد تقوده إلى الخير أو إلى الشر . ومن أبرز الأمراء في الدولة الأيوبية **الأمير لؤلؤ** ، فقد كان إلى جانب جهاده كثير الصدقات والنفقات^(١) .

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٩

ومن الشخصيات البارزة في الدولة الأيوبية **الخواتين** ، وهن زوجات الملوك والأمراء وأخواتهم، ويصف ابن جبير مشاركتهن في الأمور الدعوية في الدولة فيقول: (ومن ذوات الأقدار في الدولة الأيوبية الخواتين اللواتي يأمرن ببناء المساجد والأربطة والمدارس ، وتُعَيِّن لها من مالها الأوقاف) ^(١).

وكانت زوجة صلاح الدين **عصمة الدين بنت معين الدين** أنر من أبرز مستشاريه ، فكان رحمه الله يرجع إليها ، ويستشيرها في ما يعرض عليه من ملَمَّات الأمور ، سواء في إقامته أو في سفره ، فقد روي أنه مرض في أحد معاركه ، فكان يستدعي مَنْ يكتب لها في كل يوم ، فيكتب إليها كتاباً طويلاً ، وذلك بسبب ضعفه في تلك الأوقات العصبية ، فَيُبْعَد ما أصابه من الحمل الثقيل بما تعطيه تلك الكتابة من راحة في نفسه ^(٢).

ومن المستشارين البارزين في القصر الأيوبي **القاضي الفاضل** الذي كان داعيةً ناجحاً مَوْقِفاً بكلِّ معنى الكلمة ، وجّه إمكاناته الواسعة وسلطاته المتاحة وأمواله الكثيرة للخير والصلاح، وقد تمكّن من العلوم الشرعية على يد أبرز مشايخ عصره كالسلفي وابن عساكر وابن فرج ^(٣)، يقول عنه الذهبي: (ولم يُبقِ عملاً صالحاً إلا قَدَّمه ، ولا عَقَدَ برّاً إلا أبرمه ، فإن صنائعه في الرِّقَاب، وأوقافه متجاوزة الحساب ، ولاسيما أوقافه لفكّاك الأسرى ، وأعان المالكية والشافعية في مدارسهم ، والأيتام بالكتّاب ، وما افتتح السلطان الأقاليم إلا بأرائه السديدة ، وكان مواظباً على أوراد الليل والصيام والتلاوة ، دائم التهجد ، ويكثر تشييع الجنائز ، وعبادة المرضى ، وله معروف في السر والعلانية ، حفظ القرآن ، وكتَّب ختمته) ^(٤)، ولا ريب أن مستشاراً للملك بهذا الوزن من العمل الصالح سيكون له بإذن الله ثقل كبير وتأثير عظيم في خير المجتمع ؛ لأنه من البطانة الصالحة الرشيدة التي يُنعم الله بها على مَنْ يصطفيه من عباده من الملوك.

وعندما اشتدّت الحروب بين المسلمين والصليبيين ، كان من نتائجها وقوع الأسرى في أيدي العدو ، فما كان من القاضي الفاضل إلا أن أوقف ريع أراضيهِ على تخليص أسرى المسلمين ^(٥).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٩

(٢) انظر: الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٠٩

(٣) سير أعلام النبلاء - ٣٣٩

(٤) المصدر السابق - ٢١ / ٣٣٨ ، ونظر: الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٩٢

(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٩

وكان رحمه الله دائم القيام بواجب الدعوة ، حريصاً أشد الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى .

ومن المستشارين البارزين في عهد الدولة الأيوبية الفقيه عيسى الهكاري ، وكانت له مكانة عظيمة عند الملوك ، ولاسيما صلاح الدين ، وقد اشتهر بقضاء الحوائج ، فكان لا يدخل على الملوك إلا ومعه في يده وعمامته أوراق معاملات الناس ليعرضها عليه لقضائها ، وقد جمع هذا القائد بين العلم والشجاعة^(١) .

المطلب الثالث: العلماء

من توفيق الله عز وجل أن شهد العصر الأيوبي توافراً طائفة من العلماء الدعاة العاملين الذين كان لهم أثر كبير في ازدهار شأن الدعوة الإسلامية في هذا العصر ، وبرز نشاطهم هذا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصح والتوجيه ، ورعاية علوم الكتاب والسنة . وتحفل كتب المؤرخين والتراجم بمئات من هؤلاء الأعلام أصحاب السيرة الطيبة .

ومن هؤلاء: الحافظ عبدالغني المقدسي ، الذي تُروى عنه الكثير من الأخبار في أمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر ، وكان له هبة في قلوب الملوك ، حتى إن الملك العادل كان يقول عنه: "ما خفتُ من أحدٍ كخوفي من هذا ، وإذا دخل عليّ يُحَيِّلُ إليّ أنه سبع"^(٢) .

ومن العلماء البارزين النووي ، وقد عاصر ملوك أواخر الدولة الأيوبية ، وكان يواجههم بالإنكار ، وإذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل ، وأرسلها إلى مَنْ وقع في المنكر^(٣) .

ومن هؤلاء العلماء العاملين الذين عاشوا في هذا العصر أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي الذي عُرف بقضاء حوائج الناس ، ولا يسمع بجهاد إلا خرج فيه، ولا يسمع حديثاً إلا وعمل به^(٤) .

(١) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٩٨ ، تاريخ الإسلام - ٢٢٥ وفيات (٥٨١-٥٩٠هـ)

(٢) للمزيد من أخبار الحافظ انظر: سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٤ وما بعدها

(٣) انظر: الإمام النووي - عبد الغني الدقر- ١٢٣

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٥

ومن العلماء الذين عُرفوا بالجمهور بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زمن الملك الأشرف موسى: أبو عمرو بن الحاجب ، وجمال الدين الحصري ، وكان السلطان يتراجع عن بعض مواقفه استجابةً لأمرهما ونهيهما^(١).

ومن العلماء الذين كانت لهم جهود دعوية ابن الجوزي ، وذلك من خلال مجالس وعظه ودروسه وتصانيفه واحتسابه ، وقد قال عن نفسه: "ولقد جلست يوماً فرأيت حوالي أكثر من عشرة آلاف ، ما منهم إلا وقد رقق قلبه ، أو دمعت عيناه"^(٢) ، وقال أيضاً: "ولقد تاب في مجالسي أكثر من مئة ألف"^(٣).

وقد قال عنه سبطه أبو المظفر: "سمعت جدي يقول: (بأصبعي هاتين كتبت ألفي مجلدة ، وتاب على يدي مئة ألف)^(٤) ، ووصفه الذهبي فقال عنه: "... كان ذا حظ عظيم ، وصيت بعيد في الوعظ ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء...."^(٥).

وعلى نهج هؤلاء الأفاضل سار القاضي شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم الحنفي، فقد كان الجهر بما يراه من حق سمة له ، فقد روى صاحب "الدارس" أن الملك المعظم طلب منه إباحة نبيذ التمر، وماء الرمان ، فأبى، فعزله المعظم عن التدريس ، فما غير ذلك منه شيئاً^(٦). فالفتوى عند أمثال هؤلاء ليست طريقاً إلى متاع الدنيا وشهواتها، وإنما هي نور النبوة ، لها وقارها الذي تحتفظ به مهما واجه صاحب الفتوى من دعوة للتخلي عنها.

ومن أولئك العلماء الصادعين بالحق دون هيبة من ملك وغيره الحافظ ابن عساكر ، فقد روي أن الملك المعظم أخذ منه وظائفه لأنه أنكر عليه بعض تصرفاته^(٧). ومثله ابن الحرستاني ، فقد روي أنه كان يقول للملك العادل: " أنا ما أحكم إلا بالشرع ، وإلا فأنا ما سألتك القضاء ، فإن شئت

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢١٨

(٢) دعوة المسلمين للنصارى - ٤٠٤

(٣) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد - ٣٧

(٤) المصدر السابق - ٣٧

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٣٦٥-٣٨٤

(٦) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٤٠

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٨٨

فَأَبْصِرْ غَيْرِي" ، وكان لا يقبل وصية أحد في أمور الشرع ، حتى وإن كانت الوصية من عند السلطان^(١).

وَمَنْ بَرَزَ فِي هَذَا الْمَجَالِ الْعَزِيزِ بِنُورِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ ، فَكَانَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُغَيِّرُ مَا يَرَى مِنْ مَنَكِرَاتٍ بِيَدِهِ دُونَ خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ^(٢)؛ فَالَّذِينَ عِنْدَ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ جُهِدَ وَعَمِلَ وَبَدَلَ ، وَلَا يَبَالُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً.

وَكَانَ كَثِيرًا مِنْ عُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنْ صَفُوفِ الْجِهَادِ الْمُبَارَكِ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْحَافِظُ الْيُونِنِيُّ ، الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ بِقَوْلِهِ: (كَانَ يَغْزُو كَثِيرًا ، فَمَا فَاتَتْهُ غَزَاةٌ ، وَكَانَ يَحْمِلُ الْقَوْسَ وَالسَّلَاحَ بِنَفْسِهِ)^(٣). وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْأَفْضَلِ الْمَجَاهِدِينَ الْحَافِظُ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْمُقَدَّسِيِّ ، فَقَدْ اشْتَرَكَ فِي قِتَالِ الْفَرَنْجَةِ ، وَقَتَلَ عَدَدًا مِنْهُمْ^(٤).

وَحَرَّصَ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الدَّعَاةِ عَلَى تَيْسِيرِ أُمُورِ النَّاسِ فِي مَجْتَمَعِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ ، وَأَدْرَكُوا مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ ، فَهَذَا الْقَاضِي شَمْسُ الدِّينِ الْخَوْبِيُّ يَنْظِمُ مَا يُعْرِفُ بِمَرَاكِزِ الشُّهُودِ بِالْبَلَدِ ، وَكَانَ النَّاسُ قَبْلَهُ يَعْانُونَ الْكَثِيرَ مِنْ ذَهَابِهِمْ إِلَى بِيُوتِ الْعُدُولِ لِأَخْذِ الشَّهَادَةِ مِنْهُمْ^(٥).

وَكَانَ الْإِلْتِمَازُ بِالْهَدْيِ النَّبَوِيِّ وَالسَّمْتِ الصَّالِحِ أَعْظَمَ وَسِيلَةً لِبَعْضِ دَعَاةِ الْعَصْرِ الْأَيُّوبِيِّ فِي خِدْمَةِ دَعْوَتِهِمْ ، فَكَانَ الدِّينُ عِنْدَهُمْ سُلُوكًا حَيًّا يَتِمُّثَلُ فِي كِيَانِهِمْ كُلِّهِ ، فَكَانَ هَؤُلَاءِ قُدُوةً صَالِحَةً لِمَجْتَمَعِهِمْ فِي تَطْبِيقِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي جَوَانِبِ الْحَيَاةِ كَافَّةً ، قَالَ الْحَافِظُ الْيُونِنِيُّ عَنِ الْمَوْفِقِ بْنِ قِدَامَةَ الْمُقَدَّسِيِّ: "مَا أَعْتَقَدُ أَنَّ شَخْصًا مِمَّنْ رَأَيْتُهُ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ فِي الْعُلُومِ وَالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْكَمَالُ سِوَاهُ ، مِمَّا قَدْ يَعْجِزُ عَنْهُ كِبَارُ الْأَوْلِيَاءِ"^(٦).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٨٠

(٢) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢١١-٢١٤

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٠١

(٤) تاريخ الإسلام - ١٣٩ وفيات (٦٣١-٦٤٠ هـ)

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١٦٢/٢

(٦) تاريخ الإسلام - ٤٨٤ وفيات (٦١٠-٦٢٨ هـ)

مما سبق تظهر لنا صورة مشرقة لدعاة العصر الأيوبي ، ملوكاً وأمراء ومستشارين وعلماء،
صورة تعكس مسابقتهم في دعوة أبناء مجتمعهم ، ومسارعتهم في تقديم ما يمكنهم من خدمات
جليلة في هذا المجال النبوي . فكان نتاج جهودهم الحثيثة صحة أبناء الأمة من غفلتهم ، وتقدماً
ملحوظاً لهذه الأمة في كافة المجالات .

المبحث الثاني
أصناف المدعوين في عهد الدولة الأيوبية

يمكننا أن نصنف المدعويين في هذا العصر إلى ثلاثة تصنيفات هي:

أ - الملوك والأمراء المسلمون

ب - العامة

ت - أهل الذمة والصلبيون

المطلب الأول: الملوك والأمراء

سبق أن أشرت إلى الجهد الكبير الذي بذله الملوك الأيوبيون في الدعوة إلى الله، ومباشرتهم لها بأنفسهم . ولقد كان هؤلاء الملوك أيضاً في صف المدعويين الذين تباشرهم مواعظ العلماء والدعاة ، فيستمعون إليهم ، ويتأثرون بهم في تحسين سيرتهم، والعمل بموجب ما يستمعون إليه ، فهم مدعوون للأخذ بأهداب الدين ، والتحلّي بأخلاقه ، ولطالما ذكر المؤرّخون أسماء هؤلاء الملوك والأمراء ، وهم بين يديّ دعاة العصر ووعاظه ، يتأثرون بما سمعوه ، ويطبقونها في حياتهم خير تطبيق ، فكانت سيرتهم على وفق توجيهات من وجّههم .

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن الجوزي أن صلاح الدين وأولاده كانوا يحضرون مجلس ابن نجا في الوعظ^(١). وكان الظاهر صاحب حلب يستمع في قصره إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، والشريف النيسابوري^(٢). وكان الملك الأجدد يجلس بين يدي الحافظ اليونيني ، فيقول له الأجدد: (فعلتُ كذا وكذا) ، فيأمره اليونيني وينهاه^(٣).

وكان العلماء في العصر الأيوبي لا يُقصرّون في دعوة الملوك والأمراء عندما يلاحظون وقوعهم في منكر ما ، وكثيراً ما كان هؤلاء يستجيبون لدعوة العلماء ، ومن ذلك ما روي أنّ الحافظ اليونيني قال لصاحب دمشق الذي طلب الدعاء منه: (كيف أدعو لك ، والخمور دائرة في مُلكك وأنت تأخذ المكوس من الفقراء)^(٤) ، كما روي أن الملك المعظم استمع من المحدث شرف الدين بن

(١) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي - ٥١٥

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٥٢

(٣) البداية والنهاية - ١٧ / ١٠٣

(٤) تاريخ الإسلام - ٣٣٨ وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

عروة، فقد كان من خواص أصحابه في القصر^(١). كما استمع الأشرف من العزّ ابن عبد السلام ، وطلب منه أن يقرأ عليه تصانيفه^(٢).

ومن أصناف المدعوّين أبناء الملوك الذين كان آباؤهم يحرصون على تنشئتهم تنشئة سليمة من المعاييب ، بريئة من السوء ، فكانوا يفسحون للمربيّين والعلماء أن يكون لأبنائهم منهم حظٌّ من التوجيه والتربية . ومن ذلك ما ذكره المقرئزي أن صلاح الدين سلّم ابنه العزيز إلى الحافظ صدر الدين بن الجاور ليكون مُعلِّماً له^(٣). وكان صلاح الدين إذا سمع حديثاً من شيخ ذي رواية عالية أسمعها أولاده ومماليكه ، وكان يأمرهم بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له^(٤)، وفي ذلك تنبيه منه لأبنائه لاحترام هذا العِلْم الرفيع والإعلاء من شأنه . وقد طلب صلاح الدين من الفقيه أبي المعالي النيسابوري بأن يجمع له عقيدةً فيها كل ما يحتاج إليه في أمور دينه ، وحفظها أولاده الصغار حتى تترسخ في أذهانهم من الصغر^(٥). ولا بدّ أن يكون ما صنعه الفقيه مناسباً لمرحلة الطفولة.

(١) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٨٢

(٢) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٣٨

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٠

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٩

(٥) وفيات الأعيان - ٥ / ١٩٥ ، ١٩٦

المطلب الثاني: العامة

اهتمّ العامة على مختلف طبقاتهم ومنازلهم بمتابعة علماء العصر ، وحضروا مجالسهم . وكان من محاسن هذا العصر إقبال العامة على العلماء يتزوّدون منهم ، ويستمعون إلى توجيههم ، فشهد هذا العصر ازدهاراً كبيراً في مجالس الوعظ والعلم ، وذلك ناشئ من شيوع هذه المجالس ، والارتقاء بها ، وتنوّع تخصص أهل الدعوة والعلم . ومن تلك المجالس مجلس الحافظ عبد الغني المقدسي ، فقد كان يجتمع حوله خلقٌ كثيرٌ ، وكان يُكي العامة الذين كانوا يتأثرون بتوجيهاته ، ومَن حضر عنده مرّة لا يكاد يتركه^(١).

ونما لدى عامة الجند المسلمين شعور بإنكار المنكر الذي يتسامعون به ؛ نتيجة شيوع الروح الإسلامية ، في صفوف هؤلاء الجند الذين كانوا يترّبون في ثكناتهم تربية سليمة ، فقد روى العماد الكاتب أن مراكب الإفرنج دفعت (٣٠٠) امرأة إفرنجية شابة من أجل أن يزني بهن الجند ، وتسامع جند المسلمين بذلك ، وعجبوا كيف يتعبّد هؤلاء الصليبيون بترك النخوة والحمية؟^(٢). وذكر الذهبي أن عامة جند صلاح الدين كانوا يتشبّهون به ، ويتسابقون إلى المعروف^(٣)، وقد وُصف مماليكه وأجناده بأنهم أعفّ من الزهّاد والعبّاد^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٤٣

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٣٤٧

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢

(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٦٥٩

المطلب الثالث: أهل الذمة والصلبيون

نال أهل الذمة في العصر الأيوبي من الملوك معاملة حسنة ، فأحسنوا إليهم ، ورفقوا بهم ، وهم بذلك ينطلقون من توجيهات الدين الحنيف الذي أوصى باحترام العهود والمواثيق ، ومن الأمثلة على تلك المعاملة ما روي أن صلاح الدين أخذ الجزية من البالغين منهم دون النساء والرهبان والعبيد والمجانين والشيخ والفقراء ، وكانت تُدفع حسب قدرة الأشخاص^(١). ولما قيل للسلطان: (إنهم لم يحفظوا العهد) أجابهم: (نحن نجزيهم على ظاهر الأمان ، ونُغريهم بمحاسن الإسلام)^(٢). فالمسألة ليست جباية الأموال من هذه الفئات ، وإنما هي دعوة إلى الدخول في الإسلام ، وبهذه المعاملة الحسنة يأمل مَلِكُ البلاد منهم أن يتشجعوا على اعتناق الإسلام .

وقد قَبِلَ السلطان وساطة الفقيه عيسى الهكاري بالنسبة للنصارى الساكنين بالقدس ، وذلك لما بذلوا الجزية ليسكنوا ولا يُزعجوا ، ويؤمنوا ولا يُخرَجوا^(٣)، فاستجاب السلطان لطلب الفقيه وحقق ما يطلبه هؤلاء النصارى المقدسيون.

ولَقِيَ أحبار الفرنجة من الأيوبيين العدل والتسامح ، على الرغم من أن هؤلاء قد يكونون من الذين شجّعوا الجند الصليبيين على محاربة المسلمين ، فقد روي أن صلاح الدين سمح للبطريك أن يخرج من المناطق التي حررها المسلمون ومعه أمواله ، ولما اقترح بعض حاشية السلطان أن يأخذ من البطريك أمواله رفض قائلاً: (لا أغدر به) ، ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير كسائر الأفراد^(٤). وتلك أخلاق الداعية الذي هو القدوة في كل تصرفاته ، وكان في مُكَنَّتِهِ -وهو في موقع القوة- أن يستولي على أمواله ، ولكن الغنى غنى النفس ، وما كان لملكٍ صالحٍ مثل صلاح الدين أن يغدر بأحدٍ ، كائناً من كان.

وتتجلى رحمة السلطان الأيوبي بالأسرى من فئة كبار السن عندما رأى من بين أسرى الحرب شيخاً هرمًا ، فسأله عن سبب خروجه ، فقال: (خرجتُ لأظفر بالحج إلى كنيسة القيامة)، فرق له ، وأعادته إلى بلاده على فرس^(٥).

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٣٧٨

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٤٠١

(٣) المصدر السابق - ٣ / ٤٠٢

(٤) الحروب الصليبية - ١٦٩

(٥) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٤٧٠

وأما المحاربون من الصليبيين الذين يقعون في أسر المسلمين فكان السلطان يعرض عليهم الإسلام ، وكان من نتيجة ذلك أن أسلم منهم آحادٌ حشُن إسلامهم ، وتأكد للناس التزامهم^(١) .
ويبدو أن عناصر من الإفرنج كانوا يدخلون في الإسلام ، ولكنهم لا يتجرؤون على إعلان ذلك ؛ خوفاً من بطش قومهم ، فكانوا يكتُمون إيمانهم ، حتى إذا سنحت لهم الفرصة كانوا يهربون إلى صفّ المسلمين ، وقد ذكر العماد الكاتب طرفاً من ذلك ، وذكر أن السلطان كان يُكرم وفادتهم^(٢) .

ولقد كان من نتائج تأليف القلوب والمعاملة الحسنة التي أظهرها الأيوبيون لطوائف الصليبيين أن دخل بعضهم في الإسلام ، ومما يُروى في ذلك ما ذكره أبو شامة أن خلقاً عظيماً من الإفرنج استأمنوا المسلمين ، واتفقوا معهم على خوض البحر في مراكب يستعيرونها من المسلمين ، وما يغنمونه من جماعتهم يُقسّم بينهم وبين المسلمين . فلما غنموا أحضروا ما كسبوه من بضاعة وفضة بين يدي السلطان ؛ ليقسّمها حسب الاتفاق ، فأعطاهم السلطان كلّ ما غنموه . فلما أُكرموا بهذه المكزّمة أثنوا عليه ، وأسلم شطر منهم ، وذلك بفضل الله ثم بفضل المعاملة الحسنة التي عاملهم بها السلطان^(٣) .

وكان من المدعويين إلى الإسلام طائفة من قيادات الصليبيين ، حرص الملوك الأيوبيون على عرض الإسلام عليهم ، ومُداراتهم ، وتأليف قلوبهم ؛ ترغيباً لهم في الإسلام . ومن الأمثلة على ذلك أن صلاح الدين استقبل القائد الصليبي صاحب صيدا بالناصرّة واحترمه وأكرمه ، وأكل معه الطعام، ثم عرّض عليه الإسلام ، وحثّه على اعتناقه ، وذكر له طرفاً من محاسن الدين^(٤) .

كما روي أن صلاح الدين كان كلما وفد عليه أحد من رؤساء النصارى للزيارة في القدس في رمضان سنة ٥٨٨ هـ أولاه غاية الإكرام والإحسان ، وأراه صفحاً جميلاً ؛ تأليفاً له ، ورغبةً في أن يدخل في قلبه شيء من الإيمان^(٥) .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٩٠

(٢) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٤٩٣

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٣٦

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣٢

(٥) البداية والنهاية - ١٦ / ٦٤٦

ولقد عامل الملوك الأيوبيون الأسرى من فئة الملوك معاملة حسنة وأكرمهم ، فقد روي أنه جيء بالملوك الصليبيين الأسرى بعد معركة حطين إلى السلطان ، ومعهم الصليب ، فرحب السلطان بهم ، واختار كبيرهم ، وأجلسه عن يمينه ، ولما رآه يلهث عطشاً أمر له بقدر من ماء ثلج فشربه^(١). ومن هذا الباب ما كتبه صلاح الدين إلى ملك بيت المقدس الصليبي يعزّيه بوفاة والده ، وقد يكون من أهدافه البعيدة تأليف قلبه ، وقد يكون رغبة منه أن يحترم هذا الملك ما بينه وبين المسلمين من موثيق^(٢).

ومن غني بهذا الجانب الملك الكامل ففي سنة ٦١٣ هـ حدث أن سمع عن اختلاف بين فرق الصليبيين من أجل تنصيب أمير عليهم ، فأمر بتطبيب قلوبهم^(٣). وهكذا فإن هاجس تأليف قلوب الصليبيين ، وإظهار محاسن الإيمان كان هاجساً دائماً لدى الملوك الأيوبيين طمعاً في جذبهم إلى الإسلام.

ولكن السلطان كان يستثني من المعاملة الحسنة من كان قد بدّر منه ما يُسيء للإسلام والمسلمين إساءة شديدة ، كما حدث مع صاحب الكرك الصليبي أرناط ، فقد روي أنه غدر العهد ، وتعرض للحجاج وآذاهم ، واستخفّ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وجهر بالعداوة للإسلام ، فتعهد صلاح الدين بقتله إن وقع بين يديه ، وحدث أن وقع بالأسر إثر معركة حطين، فعرض عليه صلاح الدين الإسلام ، فأبى، فأمر بقتله بعد أن عدّد عليه ذنوبه^(٤). وكان إلى جانب أرناط هذا أحد ملوك الإفرنج، وقد شهد مصرع زميله ، ولم يشك أن السلطان سيُثبتي به، ولكن السلطان استحضره ، وطيب قلبه ، وقال: (لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، أما هذا فقد جاوز حدّه)^(٥). فلا تزر وازرة وزر أخرى عند هذا الملك الصالح ، فقد نَقَد القصاص في الملك الأول نتيجة غدره غدره واستخفافه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، أما الملك الثاني فلم يَثبُت عند صلاح الدين أنه فعل شيئاً ، فلم يُزعجه بشيء .

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢١

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٢١٥

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٨٤

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢٩٦/٣، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢٠

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٩٧

وبهذا يتبيّن لنا بجلاء ما بذله دعاة هذه الدولة المباركة من جهد عظيم في تقديم الدعوة الإسلامية للمدعوين ، سواء كانوا من فئة الملوك ، أو من عامة الناس ، أو من أهل الذمة والصلبيين، كما يتبين لنا تفاعل أصناف المدعوين مع هؤلاء الدعاة ، ومدى تمثّلهم لما يتلقّونه من توجيهات ونصائح.

الفصل الرابع
وسائل الدعوة وأساليبها وميادينها
في عهد الدولة الأيوبية

المبحث الأول
وسائل الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

تمهيد

تحتاج الدعوة الإسلامية إلى وسائل لتبليغها للناس ، وتعريفهم بمبادئها ، وحثهم على اتباعها؛ لذا فإن الداعية الحريص على نجاح دعوته يحرص على استخدام أفضل الوسائل وأنسبها وينوعها ، سواء المادية منها أو المعنوية.

والوسائل المعنوية هي جميع ما يُعين الداعية على دعوته من أمور قلبية أو فكرية ، وذلك كالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والتخطيط ، وما إلى ذلك من أمور لأحسّ ولا تُلمس ، وإنما تُعرف بآثارها. أما الوسائل المادية فهي جميع ما يُعين الداعية من أمور محسوسة أو ملموسة ، وذلك كالقول والحركة والأدوات والأعمال^(١).

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمثلُ قُدوة يُقتدى بها في المجالات الدعوية كافة ، ومن أبرزها استخدامه للوسائل المعنوية ، فقد كان عليه الصلاة والسلام قَمّة في عظيم المكارم وسموّ الأخلاق ، وأعظم شهادة على ذلك مَدَحُ الله تعالى له في قوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)^(٢).

كما حرص عليه الصلاة والسلام على استخدام الوسائل المادية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك استخدامه وسيلة الدعوة إلى الطعام ، فقد روي عن عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)^(٣)، جَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثُونَ ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا ، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ يَضْمَنُ عَنِي دِينِي وَمَوَاعِيدِي وَيَكُونُ مَعِي فِي الْجَنَّةِ وَيَكُونُ خَلِيفَتِي مِنْ أَهْلِي فَقَالَ رَجُلٌ - لَمْ يُسَمِّهِ الرَّوِيُّ - يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ كُنْتَ بَحْرًا مِنْ يَقُومُ بِهَذَا قَالَ ثُمَّ قَالَ الْآخَرُ قَالَ فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: أنا ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا ، ثم عرض عليهم الدين الإسلامي^(٤). ومن الأمثلة أيضاً استخدامه لوسيلة زيارة الناس في أسواقهم ، وفي أيام الحج^(٥)، إلى غير ذلك من وسائل دعوية نبوية.

(١) المدخل إلى علم الدعوة - ٢٨٣

(٢) آية ٤ - سورة القلم

(٣) آية ٢١٤ - سورة الشعراء

(٤) رواه أحمد في مسنده - ١٦٥/٢ ، برقم ١٥٩٠٣ ، قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن.

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - مهدي رزق الله أحمد - ٢٤١

وفي العصر الأيوبي استخدم الدعوة عدداً من الوسائل في الدعوة إلى الله ، كان لها أثر طيب في المدعوين ، وكان لها نتائج باهرة على مسيرة الدعوة في الدولة الإسلامية .
وقبل التحدث عن وسائل الدعوة في العصر الأيوبي سأتطرق إلى تعريف العلماء للوسيلة في اللغة والاصطلاح .

تعريف الوسائل في اللغة والاصطلاح:

الوسائل لغةً: جمع وسيلة .

قال ابن منظور: الوسيلة هي المنزلة والدرجة والقربة ، وسئل فلان إلى الله وسيلةً إذا عمِلَ عملاً تقرب به إليه^(١) . وقال الجوهري: الوسيلة ما يُتقرب به إلى الغير ، يقال: وسئل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسل إليه بوسيلة ، أي تقرب إليه بعمل^(٢) .

الوسيلة اصطلاحاً:

تعددت أقوال الباحثين في معنى الوسيلة اصطلاحاً ، ولعل أبرز هذه الأقوال هذان القولان:
"هي ما يستعين به الداعي على تبليغ الدعوة الى الله على نحو نافع مثمر"^(٣) .
وقيل: "هي ما يتوصّل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية"^(٤)
وفي هذا المبحث سأتحّدث عن تلك الوسائل من خلال الفقرات التالية:

١ الرسائل والرسائل

٢ المناظرة

٣ الخطابة

٤ الجهاد

(١) لسان العرب - مادة "وسل" - ١١ / ٧٢٤

(٢) الصحاح - الجوهري - تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار - مادة "وسل" - ٥ / ١٨٤١

(٣) أصول الدعوة - ٤٤٧

(٤) المدخل إلى علم الدعوة - ٢٨٢

المطلب الأول: الرسائل والرسل

الرسائل من الوسائل الهامة في الدعوة إلى الله تعالى ؛ لذا استخدمها بعض دعاة الدولة الأيوبية . وسأتحدث عن هذه الوسيلة من خلال العناصر التالية:

١ - أهمية وسيلة الرسائل والرسل

٢ - رسائل الحكّام

٣ - رسائل العلماء

٤ - الرسل

أولاً: أهمية وسيلة الرسائل والرسل

تعدّ وسيلة إرسال الرسل والرسائل من الوسائل الهامة في مجال الدعوة إلى الله تعالى ، وأبرز دليل على ذلك استعمال الرسول صلى الله عليه وسلم لها ، فالناظر في دعوته عليه الصلاة والسلام يجد أنه جعل الرسالة وكتابتها إحدى الوسائل الأساسية لدعوته ، ولا سيما للملوك البعيدين ، بغرض دعوتهم إلى دين الله وإبلاغهم شرعه القويم.

والمتأمل في رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوية يستنبط منها المنهج الأصيل للرسائل الدعوية ، ويستقي منها العبر البليغة ، مما يعكس للداعية أهمية استخدام هذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى .

وكتب السيرة النبوية تضمنت طائفة كبيرة من الرسائل التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك مع رسله من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وذلك بهدف دعوتهم إلى دين الله وتبليغهم رسالته ، استجابة لأمر الله تعالى: (يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ^ج وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^ط إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)^(١).

(١) آية ٦٧ - سورة المائدة

وقد شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في إرسال الرسل إلى مَنْ عزم على تبليغه ، وكان هؤلاء يحملون الرسائل منه صلى الله عليه وسلم ، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، واختار لهذه المهمة الجليلة رسلاً من أصحابه لهم معرفة وخبرة.

وفي مصنف ابن أبي شيبة بإسناد حسن - كما يقول محققه-: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة نفر إلى أربعة وجوه: رجلاً إلى كسرى ، ورجلاً إلى قيصر ، ورجلاً إلى المقوقس ، وبعث عمرو بن أمية إلى النجاشي ، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بُعث إليهم)^(١).

ومما جاء في كتب السنة عن رسائله صلى الله عليه وسلم: ما روي عن أنس رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)^(٢).
وقد استخدم بعض دعاة الدولة الأيوبية هذه الوسيلة لأغراض مختلفة ، لكنها كانت تخدم فكرةً واحدةً ، وهي دعوة الناس إلى الإسلام ، وتميز عدد منهم بالبلاغة والفصاحة ، ونتج عن إرسال الرسل ، وبعث الرسائل نتائج دعوية طيبة.

ثانياً: رسائل الحكام:

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله من أكثر الملوك الأيوبيين اهتماماً بإرسال الرسائل ، وكان يهدف من رسائله أغراضاً دعويةً مختلفةً ، يمكن إجمالها في ما يلي:

١ - رسائله في الحث على الجهاد:

من المعروف أن السلطان صلاح الدين كان زمن حكمه مشغولاً بالجهاد ، وما يستلزمه من النفير والحث عليه ، فتأتي وسيلة الرسالة خير تعبير عن مقصوده .
وقد جاء في أحد كتبه لوال من ولاته: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا مَكَّنَ لَنَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَقَّفَنَا فِي إِعْزَازِ الْحَقِّ ، وَإِظْهَارِهِ لِأَدَاءِ الْفُرْضِ ، رَأَيْنَا أَنْ نَقْدَمَ فِرْضَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَنُوضِّحَ سَبِيلَهُ ، وَنُقْبَلَ عَلَى

(١) مصنف ابن أبي شيبة ، كتاب المغازي ، باب ٢١ ، ٢٠/٢٨٤ ، برقم ٣٧٧٨٣

(٢) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير ، باب: كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم ،

٩٠/١٢ ، برقم ٤٥٦٤

أعداء الدين ، ونصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه ، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استئزال نصره من سمائه ، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة ، واقتناء هذه الفضيلة يحظى من عوارفنا الجزيلة بمُحسن الصنيعة ، ومُجّح الوسيلة ، ومن أخلد إلى الأرض، واتّبع هواه ، وأعرض عن حق دينه بالإقبال على باطل دنياه ، فإن تاب ورجع قبلناه ، وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه^(١).

وفي كتاب آخر للسلطان أرسله لأخيه في اليمن: (ولا يسرنا أن ينقضي العمر في قتال غير الكافر ، ونزال غير الكفاء المناظر ، فإنما هي سفرة قاصدة ، وزجرة واحدة ، فإذا هو قد بيّض الصحيفة والوجه والذكر)^(٢).

وقد دعا السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام باليمن ليشاركه في الجهاد ضدّ الصليبيين، لكنه للأسف اعتذر ، فأرسل إليه صلاح الدين رسالة ودّية ، بأسلوب بليغ راقٍ ، يلتمس فيها العذر له لعدم الحضور ، ويُطمئنه فيها على مكاتته عنده ، ملمحاً له بأسلوب غير مباشر إلى أهمية الجهاد ، والدعوة إلى الخروج له ، وقد جاء في تلك الرسالة: (المولى على حسب اختياره ، وإن سار فمثله من سار وسرّ ، وقاد الجيش ، وجرّ ، ونفع الوليّ ، وضرّ العدو الذي أضّرّ ، وإن أقام فالعذر الذي أقعده ، وإشفاق السلطان الذي ردّه عن وجهه ، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره من الأمرين حرج ، فمكانه مكانه من القلب ، ووُدّه وُدّه ، وله من اللسان حمده ، وهو سيف الإسلام إن ضربه بحدّه أو صين في غمده ، ولا زال المولى مُنوّهاً باسمه، ومُرفّهاً في جسمه ، ومُجرّداً سيف عزمه ، وسعيداً بحكم التوفيق ، فلا خرج التوفيق عن حكمه)^(٣).

واستمر صلاح الدين بإرسال الرسائل لأخيه سيف الإسلام في اليمن لتشجيعه ضمناً على الجهاد في سبيل الله تعالى ، فأرسل له رسالة يُبشّره فيها بفتح كوكب وصفد ، وقد جاء فيه: (وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق ، وإليه نرغب في أن يُتّبّت قلوبنا إذ كانت تزيغ قلوب فريق ، ونحن الآن نستجذب أحنانا ، وندعوه إلى مآله دُعينا ، ونؤمّل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا، وأن يمدّنا بنفسه سريعاً ، وبعسكره جميعاً ، وبُدُخره الذي كان لمثله مجموعاً ، وأن يلبّها دعوة ، إما أن يُطيع بها

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٢٢

(٢) المصدر السابق - ٤ / ٥٧

(٣) المصدر السابق - ٤ / ٥٧

رَبِّهَ لِأَنَّهَا دَعْوَتُهُ ، وَإِنَّمَا أَنْ يَنْصُرَ بِهَا نَبِيَّهَ فَإِنَّهَا شَرِيعَتُهُ ، وَإِنَّمَا أَنْ يُعَيِّنَ بِهَا أَخَاهُ ، فَإِنَّهَا شِدَّةُ الْإِسْلَامِ لَا شِدَّتَهُ^(١) .

٢ - رسائله في الحث على الإخلاص وبيان أنه القصد الأساس من الجهاد:

كان رحمه الله حريصاً أشدَّ الحرص على أن تكون نيته في الدعوة والجهاد خالصة لله تعالى ، ولم تُسَيِّر المصلحة الشخصية أو الحكم أو الجاه نِيَّاتِهِ ، وقد شهد له المؤرِّخ أبو شامة بذلك فقد قال عنه "وقد أخلص لله سرّه وجهاره"^(٢) .

وكان رحمه الله كثيراً ما يحث أصحابه على الإخلاص ، ويُبيِّن لهم أن نصرة دين الله تعالى هو القصد الأساس من دعوته وجهاده ، فقد جاء في إحدى رسائله للخليفة العباسي في بغداد: (إنَّ مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ، ومغنمه من الدنيا إذا مُنِحها ثلاثة مقاصد: الجهاد في سبيل الله ، والكفّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة لخليفة الله ، والله العالم أنّه لا يُقاتل لعيش أَلين من عيش ، ولا لغضب يملأ العنان من نزقٍ وطيش ، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد تَوَسَّم أنها تلزم ، ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يُسَطَّر في الصحيفة ويرقم)^(٣) .

وفي رسالة أخرى للخليفة العباسي بقلم القاضي الفاضل بيّن فيها هدفه من الملك ، وقد جاء فيها: (والمراد الآن هو: كلّ ما يُقَوِّي الدولة ، ويُؤكِّد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد)^(٤) .

وفي رسالة للملك الصالح بن نور الدين بيّن السلطان هدفه الأساس من الجهاد وإخلاصه النية لله عز وجل ، ومما جاء فيها: (وما قصدي إلا جَمْعُ كلمة الإسلام على الفرنج)^(٥) .

كما أرسل رحمه الله رسولاً إلى الخليفة يُبيِّن فيه قصده من حصار الموصل ، وقد كان مما أمر الرسول أن يقوله: (إنه ما جاء طمعاً في استضافة مُلك ، ولا استزادة سلك ، ولا قلع بيت قدم ، ولا قطع أصلٍ كريم ، وإنما مقصوده الأصلي ، ومطلوبه الكلّي ، ردّهم إلى طاعة الإمام ، ونصرة

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٥٦

(٢) المصدر السابق - ٢ / ١٤٢

(٣) المصدر السابق - ٣ / ١٧٩

(٤) المصدر السابق - ٢ / ٣٦٥ - ٣٦٦

(٥) مرآة الزمان - ٨ / ٣٢٨ ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٨٤

الإسلام ، وكشف ما اعتادوه ، واعتوروه من الظلم والظلام ، وطمعهم عن استحلال الحرام ، وقطعهم عن مواصلة الأعجام ، وإلزام بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الأرحام^(١) .
ويُصوّر لنا القاضي الفاضل جانباً من شخصية صلاح الدين وتيّته المخلصة لله في الجهاد ، وذلك في كتاب أرسله إلى الديوان العباسي لما تمّ للأيوبيين فتح بيت المقدس ، ومما جاء فيه : (وكان الخادم صلاح الدين لا يسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى ، ولا يُقاسي البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يُجارب من يستظلمه إلا لتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا)^(٢) .

٣ - رسالة في بيان عدم التنازل عن القدس :

أرسل قائد الإفرنج إلى السلطان : (أن الفرنج والمسلمين قد هلكوا ، وخرت البلاد ، وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس مُتعبّدنا ، ما نزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيُعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ السلطان به علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم).

فأرسل السلطان في جوابه : (القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوّر أن نزل عنه ، ولا نقدر أن نتلقّظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي لنا أيضاً في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً ؛ لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة ، لا يجوز أن تُفرض فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام أوفى منها)^(٣) . والسلطان بهذا الخطاب معنيّ ببيان العقيدة ، وإجلاء الحجة ، وذلك في مواجهة خصمه .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٢٨

(٢) المصدر السابق - ٢ / ١١١

(٣) المصدر السابق - ٤ / ٢٨٦ - ٢٨٧

٤ - رسالة في إبطال المكوس:

اهتمّ صلاح الدين اهتماماً كبيراً بإلغاء الضرائب عن الحجاج ، وحرص أشد الحرص على إرسال الأوامر بذلك إلى ولايته في مختلف أنحاء الدولة الأيوبية ، ومن الأمثلة على ذلك أنه في سنة ٥٧٧هـ كتب إلى قوص بإبطال المكوس التي تُؤخذ من الحجاج وتجار اليمن^(١).

٥ - رسالة في النهي عن التعصّب المذهبي والخلاف بين المذاهب:

وقع في الدولة الأيوبية الكثير من الخلاف بين أصحاب المذاهب ، فكان أصحاب كلّ مذهب يتعصّب لمذهبه ، ونشأ عن ذلك عدد من المشاكل ، وحاول ملوك الدولة الأيوبية الوقوف بوجه هذا التعصّب المذهبي ، والحدّ منه بشتّى الوسائل الدعوية ، فكان إرسال الرسائل من أبرز تلك الوسائل التي استُخدمت ، ومما يدلّ على ذلك تلك الرسالة التي أرسلها صلاح الدين إلى العادل وهو بمصر ، وقد جاء فيها: (انتهى إلينا أن بالديار المصرية ، وبالحضرة العالية ، جماعة من الفقهاء اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالقول غير المعروف ، وأنشؤوا من العصبية ما أطاعوا به القوى العصبية ، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية ، والله تعالى يقول: (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^٢ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا^٣ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٤)) ، ولم يزل التعصّب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها ، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف ، فكيف لأهل الوفاق؟ إلا أن يقال: أحسنها ، وما علمنا أنّ في ذلك نية تُنجد ، ولا مصلحة توجد ، ولا هداية تعتقد بدراسة تُعقد ، وقلّما أثمرت المشاجرة إلا خلافاً، فالجلس يوعز بكفّ الألسنة الخائضة ، ومن عاد بعد الرّجر أبعد عن مستقرّه وأزعج ، وليسع الخلف ما وسع السلف من الأدب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتاباً إلى ربه ، فليفكر فيما كتب ، وإلى من يكتب^(٥). فالسلطان بهذا الخطاب ينحو منحى الحث على بيان أهمية الإخلاص لله عز وجل في

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٤

(٢) آية ١٠٣ - سورة آل عمران

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٢٣ - ٢٢٤

مقاصد الخلاف ، وإبعاد حظّ النفس التي قد يكون لها دور كبير في تزكية الخصومة ، وتوسيع مداخلها.

٦ - رسالة في النهي عن الظلم:

كان إحقاق العدل ورفع الظلم من أهداف الدولة الأيوبية الرئيسة ؛ لذا كان ملوكها يرغبون ولاتهم على الأمصار في العدل ، وينهونهم عن الظلم ، ومما يدلّ على هذا المعنى السامي رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الأمير مُكثّر ، ونص الرسالة: (بسم الله ، اعلم أيها الأمير الشريف ، أنه ما أزال نعمة عن مكانها ، وأبرز الهِمَم عن مكانها ، وأثار سهم النوائب عن كنائها ، كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله ، والجور الذي لا يُفَرِّق في الإثم بين قائله وقابله ، فإمّا زهبتَ ذلك الحرم الشريف ، وأجللت ذلك المقام المنيف ، وإلا قوّينا العزائم ، وأطلقنا الشكايم^(١) ، وكان الجواب ما تراه لا ما تفرّوه ، وغير ذلك ؛ فإتّا نفضنا إلى ثغر مكة المحروسة في شهر جمادى الأولى طالبين الأولى والأخرى ، في جيش قد ملأ السهل والجبل ، وكظم على أنفاس الرياح فلم يتسلسل بين الأسل^(٢) ، وذلك لكثرة الجيوش ، وسعادة الجموع ، وقد صارت عوامل الرياح تعطي في بحر الدر)^(٣).

ولما فتح السلطان الرقّة جاء في منشور لأهلها: (أشقى الأمراء من سمن كيسه ، وأهزل الخلق ، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس ، وسمّع الحق ، ومن ترك شيئاً عوّضه الله ، ومن أقرض الله قرضاً حسناً ، وقاه ما أقرضه ، ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقّة ، أشرفنا منها على سُحتٍ يُؤكل ، وظلمٍ مما أمر الله به أن يُقطع ، وأمر الظالمون أن يُوصل ، فأوجبنا على أنفسنا ، وكافة الؤلاة من قبِلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها ، ويلقوا الرعايا من بشائر أيام مُلكنا بأسرها ، ونُعتق بلد الرقّة من رقّها ، ونُثبت أحكام المعدلة فيها ، بمحو هذه الرسوم ومحققها ، وقد أمرنا بأن تُسدّ هذه الأبواب ، وتُعطلّ ، وتستمطر سحائب الخِصب بالعدل ، وتستنزل ، ويُعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين ، ويسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين ، ماضية الأحكام ، مستمرة الأيام ، دائمة الخلود)^(٤).

(١) الشكايم: جمع شكيمة وهي: القوة والإباء - اللسان - مادة شكم

(٢) الأسل: الرماح - اللسان مادة أسل

(٣) إتخاف الوري بأخبار أم القرى - ٢ / ٥٦٧ - ٥٦٨

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٧٦

ثالثاً: رسائل العلماء:

اهتم علماء الدولة الأيوبية بوسيلة الرسالة ، وعَدُّوها من الوسائل الدعوية الهامة للتعبير عن الفكرة والرأي ، ومن أبرز العلماء الدعاة الذين اشتهروا باستخدام هذه الوسيلة القاضي الفاضل . وكانت رسائله رحمه الله تعالج موضوعات منوّعة ، وتخدم أغراضاً وغايات مختلفة، ويمكن إجمال موضوعات رسائله وأهدافها تحت العناوين التالية:

١ - الحث على الجهاد والمصابرة في سبيل الله:

روي أن القاضي الفاضل كان بالديار المصرية أثناء حصار الصليبيين لعكا ، وذلك لترتيب أمور صلاح الدين ، من تجهيز العساكر ، وتعمير الأسطول ، وحمل المال ، ونقل المؤن إلى عكا ، وكان السلطان يكتبه في مهماته ، وترجع أجوبته بأحسن عباراته ، مشيراً وناصحاً ومسلماً وباحثاً عن حقائق الإسلام ، وكانت مكاتبات القاضي مستمرة ، مليئة بالعبارات الصادقة بكلّ مشاعر الحب ، للتخفيف عنه ، ولحثه على مواصلة الجهاد والصبر والتقوى وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله ، وقد جاء في كتاب الفاضل: (ولا يكره المولى أن تطول مدّة الابتلاء بهذا العدو ، فتوابه يطول ، وحسناته تزيد ، وأثره في الإسلام يبقى ، وفتوحاته بمشيئة الله يَعْظُم موقِعُها ، والعاقبة للتقوى ، (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ^١ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^(١)) ، والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده ، وبرأيه ، وبولده ، وبخاصّته ، وبعامّة جنده)^(٢).

كما روي أنه جاء في أحد كتبه: (وسيوفنا قد صارت مفاتيح الأمصار ، نفتحها بنصر الله ، لا بحدّها ولا بقطعها)^(٣).

ولما لاحت للسلطان أمارات النصر في بلاد الفرنج ، كتب إلى القاضي الفاضل يقول: (ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها) ، فكتب إليه القاضي: (فأما قول مولانا "إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا" فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام ، وفيه مُحِيت ، والآثام كانت مكتوبة ، ثمّ عُفي عنها بهذه الساعات وعُفِّيت ، فيكفي مستغفراً لسان السيف الأحمر في الجهاد ، ويكفي قارعاً

(١) جزء من آية ٤٠ - سورة الحج

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٧٣ - ١٧٥

(٣) المصدر السابق - ٣ / ١٥٧

لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد ، وبعين الله موقوفك ، وبسبيل الله مقامك ومنصرفك ، وطوبى
لقدِمِ سَعَتٍ في منهاجك ، وطوبى لنفس بين يديك قَتَلتِ وفُتِلتِ ، وإنَّ الخواطر تشكر الله فيك ،
وعن شكرها لك قد شُغِلتِ^(١).

وهذه رسالة من القاضي الفاضل رحمه الله إلى السلطان صلاح الدين في إقامة عذر التأخر
عن الجهاد: (وأما تأسُفُ المولى عن أوقات عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها ، وتجدد
العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها ، فللمولى نية رشده ، وأليس الله العالم بعبده ، وهو سبحانه لا
يسأل الفاعل عن تمام فعله ، لأنه غير مقدور له ، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ، وعن
مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة ، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد ، وتنظيف
الطرق إلى المراد ، فهو في طاعة قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها ، وهو منه على أملٍ في بُحْجِ موعدها،
والثواب على قدر مشقته ، وإنما عَظُمَ الحجِّ لأجل جهده وبُعد مشقته ، ولو أنَّ المولى فتح الفتوح
العظام في أقلِّ الأيام ، وفَصَلَ القضيَّة بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام لكانت تكاليف الجهاد قد
قُضيت ، وصحائف البرِّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طُويت^(٢).

وعندما سيطر الصليبيون على بيروت سنة ٥٩٣ هـ ، كتب القاضي الفاضل من مصر إلى الملك
العاقل في دمشق رسالة جاء فيها: (انظروا إلى أنكم الإسلام كله ، وأنكم ظلَّ الله ، فإن صحَّحتم
تلك النسبة ، فإن الله لا ناسخ لظَّله ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا تهنوا وإن ذهب النصر ،
فإن الله خير الناصرين ، فما هي إلا غمرة^(٣) وتنجلي ، وهَيْعَة^(٤) وتنقضي ، وليلة وتصبح ، وتجارة
وتريح^(٥)).

ثم إنه عاد وكتب له رسالة أخرى يحثُّه فيها على المرابطة والصبر والجلد وعدم الملل أمام العدو،
مع تبشيره بالجزاء العظيم للجهاد والإنفاق في سبيل الله ، وقد جاء في هذه الرسالة: (فلا يسأم
مولانا نية الرباط ، وفعلها ، وتجشُّم الكُلْفِ^(٦) وحملها ، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد صرف

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٨٩ - ١٩٠

(٢) المصدر السابق - ٣ / ٦ - ٧

(٣) غمرة: شدة . الصحاح - مادة غمر - ٢ / ٧٧٢

(٤) هَيْعَة: صوت الصارخ للفرع . الصحاح - مادة هَيْع - ٣ / ١٣٠٩

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٣٧ - ٤٣٨

(٦) الكُلْف: ما تكلفته على مشقة . الصحاح - مادة كلف - ٣ / ١٤٢٤

الله إليه الوجوه كلها: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (١) (٢).

٢ - النصيحة بتعليق الحج :

لما بلغ القاضي الفاضل عزم السلطان على الحج أرسل له رسالة يُشير إليه بتأجيله، مما يدل على عمق فهم هذا القاضي بمقاصد الشريعة ، كما يُبين أهمية وجود العلماء الريانيين بجانب القادة السياسيين والعسكريين ، وقد جاء في تلك الرسالة: (إنَّ الفرنج لم يخرجوا بَعْدُ من الشام ، ولا سلوا عن القدس ، ولا وُثق بعهدهم في الصلح ، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم ، وافتراق عسكرنا، وسفر سلطاننا سَفْرًا مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه ، أن يسيروا ليلة ، فيصبّحوا القدس على غفلة ، فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله ، ويفرط من يد الإسلام ، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تُعفى ، ومن العثرات التي لا تُقال . يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهمّ من كل ما يُتقرب به إلى الله ، وما هي بواحدة ، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة) (٣).

٣ - رسالة في التعزية

ولما توفي صلاح الدين كتب القاضي الفاضل إلى صاحب حلب تعزية له في وفاة أبيه ، فقال: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (٤)، (يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ^ج إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) (٥)، كتبتُ إلى مولانا الملك الظاهر أحسن الله عزاءه ، وجبر مصابه ، وجعل فيه الخلف من السلف في الساعة المذكورة ، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، وقد حضرت الدموع المهاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد ودّعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده ، وقبّلت وجهه عني وعنك ، وأسلمته إلى الله

(١) آية ٦٩ - سورة العنكبوت

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٣٨ - ٤٣٩ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٦٧٦

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٣٤

(٤) آية ٢١ - سورة الأحزاب

(٥) آية ١ - سورة الحج

وحده، مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضياً عن الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وبالباب من الجنود المجنّدة ، والأسلحة المعمّدة ما لم يدفع البلاء ، ولا ما يردّ القضاء ، تدمع العين، ويخشع القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب ، وإنا بك يا يوسف محزونون . وأما الوصايا فما تحتاج إليها والآراء ، فقد شغلني المصاب عنها ، وأما لائح الأمر ، فإنه إن وقع اتّفاق ، فما عدمتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك ، فالمصائب المستقبلية أهونها موته^(١).

٤ - مناصحة وتذكير:

جاء في رسالة القاضي الفاضل لصلاح الدين: (وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة ، وإزالة أسبابها ، وإغلاق أبوابها ، فالله يُثيب المولى ثواب مَنْ غَضِبَ ليرضيه بغضبه ، وحَمَلَ الخلق على منهج شرعه وأدبه)^(٢).

وجاء في رسالة أخرى لصلاح الدين أيضاً يحثه فيها على الصبر ، والرضا بقضاء الله وقدره: (لا بد أن تنقذ مشيئة الله في خلقه ، ولا رادّ لحكمه ، فلا يتسخطّ مولانا بشيء من قدره ، فلأن يجري القضاء وهو راضٍ مأجور ، خير من أن يجري وهو ساخط موزور ، ومن شكّا بثه وحزنه إلى الله شكّا إلى مشتكى ، واستغاث بقادر ، ومن دعا ربه خفياً استجاب له استجابة ظاهرة ، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا ، ولا يقطع الظهور التي لا تشدّ إلا به ، ولا يُضَيِّق صدوراً لا تنفرج إلا منه ، عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر ، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يُدبّر الدهر إلا برب الدهر ، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر ، وأنه لا يقلّ لهم إن كثر الفكر)^(٣).

وفي كتاب فاضلي آخر للسلطان يوصيه فيه بعدم تغيير نفسيته نتيجة المحن والشدائد، فيقول: (ويريد المملوك ألا يتغيّر لمولانا وجهٌ عن بشاشة ، ولا صدر عن سعة ، ولا لسان عن حسنة ، ولا تُرى منه ضجرة ، ولا تُسمع له نخرة ، فالشدة تذهب ، ويبقى ذكرها ، والأزمة تنفرج ، ويبقى أجرها، وكما لا يُحدث استمرار النعم لمولانا بطراً ، فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجراً)^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٩ - ٢٩٠

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٩

(٣) المصدر السابق - ٤ / ١٨٦ - ١٨٧

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٨٤

وفي رسالة أخرى له يوصيه بالصبر على البلاء ، والشكر على النعم: (فاشكروا الله على هذه الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر ، ومن ربط جأش عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب) فليصبر ، فإنما خُلق للصبر، بل ليشكر ، فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر ، وليقل لمن ابتلي: أنت المعافي، وليرض عن الله ، فإن الرضيّ عند الله هو المسلم الراضي)^(١) .

وسطرّ له في كتاب فاضلي آخر يوصيه بالاستغفار والإكثار من الدعاء: (ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا ، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا ، والله قدر لا سلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ، وقد أشرفنا على أهوال (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)^(٢) ، وقد جمع العدو لنا وقيل لنا: اخشوه ، فقلنا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم ، وليس إلا الاستعانة بالله ، فما دلّنا الله في الشدائد إلا على الدعاء له ، وعلى طروق باب كرمه وعلى التضرع إليه ، (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ)^(٣) . ونعوذ بالله من القسوة ، ومن القنوط من الرحمة ، ومن اليأس من الفرج ، فإنه لا يئس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه)^(٤) .

وقد أرسل القاضي الفاضل رسالة للعادل يذكره فيها بأهمية اغتنام الأوقات: (هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار ، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار ، وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه ، فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذي ما كل من طلبه ووصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ما سوّدتها الذنوب من الصحائف ، فما أسعد تلك الوقفات ، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجعات)^(٥) .

(١) المصدر السابق - ٤ / ١٨٨ - ١٨٩

(٢) آية ٦٤ - سورة الأنعام

(٣) آية ٤٣ - سورة الأنعام

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٨٥ - ١٨٦

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٣٩

ومن العلماء الذين استخدموا وسيلة الرسالة عز الدين بن عبد السلام ، وهو من أبرز الدعاة إلى الله في هذا العصر ، وقد تميّز في رسائله بالصراحة والجرأة في مقولة الحق ومواجهة الآخرين بها . ومن أمثلة رسائله ما كتبه للملك الأشرف جاء فيها: (فإنّا نزعم أنا من جملة حزب الله - عز وجل - وأنصار دينه وجنده ، والجندي إذا لم يخاطر بنفسه فليس بجندي)^(١).

ومن العلماء الذين اهتموا بهذه الوسيلة الإمام القرافي ، فقد روي أنه أرسل إليه أحد النصارى رسالة يحتجّ فيها بصحة دينه ، فأرسل إليه القرافي برسالة أثبت فيها صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدّم فيها مفتريات ذلك النصارى ، وأبطل حججه مستدلاً لذلك من كتبهم . وقد سمى هذه الرسالة بـ"الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة"^(٢).

ومثل هذه الرسالة ما كتبه بعض طلبة العلم في مصر من رسائل إلى بعض رؤساء الفرنج ، وذلك بطلب من الملك الكامل ردّاً على رسائل فيها بعض الأسئلة بعثوا بها إلى المسلمين^(٣).

رابعاً: وسيلة الرسل

اعتمد المسلمون كثيراً على وسيلة الرسل في عصر الدولة الأيوبية ، وذلك في مراسلاتهم مع الصليبيين ، فبواسطة هؤلاء الرسل استطاع المسلمون تحقيق الكثير من المصالح كتبادل وجهات النظر والمفاوضة والمحاورة ، كما ساعد أولئك الرسل على تخفيف حدّة التوتر والعداء بين الطرفين.

ومن الشواهد على استخدام الرسل في عهد الدولة الأيوبية ما قام به صلاح الدين من إرسال الرسل المحمّلين بالرسائل إلى قادة الفرنج بغرض الجهاد والفتوحات ، ولمناقشة أمور تتعلّق بالمصالح المشتركة بين الطرفين .

ومن ذلك إرساله رسولاً إلى ملك القسطنطينية لإبلاغه بشأن إقامة صلاة الجمعة في بلاده، وقد ذكر ذلك ابن شداد فقال: "..... وكان وصل منه -أي ملك القسطنطينية- إلى الباب السلطاني في جواب رسول كان أنفذه السلطان رحمه الله إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع القسطنطينية"^(٤).

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٣٤

(٢) انظر: مقامع الصلبان ومراتب أهل الإيمان - أحمد بن عبد الصمد الخزرجي ، تحقيق: د/محمد شامة - ١٢٣ وما بعدها.

(٣) انظر: الرد على النصارى - ١٥

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٠٢

كما أرسل أيضاً رسولاً إلى ملك الفرنسيس ، سار إليه إلى صور بهدايا سنّية ، وطيب كثير ، وثياب جميلة^(١)؛ وذلك بغرض كسبه ضدّ بقية الملوك الصليبيين الذين تكالبوا على المسلمين .

وكذلك إرساله رسالة لطيفة ليّنة مع رسوله إلى الماركيس صاحب صور ، وقد بيّن ابن شداد الغرض من تلك الرسالة فقال: "وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع الماركيس عن الفرنج ، فإنه كان من أشدّهم بأساً ، وأعظمهم للحرب مراساً، وأثبتهم في التدبير أساساً.." ^(٢).

ومن أهم المراسلات التي حققت للمسلمين مصالح عظيمة تلك التي قام بها الملك العادل مرسلًا من طرف صلاح الدين إلى ملك الانكثار الصليبي ، وقد نتج عن هذه المراسلات عقد الهدنة بين الطرفين ، وتنازل الصليبيين عن القدس ، وحصر نفوذهم في منطقة ضيقة من الساحل^(٣).

وكان الملوك يحرصون على أن يكون حامل الرسالة في بعض الأحيان من العلماء ، ولا سيما إذا كان موضوع الرسالة مناقشة علمية ، أو إجابة عن أسئلة تتعلّق بأمر الدين ، ولا شك أن لهذا تأثيره الكبير في مستقبلي الرسالة ، وذلك عن طريق تصحيح صورة الإسلام المشوّهة لديهم ، أو عرض لمحاسن الإسلام وعلومه ، أو بيان لبطلان عقيدتهم .

ومن أهم المراسلات التي قام بها العلماء إرسال الملك الكامل لفخر الدين يوسف بن حمويه -أحد علماء مصر البارزين- إلى ملك صقلية . وقد قام الشيخ بإيصال رسالة الكامل إلى الملك ، كما دار بينه وبين الملك الصقلي مناقشات علمية^(٤).

ولقد كان هذا الملك من المعجبين بالإسلام وتشريعاته ، وقد دلّ على هذا مقولته الشهيرة التي قالها عندما زار بيت المقدس أيام الملك الكامل ، إذ قال: "...والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم..." ^(٥).

ومن رسل الملك الكامل إلى فريدريك الثاني أيضاً جمال الدين بن منقذ ، فقد بعثه بهدية قيّمة فيها من تُحف اليمن والعراق والشام ومصر^(٦).

(١) المصدر السابق - ٢٣٧

(٢) المصدر السابق - ٢٩٨

(٣) انظر: المصدر السابق - ٢٩٠ و ٢٩٢ و ٢٩٣

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ٢٣٠/١

(٥) المصدر السابق - ٢٣١/١

(٦) المصدر السابق - ٢٢٣/١

ومن الرسل أيضاً الشيخ القاضي سراج الدين الأرموي ، والذي أرسله الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل إلى ملك صقلية ، وقد مكث هذا القاضي في صقلية مدة من الزمن ألّف فيها بعض كتبه^(١).

وهكذا ظهر لنا بجلاء كيف استفاد المسلمون في عهد الدولة الأيوبية من وسيلة إرسال الرسل فوائدها عظيمة ، فقد حققت للمسلمين مكاسب كبيرة على الصعيدين الديني والدنيوي.

المطلب الثاني: المناظرة

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢٤٧/٤

المناظرة من الوسائل الدعوية الهامة ؛ لذا استخدمها بعض دعاة الدولة الأيوبية، واشتهر عدد منهم في هذا المجال ، وكان هدف أولئك الدعاة من مناظراتهم بيان الحق والدعوة إليه ، وكان لهذه الوسيلة بحمد الله آثار ونتائج طيبة .

وفي هذا المبحث سأتحّدث بإذن الله عن النقاط التالية:

١ تعريف المناظرة.

٢ أهمية وسيلة المناظرة.

٣ الملوك الذين استخدموا وسيلة المناظرة.

٤ العلماء الذين استخدموا وسيلة المناظرة.

أولاً: تعريف المناظرة

قبل الحديث عن أهمية وسيلة المناظرة أودّ بيان تعريفها في اللغة والاصطلاح.

المناظرة لغة: قال ابن منظور: والمناظرة: أن تُناظرَ أحاك في أمر إذا نَظَرْتُمَا فيه معاً كيف تأتَيانه^(١).

وقال الراغب في المفردات: النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية^(٢).

وقال: (والمناظرة : المباحثة ، والمباراة في النظر ، واستحضار كل ما يراه ببصيرته ، والنظر: البحث، وهو أعم من القياس ؛ لأن كل قياس نظر وليس كل نظر قياساً)^(٣).

والمناظرة اصطلاحاً: هي تردد الكلام بين شخصين يقصد كل منهما تصحيح قوله ، وإبطال قول صاحبه ، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق^(٤).

ثانياً: أهمية وسيلة المناظرة:

(١) لسان العرب - ٥ / ٢١٥

(٢) مفردات ألفاظ القرآن - ٨١٢

(٣) المصدر السابق - ٨١٢

(٤) مناهج الجدل في القرآن الكريم - د/ زاهر الألمعي - ٢٥

تعدّ وسيلة المناظرة من الوسائل الهامة في الدعوة إلى الله ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أن يستخدمها في المجال الدعوي ، فقال تعالى: (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(١).

وقد ذكّر الله سبحانه وتعالى في كتابه عدداً من المناظرات بين الأنبياء وأقوامهم، مما يُظهر أهمية هذه الوسيلة ، ويُربِّع الدعوة في استخدامها .

ومن المناظرات التي ذُكرت في القرآن الكريم مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه في عبادتهم ما لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً ، فقد بيّن لهم بالحجج والبراهين بطلان ما هم عليه ، وذلك في سور عديدة من القرآن الكريم ، كما حكى الله جل وعز عن مناظرته عليه السلام أيضاً مع الملك الجبار (النمرود) الذي ادّعى الألوهية في سورة البقرة^(٢)، وكانت هذه المناظرة وسيلة لإظهار كذب هذا الملك ، وبيان ما هو عليه من الضلال.

ومن الرسل الذين استخدموا وسيلة المناظرة في تبليغ شرع الله ، وإظهار الحق موسى عليه السلام ، وذلك عندما ناظر فرعون ، وبيّن بطلان ما هو عليه من باطل أمام ملئه وقومه في عدد من سور القرآن الكريم.

وبهذا تتبيّن أهمية المناظرات ومشروعيتها إذا احتيج إليها ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ، ومستحبة أخرى)^(٣). وعظّم رحمه الله شأن مناظرة المخالفين ودحض شبهاتهم فقال: (كلّ من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابريهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفّي بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمانينة النفوس)^(٤).

وتاريخ الإسلام حافل بأنواع المناظرات ، من ذلك ما قام به ابن عباس رضي الله عنهما عندما ناظر الكثير من الخوارج فرجع الكثير منهم^(٥).

(١) آية ١٢٥ - سورة النحل

(٢) آية ٢٥٨ - سورة البقرة

(٣) درء التعارض - ابن تيمية - تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن - ٧ / ١٧٤

(٤) المصدر السابق - ٣٥٧/١

(٥) البداية والنهاية - ٩ / ١٩٧.

ثالثاً: من الملوك الذين استخدموا وسيلة المناظرة

اشتهر عدد من الملوك الأيوبيين باستخدامهم لوسيلة المناظرة ، واهتمامهم بها ، وعقدتهم المجالس للعلماء ، وحضورهم لمناظرات العلماء^(١) ، وما ذاك إلا لإدراكهم لأهمية هذه الوسيلة في التأثير في المدعويين ، وإقناعهم بالحق الذي يدعو الداعية له .

ومن الملوك المهتمين بالمناظرة السلطان صلاح الدين ، فقد روي أنه لما حاصر الشقيف ، تيقن صاحبه عدم السلامة ، فنزل بنفسه ، واستأذن في الدخول على السلطان ، فأذن له واحترمه وأكرمه ، وكان يعرف العربية ، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث ، وقد ذكر أنه كان عنده مسلمٌ يقرأ له ويُفهمه ، فأكل مع السلطان ، وذكر أنه تحت طاعته ، ويُسلم له المكان بشرط أنه يُعطى سكناً بدمشق ، واشترط شروطاً أخرى ، فأجيب إليها كلها ، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ، ويناظر في دينه ويُناظره السلطان في بطلانه ، وكان حسن المحاورة ، متأدباً في كلامه ، حتى ظهر غدره ، وبان مكره^(٢) .

ومن الملوك الذين كان لهم اهتمام بهذه الوسيلة الملك العادل ، فقد روي أنه كان يبحث ويُناظر^(٣) . وهذه إشارة صريحة إلى اتّصاف هذا الملك بكونه يستخدم هذه المناظرة في مجالسه .

رابعاً: من العلماء الذين استخدموا وسيلة المناظرة:

اشتهر عدد من علماء الدولة الأيوبية باستخدام وسيلة المناظرة ، واهتمّوا باستخدامها في الدعوة إلى الله ، ومن أشهر أولئك العلماء الدعاة:

-الحافظ عبد الغني ، من العلماء الأفاضل ، ناظر من أتهمه بالتجسيم والتشبيه^(٤) ، فدفع عن نفسه هذه التهمة ببيان عقيدة السلف وسيره على ضوءها .

-ابن قدامة ، كان ثقة حجة ، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه ، عُرف بالمناظرة ، كان لا يُناظر أحداً إلا وهو يتسم ، وقد بقي زماناً بعد الجمعة للمناظرة ، وكان يجتمع إليه الفقهاء^(١) .

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٤١٥

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٦٧

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٠

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٦٣

-عماد الدين المقدسي الجماعيلي ، يقول عنه الذهبي: (شاهدته يناظر غير مرة)^(٢) .
-نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي ، من كبار فقهاء الحنفية وأعيانهم ، رحل إلى بغداد ، ، وناظر العلماء والأئمة ، ثم توطن بلاد الروم مدة ، ودارس الفقهاء ، له دراية بالخلاف والفقهاء والكلام والجدل والمناظرة^(٣) .

-العز بن عبد السلام وابن الصلاح ، وقد وقعت بينهما مساجلة (مناظرة) في بعض المسائل العلمية^(٤) .

-الشيخ أحمد بن إدريس القرافي ، والذي كان من أبرز المناظرين للنصارى في مصر ، فقد أشار إلى كثرة وقوع ذلك منه معهم^(٥) .

- وثمة حادثة وقعت سنة ٥٩٥ هـ تدل على اهتمام أولئك العلماء بوسيلة المناظرة، ومدى تأثيرها في الدعوة ، وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، فقد روي أنه عظمت الفتنة في تلك السنة في عسكر غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام ملك الغورية ، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي الفقيه الشافعي المشهور كان قد بالغ غياث الدين في إكرامه ، وبني له مدرسة بقرب جامع هراة ، ومعظم أهلها كرامية^(٦) . فأجمعوا على مناظرته ، وتجمعوا عند غياث الدين معه ، وكيبرهم القاضي مجد الدين عبد المجيد بن عمر بن القدوة ، فتكلم الإمام فخر الدين مع ابن القدوة ، واستطال عليه ، وبالغ في شتمه ، وهو لا يزيد على أن يقول: "لا يفعل مولانا ، لا آخذك الله ، استغفر الله" ، فغضب الملك ضياء الدين له ، ونسب الإمام الرازي إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة ، وقام من الغد ابن عمر بن القدوة بالجامع ، وقال في خطبته: (رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا

(١)المصدر السابق - ٢٢ / ١٦٥

(٢)المصدر السابق - ٢٢ / ٤٩ - ٥١

(٣) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ١٩٩

(٤) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٥١ ، المجموع - محيي الدين بن شرف النووي - ٨ / ٤٢٧ - ٤٦٢

(٥) انظر: الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة - ١١١

(٦) مذهب الكرامية : أصحاب محمد بن كزّام ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، قالوا: (إن الإيمان هو القول باللسان دون المعرفة بالقلب ، والمنافقون مؤمنون) ، وهم من فِرَقِ المرجئة. انظر: عقائد الثلاث والسبعين فرقة - أبو محمد اليميني - تحقيق: محمد عبدالله الغامدي - ١ / ٢٧٥ .

الرَّسُولَ فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (١)، أيها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما علم أرسطو ، وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابي فلا نعلمها ، فلأي حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام ، يذبّ عن دين الله وسنة نبيه. وبكى وأبكى ، فثار الناس من كل جانب ، وامتألت البلد فتنه ، فسكّتهم السلطان غياث الدين ، وتقدم إلى الإمام فخر الدين بالعود إلى هراة ، فخرج إليها ، ثم فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية ، وتقلّد مذهب الشافعي رحمه الله (٢).

المطلب الثالث: وسيلة الخطابة

(١) آية ٥٣ - سورة آل عمران

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٤٤ - ١٤٥

تعدّ الخطابة من الوسائل الدعوية الهامة لعظم تأثيرها على المدعوين ، وقد استخدمها الدعوة إلى الله تعالى قديماً وحديثاً .

وسأتحدث عن وسيلة الخطابة من خلال الفقرات التالية:

- ١ - تعريف الخطابة
- ٢ - أهمية وسيلة الخطابة
- ٣ - استخدامها في العصر الأيوبي

أولاً: تعريف الخطابة

الخطابة لغة: الخِطَابُ

والمخاطبة: مُرَاجَعَةُ الكَلَامِ، وقد خَاطَبَهُ بالكلام مُخَاطَبَةً وخطاباً، وهما يتخاطبانِ.

والخُطْبَةُ عندَ العَرَبِ: الكلامُ المُنْتَوِرُ المُسَجَّعُ، ونحوه.

ورَجُلٌ خَطِيبٌ: حَسَنُ الخُطْبَةِ ، وجمَع الخُطِيبُ خُطَبَاءً^(١).

الخطابة اصطلاحاً: مجموع قوانين تُعرِّف الدارس طرق التأثير بالكلام ، وحسن الإقناع بالخطاب^(٢).

ثانياً: أهمية وسيلة الخطابة

الخطابة إحدى وسائل الدعوة إلى الله عز وجل ، وهي من وسائل التربية والتأثير ، لذا استخدمها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم إلى توحيد الله عز وجل وطاعته ، وتحذيرهم من غضبه وعقابه ، لينتهوا عمّا هم عليه من ضلال وفساد عقدي، وخلقي ، واجتماعي.

ولقد اعتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الوسيلة ، فقد كان أفصح الناس وأبلغهم

وأخطبهم ، وخطبه عليه الصلاة والسلام محفوظة في كتب السيرة النبوية.

ومما يبين اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بوسيلة الخطابة ، وَضَعُهُ لمنبرٍ يخطب عليه يوم

الجمعة ؛ ليكون أكثر تأثيراً في المدعوين ، فعن جابر رضي الله عنه قال: (كان جذع يقوم إليه النبي

(١) لسان العرب - ١ / ٣٦١ - مادة "خطب"

(٢) الخطابة - محمد أبو زهرة - ٩

صلى الله عليه وسلم ، فلما وُضع له المنبر ، سمعنا للجدع مثل أصوات العِشار^(١) ، حتى نزل صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه^(٢) .

ولقد خوّف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافق العليم باللسان ؛ وما ذاك إلا بسبب شدة أثره السيئ في الناس ، لحسن إلقائه وتنميق عباراته وتليسه عليه . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي ، كل منافق عليم اللسان)^(٣) .

ولقد بلغت الخطابة زمن الخلفاء الراشدين المكانة المرموقة واللائقة بها ، فكان للخلفاء خطباء يخطبون الناس في الجمع والأعياد والمناسبات ، ويخطبون في الجيوش ، ويوجهون القادة . وما زالت الخطابة وسيلة ناجحة من الوسائل التي يلجأ إليها العلماء والدعاة والقادة في كل العصور ؛ لتحريك العقول ، وبعث الثقة في النفوس ؛ دفاعاً عن فكرة معينة أو دعوة إلى غاية محدّدة .

يقول د/ عبد الكريم زيدان: (والخطابة وسيلة جيدة للتبليغ ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي أو يعرف بعضهم فقط . ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معان معينة يريد بيانها ولقّت الأنظار إليها . ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له علاقة في أحوال الناس ، مع ربط ذلك بمعاني العقيدة الإسلامية)^(٤) .

ثالثاً: استخدامها في العصر الأيوبي

وفي العصر الأيوبي استهدفت هذه الوسيلة جماهير المسلمين ، وكانت الغاية منها تقويم الأخلاق والقيم والعقيدة وغيرها ، ولقد كان لهذه الوسيلة دور عظيم في تهذيب الجماهير الإسلامية^(٥) .

وأول خطبة كانت للدولة السنّية سنة ٥٦٧ هـ ، فقد استفتح صلاح الدين تلك السنة بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس ، وفي الجمعة الثانية خطبهم بالقاهرة ، وانقطع ذكر

(١) العشار من الإبل: هي التي أتى عليها عشرة أشهر - لسان العرب - مادة عشر- ١٤ / ٥٧٢

(٢) رواه البخاري في كتاب: الجمعة ، باب: الخطبة على المنبر ، ٣١١/١ ، برقم ٨٧٦

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢٨٩/١ ، ، برقم ١٤٣ ، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، ١٦٤/١ ، برقم ١٣٢

(٤) أصول الدعوة - ٤٧٤

(٥) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٥٩

خلفاء مصر من العبيديين^(١). وقد اشتهر عدد من الدعاة في الدولة الأيوبية بالخطابة ، واستخدموها في الدعوة إلى الله تعالى ، فصدحوا بكلمة الحق من فوق منابرهم ، ودعوا الجماهير إلى خيري الدنيا والآخرة ، وحذروهم مما يعود عليهم بالسوء والويل في الدارين.

ومن الدعاة الذين اشتهروا بالخطبة القاضي **محيي الدين بن زكي الشافعي** ، فقد روي أنه لما تسامع المسلمون بفتح بيت المقدس أتوه رجالاً وركباناً من كلِّ جهة لزيارته ، حتى كان من الجمع ما لا ينحصر ، فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان، وخطب القاضي ابن زكي خطبة بليغة بدأها بقوله: (فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا^٢ وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢)) ، والحمد لله مُعَزَّ الإسلام بنصره ، ومُذَلَّ الشرك بقهره ، ومُصَرَّفَ الأمور بأمره ، ومُستدرج الكفر بمكره) ، ثم راح يُهنئ الحاضرين: (بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس الذي من شأنه كذا وكذا، فذكر من فضائله ومآثره ، وأنه أولى القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ... وإليه المحشر والمنشر يوم التلاق ، وهو مقرّ الأنبياء ، ومقصد الأولياء...) ، ودعا للخليفة العباسي ، وللسلطان صلاح الدين صاحب الفتح ، وحمد الله كثيراً على هذا المنِّ العظيم ، كما أخذ يحث المسلمين على مواصلة الجهاد في سبيل الله^(٣).

ومن خطباء الدولة الأيوبية **الخطيب الدولي العالم المفتي خطيب دمشق** ، والذي سمع ببغداد من الكروخي كتاب "جامع الترمذي" ، وسمع من اليزيدي كتاب "سنن الترمذي" ، وتفقه ببغداد ، وولي خطابة دمشق دهرًا^(٤).

ومن الخطباء الذين أحيوا رسالة المنبر في هذا العصر **العز بن عبد السلام** ، وأنس رحمه الله من الجماهير الإصغاء ، وأزال ما لحق بالدين من الخطباء والأئمة من بدع ، كدقّ السيف على المنبر، ولبس السواد ، وسجع الخطب ، فلم يلبس السواد في الخطبة ، ولا سجع فيها ، واجتنب الثناء على الملوك ، ولكنه كان يدعو لهم إن كانوا صالحين^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٨٩

(٢) آية ٤٥ - سورة الأنعام

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٧٩ - ٣٨٣ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٥٩٠

السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٩٧

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٣٥٠

(٥) العز بن عبد السلام - ٨٦

ولقد كان خطباء الدولة الأيوبية يتخيرون موضوعات خطبهم تبعاً لأوضاع الأمة الإسلامية ، وما تمرّ به من أزمات ومشكلات ، وأكثرها من حثّ الناس على حماية محارم الإسلام، والجهاد ضدّ الصليبيين ؛ وذلك نظراً لظروف العالم الإسلامي العسكرية في ذلك الوقت، ومواجهتهم للصليبيين .
ومّا يؤكّد ذلك ما حدث في إحدى السنوات بعد ولاية الملك العادل ، فقد روي أنه نقص نهر النيل نقصاً كبيراً ، فنظت الناس ، وغلا السعر ، وبئس الفلاحون من الفلاح ، وقيل: إنّ هذا النقص لم يُعهد من عهد الصحابة ، فشرع الناس في الاستغفار والإنابة ، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية ، وكأما أصابتهم مصيبة ، ثم استسقوا الله ثلاثة أيام إلى العيد ، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد ، وضجّت بالأدعية والضراعات الألسنة^(١).

ولما سقط برج السلسلة في أيدي الصليبيين أصاب المسلمون حالة من الفوضى والاضطراب، مما ساعد على وقوع مدينة دمياط في أيدي الصليبيين عام ٦١٦ هـ ، فطلب السلطان الكامل من أخيه المعظّم صاحب دمشق التوجّه إلى الشام ليشغل الفرنج ، وليستجلب العساكر من المشرق ، فكتب الملك المعظّم إلى سبط ابن الجوزي الذي كان بدمشق يطلب منه حثّ الناس على الجهاد ، والخروج مع المقاتلين للقائه في نابلس ، وقد نفّذ السبط أوامر المعظّم ، فخطب في الناس ، وحثّهم على الجهاد ، وقرأ كتاب المعظّم عليهم ، فتجهّزوا للقتال ، وأثمرت جهودهم عن فتح قيسارية عُنوة ، وفتح الثغر ، ثم عادوا إلى دمشق منتصرين^(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٦٣

(٢) انظر: ذيل الروضتين - ١١٦ - ١١٧

المطلب الرابع: وسيلة الجهاد

يُعدّ الجهاد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته ، ونشر دينه وسيلة من وسائل الدعوة الرئيسة، وقد استخدمها الدعوة في العصر الأيوبي ، فجاهدوا أعداء الإسلام داخل الدولة وخارجها. وسأتحدّث في هذا المطلب عن وسيلة الجهاد من خلال النقاط التالية:

- ١ - تعريف الجهاد
- ٢ - أهداف الجهاد وغاياته
- ٣ - فتوحات الأيوبيين
- ٤ - أبرز مجاهدي العصر
- ٥ - الجهاد ضد الصليبيين
- ٦ - آداب الجهاد

أولاً: تعريف الجهاد

الجهاد لغة:

قال الراغب: " الجُهد والجُهد: الطاقة والمشقة ، وقيل: الجُهدُ بالفتح المشقة، والجُهد الوسع" (١).

الجهاد في الشرع:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والجهاد هو بذلُ الوُسْع -وهو القدرة- في حصول محبوب الحق" (٢)، وقال في موضع آخر: "وذلك أن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان" (٣).

وقد قصد الإسلام بتشريعهِ للجهاد إقامة دين الله في الأرض ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ولم يقصد أبداً الاعتداء على غير المسلمين ، وقتلهم كما يدّعي أعداء

(١) مفردات ألفاظ القرآن - ٢٠٨

(٢) فتاوى سلطان العلماء العز بن عبد السلام - تحقيق: مصطفى عاشور - ١٠ / ١٩٢

(٣) المصدر السابق - ٢ / ٣٨٥

الإسلام ، وقد بيّن الله ذلك في كتابه العزيز ، فقال جلّ وعزّ: (وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ اٰنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) (١).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: "ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله ، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم ، ولكن المقصود به أن يكون الدين لله تعالى ، فيظهر دين الله على سائر الأديان ، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره ، وهو المراد بالفتنة ، فإذا حصل المقصود فلا قتل ولا قتال" (٢).

وبناءً على ذلك فالغاية الأساسية من الجهاد هي إقامة المجتمع الإسلامي ، وإقامة الدولة الإسلامية المبنية على الكتاب والسنة.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بالجهاد فقال: (يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَاَبْسَ الْمَصِيرُ) (٣).

يقول الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: "الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجهاد أمر لأمرته من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا ، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجّة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله" (٤).

وقال تعالى مؤكداً هذا الأمر: (فَلَا تُطِعِ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (٥).

ولم يكن الأمر بالجهاد مقتصرًا على النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أمر سبحانه المؤمنين أيضاً بالجهاد فقال تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) (٦)، ووعد سبحانه المجاهدين بالرحمة

(١) آية ١٩٣ - سورة البقرة

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المّان - ٨٩

(٣) آية ٧٣ - سورة التوبة

(٤) فتح القدير - ٣٨٢ / ٢

(٥) آية ٥٢ - سورة الفرقان

(٦) آية ٧٨ - سورة الحج

فقال جل وعز: (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)^(١).

والجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ، ففي الحديث النبوي الشريف: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد)^(٢).
والمجاهدون في سبيل الله هم خير خلق الله وأفضل عباده ، قوم دعاهم الله لإعلاء كلمته فاستجابوا ، وأمرهم بالدعوة إليه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فسارعوا للقيام بذلك ، وانبروا لتعليم الناس تعاليم دينهم ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم ، فلما وقف الأعداء في طريقهم، ومنعهم من أداء مهمتهم ، تحوّلوا معهم إلى الجهاد بالسيف ؛ لصدّ الطغاة وقتالهم ، إلى أن يستجيبوا لهم ، ويدخلوا في الدين الإسلامي الحنيف . إنهم قوم باعوا أنفسهم لله ، ورغبوا في لقائه ؛ لينالوا الأجر والثوبة عند الله في الآخرة . لقد بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل هذا الدين ؛ لإيصاله للناس ، ولينالوا بذلك رضوان الله في الدنيا والآخرة.

ثانياً: أهداف الجهاد وغاياته

١ - نشر الدين الإسلامي ، وإعلاء كلمة الله ، وذلك بدعوة الناس إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، قال تعالى: (وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۗ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)^(٣) ، وعلى هذا فالهدف الأساس من الجهاد: نشر الدين الإسلامي، فإن تحقّق الهدف بالسلم والأمان ، فلا حاجة إلى القتال والجهاد حينها ، قال الشوكاني: (فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هي ألا تكون فتنة ، وأن يكون الدين لله ، وهو الدخول في الإسلام ، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له ، فمن دخل في الإسلام ، وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله)^(٤).

(١) آية ٢١٨ - سورة البقرة

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ٣٤٤/٣٦ ، برقم ٢٢٠١٦ ، قال الشيخ شعيب في تحقيقه للمسند: "صحيح بطرقه وشواهده" .

(٣) آية ١٩٣ - سورة البقرة

(٤) فتح القدير - ١ / ١٩١

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله)^(١).

٢- نصرّة المظلومين والوقوف بجانبهم ضد أعدائهم ، وتوفير الأمن والسلام لهم ، قال تعالى: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا)^(٢).

قال الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية: (هذا حث من الله لعباده المؤمنين ، وتهييج لهم على القتال في سبيله ، وأن ذلك قد تعين عليهم ، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه ، فقال: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ، فالله تعالى يقول: جهادكم صار على هذا الوجه من باب القتال والذب عن عيالتكم وأولادكم ومحارمكم ، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار . ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم ، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجراً وأكبر فائدة ، بحيث يكون من باب دفع الأعداء)^(٣).

٣- الذب عن حيّاض الدولة الإسلامية والدفاع عنها ، وذلك برّد المعتدين وقتالهم ، قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)^(٤).

٤- تخويف الكفار وإرهابهم وإغابتهم وإذلالهم ، وذلك بالاستعداد للجهاد ، وتقوية الأمة الإسلامية ، قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)^(٥)، وعن أم مالك البهزية رضي الله عنها قالت: (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة ، فقلت: يا رسول الله من

(١) رواه البخاري في كتاب: الإيمان ، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ١٧/١ ، برقم ٢٥

(٢) آية ٧٥- سورة النساء

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المئان - ١٨٧

(٤) آية ١٩٠- البقرة

(٥) آية ٦٠ - سورة الأنفال

خير الناس فيها؟ قال: (رجل في ماشيته يؤدي حقها ويعبد ربه ، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخوفونه)^(١).

٥- القضاء على الكفار بعد عرض الدعوة عليهم وإبائهم الدخول في دين الله تعالى الذي ارتضاه لهم، قال تعالى: (وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)^(٢).

٦- تربية المؤمنين على الصبر والجلد والثبات وبذل النفس ابتغاء لمرضاة الله ، وفي سبيل نشر الشريعة الإسلامية وتبليغها للناس كافة.

ثالثاً: فتوحات الأيوبيين

الإسلام رسالة عالمية ، جاءت بالخير للبشرية كافة ، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٣)، فمن هذا المنطلق وجب على كل مسلم بذل جهده ووسعه في الدعوة إلى الإسلام ، لينتشر هذا الدين في الأرض ، وليعم الخير للناس أجمع . وقد وضع الدعاة الأيوبيون هذا الهدف نُصب أعينهم ، فحرصوا على تبليغ رسالة الإسلام ، وبذلوا جهوداً واسعةً في نشرها ، وإيصالها لمن يجهلها. ومن أبرز تلك الجهود: الفتوحات الإسلامية التي قاموا بها لعددٍ من البلاد ، والتي كان هدفهم الأساس من فتحها هو تبليغ الدعوة لأهل تلك البلاد ، أو القضاء على منكرات شرعية ظهرت عندهم ، بالإضافة إلى أهداف أخرى لتقوية الجبهة الإسلامية ، كتوسيع الدولة ، وتوفير الحماية لها من أعدائها المجاورين.

وكان عهد صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية من أزهر عهود الدولة الأيوبية في الفتوحات الإسلامية ، فقد افتتح رحمه الله ما لم يفتتحه مَلِكٌ ، وطار صيته في الدنيا ، وهابته الملوك^(٤).

(١) رواه أحمد في مسنده ، ٣٤٢/٤٥ ، برقم ٢٧٣٥٣ ، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، ٣١١/٢ ، برقم ٦٩٨ ، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "صحيح لغيره".

(٢) جزء من آية ٣٦ - سورة التوبة

(٣) آية ٢٨ - سورة سبأ

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٥

بداية الفتوحات:

وقد كان استيلاء الأيوبيين على مصر هو بداية فتوحاتهم ، فبعد استفتاء الفقهاء ، استولى صلاح الدين على القصر العبيدي ، وأرسل البشري للخليفة العباسي المستضيء بالله ، وبهذا تمّ القضاء على النفوذ الشيعي في مصر^(١) ، وبعد ذلك شرع الأيوبيون في تكوين دولة الوحدة من شمال العراق إلى الشام ومصر ، وكان تحركهم العسكري يتمّ ضمن هذا الهدف^(٢).

الفتوحات الشامية:

ومما يؤكّد سموّ هدف الأيوبيين في فتوحاتهم ، وأنّ غرضهم الأساس منها هو نشر الإسلام والقضاء على من يخالفه ، أنّ قائدهم صلاح الدين لما قضى على العبيديين في مصر بأمر من نور الدين زنكي ، أثبت إخلاصه للبيت النوري ، وأراد أن يُحافظ على الجبهة الإسلامية المتحدة التي أقامها نور الدين ، ولكنّ اصطراع أمراء دمشق بعد وفاة نور الدين ، ومكاتبتهم له جعلت الأيوبيين بقيادة صلاح الدين يزحفون على مدن الشام ، وسقطت لهم واحدةً واحدةً^(٣).

ففي سنة ٥٦٩هـ اضطرت البلاد الشامية بوفاة نور الدين ، ودُعي الأيوبيون بقيادة صلاح الدين لضبطها ، ودخل إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر ، فاستقبله أهلها بحفاوة ، ومَلِكها الأيوبيون من غير مُدافع ، وأنفق صلاح الدين في الناس مالاً جزيلاً ، وأمر فنودي بإطابة النفوس ، وإزالة المكوس ، وإبطال ما أُحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب ، وأظهر أنه إنما جاء لتربية الصالح بن نور الدين - وكان صغيراً - وأنه ينوب عنه ، ويُدبّر دولته ، وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع ، وبعث بالبشارة إلى القاهرة ، وكاتب الأطراف بذلك^(٤).

إنّ تعبير الدمشقيين عن فرحهم ، وإجابة صلاح الدين لهم يُعبّر عن مدى حاجة الأمة إلى قيادة مخلصه تتحمّل قيادة الجماهير ، وتتخلّص من قيادة ضعيفة ، فكان صلاح الدين يسعى

(١) انظر: الحروب الصليبية - ١٢٦

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٨٧

(٣) الحروب الصليبية - ١٤٤

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٥٨ ، الأعلام - ٨ / ٢٢٠

لتحقيق الوحدة للمدن الإسلامية ، تشمل الشام ومصر والجزيرة ؛ للاستفادة من إمكاناتها ضدّ الصليبيين ، وتحرير القدس^(١).

وكانت دمشق أول مدينة تسقط بيده من أملاك الدولة النورية في الشام ، وبعد أن انتهى من دمشق انصرف إلى ما وراءها ، فتوجّه إلى حمص ، واستولى عليها وعلى حماة وبعليك^(٢).

فتح حلب:

بعد وفاة نور الدين تولى ابنه الملك الصالح اسماعيل الحكم في حلب ، وكان وجوده على رأس السلطة اسماً فقط ؛ لأنه كان صغيراً لا يفقه تدبير شؤون الحكم ، فتمكّن أعوانه من التلاعب بأموار الدولة .

وكان كمشتكين هو الوصيّ على الملك الصالح ، والمتفرّد بحكم مدينة حلب ، فبدأ سياسة خاصة ، وخطّط فيها بإبعاد صلاح الدين عن حلب بكل الوسائل ، وأرسل إليه رسالة يتّهمه فيها بحبه للغزو ، والسيطرة على أملاك سيده نور الدين محمود وابنه الملك الصالح^(٣)، وكان صلاح الدين يعلم نيات كمشتكين وغاياته ، فكان يرسل الملك لتوضيح الأمر له ، وإبداء النصح ، منعاً لتردي العلاقات بينهما^(٤).

ويبدو أن الملك الصالح لم يكن راضياً عن تصرفات أمرائه ، إلا أنه كان ضعيفاً لا يستطيع إبعادهم من حوله ، كما أنه كان سريع التأثر بهم نظراً لصغر سنه^(٥).

توجّه صلاح الدين إلى حلب سنة ٥٧٠ هـ ؛ وكان مُصِراً على ضمّها إلى أملاكه بغرض توحيد القوى الإسلامية ، وإمداد الثغور مع الصليبيين بالعساكر والمؤن^(٦)، ولكن كمشتكين أغلق حلب في وجهه ، فشرع في حصارها ، وكان أهلها يميلون إلى الإذعان لصلاح الدين باستثناء الشيعة. وناشد الملك الصالح الشيعة أن يؤازروه ، فاشترطوا لذلك:

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٨٣

(٢) المصدر السابق - ٨٤ ، الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٣) مرآة الزمان - ٨ / ٣٢٧

(٤) المصدر السابق - ٨ / ٣٢٧

(٥) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام - ٥٧

(٦) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ١١٤ - ١٢٣

- أن يخصّص الجانب الشرقي من الجامع لهم .

- يُعاد الأذان بـ (حي على خير العمل) .

- يُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز .

- يكبّر على الجنازة خمساً .

- تكون عقود نكاحهم إلى أبي طاهر الحسيني .

ووافق الصالح إسماعيل على طلبهم بتأثير من كمشتكين^(١). ثم إن كمشتكين وقع في خطأ فادح آخر، فقد لجأ إلى الاستعانة بالحشيشية والصلبيين ؛ لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب ، وقد استجاب زعيم الحشيشية سنان ، وبعث بجماعة من الفدائيين لقتل صلاح الدين متكرين بزي الأجناد ، وتمكّن بعضهم من التسلّل إلى خيمته ، وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم ، لكنّ أمرهم انكشف ، ونجا صلاح الدين من محاولة الاغتيال^(٢).

واستمر كمشتكين في ارتكاب المزيد من الأخطاء في سبيل حماية حلب من الأيوبيين ، فأرسل إلى ريموند الثالث أمير طرابلس ، والوصيّ على عرش مملكة بيت المقدس يطلب منه العون، فسارع ريموند بمدّ يد العون لكمشتكين ؛ وذلك لإدراكه أنّ بقاء حلب في يدّ البيت الزنكي هو الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتدّ من النيل إلى الفرات ، وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن^(٣).

واستمرت محاولات الأيوبيين في فتح حلب ، وضمتّها للدولة الأيوبية ، كما استمر دفاع الزنكيين عنها ، والاستعانة بأطراف خارجية لمساعدتهم في ذلك ، وخلال ذلك وقعت عدد من المعارك والمعاهدات ، انتهت بدخول الأيوبيين إلى حلب سنة ٥٧٩ هـ ، وضمتّها إلى الدولة الأيوبية ، مما ترتّب عليه تقوية الجبهة الإسلامية وتماسكها ، والتفرغ بعدها لقتال الصليبيين^(٤).

ونظراً لأهمية مدينة حلب اختار صلاح الدين ولده الملك الظاهر وعيّنه عليها ؛ وذلك لما يتمتع به من صفات تؤهّله للاهتمام بمسؤولياتها وحمايتها ، ويبيّن له أن حلب هي أصل الملك ، وجرثومته ، وقاعدته ، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب ، ولما حصلت أعرس عمّا عداها من بلاد

(١) البداية والنهاية - ١٦ / ٥٠٢

(٢) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام - ٥٨

(٣) المصدر السابق - ٥٨

(٤) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام - ٥٩ - ٧٥

المشرق ، وقنع منهم بالطاعة ، والمعونة على الجهاد ، ولقد سلمها إليه ؛ لعلمه منه بحذاقته ، وحزمه ، وثباته ، وعلو همته^(١) .

فتح خِلاط:

في سنة ٥٨١ هـ وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خِلاط ، ولم يُخْلَف ولداً ولا ذا قرابة يكون خلفاً له ، ووردت كتب من أهلها إلى السلطان يخطبونه لها ، وهم خائفون من العجم أن يتولَّوها ، فوجَّه السلطان إليها جيشه ، وحاصرها ، واستطاع فتحها ، وفتح مَيَّافارقين ، وضمَّهما إلى أملاكه^(٢) .

معركة حطين ثم فتح بيت المقدس:

في سنة ٥٨٣ هـ سار المسلمون بقيادة صلاح الدين إلى (كرك) ، ونزلوا فيها منتظرين اجتماع العساكر المصرية والشامية . ولمَّا اجتمع العسكر انطلقوا قاصدين بلاد العدو في وسط نهار يوم الجمعة ، تبرَّكاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فرمما كانت أقرب للإجابة . سار الجيش الإسلامي ، ونزلوا على بحيرة طبرية ، وهاجموها ، وأخذوها في ساعة من نهار ، وامتدَّت الأيدي إليها بالنهب والأسر ، والحريق والقتل . فلما سمع الفرنج بذلك قصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء المسلمين بحركة الفرنج ، فتركوا على طبرية مَنْ يحفظ قلعتها ، وبادروا بلقاء الجيش الإفرنجي قبل وصوله إلى طبرية ، فالتقى الجيشان على سطح جبل طبرية ، وتصادما إلى الليل ، وقد توقف القتال بسبب الظلام .

وفي اليوم التالي جرت وقائع عظيمة ، وأمور جسيمة لم تُحَكَّ عمَّن تقدَّم ، واستطاع الجيش الإسلامي الانتصار على الإفرنج بعد قتال شديد ، وكثُر القتل والأسر في العدو ، ويُعلَّق عماد الدين الكاتب على ذلك فيقول: (فَمَنْ شاهد القتلى ذلك اليوم قال: ما هناك أسير ، وَمَنْ عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل) ، وقد وقع في الأسر مُقَدَّمو الإفرنج ، وقُتِل الباقون وأُسروا . وكان ممن وقع في

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٦٠

(٢) انظر: تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر - ٢ / ١٣٩ ، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٣١ - ٢٣٤

الأسر (أرناط) الذي غدر بالمسلمين ، وقتلهم ، واستخفّ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقام صلاح الدين بقتله بيده بعد أن عرض عليه الإسلام وأبى ، وذلك انتقاماً منه . ولقد بات الناس تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ، شاكرين الله تعالى على ما أنعم به من النصر^(١).

تتابعت فتوحات الأيوبيين للبلاد الشامية بعد معركة حطين ، ففتحوا عكا ونابلس وتبنين وصيدا وبيروت ثم عسقلان وغزة والداروم . وبعد ذلك شمر المسلمون عن ساق الجدّ والاجتهاد في قصد بيت المقدس ، فساروا نحوه معتمدين على الله ، مُفَوِّضِينَ أمرهم إلى الله ، فلما وصلوا نزلوا في الجانب الشمالي منه ، وبدؤوا بنصب المنجنيقات ، والمضايقة بالزحف والقتال وكثرة الرُمّة ، فلما رأى أعداء الله ما نزل بهم استكانوا ، وأخلدوا إلى طلب الأمان ، واستعطفوه ، ولكن صلاح الدين لم يجبههم ولم يعطف عليهم ، وأبى أخذها إلا بالقتال قائلاً مقولته الشهيرة: "لا أمن لكم ولا أمان ، وما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة ، فإنّهم استباحوا القتل ، فأنا أفني رجالهم قتلاً ، وأحوي نساءهم سبياً" ، فلما أيس رسول الفرنج منه قال له: "أيها السلطان اعلم أنّ في هذه المدينة خلقاً كثيراً لا يعلمه إلا الله ، وإنما يفترّون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيئهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منّا ديناراً واحداً ، ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة ، فإذا فرغنا من ذلك خرّينا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين ، وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم نخرج إليكم ، فنقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه".

فاستشار صلاح الدين أصحابه ، فأجمعوا على إيجابتهم إلى الأمان ؛ فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج ، فتسلّمه المسلمون يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم بحيث أنه لم يتخلّف معروف عن الحضور ، وارتفعت الأصوات بالصّحيج والتهليل والتكبير والدعاء ، وخطب فيه ، وصُلّيّت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحطّ الصليب. وكان قاعدة الصُّلح أنّهم قطعوا على أنفسهم عن كلّ رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٧٥ - ٢٩٧ ، الفتح القسي في الفتح القدسي -

٧٦-٨٧ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ١٩٣

خمسة دنانير ، وعن كل صغير ديناراً واحداً ، فمن دفع سَلِمَ بنفسه وإلا أخذ أسيراً، وفرّج الله عمّن كان فيه من أسرى المسلمين ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف أسير^(١).

فتح اليمن:

وفي أثناء فتوحات الأيوبيين لبلاد الشام ظهر باليمن دعويّ اسمه عبد النبي بن مهدي ، زاعماً أنه المهدي المنتظر ، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين ، وتسمّى بالإمام ، وبنى على قبر أبيه قبة عظيمة ، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ، ومنعهم من الحج إلى مكة ؛ لذا وجّه صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه في سنة ٥٦٩ هـ إلى اليمن فوصل إلى زيد ، وملكها ، وقتل عبد النبي بن مهدي ، وهدم القبة التي أقامها على قبر أبيه ، وأقام الخطبة العباسية ، كما ضمّ بعض بلاد اليمن إليه كصنعاء وعدن وتعز^(٢) ، وبعد عامين رجع إلى دمشق ، واستتاب عنه ، ثم ذهب سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي إلى اليمن سنة خمس مئة وتسع وسبعين ، فتملك اليمن كله ، وحارب الزيدية^(٣).

فتح بلاد النوبة:

النوبة مملكة نصرانية ، تقع في أعالي النيل ، وتربطها بمصر روابط متينة ، وتدين بالطاعة لسلطان مصر ، وتؤدّي له الجزية السنوية. ولما قامت الدولة الأيوبية امتنع أهل النوبة عن دفع الجزية ، وأغاروا على أسوان ، فأراد الأيوبيون فتح بلاد النوبة لحماية مصر من الناحية الجنوبية ، ولتأمين طريق قوافل الحجاج والتجارة، والتي صارت تتجه جنوباً عن طريق النيل إلى قوص ، ومنها إلى عيذاب وجدّة على البحر الأحمر ، متجنّبة طريق السويس والعقبة في سيناء ، الذي أضحيّ مخفوفاً بالمخاطر ؛ نظراً للوجود الصليبي على سواحل بلاد الشام.

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣/٣٣٠-٣٥٣ ، وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي -

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٤٦ ، انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام - ٤٨

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٣٣٣

ذهب توران شاه عام ٥٦٨ هـ إلى بلاد النوبة ، ففتح إبريم ، وسبى وغنم ، ثم عاد إلى قوص ، ودخل الإسلام إلى أماكن لم يطرقها المسلمون من قبل ، وعين إبراهيم الكردي والياً عليها^(١).

القضاء على الدولة الخوارزمية:

ومن الطوائف التي أعلن الأيوبيون الحرب عليها: الخوارزمية، فقد كثُر أذاهم واشتد فسادهم ، حتى إنهم ارتكبوا من الفواحش أكثر مما ارتكبه التتر ، فأرسل إليهم صلاح الدين عسكرياً عليه ابنه المعظم فانهزموا^(٢).

وهم من أتباع الدولة الخوارزمية التي قامت في إقليم خوارزم فيما وراء النهر (٤٩٥ - ٦٤٤ هـ) وكان ملوكها مسلمين إلا أنهم غلب عليهم الرغبة في التوسّع والبطش ، وقد عاصر السلطان خوارزم شاه علاء الدين الدولة الأيوبية ، وانشغلوا في حرب المغول ، ثم عُنوا بتوسيع رقعة حكمهم على حساب ملك بني أيوب ، وحاولوا انتزاع مملكة خلائط من الأيوبيين ، ونجحوا في ذلك سنة ٦٢٧ هـ ، وكانوا شرسين في حركتهم ، يعيشون في الأرض فساداً .

وقد ظلّت الحروب بين الخوارزمية والأيوبيين سجّالاً ، فكانوا أحياناً أعداءً ، كما كانوا أحياناً حلفاء مناصرين ضدّ أعداء الدولة الأيوبية من الصليبيين وغيرهم.

ولكنهم تمادوا في السلب والنهب والإغارة على بلاد الأيوبيين كحلب ودمشق، ثم بدأ مركزهم يضعف حتى انتهوا تماماً بعد انكسارهم في معركة بحيرة حمص سنة ٦٤٤ هـ^(٣).

وبهذا يتّضح أن مُلك الدولة الأيوبية في أزهر عهودها - وهو عهد صلاح الدين - كان من مصر إلى الفرات ، ومن مصر إلى المغرب ، بالإضافة إلى الحجاز واليمن^(٤).

وتأكيداً للهدف الدعوي الذي يسعى لأجله الأيوبيون ، كتب صلاح الدين إلى بغداد يُعدّد فتوحاته وجهاده ضد الفرنج ، وإعادته الخطبة العباسية بمصر ، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف

(١) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام - ٤٩

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٢٨٩

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٤١١

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٤٩

المغرب ، وعلى بلاد اليمن كلها^(١) ، ولو كان هدفهم الثروة ، وامتلاك البلاد لما اهتموا بالكتابة للدولة العباسية ، ولاحتفظوا بذلك لأنفسهم.

أفكار جديدة لتحقيق مقاصد الجهاد:

ابتكر الأيوبيون عدداً من الأفكار في جهادهم ضد الصليبيين ؛ وذلك لتحقيق مقاصد الجهاد وغايته والوصول إلى أفضل النتائج.

من ذلك أنه كان رجل من المسلمين بعكا يُعرف بعلي بن عريف النحاسين ، وكان مولعاً بجمع آلات وعقاقير الزّواقين ، واخترع شيئاً يزيد في النار الموقدة على الفرنج المحاصرين ، فقام بتصويب المنجنيق للأبراج ، فأحرقها جميعاً ، فتمّ للمسلمين النصر ، وكان يوماً مشهوداً لم يُر مثله ، والمسلمون ينظرون ويفرحون ، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر ، وخلاص المسلمين من القتل ؛ لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله في البلد إما نسيب وإما صديق . وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين ، فبذل له الأموال الجزيلة ، والإقطاع الكثير ، فلم يقبل منه ، وقال: "إنما عملته لله تعالى، ولا أريد الجزاء إلا منه"^(٢).

ومن ذلك أيضاً فكرة العوامين ، فقد روي أنه في الغزوات البحرية كان السلطان يندب العوام للعبادة ، فصاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم ، ويُخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم ، ويحملون كتباً وطيوراً ، ويعودون بكتب وطيور، ولقد غرق عوامون ، فما ارتدع الباقون ، ومنهم من سلم مراراً من القوم ، فاجترأ ، وأنس بالعوام^(٣) .

ومن جملة المعارك التي استُخدم فيها العوامون معركة عكا ، فقد روي أنه نتيجة لبعض التطورات قُطع الاتصال بين مدينة عكا والمعسكر الأيوبي من البرّ والبحر إلا من سابح مغامر يحمل كتاباً أو رسالة شفوية^(٤). وقد وصل من البلد عوام في صبيحة أحد الأيام ، ومعه كتب تذكر أنه قد

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٦٠

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤/١٢٥-١٢٦، الكامل في التاريخ - ٤٧/١٢

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١١٨-١١٩

(٤) صلاح الدين-القائد وعصره - ٤٠٢

طمّ العدوّ بعض الخندق ، وقد قوي عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته ، فجدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول^(١).

ومن النوادر التي جرت في القتال على عكا: أن عواماً مسلماً كان يُقال له: عيسى ، كان يدخل البلد (عكا) بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غزّة من العدو ، وكان يغوص ، ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو. وكان ذات ليلة قد شدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ، وكُتِبَ للعسكر ، وعام في البحر ، فجرى عليه أمرٌ أهلكه ، وأبطأ خبره عن المسلمين، فلما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً، فافتقدوه ، فوجده عيسى العوّام ، ووجدوا على وسطه الذهب ، ومشّمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رُئي من أذى الأمانة في حال حياته ، وقدّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل. قال العماد: "لَمَّا لم يظهر لعيسى أثر ظُنُّت به الظنون ، وكانت له لا شكّ عند الله منزلة ، فلم يُرد أن تبقى حاله ، وهي محتملة ، فوجد في عكا ميّتاً ، وقد رماه البحر إلى الساحل ، وبرّاه الله مما قالوا^(٢).

ومن الأمور التي استُخدمت لتحقيق مقاصد الجهاد وغاياته الحمام ، فقد روي أنه كان في العسكر من اتخذ حماماً يطوف على خيمته ، وينزل في منزلته ، وعَمِل لها برجاً من خشب ، ويُدرّجها على الطيران من البعد ، يقول العماد: "كنا نقول: ما لهذا الولع بما لا ينفع! حتى إذا جاءت نوبة عكا ، نفعت وأت بالكتب سارحة شارحة ، وكنا نطلب منه مع الليل والنهار ، حتى قلّ وجودها عنده ؛ لكثرة الإرسال^(٣)، وكان بعضهم يكتب على أجنحتها بالترجمة المصطلح عليها^(٤).

ويؤكّد أبو شامة استخدام الأيوبيين لهذه الطرق الجديدة فيقول: "لقد كانت الكتب متواصلة بين المسلمين في عكا والسلطان وهو خارجها على أجنحة الطيور وأيدي السُّبّاح ، والمراكب اللطاف تخرج ليلاً ، وتدخل سرقةً من العدو"^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٢١

(٢) المصدر السابق - ٤ / ١٦٠-١٦١

(٣) المصدر السابق - ٤ / ١١٩

(٤) المصدر السابق - ٤ / ١١٨-١١٩

(٥) المصدر السابق - ٤ / ١٤٩

رابعاً: أبرز مجاهدي العصر

اشتهر عدد من الملوك والعلماء بالاهتمام بوسيلة الجهاد ، ومسارعتهم لتلبية نداء الحق والجهاد في سبيل الله تعالى . ومن أشهر الملوك والأمراء المجاهدين:

١- صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية ، وكتب التاريخ تحفل بفتوحاته وجهاده ضد أعداء الإسلام ، وحرصه الشديد على الجهاد ، يقول عنه الذهبي: (محاسنه جمّة ، لاسيما الجهاد ، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل المئتمنة لجنده ، وله عقل جيّد وفهم وحزم وعزم)^(١) ، ويصف صاحب "النوادر السلطانية" حبّ صلاح الدين للجهاد بوصفٍ شافٍ وافٍ ، فيقول: (كان رحمه الله من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيتّه يعطي دستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقى في شِردمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير^(٢)) ، ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الأفراد لصدق وبرّ في يمينه ، ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آتته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثّ عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهبّ بها الرياح ميمنة وميسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي في فضله ، وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل^(٣).

وكان صلاح الدين رحمه الله في غزواته أول راكب ، فكان يركب وينادي مناديه: يا للإسلام^(٤) ، وفي الحرب يباشر القتال بنفسه^(١) ، ويمرّ في الصفوف وليس معه إلا صبيّ واحد ، ويخرق

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٧

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٩

(٣) المصدر السابق - ٤

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٤٢ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٢٩

ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتّب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره^(٢).

٢-الملك العادل: خدم أخاه صلاح الدين ، وكان كثير الجهاد ، حضر مع أخيه مواقفه كلها أو أكثرها في مقاتلة الفرنج ، ومن جهوده في هذا المجال حفظ البلاد بعد وفاة أخيه واضطرابها وطمع الإفرنج فيها ، فقد زحف على مملكة أخيه ، وقضى على تناحر أبنائه ، محافظاً بذلك على وحدة البلاد ، وقوتها ، وتماسكها في مواجهة النصارى المتربّصين بها^(٣).

٣-الملك المعظم عيسى بن العادل: روي أنه كان في أيام الفتح يُرتّب النيران على الجبال من نابلس إلى عكا^(٤)، وكان يقول: (واقعة دمياط ادّخرها عند الله تعالى، وأرجو أن يرحمني بها)، يعني: أنه أبلى بها بلاءً حسناً رحمه الله تعالى ، وقد جُمع له بين الشجاعة والبراعة والعلم ومحبة أهله^(٥).

٤-الملك الظاهر صاحب حلب: من المجاهدين البارزين ، فقد روي أنه شهد معظم غزوات والده^(٦).

٥-الملك المظفر صاحب حماه ابن أخي صلاح الدين: أول ما تكاملت لحيته أمره أبوه بالحملة على الفرنج ، فحمل وقاتل ، فقتل شهيداً في وقعة الرملة سنة ٥٧٣هـ^(٧)، كان شجاعاً مقداماً ، منصوراً في الحروب ، مؤيداً في الوقائع ، ومواقفه مشهورة مع الفرنج^(٨).

٦-الملك الكامل: كافح الفرنج براً وبجراً ، ولم يزل حتى أعزّ الله الإسلام ، ونخل الكفر ، وله المواقف المشهورة في الجهاد بدمياط المدة الطويلة^(٩).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٩٦

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٩ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٣

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء - ٢١ / ١١٥-١١٧

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٨٠

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٨٠

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٨ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٥٢

(٧) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٣٧

(٨) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٥٦

(٩) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٧ - ١٢٩

٧- شمس الدين توران شاه أخو صلاح الدين: روي أنه أغار على الأعراب في الصعيد ، وكانوا قد أفسدوا في البلاد ، ومدّوا أيديهم ، فكفّوا عما كانوا يفعلونه^(١).

٨- طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين ، من المجاهدين البارزين ، سيّره صلاح الدين إلى اليمن سنة ٥٧٨ هـ ، ثم سيّر سيف الإسلام إليها ، وصفت له من زييد إلى حضرموت ، وتمّ له قمع الخوارج^(٢).

أما العلماء فقد اشتهر عددٌ منهم بجهادهم ، وبذلهم أنفسهم في سبيل الله ، ومن هؤلاء:

١- عبد الله بن عثمان اليونيني: كان شجاعاً ، كثير الغزو ، ما فاتته غزاة في الشام ، وكان يحمل القوس والسلاح ، ولا ينقطع عن غزوة ، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلاً ، وكان يتمنى الشهادة ، ويُلقي نفسه في المهالك ، ولا يُيالي بالرجال ، قُلّوا أو كثروا^(٣).

٢- أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ ، كان في شببته شهماً شجاعاً فاتكاً ، قتل الأسد مواجهة وحده^(٤).

٣- حسام الدين لؤلؤ: من المجاهدين البارزين في الدولة الأيوبية ، ولقد حكى العماد الأصفهاني عن جهاده ، فقال: (وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكأته ، وشكّرت في العدو نكاياته، وقد تفرّد بغزواتٍ لم يُشاركه فيها أحد ، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز ، ووقف لهم على طرق الحجاز ، ولم يترك منهم عيناً تطرف ، ولم يُيق لهم دليلاً يُعرف ، وغزواته مشهورة ، وفتكاته مذكورة ، وأمواله مبدولة ، وأكياسه لعقد الإنفاق في سبيل الله محلولة)^(٥).

٤- العز بن عبد السلام ، اشتهر بجهاده ضد الفرنج ، وله كراماتٌ ساعد بها الجيش الإسلامي ، ومن مواقفه المشهورة أنه كان مرة في عسكر المسلمين الذين يقاتلون الفرنجة ، وكانت النصره أولاً للفرنج ، وقويت الريح على المسلمين ، فقال الشيخ بأعلى صوته مشيراً إلى الريح: (يا ريح خُذِيهم) عدّة مرات ، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتّها^(٦).

(١) الكامل في التاريخ - ١١ / ٣٦٦

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٩٨

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٠١ ، تاريخ الإسلام - ٣٣٨ ، وفيات (٦٣١ - ٦٤٠ هـ) ، البداية والنهاية - ١٧ / ١٠٣

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٨٥

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٠٣

(٦) حسن المحاضرة - ٣٥

٥- محمد بن أبي القاسم بدر الدين عيسى الهكاري ، كان في مقدّمة المتطوّعين المشاركين في الجهاد ، وحمل السلاح ، وكان يلبس زيّ الأجناد ، ويعتمّ بعمائم الفقهاء ، فيجمع بين اللباسين^(١) ، ولما خرج الأيوبيون لمحاربة الصليبيين في عسقلان ، كان الفقيه عيسى من المحاربين والمشاركين في الجهاد معه ، ويذكر ابن الأثير أن الفقيه عيسى كان من أشدّ الناس قتالاً ذلك اليوم ، وكان قد جمع بين العلم والشجاعة ، وقد أُسر هو وأخوه ظهير الدين ، وبقوا في الأسر سنين ، حتى افتداه صلاح الدين بستين ألف دينار^(٢) ، وكان يقول أثناء المعركة: (ما أحسنّ وقع سيوف الكفّار على وجهي وأنفي) ، وقد مات شهيداً^(٣) . روي أنه لما استشهد أخوه ظهير الدين في حصار عكا ، كان يضحك والناس يُعزّونه ، وهو يُنكر عليهم ويقول: (هذا يوم الهناء لا يوم العزاء) ، وكان قد وقع من على فرسه رحمه الله^(٤) .

٦- ابن عساكر: دعا المسلمين إلى الجهاد أثناء الغزو الصليبي ، وألّف كتاباً عن الجهاد في اثني عشر جزءاً ، وبيّن فيه الخطر الصليبي^(٥) .

٧- أحمد بن عمر جمال الدين المقدسي الحنبلي ، اشترك في غزوات الفرنج، وقتل واحداً منهم، فهابه الأجناد^(٦) .

ومن أشهر المعارك التي اشترك فيها عدد كبير من الفقهاء والعلماء معركة عكا، مما جعل المؤرخين يطلقون عليها "المصاف الأعظم" أو "الوقعة الكبرى" ، فكان الفقيه عيسى الهكاري يتولى مقدّمة القلب في الجيش ، كما كان القاضي بهاء الدين بن شداد ، والفقيه العماد الأصفهاني مشاركين أيضاً في هذه المعركة ، وقاما بوصفها وصفاً دقيقاً ، كشاهدي عيان ، ولقد كان النصر حليف المسلمين في نهاية المعركة ، وتكبّد الصليبيون خسائر فادحة في الأرواح . وقد استشهد في

(١) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٩٨

(٢) الكامل في التاريخ - ١١ / ٤٤٧

(٣) تاريخ الإسلام - ٢٢٠ وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ)

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٩٠

(٥) الحافظ ابن عساكر - د/ محمد مطيع الحافظ - ٣٥٩

(٦) تاريخ الإسلام - ١٣٩ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ)

هذه المعركة الفقيه ظهير الدين أخو الفقيه عيسى الهكاري ، وكان والياً على بيت المقدس ، وقد جمع بين الشجاعة والعلم والدين^(١).

وقد مضى المسلمون في عهد الأيوبيين ينازلون الصليبيين في مواقع متعددة ، حتى إذا حان الوقت راحوا يزحفون نحو القدس ، ويضمّ جيشهم الأمراء والعلماء والفقهاء بمختلف مذاهبهم وتخصّصاتهم^(٢).

خامساً: الجهاد ضد الصليبيين

بذل الأيوبيون قصارى جهدهم في قتال الصليبيين ، وتطهير الأرض منهم ، ولم تكن غايتهم من ذلك الجهاد الحصول على ثروة أو امتلاك أرض ، بل كانت غايتهم أسمى من ذلك وأنبى ، إنها نشر الدعوة الإسلامية في أرجاء الأرض ، واسترجاع القدس الشريف ، والذي سيطر عليه الصليبيون مدة (٩١ سنة) قبل فتح الأيوبيين له.

وقد بدأ الأيوبيون جهادهم مع الصليبيين في عام (٥٦٦هـ) فقد أغاروا على الرملة وعسقلان وغزة ، ثم عادوا إلى القاهرة ، وكانت أيلة قلعة في البحر قد حصّنها أهل الكفر ، فعمرّ السلطان الأيوبي لها مراكز ، وحملها إلى ساحلها على الجمال ، وركبها الصنّاع هناك ، وشحنها بالرجال ، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر ، واستحلّها ، واستباح بالقتل والأسر أهلها ، وملاها بالعدد والعدد^(٣).

وفي سنة (٥٦٩هـ) أرسل الفرنج أسطولاً بحرياً من صقلية لغزو مصر ، وهو مكون من مئتي سفينة تحمل (١٥٠) راجلاً في كل سفينة ، وستاً وثلاثين سفينة تحمل الخيل ، بالإضافة إلى ست سفن كبار تحمل آلة الحرب ، وأربعين مركبا تحمل الأزواد، وكان عدد المقاتلين خمسين ألفاً من الرجّالة، وألفاً وخمسمئة من الفرسان ، فوصلوا إلى الإسكندرية على حين غفلة من أهلها ، فواجههم أهل الإسكندرية وقاتلوهم .

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٨٦ - ١٠٠

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٣٠٥

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٨٢

ولما ورد الخبر لصلاح الدين استنهض العساكر ، وسارع لإنقاذ الإسكندرية ، وتقاتلوا مع الإفرنج قتالاً شديداً ، وصدقوا الله عند القتال ، وأنزل الله على المسلمين النصر ، وعلى الكفار الخذلان والقهر ، ثم هاجم المسلمون خيامهم ، فغنموا بما فيها من الأسلحة الكثيرة ، وكثُر القتل في رجالة الفرنجة ، فهرب كثير منهم إلى البحر ، وغرق بعضهم ، وغاص بعض المسلمين في البحر ، وأتلفوا مراكب الفرنج فغرقت ، فولّت بقية المراكب هاربة ، واحتفى ثلاثمئة من فرسان الفرنجة على رأس تل ، فأخذت خيولهم ، ثم قُتلوا وأُسروا ، وأُخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله^(١).

وفي سنة (٥٨٣هـ) طلب صلاح الدين اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين ، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة ، فسار المسلمون بقيادة صلاح الدين والتقوا بالجيش الصليبي عند (طبرية) ، واستطاعوا بعد قتال شديد الانتصار عليهم في معركة حطين التاريخية ، وكثُر القتل والأسر في العدو ، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً ، وعدد الأسرى ثلاثين ألفاً ، وقد وقع في الأسر مُقدّمو الإفرنج ، وقُتل الباقون وأُسروا. وكان ممن وقع في الأسر (أرناط) الذي غدر بالمسلمين وقتلهم ، واستخفّ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقام صلاح الدين بقتله بيده بعد أن عرض عليه الإسلام وأبى ، انتقاماً منه لوقاحته^(٢). ثم وجّه السلطان جيوشه لمحاربة الفرنجة ، وفتح بقية المدن الشامية ، فتمكّنوا من فتح عكا والناصرية وصفورية وقيسارية ونابلس وتبنين وصيدا وبيروت^(٣). ثم توجه السلطان صلاح الدين بجيشه نحو بيت المقدس لفتحها ، وكان بها جمع كبير من النصارى.

وصل جيش المسلمين إلى القدس سنة (٥٨٣هـ) ، فنزلوا في الجانب الشمالي منه ، وبدؤوا بنصب المنجنيقات ، والمضايقة بالزحف والقتال وكثرة الرّماة ، فلما رأى أعداء الله ما نزل بهم استكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان واستعطفوه ، ولكن صلاح الدين لم يجبههم ، ولم يعطف عليهم ، فلما كثر إلحاحهم وهددوه بتخريبه ، وقتل مَنْ فيه من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ،

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٧٥ - ٢٩١ ، والفتح القسي في الفتح القدسي -

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٣٣٤ - ٣٣٧

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣١٤ - ٣٣٠ ، الفتح القسي في الفتح القدسي -

فاستشار صلاح الدين أصحابه ، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنجة ، فتسلّمه المسلمون ، وكان فتحاً عظيماً شهدته من أهل العلم خلق عظيم ، وفرّج الله عمّن كان فيه من أسرى المسلمين ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف أسير^(١).

ودخل الأيوبيون بيت المقدس ، ورفعت الأعلام الإسلامية ، ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى ، فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس ففعل ذلك ، وأتى بمنبر نور الدين محمود فحُمِل من حلب ، ونصب بالقدس. ولما تطهر بيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس ، دخل أهل الإيمان ، ورفّع الأذان ، وقرأ القرآن ، وعُبد الله الواحد ، وامتألاً الجامع، وسالت لركة القلوب المدامع ، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال ، وخطب الخطيب القاضي "محي الدين بن الزكي" فذكر شرف بيت المقدس ، ووعظ الناس بموعظة مشتملة على تهنئة الناس بما يسّره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس^(٢).

وفي سنة (٥٨٤هـ) فتح صلاح الدين قلعة برزية ، ثم استولى على عدد من الحصون ، ثم توجه إلى صور ، ولكنه لم يفتحها ، وحدثت له مع الفرنجة عدد من الوقائع^(٣) انتهت بعقد هدنة معهم مدّة ثلاث سنين وثمانية أشهر بعد عدّة مفاوضات ، وذلك في سنة (٥٨٨هـ) ، وكانت الهدنة بطلب من ملك إنجلترا ، وأشار أمراء صلاح الدين إليه بالموافقة ؛ ليرحل الفرنجة القادمون فيخفّ الوضع على المسلمين^(٤).

وقد راعى الأيوبيون في جهادهم الآداب التي دعا الإسلام جنده إلى تطبيقها ، فكان جهادهم ضد الصليبيين أنموذجاً للجهاد الإسلامي ، ومثالاً يُقتدى به على مرّ العصور .

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٣٠-٣٥٣ ، وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي

- ٨٨ - ١١٧

(٢) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٥٣ - ٣٦١ ، وانظر: الفتح القسي في الفتح

القدسي - ١٣٧ - ١٤٠

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٢ - ٢٧٠ ، وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي

- ٢٤٨ وما بعدها

(٤) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٢٥

سادساً: آداب الجهاد

من أهم تلك الآداب:

أ- التخطيط والاستعداد للجهاد

اهتم الأيوبيون بالاستعداد الجيد لكل ما يتعلق بمجال دعوتهم إلى الله تعالى ، ومن أهم الأمور التي أدركوا أهمية الاستعداد له هو الجهاد ، فبدلوا جهدهم في ذلك ، ولم يخطوا بخط عشواء ، بل خططوا لكل حركة يقومون بها ، ليضمنوا أفضل النتائج الموصلة لهدفهم الأساسي الكامن في نشر الإسلام ، والقضاء على أعدائه.

ومن أهم استعداداتهم للجهاد:

١- التدريب العسكري المكثف:

وذلك استجابة لأمر الله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)^(١)، فكانت العناية بالتدريب العسكري تفوق الوصف في عهدهم ، حتى إن القادة والأمرأء ، وعلى رأسهم مؤسس الدولة صلاح الدين كانوا ينامون الليل متدرعين بأسلحتهم ، ويعيشون في خيمهم كبقية الجند ، ولم يكن لصلاح الدين بيت غيرها^(٢). ولقد أنشئت في هذا العصر فرق عسكرية جديدة عُرفت باسم الفرق الصلاحية ، وتم رفع مستوى المهارات القتالية إلى درجة جعلت الجيش الإسلامي آنذاك على أرفع مستوى . وكان هناك جيش دائم ، وفرق مساعدة بمنزلة جنود غير نظاميين ، لا يقلون عن الجند النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد^(٣).

وبهذا امتلك الأيوبيون قدرة عسكرية على مواجهة الصليبيين ، وحشدوا الإمكانيات الشعبية معهم ، كما استفادوا من تأييد الخليفة العباسي لهم^(٤).

(١) آية ٦٠ - سورة الأنفال

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٩٨

(٣) المصدر السابق - ٢٩٨

(٤) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٢٣٥

٢-التحصينات العسكرية:

ومن القوة التي أعدها الأيوبيون لمواجهة أعدائهم استجابة لبارئهم بناءً كثير من التحصينات العسكرية ، فأنشؤوا دوراً لصناعة السفن في ثلاث مدن هي: القاهرة والاسكندرية ودمياط ، كما أقيمت المصانع الحربية التي تزود الجيش والأسطول بكل أنواع الأسلحة والذخائر المستعملة آنذاك^(١)، وكان لموارد مصر والشام والجزيرة أثر في تغذية عساكر الأيوبيين بالمؤن والأسلحة إلى جانب تنظيم الجيش العسكري^(٢).

وقد رأى صلاح الدين الأسطول ، وقد أخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصنّاع الشيء الكثير ، ولما تمّ عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والمعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولّى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً ، وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول: (القول قول صاحب الأسطول ، وألا يُمنع من أخذِ رجاله ، وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول ألا يُنارح البحر ، ويغزو إلى جزائر البحر)^(٣).

٣-توحيد القوى العسكرية:

رأى الأيوبيون أنّ الجهاد ضد الصليبيين وفتح أوروبا عملٌ يحتاج إلى تضافر جميع القوى الإسلامية ، وحشد كافة الطاقات في شرق البلاد الإسلامية وغربها ، أو على الأقل تعاون الدولتين اللتين قامتتا على أسس العقيدة الإسلامية ، وهما: دولتهم في الشرق ، ودولة الموحدين في الغرب ؛ لذا أرسل الأيوبيون إلى سلطان الموحدين في المغرب وفداً برئاسة عبد الرحمن بن منقذ ، وحملوه رسالة مُطوّلة ، وهدية سنّية ، واقترحوا في الرسالة تحالف القوى الإسلامية في الشرق والغرب لمحاربة المراكب الفرنجية^(٤).

(١) هكذا ظهر صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٩٤

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٢٤٨

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٤٤٩

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٣٠٦ - ٣٠٧

وكان الأيوبيون يشعرون أنّ لديهم القوة الكافية لردع الصليبيين ، وتطهير البلاد الإسلامية منهم ؛ لذا قرروا بقيادة مؤسسهم مواصلة دور نور الدين في توحيد الأرض العربية للجهاد ضدّ الصليبيين^(١).

٤- مواقف تدلّ على استعداد الأيوبيين وتخطيطهم للجهاد:

كان الأيوبيون يحرصون أشد الحرص على الاستعداد والتأهب والأخذ بأسباب القوة ؛ وذلك بهدف تقوية الجيش الإسلامي لمواجهة العدو الصليبي . ومن المواقف الدّالة على ذلك الاستعداد والتأهب :

- قام الأيوبيون بترحيل بعض قبائل البدو إلى مناطق أخرى ؛ لأنهم كانوا يقومون بإرشاد قوات الصليبيين على الطرق التي تسلكها قوات المسلمين ، والقوافل بين الشام ومصر^(٢).

- أقام الأيوبيون بقيادة صلاح الدين في إحدى عملياتهم العسكرية على تلّ القاضي ونصبوا الخيام فيه ، واستغلّ الأيوبيون هذا الوقت للقيام بغارات متتالية على بلاد الصليبيين ، وكان الهدف من هذه الغارات الاستيلاء على المحاصيل التي كانت في أوان حصادها قبل تخزينها ، إضافة إلى استكشاف تحصينات الصليبيين ، ومعاينتها ، حتى يحضّروا ما سيحتاجون من الآلات والمعدّات والصنّاع للحصار ، وكان صلاح الدين يركب كل يوم من المخيم بتل القاضي ، ومعه خواص جنده ، ويُظهر للبقية أنه يريد الصيد ، ثم يسير^(٣). وفي تصرّف صلاح الدين هذا ما يدلّ على حنكة عسكرية عالية، وتخطيط جيد ، واستعداد كامل للجهاد ، كما أنه بسرّيته هذه يمثل الهدى النبوي الكريم: (استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ؛ فإن كلّ ذي نعمة محسود)^(٤).

- في سنة ٥٧٩ هـ خرج الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين من دمشق إلى منزلة معسكر جسر الخشب ، ثم توجهوا إلى بيسان ، وقد احتار الصليبيون في الجهة التي سيوجه المسلمون حملتهم إليها، فقاموا بتحصين المدن والقلاع القريبة من الحدود، ولكن قائد الجيش صلاح الدين كان يعرف إلى أين سيّتجه ؛ لأن المبادرة في التخطيط والقتال بيده ، فتقدّمت القوات الإسلامية إلى موقع الفوّار

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٨٥

(٢) صلاح الدين-القائد وعصره - ١٦٤

(٣) المصدر السابق - ٢٢١

(٤) المعجم الكبير-٢٢٦/٣، برقم ٢٤٧٦، سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألباني- ٤٣٦/٣ ، برقم ١٤٥٣

القريب من نهر الأردن ، وهناك تعبأت الجيوش ليعرف كلُّ مكانه أثناء وقوع القتال، فالأمر الأساس في القتال عند المسلمين ليس رهن الطرف أثناء القتال ، وإتّما هو تخطيط سابق مرّن قابل للتعديل إذا اقتضى الحال^(١).

- قبل معركة حطين أمضى صلاح الدين الليلة ساهراً حتى عيّن الجاليشية من كلّ طلب ، وملاً جعابها وكنائها بالنبال ، وكان ما فرّقه من النّشاب أربعمئة جمل ، ووقف سبعين ناقة سريعة مُحمّلة بالنّشاب ، يأخذ منها من خلت جعابه وفرغ نيشابه^(٢)، وكان رحمه الله في غزواته ساهراً للمسلمين في ليهم ، قائماً بأمرهم في نهارهم ، وكان من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى^(٣).

وهو بذلك يقتدي بخير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يُرتّب الصفوف ، ويُعبئهم عند القتال بيده ، ويقول: تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، وكان يستحب أن يقاتل الرجل تحت راية قومه^(٤).

- كان الفرنج جيراناً للملك المجاهد ، فقام ببناء الأبراج بينه وبينهم ، وكان إذا أتاه الخبر بحركتهم إلى طرف من أطرافه أدركهم قبل أن يصلوا إلى ذلك الطرف وقتلهم^(٥).

إن في تخطيط الأيوبيين واستعدادهم لجهادهم درساً عظيماً لأولئك النّفر المتحمّس المندفع ، الذين يؤمنون بأن الجهاد واجب عليهم ، وأن النصر بيد الله ، فلا يُلقون بالألّ لتنظيم أو تخطيط أو ترتيب ، وقد نسي هؤلاء قول الله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)^(٦)، وغاب عنهم استعداد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لمعاركهم ، وتخطيطهم لكل حركة فيها ، وأخذهم بأسباب النصر ، وما ذاك إلا لإيمانهم أن نصر الله لا ينتزل على الكسالى الخاملين المندفعين ، بل لا بد له من استعداد وتخطيط وجدّ واجتهاد.

(١) انظر صلاح الدين-القائد وعصره - ٢٥٥ - ٢٥٦

(٢) انظر: الفتح القسي في الفتح القدسي - ٧٧ - ٧٨

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٨١

(٤) المستدرك على الصحيحين - ١١٥/٢ - رقم ٢٥٤٨ - كتاب الجهاد - وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد".

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٢٥٤

(٦) آية ٦٠ - سورة الأنفال

ب- الصبر

من الآداب التي يجب للمسلمين مراعاتها في جهادهم الصبر على قتال الأعداء ، وتحمل الشدائد في سبيل ذلك ، وفي هذا استجابة لأمر الله تعالى: (يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(١).

والصبر هو: "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه"^(٢).

قال الطبري: المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين ، أو اثنين فصاعداً، ولا تكون من واحدٍ إلا قليلاً في أحرف معدودة . فإذا كان ذلك كذلك ، فإنما أمر المؤمنين أن يصابروا غيرهم من أعدائهم ، حتى يظفرهم الله بهم ، ويُعلي كلمتهم ، ويخزي أعداءهم ، وألا يكون عدوهم أصبر منهم.

عن المبارك بن فضالة عن الحسن: أنه سمعه يقول في هذه الآية: أمرهم أن يصبروا على دينهم، ولا يدعوه لشدة ولا رخاء ولا سراء ولا ضراء ، وأمرهم أن يصابروا الكفار ، وأن يُرابطوا المشركين .

وعن قتادة قال: أي اصبروا على طاعة الله ، وصابروا أهل الضلالة ، ورابطوا في سبيل الله، واتقوا الله لعلكم تفلحون^(٣).

وقد تحلّى الأيوبيون في جهادهم بالصبر ، وتحملوا الكثير من الشدائد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وكان قائدهم ومؤسس دولتهم صلاح الدين من أكثرهم صبراً ، فمع كونه شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار إلا أنه كان صابراً على مفارقتهم راضٍ ببعدهم ، متحملاً مرّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى^(٤).

(١) آية ٢٠٠ - سورة آل عمران

(٢) مفردات ألفاظ القرآن - ٢٧٣ ، مادة صبر

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق: د/ عبد الله عبد المحسن التركي ورفاقه - ٦ / ٣٣٢

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٧

وتذكر الكتب التي أرّخت لتلك المرحلة العديد من الشواهد الدالة على صبرهم وتحملهم للكثير في سبيل الله تعالى ، فهذا عيسى الهكاري عندما علم نبأ باستشهاد أخيه صبر واحتسب ، وأنكر عزاء الناس له قائلاً: (هذا يوم الهناء لا يوم العزاء) (١).

وهذا صلاح الدين يُعطي أعظم دليل على صبره وتحمله وذلك في الكتاب الذي أرسله إلى ريتشارد عندما هدّده بالاستمرار في الحرب حتى نهاية الشتاء القادم ، وقد جاء في ذلك الكتاب: (وأنا ما يسهّل علي أن أشتي وأصيف ، وأشتي وأصيف ، وأنا في وسط بلادي ، وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات (الجهاد) ، ولا أزال كذلك حتى يُعطي الله النصر لمن يشاء) (٢).

وثمة موقف يحكيه صاحب كتاب "النوادر السلطانية" فيه دلالة واضحة على عظم صبر المسلمين في قتالهم مع الصليبيين ، فيقول: "مرض صلاح الدين ونحن على الخزنوبة ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه ، فبلغ ذلك الإفرنج ، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين ، فأمر رحمه الله الجيش حتى يتجهز . وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرّضاً أيضاً ، فأذن له أن يتأخر مع الثقل ، وأقام هو ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني بطلبنا ، فركب ، ورّتب العسكر للقاء القوم ، وجعل طرف الميمنة الملك العادل ، وطرف الميسرة تقي الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر والملك الأفضل في القلب ، ونزل هو وراء القوم يطلبهم ، وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه أفرنجي قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ، ثم ينزل يستريح ، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو منه ضعفاً ، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تلّ مطلّ عليهم إلى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر المنصورة إن عادت إلى محل المصابرة أن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو ونحن في خدمته إلى قمة الجبل ، فضربت له خيمة لطيفة ، وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب مُمرّضه ونُشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضُرب البوق ، وركب هو وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة .

(١) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٣٠٩ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٩٠ / ٤

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣٣٩

وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده ، حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعد أنّ تحتها خلقاً عظيماً ، ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم ، وكلما قُتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جُرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتدّ بهم الأمر ، ونزلوا عند الجسر ، وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض آيس المسلمون من بلوغ غرض منهم ؛ لأنهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة ، وبقي رحمه الله في موضعه مع العساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية ، وعاد العسكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو ، وسار على ما مضى من القتل والقتال ، حتى رحل العدو^(١).

١- صبرهم في حصار مدينة صور:

حاصر المسلمون مدينة صور ، وبفضل من الله حقّقوا انتصاراً على الصليبيين في اليوم الأول للمعركة ، وبدلاً من أن يُشجّع هذا النصر الأمراء على الاستمرار في القتال طالبوا بالانسحاب ، ويُعلّق العماد على ذلك قائلاً: "ضجّر كثير من أمراء المسلمين من طول الحصار ؛ لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسّر الفتح ، فأشاروا على السلطان صلاح الدين بالرحيل لئلا يفنى الرجال ، وتقلّ الأموال ، وكان البرد قد اشتدّ عليهم^(٢)، ولكن السلطان والأتقياء من الأمراء صبروا ورأوا الثبات إلى الفتح ؛ لئلا يضيع ما تقدّم من الأعمال وإنفاق الأموال. وقال السلطان: "قد هدمنا السور ، وقاربنا الأمور ، فاصبروا تفلحوا ، وصابروا تفتحوا ، ولا تعجلوا"، فأظهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها ، ولم يصدّقوا القتال ، وتعلّلوا بأنّ الرجال جرحى ، وعلف الخيل قد قلّت ، عند ذلك وجد السلطان أن لا بد من التراجع عن الحصار بعد أن كاد يحقق النصر^(٣).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٤-٢٥

(٢) انظر: الفتح القسي في الفتح القدسي - ١٥٨ - ١٥٩

(٣) انظر: صلاح الدين-القائد وعصره - ٣٤٧ - ٣٤٨

٢- صبرهم أثناء حصار مدينة صفد:

سار جيش الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين في أوائل رمضان من دمشق يريد مدينة صفد، دون الالتفات إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يحرص فيه الإنسان على حضور شهر الصيام مع أهله . ولقد وصلوا إلى صفد فوجدوها قلعة منيعة ، وقد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأحرق العسكر بها ، ونُصبت عليها المجانيق ، وكانت الأمطار شديدة ، والوحول عظيمة ، ولكن ذلك لم يمنع الجيش عن جده^(١).

وقد وصف ابن شداد صبر الجيش وقائدهم إحدى ليالي حصارهم لصفد ، فقال: "ولقد كنت ليلةً في خدمة السلطان ، وقد عيّن مواضع خمسة مجانيق حتى تُنصب ، وقال: (ما ننام حتى نصب الخمسة) ، وسلّم كلّ منجنيق إلى قوم ، ورُسله تتواتر إليهم يعرفونهم كيف يصنعون ، حتى أظله الصبح ، وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها ، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح ، وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله)^(٢). ولم يزل القتال على صفد متواصلاً بالثوب مع الصوم ، حتى سلّمت بالأمان في رابع عشر شوال^(٣).

وهكذا ظهر جلياً عاقبة الصبر وفائدته للجيش الإسلامي ، فلمّا تحلّى الجيش بالصبر في حصاره لصفد ، وتحمل الشدائد ظفر في النهاية وذاق لذّة النصر ، وبالمقابل لما ترك الصبر ، ولم يُخلص في القتال فشل في حصار صور ، وعاد خاسراً خائباً بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الفوز ، ولكنه نصر الله الذي لا يستحقّه إلا الأشداء الصابرون المخلصون للقتال في سبيل الله ، فقد وعد الله تعالى أن يكون في معية من تحمّل وصبر لأجله تعالى حيث قال جل وعز: (وَأَصْبِرُوا^{صَلِّحْ} إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(٤).

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٩

(٢) رواه الترمذي في سننه ، ١٧٥/٤ ، برقم ١٦٣٩ وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٩ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٥٢

(٤) آية ٤٦ - سورة الأنفال

٣- صبرهم عند فتح مدينة كوكب:

لما انتهى الجيش الإسلامي من فتح صفد ، سار يريد كوكب ، فنزل على سطح الجبل ، وأحرق الجند بالقلعة ، وضايقوها بالكلية ، بحيث اتخذوا لهم موضعاً يتجاوزه نشاب العدو ، وبنوا حائطاً من حجارة وطين يستترون وراءه ، ولا يقدر أحدٌ أن يقف على باب خيمته إلا أن يكون لابساً درعه ، وكانت الأمطار متواترة والوحول ، بحيث تمنع المشي والراكب إلا بمشقة عظيمة ، ولقد عانوا شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلو مكانه ، وجرح وقتل جماعة ، ولم يزل الجيش راكباً مركب الجدد حتى تمكن النقب من سورها^(١).

٤- صبرهم في حصار مدينة عكا عندما أخذها العدو قسراً من المسلمين:

لما كان شهر جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وخمسمئة اشتد حصار الفرنج لعكا ، وتماثلوا عليها من كل فج عميق ، فانطلق الجيش الإسلامي لمساعدة أهل عكا، وثبت المسلمون أمام الصليبيين ثبوتاً عظيماً ، ولم يتحركوا من أماكنهم ، والتحم القتال من الجانبين ، واشتد الضرب من الطائفتين ، وصبروا صبر الكرام ، إلا أن الحصار اشتد ، وأنهمك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى إن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون لا ليلاً ولا نهاراً ، والعدو عدده كثير يتناوبون على قتالهم ، واشتد ذلك عليهم ، فاضطروا للاستسلام بعد صبر عظيم وتحمل بالغ للشدائد.

وكان مدة مقام الجيش الإسلامي على عكا صابراً مصابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً ، وجملة من قتل من الفرنج خمسين ألفاً^(٢).

ولقد وصل للفرنج مدد إلى عكا ، والمسلمون محاصرون لعكا ، وكان لقدمه وقع عظيم عندهم ، وقد وصل خبر وصولهم للسلطان وهو ثابت الجأش ، راسخ القدم ، لا يزعه ذلك عن حراسة عكا ، والحماية له ، ومراصدة العسكر النازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهم في كل وقت ، مفوضاً أمره إلى الله ، معتمداً عليه ، منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلاً ببره الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء ، يقول ابن شداد: "ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت ، حتى إذا

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٥٢

(٢) انظر: البداية والنهاية - ١٦ / ٦٣٣ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٥٩

دخلت عليه أجد من قوّة النفس ، وشدةّ البأس ما يشرح صدري ، وأتيقن معه نُصرة الإسلام وأهله" (١).

ويصوّر ابن شداد صعوبة موقف المسلمين في ذلك اليوم فيقول : "ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا ، وثبت نفر يسير انحازوا إلى الجبل ، حتى نصر الله عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم ، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزالو مصابرين لهم ، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر ضعف المسلمين ، فصالحوا العدو ، فالضعف والهلاك كان في أهل عكا أكثر ، وكانت المصلحة في الصلح ، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما في مكنونها" (٢).

وقد ساعد الله الفئة التي صبرت وثبتت ، ومدّهم بالعون والقوة من عنده ، وذلك جزاءً منه تعالى لهم على صبرهم وثباتهم ، يقول العماد مبيّنًا ذلك: "ومن العجب أن الذين ثبتوا منّا لم يبلغوا ألفاً ، فردّوا مئة ألف ، وآتاهم الله قوة من بعد ضعف ، وكان الواحد يقول: (قتلت من المثلين ثلاثين أو أربعين ، وتركتهم مصرّعين) ، ولا شك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين ، وقد حكى بعضهم: (كنت منهزماً من فارسٍ مدجّجٍ قد لَزَّ بقربي حصانه ، فأيست من البقاء ، ثم أبطأت عليّ طعنته ، فالتفتُ فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ، وما بالقرب أحدٌ ، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع ربّاني) (٣).

ويصف ابن شداد صبر صلاح الدين في هذه الواقعة ، وشدةّ حزنه على سقوط عكا ، فيقول: "ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماويل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون مُنكبّاً على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرّق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبئة القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب صابراً على شدة الألم ، وقوة ضربان الدماويل ، وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربّانية" (٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٥٢ - ١٥٣

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٠

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٩٦

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٤

أما عن شدة حزن السلطان على سقوط عكا فيقول: "مُثلت في خدمة السلطان ، وهو أشدّ حالة من الوالدة الثكلى ، فسليته بما تيسّر لي من التسلية ، وأذكرته في الفكر فيما يستقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية ، والقدس الشريف، وكيفية الحال في ذلك ، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد" (١).

٥- صبر المسلمين عند تخريب عسقلان:

عندما علم صلاح الدين أنّ الصليبيين في طريقهم إلى عسقلان خشي أن يستولوا عليها ، فعقد مجلساً للشورى للتباحث في هذا الأمر ، فأجمع الحاضرون على ضرورة تخريب أسوار مدينة عسقلان ؛ لأنه لا قدرة للمسلمين على حفظها ، وحتى لا يستفيد الصليبيون منها ، ويتخذوها قاعدة للوصول إلى القدس ، ويقطعوا بها طريق مصر. ورغم اعتراض صلاح الدين الشديد على هذا القرار إلا أنه صبر واحتسب ، ورضخ لقرار الجماعة علّه يكون في صالح المسلمين ، ولكنه كان في قرارة نفسه حزيناً جداً لخراب عسقلان حتى إنه أسرّ لقاضيه بمكنون نفسه قائلاً: "والله لأن أفقد أولادي أحب إليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعيّن له حفظ مصلحة المسلمين طريقاً ، فكيف أصنع؟" ثم استخار الله تعالى ، فأوقع في نفسه أن المصلحة في خرابها ، فاستحضر الوالي ، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان (٢).

ث- الإصرار على الجهاد

من الآداب التي دعا الإسلام جنوده للتحلي بها عند قتالهم لأعدائهم الإصرار على القتال وعدم اليأس والتراجع ، ولذلك الأدب العظيم شواهد عديدة في التاريخ الأيوبي .
من ذلك أن السلطان لما وقف على بحر اللاذقية بعساكره ، طلب مقدم الفرنج أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه ، فأعطاه الأمان ، فصعد وعقر وكفر ، وتروى ساعة وتفكر ، وقال ما معناه: " أنت سلطان عظيم ، وملك رحيم ، وقد شاع عدلك ، وذاع فضلك ، وقهر سلطانك ، وظهر

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٥٨

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٧٨ - ٢٧٩ ، الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٥٥٠

إحسانك ، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة ، لملكيت قيادها إذا أعدت إليها بلادها ، وصاروا لك عبيداً ، وأطاعوك قريباً وبعيداً ، وإلا جاءك من وراء البحار في عدد الأمواج أفواج بعد أفواج ، وسار إليك ملوك ذوي الأقاليم من سائر الممالك والأقاليم ، وهؤلاء أهون منهم ، فاتركهم واصفح عنهم". فقال له السلطان: "قد أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع أهل الأرض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله في اللقاء ، ولم نبال بأعداد الأعداء" ، فصلّب مقدم الفرنج وجهه ، وركب بكرته ، ولم يُغن خطابه عن خطبه^(١).

ومما بيّن فائدة الإصرار ما حدث مع المسلمين عند حصار عكا ، فقد أصروا على متابعة حصارها إلى أن تسلّموها بالأمان ، واستولوا على ما فيها من الأموال والبضائع ، وأطلقوا من كان بها من المسلمين مأسوراً ، وكانوا أربعة آلاف نفس ، ورّتب السلطان في كنيستها العظمى منبراً ، وأقيم فيها الجمعة^(٢).

ومن أمثلة الإصرار على الجهاد ما روي أنه لما وصل المسلمون المجاهدون إلى دمشق قبل رمضان نُصح قائدهم صلاح الدين بأن يُريح عسكره ، فقال: "إن القدر غير مأمون ، والعمر غير مضمون ، وللفرص أوقات ، وللدهر آفات ، وقد بقيت مع الكفر حصون ، وإن لم تُبادرْها اختلّ أمرنا المصون ، لاسيّما صغد وكوكب فإنهما للعدوّ ، والثغور الإسلامية بهما واهية السدد ، فنخرج ونشتو عندهما ، فإذا فتحناهما خلّصت هذه البلاد ، وصفّت الأوراد" . فما لبث السلطان ولا مكث ، ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث ، وقال: "لا تُبطل هذه الغزوة ، ولا تُعطلّ هذه الشتوة"^(٣).

ومن الشواهد أيضاً على إصرار المسلمين في العهد الأيوبي على الجهاد أنه لما حاصر السلطان القدس ، ورأى الفرنج أنهم هالكون لا محالة ، واستيقنوا من دخول المسلمين عليهم ، أرسلوا إلى المسلمين كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان ، فأبى الجيش الإسلامي إلا قتالهم واستئصالهم ، وعبر قائدهم صلاح الدين عن رأيهم قائلاً: " ما نأخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٤ - ٢٥

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٩٤

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٦

سنة ، فإنهم استباحوا القتل ، فنحن سنفني رجالهم قتلاً ، ونحوي نساءهم سبياً ، ولما طلب أحدهم منه الأمان مجدداً ، تمنع السلطان وتسامى في سومه ، وقال : " لا أمن ولا أمان ، وما هوانا إلا أن نُدسم لكم الهوان ، وغداً نملككم قسراً وأسراً ، ونوسعكم قتلاً وأسراً ، ونسفك من الرجال الدماء ، ونسلط على الذرية والنساء السِّبَاء " (١) .

ويُبدى الملك العادل إصراراً عظيماً على الجهاد ، وذلك حينما طلب ملك الفرنج ريتشارد الاجتماع به خلوة ، فاجتمعا ، فأشار الملك الصليبي بالصلح ، وكان حاصل كلامه أنه قد طال بيننا القتال ، ونحن جننا في نصره إفرنج الساحل ، فاصطَلِحوا أنتم وهم ، وكلُّ منّا يرجع إلى مكانه . فقال العادل : على ماذا يكون الصلح؟ قال : " على أن يُسَلِّم إلى أهل الساحل ما أخذ منهم من البلاد ، فالقاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا نحن الصليبيين ، وتنصرفوا إلى بلادكم " ، فأبى الملك العادل ، وأحشن في الجواب ، وأخبره أنّ دون ذلك قتل كلِّ فارس وراجل ، فرجع مغضباً (٢) .

والمسلمون في إصرارهم على الجهاد في ذلك العصر يقتفون أثر سلفهم الصالح ، ولذلك شواهد عديدة في تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، ففي غزوة الأحزاب لما اشتد على الناس البلاء من تجمُّع الأحزاب عليهم من كل صوب ، ومن ثم تخلي المنافيين عن الوقوف معهم ، كان لابد من إقدام حاسم ، يُفضي إلى تخاذل الأحزاب . وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم عُيَيْنَةَ بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ، حتى ينصرفا بقومهما عن قتال المسلمين ، ويتفرغ المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة بقريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً ، وجرت المراودة على ذلك ، فاستشار السَّعْدِين -سعد بن معاذ وسعد بن عباد- في ذلك ، فقالا : " يا رسول الله ، أَوْحِي من السماء فالتسليم لرأي الله ، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك ، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا ، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرةً إلا شراء أو قرى " . وفي رواية أنهما قالاه : " لا والله ما أعطينا الدنيّة من أنفسنا في الجاهلية ، فكيف وقد جاء الله بالإسلام " ، فقطع رسول الله المفاوضة مع الأعراب (٣)

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٤٠

(٢) المصدر السابق - ٤ / ٢٧٤ - ٢٧٥

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه - ٣-٤/٢٢٣ ، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - ٤٥٠ ، قال الشيخ مهدي رزق الله في حكمه على هذا الحديث : " رواه البزار والطبراني بإسنادين كلاهما حسن " .

ث- تشجيع الجيش على القتال

ومن الآداب التي حرص عليها الأيوبيون أثناء معاركهم تشجيع المقاتلين ، وذلك بحثهم على الجهاد ، وبيان ما وعدهم الله به من الأجر الجزيل .

من ذلك ما روي أن صلاح الدين كان يدور على أفراد جيشه قائلاً: "أنا واحدٌ منكم"^(١) . كما روي أنه أثناء حصار عكا أمر منادياً ينادي في الناس: (يا للإسلام وعساكر الموحدين)، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم للجنة^(٢) .

كما روي أن صلاح الدين كان يركب مع الجيوش ، وهو كالوالدة الثكلى على ولدها ، ويسير بين العساكر ، ويحثهم على القتال ، ويعددهم الوعود الجميلة ، ويُنادي: (يا للإسلام ، يا لدين محمد عليه الصلاة والسلام) ، وعيناه تدرقان بالدموع^(٣) ، ولقد كانت تلك عاداته في غزواته يحث العساكر على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويُرغّبهم في نصرته دين الله^(٤) ، وكان يذكر الناس دائماً في حفظ البلاد من الفرنج^(٥) .

وكان رحمه الله في غزواته يمضي بنفسه على الصفوف ويحضهم ، ويعددهم من الله بنصره المؤلف^(٦) .

وفي فتح عكا صاح السلطان بالعساكر الإسلامية: (يا للإسلام) ، فركب الناس بأجمعهم ، ووافق فارسهم راجلهم ، وشابهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول ، فعاد ناكصاً على عقبه ، والسيف يعمل فيهم^(٧) .

وفي حصار عكا عبأ السلطان يمينته وميسرته ، وطلب من الله نصرته ، وهو يمرّ بالصفوف ، ويأمر بالوقوف ، ويحض على حظ الأبد ، ويحث على الجلال والجلد^(٨) .

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٥

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية-١٢٩، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية- ٨٦/٤

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٨٩/٤ ، كنز الدرر وجامع الغرر - ١٠٦ / ٧

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٨٧ / ٤

(٥) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٨٨

(٦) صلاح الدين-القائد وعصره - ٢٨٥

(٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٠٧

(٨) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية- ٩٥ / ٤

ويقول ابن شداد في وصف إحدى المعارك: "ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين النشاب والعسكر ، وليس معه إلا صبيان ، وهو يسير من طلب إلى طلب ، يحثهم على التقدم ، ويأمرهم بمضايقة القوم ، والصياح بالتهليل ، والتكبير يرتفع"^(١).

والأيوبيون بذلك التشجيع يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، ففي غزوة أحد نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنوده: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟) ، فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، وقال: (أنا آخذه يا رسول الله بحقه) ، ففلق به هام المشركين^(٢).

وروي عن أنس بن مالك ، قال: انطلق رسول الله وأصحابه ، حتى سبوا المشركين إلى بدر. وجاء المشركون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يُقدّمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونه) ، فدنا المشركون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) ، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: (نعم) قال: بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يحملك على قولك بخ بخ) ، قال: لا. والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها) ، فأخرج تمرات من قرنيه. فجعل يأكل منهن. ثم قال: (لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة). قال فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتلهم حتى قُتل^(٣).

واقترى الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا يشجعون بعضهم البعض في جهادهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر: فقال: يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحدٍ وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني أصحابه ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال: يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٧٣

(٢) رواه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي دجانة سماك بن خرشة ، ٢٢/١٦ ، برقم ٦٣٠٦ ، البداية والنهاية - ٥ / ٣٥٤

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: ثبوت الجنة للشهيد ، ٣٩/١٣ ، برقم ٤٨٧١

استطعتُ يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاَ وثمانينَ ضربةً بالسيفِ أو طعنةً برُمحٍ أو رميةً بسهمٍ ، ووجدناه قد قُتِلَ وقد مَثَلَ به المشركون ، فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه^(١).
وبمثل هذا التشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، فتشجعوا على القتال ، وتحمسوا له ، وعدلوا عن فكرة الاستسلام للكفار.

ج-المعاملة الحسنة مع الأسرى

من الآداب الإسلامية التي ينبغي للمجاهدين مراعاتها في جهادهم المعاملة الحسنة مع الأسرى ، وما ذاك إلا تطبيقاً للأخلاق القويمة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية ، وامثالاً لأمر الله تعالى: (وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)^(٢) ، واقتداءً بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام الذين أحسنوا للأسرى من باب الدعوة إلى الدين الإسلامي.
فقد روي أن ثمامة بن أثال - سيد بني حنيفة - جيء به أسيراً ، فربط بسارية المسجد ، ف جاء إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : عندي يا محمد خير ، إن تقتل تقتل ذا دم - أي أستحق القتل لأني قتلت من المسلمين - وإن تُنعم تُنعم علي شاكراً ، وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت ، فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وفي كل يوم يأتي إليه ، فيسأله مثل هذه الأسئلة ، ويجيبه ثمامة بمثل إجابته تلك ، وبعد اليوم الثالث أمر بفك أساره ، فانطلق إلى نخلٍ قريب من المسجد ، فاغتسل ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، ثم قال: يا رسول الله ، والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب إليّ ، وإن خيالتك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ؟ فقال:

(١) رواه البخاري في كتاب: الجهاد ، باب: من يُجرح في سبيل الله ، ٣ / ١٠٣٢ ، برقم ٢٦٥١

(٢) آية ٨ - سورة الإنسان

لا، ولكنني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا والله لا يأتينكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم (١).

فلنتأمل هذه القصة ، وكيف أثرت المعاملة الحسنة في ثمامة إلى أن قادته إلى الإسلام ، وما كان ذلك ليحصل لولا توفيق الله ثم المعاملة الحسنة التي لقيها ثمامة .

ولقد راعى الأيوبيون هذا الأدب الإسلامي القويم في جهادهم ، فقد روي أنهم عاملوا أسرى الفرنجة معاملة حسنة ، ورأفوا بحالهم . ولما انتصروا وفتحوا بيت المقدس أعطوا أهله من الفرنجة الأمان، على عكس الفرنج الذين لما ملكوا القدس من المسلمين قتلوا جميع من كان فيه من المسلمين سنة ٤١٩ هـ ، ونحروا أولادهم ونساءهم (٢).

ومما ذكر في هذا المجال ، ما روي أنه وصل إلى السلطان من بيروت خمسة وأربعون أسيراً وكان فيهم شيخ هرم ، فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعة، ولم يبق في فمه ضرس ولم يبق فيه قوة إلا مقدار ما يتحرك به ، فسأله عن سبب مجيئه فقال: "للحج إلى كنيسة القيامة ، وبيني وبين بلادي مسيرة أشهر" ، فرق له ، وأطلقه وأعادته إلى الإفرنج على فرسٍ خاصٍ ، ولم ير قتله ولا أسره (٣).

ومن هذا القبيل أنه كان من ضمن الأسرى في معركة القدس ملكة رومية مترهبة متعبدة ، فمن عليها صلاح الدين بالإخراج مع حشمها وأمنها (٤).

وفي جانب المعاملة الحسنة للأسرى أنه وفد إليه جمهرة من النساء الفرنجة يبكين ، فبكى معهن ، وطلبن منه البحث عن رجالهن من الأسرى ، فردّ النساء إلى الرجال الأسرى ، ومن قُتل زوجها منحها مالا ، وسمح لها بالتوجه إلى مكان اللاجئين من الفرنجة في صور (٥).

(١) رواه البخاري في كتاب: الخصومات ، باب: التوثق ممن تُخشى معرّته ، ٢ / ٨٥٣ ، برقم ٢٢٩٠

(٢) كنز الدرر وجامع الغرر - ٧ / ٨٦

(٣) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٤٧٠ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٤٢

(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي - ١٢٨

(٥) الحروب الصليبية - ١٧١

وخرجت زوجة الملك الأسير لوزيفيان ، وكانت مقيمة بالقدس مع خَدَمِهَا ، فاستأذنت بالالتحاق بزوجها الذي كان معتقلاً في قلعة نابلس ، فأذن السلطان لها وأقامت عنده^(١).
كما روي أن السلطان سمح للبطريرك الفرنجي أن يخرج ومعه أمواله ، وقد اقترح بعض الحاشية على السلطان أن يأخذ منه المال فقال: "لا أغدر به" ، ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير كسائر الأفراد^(٢).

وكان في القدس ملكة رومية متعبدة استعادت بالسلطان فأعازها ، وأبقى عليها النفائس والصلبان الذهبية التي معها^(٣).

ولما حاصر المسلمون صفد وقع رجالان من قادة الجيش الفرنجي في الأسر ، فأحضرا عند السلطان للمنيّة ، فأنطقهما الله بما فيه حياتهما ، فقد قالوا عند دخولهما: "ما نظن أننا بعدما شافهنك يلحقنا سوء". فمال السلطان إلى مقالهما ، وأمر باعتقالهما ، فإن تلك الكلمة حرّكت منه الكرم ، وحقنت منهما الدم^(٤).

وحدث مرّة أن هرب إليه من الفرنج خادمان ، ذكرا أنّهما لأخت ملك الفرنج ، وأنّهما كانا يكتمان إيمانهما ، فقبّلهما السلطان ، وأكرم وفادتهما^(٥).

ومن الملوك الأيوبيين الذين أحسنوا إلى الأسرى الملك العادل ، ومن المواقف الدّالة على ذلك ما روي أنه جمع الأسرى ، وحاوهم مشافهة ، وأطعمهم فاكهة ، وأشبعهم ورؤاهم ، ثم أحضر لهم كسوة وكساهم ، وألبس كبير الأسرى أشياءه الخاصة ، وكان الوقت شتاءً ، وأذن لهم أن يُسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره ، ولإعلام من يريدون من معارفهم ، ثم نقلهم إلى دمشق لاستكمال إجراءات اعتقالهم^(٦).

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي - ١٢٨ ، الكامل في التاريخ - ١١ / ٥٥٠

(٢) الحروب الصليبية - ١٦٩

(٣) الفتح القسي في الفتح القدسي - ١٢٨

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٥١

(٥) المصدر السابق - ٤ / ٢٥٠ ، الفتح القسي في الفتح القدسي - ٤٩٣

(٦) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٤٤٩

ح- التسامح ومنح الأمان في الوقت المناسب

من الآداب العظيمة التي التزمها الأيوبيون التسامح مع الأعداء في الوقت المناسب ، ومنح الأمان لمن طلبه ، وعقد الهدنة عند الضرورة ، فقد حكى أبو شامة أن صلاح الدين متى طلب منه الأمان لا يبخل به^(١).

كما روي أنه في حصار القدس قرّر الفرنجة طلب الأمان ، فوافق الجيش الإسلامي على أن يدفعوا الجزية ، وكان باستطاعة المسلمين أن ينتقموا منهم كما صنع النصارى يوم استولوا عليها، ولكنهم أرادوا بمنحهم الأمان أن يلقوا على الصليبيين درساً في سماحة الإسلام^(٢).

ولما سار الجيش الإسلامي إلى بززية -حصن بالسواحل الشامية- وفتحها ، كان بها زوج أخت حاكم أنطاكية ، فأسروه ونسأه ، ثم أطلقوهم وأحسنوا إليهم ، وبعثوا من أوصلهم إلى أنطاكية^(٣).

والمسلمون يفضّلون الصلح عندما يرون أن ذلك هو الأنسب والأحسن لحال الجند ، فقد روي أنه لما عزم المسلمون على قصد أنطاكية ، كانت همم الأجناد ولاسيما الغرباء قد ضعفت ، وتيّأهم في الجهاد قد فثرت ، وتشوّقوا إلى بلادهم ، والراحة من جهادهم . وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك ، وعلم أنه إن قُصد غلب ، فأرسل إلى المسلمين رسولاً يتذلّل إليهم ، ويطلب الهدنة على أنه يُطلق من عنده من أسرى المسلمين ، وهم جمعٌ كثير ، فعقدتها المسلمون معه مدّة يسيرة بحيث يكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلّة أوان حصادها ، فيستريح الأجناد ، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد ، فتّمّت كتابة الهدنة^(٤).

ولقد اقتبس الدعاء الأيوبيون هذا الأدب العظيم في جهادهم من تعاليم دينهم الحنيف ، فالإسلام دعا جنده إلى الجنوح للسلام إذا طلبه أعداؤهم قال تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢١

(٢) الحروب الصليبية - ١٦٨

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٥٦

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٣

(٥) آية ٦١ - سورة الأنفال

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: (إن كان للمسلمين مصلحة في الصلح ، لنفع يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه. وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم ، وقد صالح الضمري وأكيدر دومة وأهل نجران ، وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده ، وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل^(١)).

أما الإمام الطبري فقد قال معلّقاً على هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإما تخافن من قوم خيانة وغدراً ، فانبذ إليهم على سواء ، وآذنهم بالحرب ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وإن مالوا إلى مسالمتك ومتركتك الحرب ، إما بالدخول في الإسلام ، وإما بإعطاء الجزية ، وإما بموادعة ، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح ، فاجنح لها ، أي: فمِلْ إليها ، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه)^(٢).

والسلم هنا يقصد به السلام العادل الذي يحفظ للمسلمين عزّتهم وكرامتهم ، ويضمن لهم حقوقهم ، فهو سلام الأقوياء الأعزّة ذوي الكرامة ، وليس سلام الضعفاء الأذلاء ، فالإسلام لا يرضى لأتباعه إلا القوة والعزة والكرامة ، قال تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٣)، وقال جل وعز: (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَلِكُمْ)^(٤).

خ- عزة الجندي المسلم

من آداب الجهاد العزة ، فالأمة الإسلامية أمة الحق والعدل والسلام ، أمة تستحق أن يُدافع المسلمون عنها ، ويبدلوا لها الغالي والنفيس ، وذلك لتبقى عزيزة محفوظة من كلِّ عدوّ حاقد أثيم، وهذا في الحقيقة أحد أهداف الجهاد السامية التي شرع الله تبارك وتعالى الجهاد لتحقيقها ، قال عز

(١) تفسير القرطبي - ١٠ / ٦٤

(٢) تفسير الطبري - ١١ / ٢٣٨

(٣) آية ١٣٩ - سورة آل عمران

(٤) آية ٣٥ - سورة محمد

وجل: (يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۗ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (١) .

فالمسلم الحق يأبى أن يرى أعراض المسلمين ومقدساتهم يُعتدى عليها ، ثم يقف مكتوف اليدين ؛ لأن الله تبارك وتعالى أمره بالدفاع عنها ، والذود عن حماها ، ونهاه عن الجبن والعودة عن نزال الأعداء ، كما أن عزته وكرامته تأبى عليه ذلك ، قال عز وجل: (قَتَلُوهُمْ يَْعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِهِمُ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) (٢) .

وقال تعالى: (يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا) (٣) .

وقد أدرك المسلمون الأوائل أهمية الجهاد في سبيل الله ، وضرورته لتظل الأمة الإسلامية كريمة عزيزة ، فبدلوا في سبيل الله أموالهم وأنفسهم ، وتسابقوا للاستشهاد ، فاستطاعوا تحقيق أعظم الانتصارات ، وملاأت هيبتهم قلوب أعدائهم ، فسطر التاريخ أمجادهم وبطولاتهم ، ليؤكد للأجيال أنّ هذه الأمة لن تكون عزيزة شامخة إلا بالجهاد الذي شرعه الله تعالى .

وفي العصر الأيوبي أجد شواهد عديدة لعزّة المسلم ، وحرصه على كرامة الأمة الإسلامية، فقد روي أنه في سنة ٥٧٦هـ دخل الجيش الإسلامي بلاد الأرمن لقلع ملكهم ابن لاون ؛ لأنه كان قد استمال قوماً من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان ، ثم صبّحهم بغدره ، وحصلوا بأسرهم في أسره . فدخل الجيش الإسلامي بلاده وأذلّ أعوانه ، ونصر الله المسلمين .

(١) آية ٥٤ - سورة المائدة

(٢) آية ١٤ - سورة التوبة

(٣) آية ٣٨ - سورة التوبة

وقد بذل العدو للجيش الإسلامي جملة من المال ، كما وعدهم أنه يُطلق مَن عنده من الأسرى ، فلم يرضَ المسلمون بما بذله ، فزاد في المال وأنه يشتري مئة أسير من بلاد الفرنج ويُعتقهم، فوافق المسلمون ، وأخذوا منه رهينة على ذلك^(١).

ومن الحوادث التي تُعطي صورة جليّة عن عزة المسلم وغيرته على محارم الإسلام حادثة أرناط ونقضه العهد مع المسلمين ، فقد روي أن أرناط فكّر في غزو الحجاز ، فجهّز حملة كبيرة عام ٥٧٧ هـ ، ووصل إلى مشارف تيماء ، ففزع المسلمون لذلك ، وكان صلاح الدين في الشمال مشغولاً بترتيب أمور حلب والموصل ، فلما بلغه الخبر أرسل إلى نائبه في دمشق فروخ شاه ، والذي جهّز حملة سريعة ، وسار بها إلى الكرك عاصمة أرناط ، فرجع أرناط مسرعاً إلى عاصمته ، وترك غزو المدينة ، ولكن فروخ شاه لم يترك الكرك إلا بعد أن وقّع معاهدة مع أرناط بعدم التعرّض لقوافل المسلمين وطريقهم^(٢).

ولكن أرناط لاحت له فرصة في الغدر فقطع الطريق ، وأخاف السبيل ، ووقع في قافلة مصرية بالشوبك ثقيلة ، معها نَعْمٌ جليلة ، فأخذها بأسرها ، وكان معها جماعة من الأجناد ، فأوقعهم في الشرك ، وأخذ خيلهم وعتادهم وعدّتهم ، فناشده الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فاستخفّ بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال: (قولوا لمحمدكم يخلصكم) ، فأرسل إليه السلطان مذمّماً فِعاله ، فأبى إلا الإصرار والإضرار ، فحمل السلطان الدّين والحميّة ونذّر إن ظفر به قتله .

وبعدها لم يُعد صلاح الدين يأمن منه على الحجاز ، فبعث عيونَه لتراقب تحرّكات أرناط، وأرسل الجنود لمرافقة قافلة الحجاج ، وخرج بنفسه في العام التالي لمصاحبتهم في بداية الطريق^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٥٥-٥٦

(٢) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢ / ١٨٤

(٣) المصدر السابق - ٢ / ١٩٠ - ١٩١

ولما انتصر صلاح الدين في حطين وقع الملك (جفري) والبرنس (أرناط) في الأسر ، فأجلس صلاح الدين البرنس بجانب الملك ، وقرّعه على غدره ، ودكّره بذنبه وقال له: (كم تحلف وتحنث وتعهد وتنكث وتُبرم الميثاق وتنقض وتُقبل على الوفاق ثم تُعرض) فقال الترجمان عنه : (قد جرت بذلك عادة الملوك ، وما سلكتُ غير السنن المسلوكة) ، وكان الملك يلهث ظمأً، ويميل من سكرة الرُعب ، فآنسه السلطان ، وحاوره حتى سَكَن له رُعبه وأمّن قلبه ، وأمر له بماء مثلوج ، فشربه ثم ناول الملك الإبرنس القدح ، فقال له السلطان: (لم تأخذ في سقيه إذناً ، فلا يُوجب ذلك له مني أمناً) ، كما قال للترجمان : (قل للملك: أنت الذي سقيته ، وأما أنا فلا أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي) ، وكان قصده رحمه الله أنّ مَنْ أكل من طعامي فالمروءة تقتضي ألا أُؤذيه ، ثم إنه ركب وخالاهما ، وبنار الفزع أصلاهما ، ثم عاد إليهما بعد مدة واستحضر الإبرنس ، وعرض عليه الإسلام فلم يفعل ، فقال له: أنا أنتصر لمحمد منك ، فوقّي بندره ، وقام إليه ، وتلقّاه بالسيف ، فحلّ عاتقه بالنيمحاه^(١) ، ثم أمر برأسه فُقطِع ، وجُرّ برجله فُدّام الملك ، وزُمي على باب الخيمة ، فارتاع الملك وانزعج ، وما شكّ في أنّ صلاح الدين سيُثبّي به ، فأمّنه السلطان وطمأنه ، وقال له: (لم تجر عادة الملوك أن تُقتل الملوك ، ولكن ذاك غدار كذاب جاوز حدّه ، فأزدّته رداءته ، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلّك بغيّه وبغيّه وجرى له ما جرى)^(٢).

ومن حوادث العزة في هذا العصر ما روي أنه في سنة ٥٧٨ هـ مضى الفرنج إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية ، فجهّز لهم الملك العادل الحاجب حسام الدين لؤلؤ، وظفر بمراكب للفرنج، فأحرقها وأسر من فيها ، وتبع مراكب الفرنج ، فوقع بها بعد أيام ، واستولى عليها ، وأطلق من فيها من التجار المأسورين ، وردّ عليهم ما أخذ منهم ، وصعد البرّ موكب خيل العرب ، حتى أدرك من فرّ من الفرنج وأخذهم ، وساق منهم اثنين إلى منى ، ونحرهما كما تُنحر البدن ، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة ، فضربت أعناقهم كلّهم^(٣).

(١) خنجر مقوس يشبه السيف القصير - التوثيق من المصدر التاريخي نفسه وهي مشروحة فيه وليست من كتب اللغة لأنها ليست عربية.

(٢) النوار السُلطانية والحاسن اليوسفية - ٣٣، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٢٠، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

التورية والصلاحية - ٢٧٤/٣ ، ٢٨٨-٢٨٩ ، ٢٩٦-٢٩٧ ، سير أعلام النبلاء - ٢٨٥/٢١

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٩

وثمة حادثة طريفة تعكس عزة الجندي المسلم ، وما وصل إليه العدو من الذل والهوان ، يقول أبو شامة: "بلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسيرٌ ، وكان محتاجاً إلى نعل ، فباعه بها، فقيل له في ذلك ، فقال: أردت أن يُذكر ذلك ، ويقال: بلغ من هوان أسرى الفرنج ، وكثرتهم أن يبيع واحد منهم بنعل ، والله الحمد^(١) .

وبعد فإن الدعوة الأيوبيين استخدموا وسائل دعوية أعانتهم بفضل الله على نشر دعوة الإسلام وتقديمه صافياً رقيقاً للإنسانية ، فأرسلوا الرسائل الناصحة ، وناظروا دفاعاً عن دينهم الحق وبيانا له ، وألقوا الخطب البليغة المؤثرة ، وجاهدوا في الله حق جهاده .
فما أكرم نفوس هؤلاء الدعاة التي كانت صغيرة في عيون أنفسها ، كبيرة عند الله والناس ، وما أجلّ التاريخ الذي سطر لنا دعوة هؤلاء الأفاضل ، فجزاهم الله خير الجزاء ، وجعل جنات الخلد مثواهم ؛ فقد قوّوا المسلمين ، وخلّصوهم من ألدّ أعدائهم ، مبتغين بذلك مرضاة الله ورسوله .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٩٩

المبحث الثاني
أساليب الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

إن الهدف الأساس للدعوة الإسلامية هو جذب المدعوين إلى الإسلام ، وتعريفهم بمقاصد الإسلام وغاياته . ولتحقيق هذا الهدف ينبغي للداعية أن تستخدم أسلوباً مناسباً لدعوته ؛ فذلك أفضل طريق يوصل إلى تحقيق أهداف الإسلام وغاياته بطريقة مشروعة .

ولابد للداعية من استعمال الأسلوب المناسب في الوقت المناسب ، كما أنه من الضروري اختيار الأسلوب الدعوي المناسب للمدعوين ، والذي يراعي اختلاف مداركهم ، وتباين ثقافتهم . وقد استخدم الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان الأساليب الدعوية ؛ ليوصلوا دعوتهم إلى الناس ، وليبلغوهم من خلالها تعاليم دينهم .

ومن أبرز الدعاة الذين استخدموا أساليب مميّزة لنشر دعوتهم دعاة الدولة الأيوبية ملوكاً وعلماء .

وقبل البدء في الحديث عن أساليب الدعوة في العصر الأيوبي سأتطرق إلى تعريف الأسلوب في اللغة والاصطلاح .

تعريف الأسلوب في اللغة والاصطلاح:

الأساليب لغة: جمع أسلوب. والأسلوب هو الطريق والمذهب والقرن ، يقال: سَلَكَتُ أسلوبَ فلان في كذا ، أي طريقته ومذهبه ، وأسلوبُ الكاتب: طريقته في الكتابة ، كما يُقال : أخذ فلان في أساليب القول ، أي أفانينَ منه^(١).

الأسلوب : الطريق ، ويُقال : سلكت أسلوب فلان في كذا : طريقته ومذهبه ، وطريقة الكاتب في كتابته^(٢).

الأساليب اصطلاحاً :

تعددت أقوال أهل الدعوة في تعريف الأساليب اصطلاحاً ، فقال فريق منهم: هي الطرق التي يسلكها الداعي في دعوته^(٣). وقال فريق آخر هي: كيفية مباشرة التبليغ^(٤). ويمكن الجمع بين هذين التعريفين فنقول: هي الطرق التي يسلكها الداعي من أجل مباشرة تبليغ دعوته.

(١) لسان العرب - مادة "سلب" - ١ / ٤٧٢

(٢) المعجم الوسيط - مادة "سلب" - ٤٤٣

(٣) المدخل إلى علم الدعوة - ٤٦

(٤) أصول الدعوة - ٤١١

وفي هذا المبحث سأتحدث عن أهم تلك الأساليب وهي:

١ أسلوب القدوة الحسنة

٢ أسلوب الموعظة الحسنة

٣ أسلوب الحكمة

٤ أسلوب التربية والتعليم

المطلب الأول: أسلوب القدوة الحسنة

أسلوب القدوة الحسنة من الأساليب الهامة في مجال الدعوة ، وذلك لأن المدعو كثيراً ما يتأثر بالتطبيق العملي أكثر من الأقوال فقط.

ولقد وعى ذلك دعاة الدولة الأيوبية وطبقوه في دعوتهم ، فالمطلع على الشواهد التاريخية للدعاة في هذا العصر سيجد الكثير من أمثلة الدعوة بأسلوب القدوة الحسنة ، وتأثر كثير من أفراد المجتمع بهذا الأسلوب بفضل الله تعالى .

وفي هذا المبحث سأحدث بإذن الله تعالى عن أسلوب القدوة الحسنة من خلال النقاط التالية:

١ أهمية أسلوب القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى

٢ المقدوة في الإكثار من العبادة

٣ المقدوة في الإنفاق في سبيل الله

٤ المقدوة في الجرأة على قول الحق والرجوع إليه

٥ المقدوة في الحرص على مصالح الناس

أولاً: أهمية أسلوب القدوة الحسنة

أودّ أن أبيّن باختصار تعريف القدوة الحسنة في اللغة والاصطلاح .

القدوة في اللغة:

قال ابن منظور: القُدُو: أصل البناء الذي يَتَشَعَّبُ منه تصريف الاقتداء ، يقال: قِدْوَةٌ وقُدُوٌّ لما يُفْتَدَى به. قال ابن سيده: القُدوة والقِدوة ما تَسَنَّتْ به^(١).

وقال الفيروزبادي: القُدوة ما تَسَنَّتْ واقتديتَ به ، وتقدّت به دابته: لزمّت سنن الطريق ، وتقدّى هو عليها^(٢).

القدوة في الاصطلاح:

قال الإمام الشوكاني: هي طلب موافقة الغير في فعله^(٣).

وقال الشيخ ابن عاشور: والقدوة هو الذي يعمل غيره مثل عمله ، يقال: لي في فلان قُدوة^(٤).
وقال الشيخ الشنقيطي: الأسوة كالقدوة ، وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنة أو قبيحة^(٥).

وبهذا يتبيّن أن المقصود بالقدوة الحسنة هو أن يتمثّل الداعية الأخلاق الإسلامية ، والصفات الحسنة في حياته كلها ، بحيث تُطابق أفعاله أقواله وفق ما جاء به الشارع الحكيم.

وأبرز شاهد على أهمية القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله ما حصل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية ، فقد روي عن عمر أنه قال : فلما فرغ من قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ قُومُوا فَأَخْرُوا ثُمَّ احْلِقُوا قال فَوَاللَّهِ ما قام منهم رَجُلٌ حتى قال ذلك ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فلما لم يُقْمَ منهم أَحَدٌ دخل على أُمِّ سَلَمَةَ فذكر لها ما لَقِيَ من الناس فقالت أُمُّ سَلَمَةَ يا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذلك اخْرُجْ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا منهم كَلِمَةً حتى تَنْحَرَّ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ

(١) لسان العرب - مادة "قدا" - ١٥ / ١٧١

(٢) القاموس المحيط - محمد بن يعقوب الفيروزبادي - فصل القاف - باب الواو - ٤ / ٣٧٨

(٣) فتح القدير - ٢ / ١٣٧

(٤) التحرير والتنوير - محمد بن الطاهر بن عاشور - ٧ / ٣٥٦

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي - ٨ / ٨٥

فَيَخْلُقُكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلُقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا عَمًّا^(١).

فهذا الحديث فيه دلالة واضحة على أهمية القدوة ، حيث إن الصحابة رضي الله عنهم لم يمثّلوا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر - بسبب ما هم فيه من غمّ وهمّ لمنع قريش لهم عن العمرة - فلما شاهدوا مطابقة فعل رسول الله عليه الصلاة والسلام لقوله اقتنعوا بوجوب تنفيذ الأمر ، وأنه لا مفرّ منه .

ويمكن إجمال أهمية أسلوب القدوة الحسنة في النقاط التالية:

١- إن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا قدوة حسنة لأقوامهم ، وقد أمرنا الله بالافتداء بهم . قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ لِمَن يَشَاءُ مِنْهُ أُسْوَةً حَسَنَةً) وقال جل وعز: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتِهِمْ آقَدْتَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) ^(٢).

٢- إن الإسلام انتشر في كثير من أصقاع الأرض عن طريق القدوة الحسنة ، فالداعية عندما يتمثّل الآداب والأخلاق الإسلامية عملياً سيكون هذا الامتثال أبلغ رسالة يوجهها الداعية للمدعو عن الإسلام وتعاليمه الربانية .

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: "فالقدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام يستدل بها غير المسلم على أحقيّة الإسلام ، وأنه من عند الله ، ولا سيما إذا كان سليم الفطرة سليم العقل" ^(٣).

٣- إن تطبيق الداعية لتعاليم الإسلام وأخلاقه يُعطي المدعو قناعةً بإمكان تطبيق هذه التعاليم والأخلاق على أرض الواقع ، فيسارع إلى التحلي والامتثال بها.

(١) رواه البخاري في كتاب: الشروط ، باب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالِحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ ، ٢ / ٩٧٤ - ٩٧٩ ،

برقم ٢٥٨١

(٢) آية ٦ - سورة المنتحنة

(٣) آية ٩٠ - سورة الأنعام

(٤) أصول الدعوة - ٤٨٥

٤- إن المدعويين يتفاوتون في مستويات الفهم ، ولكنهم يتساوون في الرؤية ، لذا فإن التطبيق العملي في هذه الحالة أسهل في إيصال التعاليم والأفكار التي يؤدّ الداعية إيصالها للمدعو.

ويبيّن الدكتور عبد الكريم زيدان أهمية هذا الأسلوب فيرى أنه: "من الوسائل المهمة جداً في تبليغ الدعوة الى الله ، وجذب الناس إلى الإسلام: السيرة الطيبة للداعي ، وأفعاله الحميدة ، وصفاته العالية ، وأخلاقه الزاكية مما يجعله قدوة طيبة وأسوة حسنة لغيره ، ويكون بها كالكتاب المفتوح يقرأ فيه الناس معاني الإسلام ، فيقبلون عليها ، وينجذبون إليها ؛ لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثير بالكلام فقط"^(١).

ولقد طبّق الدعاة الأيوبيون هذا الأسلوب في دعوتهم ، فكان الداعية يصفني لنفسه مثلاً يحتذي حذوه في الآداب والفضائل ، ويتطلّع للوصول إلى ما لديه من الكمالات والأخلاق الإسلامية.

فهذا صلاح الدين يتّخذ من نور الدين رحمه الله -الملقب بالملك العادل- مثلاً يقتدي به في القيادة والحكم وإدارة الحرب والسلام ، وفي اختيار الرجال الأمناء الأقوياء للجيش والقضاء والإدارة^(٢).

وروي أن صلاح الدين كان أحد خواصّ نور الدين لا يفارقه ركباً في ميدانه ولا جالساً في إيوانه ، يقف على رأسه ، وكان والده من جُلّاسه ، وقد اقتدى به في جميع ما اتّصف به من التقى والعفة والنزاهة والنباهة وآداب الملك وأحكام السلطنة، فتلقّن منه مبادئ الخبرات ، ثم جاوز بها في أيامها إلى الغايات^(٣).

ونتيجة للأثر الكبير الذي تركه هذا الاقتداء في نفس صلاح الدين ، أدرك رحمه الله ما لهذا الأسلوب من دور عظيم في التأثير في المدعويين ، ودفعهم للامتثال إلى ما يدعوهم إليه. وقد وصف الموفق عبد اللطيف- أحد معاصري صلاح الدين- تطبيق صلاح الدين لأسلوب القدوة الحسنة فيقول: "رأيت صلاح الدين على القدس، فرأيته ملكاً عظيماً ، يملأ القلوب روعة والعيون محبة ، سهلاً ومحبباً ، وأصحابه يتشبهون به ، ويتسابقون إلى المعروف ، وكان رحمه الله مهتماً في التفقه في

(١) أصول الدعوة -٤٣٧

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره - ٤٦

(٣) سنا البرق الشامي - الفتح بن علي بن محمد البنداري ، تحقيق: فتحية النبراوي - ٥٦

كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، ولقد كان يعتنى ببناء سور القدس وحفر خندقه ، ويتولّى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء" (١).

كما يصف ذلك العماد فيقول: "وكان السلطان مقيماً بالقدس ، وقد قسّم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد ، وكان يركب كلّ يوم ، وينقل الصخر على قريوس^(٢) سرجه ، فيستئذ الأكاير والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ، ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره ، لعلمت أنّ له قلباً كم حمل جبلاً في فكره ، ولقد جدّ في حماية الصخرة المقدّسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها إلى صدره" (٣).

أولاً: القدوة في الإكثار من العبادة

إن أول ما ينبغي للداعية البدء به في مقام الدعوة هو العناية بنفسه من حيث تجديد الإيمان في قلبه وشحنه بما يرتقي به ، لذا فهو بحاجة ماسّة إلى الإكثار من العبادات والنوافل التي تصقل قلبه ، وتُجلي شخصيته ، وتشحنه بالزاد الذي يعينه على المصاعب والشدائد التي قد تواجهه في طريق الدعوة.

ولقد دعا الله تعالى عباده المؤمنين لذلك فقال جلّ وعزّ: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) (٤). وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على النوافل والسنن والإكثار منها ، فقد روي عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ ، فقالت عائشة: يا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فقال: يا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) (٥). وهذا ابن تيمية رحمه الله أحد كبار الدعاة على مرّ التاريخ ، مع كثرة مشاغله وجهاده وتعليمه يحافظ على الذكر بعد الصلاة ، كما كان يُداوم على الجلوس بعد الفجر

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٦ ، صلاح الدين-القائد وعصره - ٤٠٧

(٢) القريوس: عود الرجل ويُسمّى الحِنُو . انظر: القاموس المحيط - ٢ / ٢٣٩ مادة (قريس) ، والمعجم الوسيط - ٧٣٠ مادة (قريس)

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٩٦ - ٢٩٧

(٤) آية ٤١ - سورة الأحزاب

(٥) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب إِكْتِمَارِ الْأَعْمَالِ وَالْإِحْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ ، ١٧/١٣٦ ، برقم ٧٠٧٣

إلى طلوع الشمس ، وبعد ارتفاع الشمس يصلي ركعتين ويقول: (هذه غدوتي ، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي)^(١)، وكان يقول: (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة)^(٢).

ولقد أدرك دعاة الدولة الأيوبية -ملوكاً وعلماء- هذا الأمر الجلل ووعوه جيداً ، فذخرت كتب التاريخ بروائع من حرصهم على التقرب إلى الله بشتى أنواع النوافل والعبادات التي تسمو بروحهم ، وترتقي بقلوبهم في سلّم الكمالات.

وكان في مقدمة الملوك العابدين: صلاح الدين الأيوبي ، فقد كان رحمه الله خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة ، إذا سمع القرآن خشع قلبه ، ودمعت عيناه في معظم أوقاته ، وكان يحب سماع القرآن الكريم ، ويستجيد إمامه ، ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه ، وكان يستقرئ من يجرسه في الليل وهو في برجه الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان يستقرئ وهو في مجلسه العام من جرت عاداته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ، وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ، وكان يأمر بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له^(٣). وقد اقتدى صلاح الدين رحمه الله في ذلك بوالده نجم الدين ، فقد روي أنه رحمه الله كان كثير الصلاة والصيام والصدقة ، كريم النفس جواداً^(٤).

وقد اقتدت بصلاح الدين زوجته ، فكانت من الصالحات ، تكثر من قيام الليل . وقد نامت ليلة عن وُرْدِها فأصبحت وهي غضبي ، فأمرت بضرب طبليخانات في القلعة وقت السحر لإيقاظ النائم لقيام الليل^(٥).

ومن الملوك الذين اشتهروا بالاجتهاد في العبادة الملك العادل فقد ذُكر أنه كان كثير الصلاة ويصوم الخميس ، وله صدقات في كثير من الأوقات^(٦).

ومنهم أيضاً الملك الكامل محمد بن غازي ، فقد روي أنه كان كثير التعبُّد والخشوع ، ولم يكن في بيته من يضاويه في الدين^(٧).

(١) الوايل الصيّب من الكلم الطيب - شمس الدين الزرعي الدمشقي ، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض - ٦٣

(٢) المصدر السابق - ٦٣

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٩

(٤) البداية والنهاية - ١٦ / ٤٦٨

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥١٠

(٦) تاريخ الإسلام - ٢٧٢ وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ) ، سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١١٦

أما المكثرون من العبادة من العلماء فمن أشهرهم:

- القاضي الفاضل فقد كان رحمه الله كثير الصدقات والصوم والصلاة ، وكان يختم القرآن ختمات عديدة ، وكان مواظباً على أوراده ، ودائم التهجد ، وكان له العفاف والدين والتقوى ، ويكثر تشييع الجنائز ، وعيادة المرضى ، وزيارة القبور، وله معروف في السرّ والعلانية ، ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان إليهم والإعراض عنهم ، وكان له معاملة حسنة مع الله تعالى وتهجد بالليل^(٢).
-ومن العبّاد أيضاً فخر الدين بن عساكر ، فقد كان كثير النوافل والأذكار ، يحاسب نفسه على كلّ لحظة تذهب في غير طاعة^(٣)، و لسانه لا يخلو من ذكر الله ، وكان الناظر لا يملّ من النظر إليه لحسن سمته ونور وجهه^(٤).

-ومن العلماء المجتهدين في التعبّد محمد بن قدامة ، فقد قال عنه الذهبي في سيره: (كان كثير العبادة ، دائم التهجد ، لا يترك قيام الليل من وقت شبوبيته ، لم نر مثله ، ولم يُر مثل نفسه، وكان لا يسمع حديثاً إلا عمل به ، ولا صلاة إلا صلاحها ، وكان يصلي بخشوع ، ولا يكاد يصليّ سنة الفجر والعشاءين إلا في بيته)^(٥).

-وعماد الدين المقدسي الجماعيلي من العلماء الذين تفرغوا للعبادة والعلم ، فقد روي أنه كان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء ، لا يخرج إلا لحاجة ، يُقرئ القرآن والعلم ، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة^(٦)، وكان رحمه الله كثير الدعاء والسؤال لله تعالى ، يُطيل السجود والركوع، لم يُر أحد أحسن صلاة منه ولا أتمّ ، في خشوع وحضوع ، قيل: كان يسبّح عشراً يتأني فيها ، وربّما قضى في اليوم والليلة صلوات عدّة ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان إذا أفتى في مسألة يحتز فيها احترازاً كثيراً ، ما عُرف أنه عصى الله معصية^(٧).

(١) ذيل مرآة الزمان - قطب الدين اليونيني - ١ / ٤٣٠

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٩٢ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٦٩٩

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٥٦٧

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٨٤

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٥ ، ١٦٥

(٦) المصدر السابق - ٢٢ / ٤٩-٥١

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٤٩ - ٥١

-وابن الحرساني من العباد أيضاً ، فقد اتفق أهل دمشق على أنه ما فاتته صلاة بجامع دمشق في جماعة إلا إذا كان مريضاً^(١).

-ومنهم عز الدين محمد بن الحافظ عبد الغني فقد روي أنه كان غزير الدمعة عند قراءة القرآن^(٢).

-والعماد ابراهيم بن عبد الواحد أيضاً ، فقد كان كثير الدعاء بالليل والنهار ، وإذا دعا شهد القلب بإجابته من كثرة ابتهاله وإخلاصه^(٣).

إن هذه الصور المشرقة لاهتمام الدعاة الأيوبيين بالعبادة والاكثار منها ، تحفز الداعية ، وتشحذ همته إلى الاقتداء بهم ويهديهم في التعبد لله تعالى ؛ طمعاً في مرضاته سبحانه ، وابتغاءً لجنته تعالى ، وطلباً لتوفيقه في مهمته الدعوية التي اجتباه الله لها ، وكلفه جل وعز بها.

ثانياً: القدوة في الإنفاق في سبيل الله

الصدقة والإنفاق في سبيل الله من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله عز وجل ، قال سبحانه وتعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)^(٤).

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يريها لصاحبها كما يري أحداكم فلوؤه حتى تكون مثل الجبل)^(٥). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه

(١) المصدر السابق - ٨٠/٢٢ ، الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٩١ ، تاريخ الإسلام - ٢٠٧ وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

(٢) تاريخ الإسلام - ١٦٥ وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

(٣) المصدر السابق - ١٨٦ وفيات سنة (٦١١-٦٢٠هـ)

(٤) آية ٢٦١ - سورة البقرة

(٥) رواه البخاري في كتاب: الزكاة ، باب: الرياء في الصدقة لقوله يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى إلى قوله الكافرين وقال بن عباس رضي الله عنهما صلداً ليس عليه شيء وقال عكرمة وأبل مطر شديد والطل الندى ، ٥١١/٢ ،

وسلم قال: (ما من يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتْسِكًا تَلْفًا)^(١).

وقد وعد الله عباده المتصدقين بخيري الدنيا والآخرة ، كما وعدهم بأجزل الثواب وأعظمه ، وما ذلك إلا لأهمية هذا الإنفاق ، وكثرة ما فيه من فوائد جليّة . فهو دليل على صدق الإيمان ، وحسن الظن بالله ، وهو وقاية من الكروب والبلايا ، وتكفير للذنوب والخطايا ، وتطهير للقلب من الرذائل ، ومباركة للمال والرزق ، وباب لدخول الجنة ، والنجاة من النار ، ولذلك كله شواهد بيّنة من القرآن والسنة . لذا ينبغي للداعية أن يحرص على الإنفاق في سبيل مرضاة الله تعالى ؛ ليكون قدوة عمليّة تدعو الناس إلى ذلك العمل الصالح القويم. وهذا ما وجدته جليّاً في عصر الدولة الأيوبية لما قلبت كتب التاريخ للبحث عن شواهد تؤكّد حرصهم على الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى .

١- إنفاق صلاح الدين:

ومن أبرز الدعاة الذين حرصوا على الصدقة والإنفاق في سبيل مرضاة الله تعالى السلطان صلاح الدين رحمه الله ، فقد مات ولم يُحفظ ما تجب عليه به الزكاة . وأما صدقة النفل فإنها استغرقت جميع ما ملك ، ولم يُخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرياً ، وجُرمًا واحدًا ذهباً ، كما لم يُخلف مُلكاً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأُملاك^(٢).

وقد شهد له أصحابه المقربون بتلك اليد السخيّة المعطاء ، وسجّل التاريخ تلك الشهادات ليطلع الناس عليها على مرّ الأجيال ، فتكون حافزاً لهم على الاقتداء بذلك السخيّ الكريم الذي كان دائماً ينفق ، وينفق بسخاء وكرم قلماً يوجد لهما نظير . يقول عنه القاضي بهاء الدين بن شداد: "كان رحمه الله يُعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة ، وكان نُواب خزائنه يُخفون عنه شيئاً من المال حذراً ؛ لعلمهم أنه متى علّم به أخرج به ، ولقد سمعته يقول في معرض حديث جرى: "يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب" ، فكانه بذلك أراد نفسه

(١) رواه البخاري ، كتاب: الزكاة ، باب: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

وَاسْتَعْتَبَ وَكَدَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا مَالٍ خَلْفًا ، ٥٢٢/٢ ، برقم ١٣٧٤

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٤٧

رحمه الله، وكان يُعطي فوق ما يؤمّل الطالب ، فما سمعته قط يقول: أعطينا لفلان ، وكان يعطي الكثير ، ويبسط وجهه لمن يُعطيه كبسطه لمن لم يعطه شيئاً ، وكان يُعطي ويكرم أكثر مما يُعطى ، وكان قد عرفه الناس ، فكانوا يستزيدونه في كل وقت ، وما سمعته يوماً يقول: قد زدت مراراً فكم أزيد ، وأكثر الرسائل تكون في ذلك على لساني ويدي ، وكنت أحجل منه من كثرة ما يطلبون ، ولا أحجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك ، وما خدمه أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره^(١).

وقد شهد له أخوه الملك العادل بذلك أيضاً ، فقال مرة في أثناء حديثه ، وهو يتحدث عن إفراط السلطان في أياديه: "إني توليت استيفاء قطيعة القدس ، فأنفذت له سبعين ألف دينار ، فجاءني خازنه بكرة وقال: (نريد اليوم ما نخرجه في الإنفاق ، فما عندنا مما كان بالأمس باق) ، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال ، ففرّقها على رجالٍ رجاء يد النوال" ^(٢).

وكتب القاضي الفاضل شهادة بليغة فصيحة عبّرت بصدقٍ عن سخاء صلاح الدين البالغ، وكرمه في الإنفاق ، وذلك ضمن كتاب فاضلي أرسله رحمه الله إلى السلطان ، وقد جاء في ذلك الكتاب: (لقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام ، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة ، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل ، وينفق إن شاء الله مال القسطنطينية في فتح رومية ، والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم إلى أن يسلموها إليه ، فيشكره الله على ما أخرجته في سبيل الله منها ، ويمقتهم على ما كنزوه من ذهبها وفضتها ، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقه، فإن الله لا يُضيق رزقاً على يده الكريمة ، ولا سيما قد أجرى عليه أرزاق خلقه) ^(٣).

وكان صلاح الدين رحمه الله كثير الإنفاق في سبيل الله في كلّ أوقاته ولاسيما في حالة المرض، وعند شكر الله على نعمه ، فقد روي أنه لما مرض وعرض له من الألم ما عرض ، قال للعماد: "اكتب إلى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية أن يتصدّقوا على الفقراء والمساكين" ، فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب ، فدفع بالصدقة البلاء ، ورفع للصدق الولاء ، ومن جملة تلك

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٧ - ١٨

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٤٠٣

(٣) المصدر السابق - ٤ / ٢١٩

الصدقات أنه أمر العماد أن يكتب إلى نائبه بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف سورية ، فقيل: ما عنده غير دنانير مصرية ، فقال: يتصدق بها مصرية خمسة آلاف لنفوز من الثواب بأضعاف^(١).
ولما زُرق بولده الملك الأفضل ليلة عيد الفطر فرح به فرحاً عظيماً ، وخلع وأعطى وتصدّق بما بهر به العقول^(٢) ، شكراً لله على نعمة الولد.

وفي سنة ٥٨١ هـ نزل بحران ، فتقرر فيها الصلح بينه وبين أهل الموصل في يوم عرفة ، وخطب له بجميع بلاد الموصل ، وقُطعت خطبة السلجوقية ، وخطب له في ديار بكر ، وضربت السكّة باسمه ، وأمر بالصدقات في جميع مملكته^(٣). ولما دخل رحمه الله إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ من غير مدافع أنفق في الناس مالاً جزيلاً ، وأمر بإطابة النفوس ، وإزالة المكوس^(٤) ؛ شكراً لله على ما أنعم به من نعم جلييلة كنعمة الصلح والفتح.

وقد حرص صلاح الدين على تعميم بلاده بالصدقات ، وغمّر جميع مملكته بوافر العطايا والنفقات ، ومن ذلك ما روي أنه في سنة ٥٦٧ هـ كان في مكة غلاء ، ففرّج الله على الناس بجلبّتين مشحونتين بالحبّ ، صدقة من السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٥) ، كما روي أنه كان يرسل غلالاً إلى مكة^(٦).

ولما أذن صلاح الدين للقاضي الفاضل في الحج اشترط عليه أن يتصدق بثلاثة آلاف دينار على أهل مكة والمدينة^(٧).

ولبيت المقدس نصيب وفير من نفقاته رحمه الله ، فقد روي أنه لما فتح بيت المقدس فرّج الله عمّن كان فيه من أسرى المسلمين ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف أسير ، وأقام يجمع الأموال ، ويفرّقها

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٤٠ - ٢٤١

(٢) المصدر السابق - ٢ / ١٥٣

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٨٩ - ٩٠

(٤) المصدر السابق - ١ / ٥٨

(٥) إتحاف الوري بأخبار أم القرى - ٢ / ٥٣٣

(٦) صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ٧ / ١١٤

(٧) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٥

على الأمراء والعلماء ، وقد رحل رحمه الله عن بيت المقدس ولم يبق معه من المال شيء ، وكان مئتي ألف دينار وعشرين ألفاً^(١).

وكان هدف صلاح الدين الرئيس من الإنفاق هو ابتغاء مرضاة الله ، بيد أنه كان يهدف منه في بعض الأحيان تقوية الدولة الإسلامية ، واستمالة قلوب الناس ، ومن ذلك أنه أكثر رحمه الله بعد توليه الوزارة في مصر من تفرقة الأموال ؛ لاستمالة الناس نحوه ، فتمكّن في فترة قصيرة من كسب قلوب الناس نحوه ، كما قام بإرسال الأموال والمؤن إلى مَنْ يحتاج إليها ، وهذا ما ساعده كثيراً على مواجهة التحديات الخارجية التي واجهته.

وبعد أن استنفد رحمه الله خزائن عمه طلب المال من الخليفة العاضد ، فأرسل إليه الكثير من المال ، والذي أنفقه على الذين تضرّروا من الحصار والحريق والنهب والسلب الذي حلّ بمصر^(٢). ولما استقرت قدمه في الوزارة والسياسة ، نظّم أمور الدولة بحسن تدبيره ، ورؤى بفسيح كرمه مَنْ بَعُدَ منه وقُرِبَ من أهل الفضل ، وأفاض على الناس من كرمه وجوده^(٣).

ولقد كان رحمه الله مغرمًا بالإنفاق على المجاهدين ؛ تشجيعاً وترغيباً لهم على الجهاد والمرابطة في سبيل الله ، وقد شهد بذلك العلامة أبوالمظفر يوسف بن قزأوغلي - سبط ابن الجوزي - في تاريخه "مرآة الزمان" ، فقال: "كان السلطان شجاعاً شهماً مجاهداً في سبيل الله ، وكان مغرمًا بالإنفاق في سبيل الله ، وقد حُسب ما أطلقه ووهبه مدّة مقامه على عكا مرابطاً للفرنج إلى يوم انفصاله عنها ، فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العرب والجياذ للحاضرين معه للجهاد ، غير ما أطلقه من الأموال"^(٤). كما روي أنه اهتمّ رحمه الله باستمالة قلوب الناس ببذل الأموال ، فمال إليه الناس وأحبوه^(٥).

ولما انتهت مرحلة الحروب الصليبية التي امتدّت أكثر من سنتين ، بقي صلاح الدين صابراً مرابطاً بالرغم من كلّ ما مرّ به من ظروف صعبة ومؤن على العساكر ، بحيث يُذكر أنه اشترى اثني

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٣٢

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره - ١٢٣ - ١٣٠

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١١٦ - ١١٧

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٨

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٧٢ ، وفيات الأعيان - ٧ / ١٥٥

عشر ألف رأس من الخيل أثناء هذه المدة ، فلم ييخل بما لديه ، ويخل العالم الإسلامي وملوكه عليه بكل شيء^(١).

٢- إنفاق بقية الملوك الأيوبيين:

سار بقية الملوك والأمراء على نهج مؤسس الدولة الأيوبية في الحرص على الإنفاق والإكثار منه ، فقد روي أن الملك العادل كان يخرج بنفسه في الليل ويفترق المال^(٢).

وعلى مثل سيرته كان الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة ، ابن أخي صلاح الدين ، فقد كان له في أبواب البر كلَّ حسنة ، كما كان كثير الإحسان إلى العلماء والفقراء وأرباب الخير^(٣)، وكان يُعنى بدفع الأموال لفكِّ الأسرى من الكفار ، وإذا وصل إليه الأسرى أعطاهم^(٤)، وقد روي أنه لم يكن شيء أحب إليه من الصدقة ، وكان له في كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز تفرَّق على المحاويج ، ويجمع خلق كثير عند بابه فيدخلهم إليه ، ويدفع لكل واحد منهم كسوة على حسب الفصل من شتاء أو صيف^(٥).

ومثله الملك عماد الدين أبو الفتح عثمان ، فقد أنفق رحمه الله في وجوه الخير ، فلم يبق في الخزانة درهم^(٦).

ومن الأمراء الذين عُرفوا بالإنفاق في سبيل الله الأمير بكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب، فقد روي أنه تصدَّق بذهب كثير في قحط مصر ، وكان يُكثر الصدقة عند نزول الآفات^(٧). ولقد كان لنساء الدولة الأيوبية نصيب وافر في الحرص على الإنفاق في سبيل الله ، فقد ذكرت كتب التاريخ عن ست الشام خاتون أخت الملك العادل أنها كانت كثيرة المعروف والبر والصدقات ، وكان يُعمل في دارها في السنة بمبلغ عظيم أشربة وعقاقير وتُفرِّقه على الناس^(٨).

(١) صلاح الدين- القائد وعصره - ٤٠٦

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٦٦ ، تاريخ الإسلام - ٢٩٦ وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ)

(٣) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٥٦

(٤) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥٥

(٥) المصدر السابق - ٥ / ٥٤

(٦) حسن المحاضرة - ٢٢

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١١٦

ومن النساء المشهورات بالإنفاق خاتون عصمة الدين بنت معين الدين زوجة صلاح الدين، فقد ذُكر عنها أنها كانت من أحسن النساء وأعقهن وأكثرهن صدقة^(٢).

وقد وصف الرحالة ابن جبير تلك المشاركة النسائية في الإنفاق في سبيل الله ، فقال: (ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار مَنْ تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة)^(٣).

٣- إنفاق بطانة صلاح الدين:

كان لبطانة صلاح الدين المقرّبين مشاركة واضحة في طرق أبواب الخير والمساهمة في الإنفاق ابتغاء مرضاة الله ، ومن هؤلاء البطانة الصالحة الأمير صارم الدين قايماز النجمي ، فقد كان متولّي أسباب صلاح الدين في محيّمه وبيوته ، يعمل عمل أستاذ الدار ، وإذا فتح بلداً سلّمه إليه واستأمنه عليه ، وقد حصل له من بلد آمد عند فتحه ، ومن ديار مصر عند موت العاضد أموال عظيمة ، فنصدّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية ، وهو بالعرف معروف ، وبالخير موصوف ، يجب بناء القناطر والرّبط ، وله مدرسة مجاورة لداره^(٤).

ومنهم أيضاً الحاجب لؤلؤ ، ومن مواقفه ومبرّاته الظاهرة: أنه لما حطّ القحط رحله ، وتمّ الغلاء ، وعمّ البلاء ، ابتكر هذا الحاجب مكرمة لم يُسبق إليها ، وذلك أنه كان يجبز كل ليلة اثني عشر ألف رغيف ، فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حُشر الفقراء ، ثم يفتح من الباب ما يخرج واحد بعد واحد ، ويعلم أنه غير عائد، فيتناول كل منهم قرصه ، وما يزال قاعداً حتى يُفترق الألوّف على الألوّف ، وكان هذا دأبه حتى عاد الرّحاء ، فحينئذ تنوّعت صدقاته ، واستغرقت بالصّلات أوقاته^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٤٤ ، تاريخ الإسلام - ٢٩٠ - وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ)

(٢) البداية والنهاية - ١٦ / ٥٧٣

(٣) رحلة ابن جبير - محمد بن أحمد بن جبير - ٢٨٤

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٦٤

(٥) المصدر السابق - ٤ / ٤٦٧

٤- إنفاق العلماء:

وكما كان ملوك الدولة الأيوبية مغرمين بالإكثار من الإنفاق ، كان علماءؤها أيضاً أمثال القاضي الفاضل والحافظ عبد الغني والعز بن عبد السلام وغيرهم كثير .
أما القاضي الفاضل فقد كان رحمه الله مع كثرة أمواله كثير الصدقات والصلوات ، هذا في الوقت الذي كان لباسه لا يساوي دينارين^(١).

وهذا الحافظ عبد الغني كان يخرج في الليل بأكياس الدقيق إلى بيوت الفقراء متنكراً في الظلمة، فيعطيهم ولا يُعرف ، وكان يُفتح عليه بالثياب ، فيُعطي الناس وثوبه مرقّع ، ولقد بعث إليه الأفضل بن صلاح الدين بنفقة وقمح كثير ، ففرقه كله ، وقد يُوفي المال عن بعض الغرماء من غير أن يُعلمهم ، وقال أحد معاصريه: شاهدت الحافظ عبد الغني في الغلاء بمصر ثلاث ليالٍ ، يؤثر بعشائه ويطوي ، وقد فُتح له بمصر بأشياء كثيرة من الذهب وغير ذلك فما كان يترك شيئاً^(٢).

ومن العلماء المشهورين بالإنفاق في سبيل الله فكان بذلك خير قدوة للمسلمين على مرّ التاريخ العز بن عبد السلام ، فقد كان مع فقره كثير الصدقات ، وربما قطع من عمامته وأعطى فقيراً يسأله إذا لم يجد معه غير عمامته. ولما كان العز بدمشق وقع غلاء كبير ، فأعطته زوجته مصوغاً لها، وقالت: اشتر لنا بستاناً نصيف به ، فباعه وتصدّق بثمنه ، فقالت: يا سيدي اشترت لنا؟ قال: نعم ، بستاناً في الجنة ، إني وجدت الناس في شدة فتصدّقت بثمنه ، فقالت: جزاك الله خيراً^(٣).

إن عدم اعتراض هذه الزوجة الصالحة ، ورضاها على إنفاق زوجها ، دليل واضح على اقتدائها به في ذلك الإنفاق السخي ، وسيرها على نهج القويم ابتغاءً لثواب الله وطلباً لمرضاته . وفي ذلك برهان بيّن على أهمية هذا الأسلوب وقوة تأثيره في مجال الدعوة.

ومنهم أيضاً يوسف بن رافع بن عناب ، فقد روي أن الملك الظاهر أقطعه إقطاعاً يحصل منه جملة كثيرة ، فتجمّع منه مال كثير ، فعمرّ منه مدرسة سنة ٦١٠ هـ ، ثم عمّر في جوارها دار حديث^(٤).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٩

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٧ ، تاريخ الإسلام - ٤٥١ وفيات (٥٩١-٦٠٠هـ)

(٣) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢١٤

(٤) تاريخ الإسلام - ١٣٥ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)

ومن العلماء الزاهدين المكثرين من الإنفاق في سبيل الله أبو عمر المقدسي ، فقد روي أنه كان يلبس في الشتاء جبّة من غير أن يلبس ما يسمّى بالتحّاني ؛ وذلك لأنه يكون قد تصدّق به^(١). وهو بصدقته هذه يؤثر غيره على نفسه ، متحمّلاً شدّة البرد ، وخشونة اللبس طلباً لرضا الله ، ورحمة بالعباد الفقراء.

ومن أوجه الإنفاق التي اشتهر بها الأيوبيون واعتنوا بها الوقف ، فقد شملت أوقاف المسلمين في العهد الأيوبي جوانب كثيرة من مرافق الحياة المختلفة ، فكان للوقف عندهم منافع لا تحصى ، وما تركوا حاجة من حاجات الأمة إلا وحسبوا لها أموالاً.

وقبل الحديث عن اهتمام الأيوبيين بالوقف أودّ الحديث عن تعريفه ، وأدلته الشرعية ، ومكانته في الإسلام.

تعريف الوقف لغةً واصطلاحاً:

لغة: وقفْتُ الشيء أَقِفُه وقفاً ، ووقفْتُ الدَّارَ : حبَّسْتُها ، ووقف الدار على المساكين وللمساكين إذا حبَّسها.

ولا يُقال: أوقف الدار ، وهي لغة رديئة ، وجمع الوقف أوقاف^(٢).

اصطلاحاً: حبس العين عن التملك مع التصدق بمنفعتها ، فتكون العين زائلة إلى مُلك الله تعالى^(٣).

مكانته في الإسلام:

إن الدعوة إلى الله تعالى يجب أن تكون شاملة لكل جوانب الحياة ، راعية لمصالح المجتمع كافة ، فهي تخدم الجوانب الثقافية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية... وغيرها من مجالات الحياة المختلفة .

(١) تاريخ الإسلام - ٢٦٦ وفيات (٦٠١ - ٦١٠هـ)

(٢) لسان العرب - مادة وقف - ٣٥٨/٩ ، المصباح المنير - أحمد بن محمد الفيومي - ٣٤٤ ، تاج العروس - الزبيدي - تحقيق: عمر التدمري - ١٢ / ٥٢٨

(٣) التعريفات - ٣٢٨ ، كشاف اصطلاحات الفنون - محمد التهانوني - تحقيق: علي دحروج - ٢ / ١٨٠٢

ومن أهم ما يخدم الأمة الإسلامية من الناحية الاقتصادية نظام الوقف ؛ فهو يوفر لها موارد مالية تمكنها من الوفاء بنفقات الكثير من المشروعات الدعوية والمؤسسات الخيرية ، بالإضافة إلى الثواب الجزيل الذي يلحق الواقف في حياته وبعد مماته .

ولقد حثّ الشارع الحكيم على استخدام نظام الوقف ، وهو بابٌ من أوسع أبواب الإنفاق ، قال تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^١ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَليمٌ) (١) ، كما جاء في الحديث الشريف: (عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) (٢) .

قال النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: " وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه " (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم: (من احتسب فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعدِهِ فإن شبعه وريته وروثه وبؤله في ميزانه يوم القيامة) (٤) .

وقد أوقف كثير من الصحابة رضي الله عنهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وبعد وفاته أيضاً ، فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ أصابَ أرضاً بخيبرَ ، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يستأمرُهُ فيها فقال: يا رسولَ اللهِ ، إني أصبْتُ أرضاً بخيبرَ لم أصبْ مالاَ قطُّ أنفَسَ عندي منه ، فما تأمرُ به؟ قال: إن شئتَ حبستَ أصلها وتصدقتَ بها. قال: فتصدَّقَ بها عمرُ أنَّه لا يُباعُ ولا يوهبُ ولا يُورثُ ، وتصدَّقَ بها في الفقراءِ وفي الثُّرَيِّ وفي الرِّقابِ وفي سبيلِ اللهِ وابنِ السَّبيلِ والضيِّفِ ، ولا جناحَ على مَنْ وليها أن يأكلَ منها بالمعروفِ ، ويُطعمَ غيرَ مُتموِّلٍ) (٥) .

(١) آية ٩٢ - سورة آل عمران

(٢) رواه مسلم في كتاب: الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ٧١/١١ ، برقم ٤١٧٧

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي - ١١ / ٨٥

(٤) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير ، باب من احتسب فرسًا لقوله تعالى ومن رباط الخيل ، ١٠٤٨/٣ ، برقم ٢٦٩٨

(٥) رواه البخاري في كتاب: الشروط ، باب: الشروط في الوقف ، ٩٨٢/٢ ، برقم ٢٥٨٦

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ينبغي لمن أراد أن يوقف أن ينظر إلى ما هو أقرب إلى رضا الله ومحبته وأنفع لعباده ، وأن يتحرى ما نتائجه أكثر ، وعوائده أعم وأنفع)^(١).

ولقد استخدم الدعاة الأيوبيون نظام الوقف على نحو واسع ، فأوقف الملوك والعلماء ، ولكنه كان في الملوك أكثر ؛ لتوفر المال عندهم أكثر من غيرهم . ولقد أشار ابن جبير إلى الموارد التي عينتها الدولة في عهد الدولة الأيوبية للإنفاق على المشروعات الخيرية والمؤسسات التعليمية ، وعبر عن كثرتها وسعة انتشارها ، فقال: (ولكلّ مشهد من هذه المشاهد أوقاف معيّنة من بساتين، وأرض بيضاء ، ورباع ، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها ، وكلّ مسجد يُستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يُعيّن لها السلطان الأيوبي أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها)^(٢). والمقصود بالخانقاه وقف على الصوفية ، وقد انتشرت في عهد الدولة الأيوبية^(٣).

أ- أوقاف الملوك

-أوقاف صلاح الدين:

لما ملك صلاح الدين لم يكن بمصر شيء من المدارس ، فعمر منها الكثير ، ورتّب لها الأوقاف^(٤) ، كما أمر باتخاذ دارٍ في القصر بيمارستاناً للمرضى ، ووقف عليه وقوفاً كثيرة^(٥).

وقد وقف رحمه الله ناحية (نقادة) من أعمال قوص بناحية الصعيد الأعلى ، وثلاث ناحية سندبيس من القيلوبية على أربعة وعشرين خادماً للخدمة في المسجد النبوي الشريف^(٦).

ومن أوقافه أيضاً قرية حزم باللوى من حوران ، وقفها على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه ، وعلى من يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق

(١) مجموع الفتاوى - ابن تيمية - ٣١ / ٣٨٧

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٨٨ - ٢٨٩ نقلا عن رحلة ابن جبير - ٢٤٨

(٣) حسن المحاضرة - ٢٦٠

(٤) وفيات الأعيان - ٧ / ٢٠٧

(٥) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٥١٩

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٥٧

المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي ، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضوع من أصحاب الإمام الشافعي ، وجعل النظر لقطب الدين النيسابوري رحمه الله . يقول أبو شامة: "ورأيت كتاب الوقف على هذه الصورة ، وعليه علامة السلطان رحمه الله: الحمد لله ، وبه توفيقي" (١).

ولما وصل السلطان إلى عكا قام ببعض الترتيبات الجديدة ، فوقف نصف دار الإستبارية على الفقهاء ، والنصف الثاني على الصوفية ، ووقف دار الأسقف بمارستاناً ، وسلّم الأوقاف جميعاً إلى أحد القضاة ليكون الناظر فيها (٢).

ولما فتح بيت المقدس قام أثناء إقامته بوقف عدد من الأوقاف: فوقف بعض عمائر حي البطريك على وجوه الخير والمصالح العامة ، كما أوقف بعد استشارة العلماء والفقهاء قصر بطريك الصليبيين القريب من الكنيسة رباطاً للصوفية ، ووقف عليه وقفاً كبيراً للقيام بمصلحه الكثيرة ، كما حوّل كنيسة في مجّع الاستبارية الكبير إلى مارستان ، وجّهه بكل ما يحتاج إليه ، ووقف عليه أوقافاً تفي بمصاريفه ، وأحضر إليه الأدوية والعقاقير النادرة من مختلف حواضر بلاده (٣).

وقد عبّر المؤرخ ابن خلكان عن إعجابه بسخاء صلاح الدين في أوقافه فيقول عنه: "ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل ، وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها ، ورّب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر ، وهذه صدقة السرّ على الحقيقة" (٤).

ومن الملوك الذين وقفوا الملك الكامل ، فقد روي أنه وقف الوقوف على أنواع البرّ ، وأنفق الأموال (٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٤٣٠

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٥١

(٣) المصدر السابق - ٣٤٠

(٤) وفيات الأعيان - ٧ / ٢٠٧ ، صلاح الدين - القائد وعصره - ٤٦٣

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٧

ومنهم الملك المنصور صاحب حماة ، فقد روي أنه ورد إلى بابه سيف الدين أبو الحسن علي الآمدي ، فبنى له المنصور مدرسة ، وأجرى له الأوقاف ، وواظب على حضور مجلسه^(١).

أما الأمير عز الدين عثمان بن الزنجيلي ، فقد روي أن له أوقافاً كثيرة وصدقات بمكة واليمن ودمشق ، وإليه تُنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة ، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق^(٢).

ب- أوقاف النساء

من النساء اللاتي حرصن على الوقف ست الشام خاتون ، فقد أوقفت مدارس، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة ، ولها برّ وصدقات^(٣).

ومنهن ربعة خاتون ، فقد وقفت مدرسة للحنابلة ، وجعلت عليها الأوقاف ، ولها تأليف ومجموعات^(٤).

ومن النساء الفاضلات اللاتي اشتهرن بالوقف ، الست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين نائب دمشق ، زوجة صلاح الدين ، كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة ، وهي واقفة المدرسة الخاتونية الجوانية ، وحناقه خاتون ، ولها أوقاف كثيرة غير ذلك ، ولها صدقات كثيرة وبرٌّ عظيم^(٥).

ج- أوقاف العلماء

من أشهر العلماء الذين اهتموا بالوقف القاضي الفاضل ، فقد روي أنّ أوقافه كانت على سبيل الخيرات متجاوزة عن الحساب ، ولا سيما أوقافه في فكّك أسارى المسلمين من أيدي

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٧٨ / ٤

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٩٧ / ٣

(٣) تاريخ الإسلام - ٢٩٠ - وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) ، سير أعلام النبلاء - ٧٨ / ٢٢

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٣٠

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ٥٠٧ / ١

النصارى، فقد كانت له أرض واسعة في مصر يؤجّرها بمبالغ كثيرة ، فلما بدأت حركة الجهاد ضد الصليبيين ، أوقف هذه الأراضي على تخليص أسرى المسلمين . وقد أعان طلبة العلم الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة ، والأيتام بالكتّاب والخيرات الدّارة على الأيام^(١).

ثالثاً: القدوة في الجرأة على قول الحق والرجوع إليه

لا بد للداعية الحق أن يكون جريئاً في قول الحق ، مقداماً لا يخاف في الله لومة لائم ؛ ولا يهاب العودة إلى الحق إذا تبين له أنه كان على خلافه ؛ وذلك ليكون من القوم الذين يحبهم الله تعالى ، والذين مدحهم جل وعز في قوله: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)^(٢).

فالداعية يُطبّق شرع الله قولاً وعملاً ، وإن سخط الناس جميعاً عليه ، ولا يهاب أحداً ما دام موقناً أنه على الطريق المستقيم الحق ، وأعماله موزونة بميزان الكتاب والسنة ، رائده في ذلك حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في قوله: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)^(٣)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله الناس ، ومن أسخط الله برضى الناس وكله الله إلى الناس)^(٤).

والداعية في كلّ هذا مقتدٍ بالرسول الله صلى الله عليه وسلم وبالسلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كانوا دائماً يتحرّون الحق حتى في السنن المستحبة والمندوبات ، ويقفون في وجه من خالف الحق مهما كان مركزه وسلطانه ، ويعودون إلى الصواب إذا نُبِّهوا أنهم كانوا على خلافه ، وشعارهم في ذلك: إني لا أخاف في الله لومة لائم .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٧٣ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٦٩٩

(٢) آية ٥٤ - سورة المائدة

(٣) مسند الإمام أحمد - ٢٢٧/١٧ ، برقم ١١١٤٣ - صحيح الجامع الصغير - الألباني - ٢٤٨/١ ، برقم ١١٠٠

(٤) رواه الترمذي - ٦٠٩/٤ ، برقم ٢٤١٤ - صححه الألباني في الجامع الصغير - ١٠٥٢/٢ ، برقم ٦٠٩٧

فليس المطلوب من العبد ألا يقع في الخطأ ، فهو بشر وخطأ والنسيان من طبائعه ، لكن المطلوب أن يكون سريعاً في العودة إلى الحق والتوبة إلى الله تعالى ، ليكون ممن قال الله فيهم: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (١).

والمثال في سير الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين رضي الله عنهم لن يجدهم متميزين بالعصمة ، لكنه سيجدهم ممن قلت أخطاؤهم ، وسارعوا إلى التوبة والرجوع إلى الحق ، ليكونوا ممن قال الله عنهم: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (٢).

ومن ضرب أروع الأمثلة في الرجوع إلى الحق الرسول صلى الله عليه وسلم فكان خير قدوة لأمته على مر التاريخ . ومن الأمثلة على رجوعه إلى الحق ما روي عن أنسٍ أَنَّ النَّبِيَّ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلْقِحُونَ. فَقَالَ: (لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ) قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصًا. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنِخْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ) (٣).

ومثال آخر يبلغ يضربه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرجوع إلى الحق عندما يُنْبَه إليه، فقد روي عن أبي هريرة قال: (صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلَاتِي الْعَشِيِّ، فَصَلَّى بِنَا رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ، فَقَامَ إِلَى خَشَبَةٍ مَعْرُوضَةٍ فِي الْمَسْجِدِ ، فَاتَّكَأَ عَلَيْهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانٌ وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، وَوَضَعَ خَدَّهُ الْأَيْمَنَ عَلَى ظَهْرِ كَفِّهِ الْيُسْرَى ، وَخَرَجَتِ السَّرْعَانُ مِنَ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ ، فَقَالُوا: قَصُرَتِ الصَّلَاةُ. وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ ، فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ ، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ فِي يَدَيْهِ طُولٌ يُقَالُ لَهُ ذُو الْيَدَيْنِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْسَيْتَ أَمْ قَصُرَتِ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرَ. قَالَ: أَكَمَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ. فَتَقَدَّمَ ، فَصَلَّى مَا تَرَكَ

(١) آية ١٣٥ - آل عمران

(٢) آية ٢٠١ - سورة الأعراف

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب: الفضائل ، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل

الرأي ، ١٥/١٠٠ ، برقم ٦٠٨١

ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ ، ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ، ثُمَّ سَلَّمَ (١).

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ضرب لنا مثلاً رفيعاً في سرعة الفيئة حين علم أن مسطح بن أثاثة -الذي يأكل من نفقة أبي بكر- كان قد شارك في اتهام ابنته السيدة عائشة بحديث الإفك، فأقسم أبو بكر ألا ينفق عليه ، فنزل قوله تعالى: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٢) ، فما أن سمع أبو بكر خاتمة الآية حتى صاح: "بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي" ، وتغلب على عواطفه التي تدعوه للتأثر لعرض ابنته البريئة ، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : "والله لا أنزعها منه أبداً" (٣).

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أكمل الصحابة معرفة ، وأرفعهم مكانة ، يتبين له الصواب فيرجع إليه ، ولعل في ذلك دليلاً واضحاً لكلا يستكبر مسلم بعده عن الرجوع إلى الحق متى ظهر له.

ويضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لؤلؤاته على الأمصار قاعدة عظيمة في القضاء الإسلامي وهي قاعدة: (الرجوع إلى الحق) ، وذلك في الكتاب البليغ الذي أرسله إلى أبي موسى الأشعري لما ولاه الكوفة ، وقد جاء فيه: (ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماسي في الباطل) (٤).

ولقد برز في عهد الدولة الأيوبية عدد من الدعاة الأقوياء الذين كانوا يقفون في وجه السلطان المخطئ ، قائلين كلمتهم دون هيبة أو وجل أو خوف من عاقبة جراتهم ، فهم أحدهم قول الحق ودعوة المخالف إلى الرجوع إليه.

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، ١/١٨٢ ، برقم ٤٧٦

(٢) آية ٢٢ - سورة النور

(٣) رواه مسلم في كتاب: المغازي ، باب: حديث الإفك ، ٤/١٥١٧ ، برقم ٤٠٥٢

(٤) مقدمة ابن خلدون - الكتاب الأول - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - ١/٢٢٢

١- جرأة الملك الكامل:

حكى لنا التاريخ عن الملك الكامل رحمه الله أنه كان شديد البأس ، قوي النفس ، لم ينقهر للتتار بحيث إنهم أخذوا أولاده من حصنهم ، وأتوه بهم إلى تحت سور ميّافارقين ، وكلموه أن يسلم البلد بالأمان ، فقال: ما لكم عندي إلا السيف . ولما دخل التتار دار الكامل وأمنوه ، وأتوا به إلى هولاء بالرها ، فإذا هو يشرب الخمر ، فناول الكامل كأساً فأبى ، وقال: هذا حرام ، فقال لامرأته: ناوليه أنتِ ، فناولته فأبى ، وشتم وبصق - فيما قيل - في وجه هولاء ، فاستشاط هولاء غضباً وقتله ، فصار اسمه بعد ذلك الشهيد^(١).

٢- جرأة العلماء:

كثرت الشواهد التاريخية على جرأة العلماء في قول الحق ، وبرز عدد من العلماء الذين وقفوا في وجه السلاطين ، ودعواهم إلى الرجوع إلى شرع الله القويم ، ومن هؤلاء العلماء الأفاضل :

أ- **الحافظ عبد الغني المقدسي:** فقد كان رحمه الله لا يرى منكراً إلا غيرّه بيده أو بلسانه ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولقد شُهد مرة يريق خمراً ، فجبذ صاحبه السيف ، فلم يخف وأخذه من يده . قال الموفق عنه: (كان لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه ، وكنا مرة أنكروا على قوم ، وأرقتنا خمرهم وتضاربنا ، فسمع خالي أبو عمر فضاق صدره وخاصمنا ، فلما جئنا إلى الحافظ طيّب قلوبنا وصوّب فعلنا وتلا قوله تعالى: (يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)^(٢)).

وروي أن بعض أولاد صلاح الدين عملت له طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابير فكسره^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٠٢

(٢) آية ١٧ - سورة لقمان

(٣) تاريخ الإسلام - ٤٤٩ وفيات (٦٠٠ - ٦١٠ هـ) ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٤

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٤

ولقد دخل يوماً على العادل فقال: ما خفت من أحد ما خفت من هذا الرجل، فقيل له: أيها الملك هذا رجل فقيه ، فقال: لما دخل ما خيل إلي إلا أنه سبع^(١).

وكان في دولة الأفضل مَلاهِ جعلوها عند الدرج ، فجاء الحافظ فكسر شيئاً كثيراً ، ثم صعد يقرأ الحديث ، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه لينظره في الدف والشبابة فقال : ذاك عندي حرام ولا أمشي إليه ، ثم قرأ الحديث^(٢).

وقام الحافظ عبد الغني بنشر أحاديث النزول والصفات ، فقاموا عليه ورموه بالتجسيم، فما دارى^(٣).

ولقد زُوي أنه أمر أن يكتب اعتقاده ، فكتب: أقول كذا لقول الله كذا ، وأقول كذا لقول النبي صلى الله عليه وسلم كذا ، حتى فرغ من المسائل التي يُخالفون فيها، فلما رآها الكامل قال: أيش أقول في هذا؟ يقول بقول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم^(٤).

إن ثبات الحافظ عبد الغني على موقفه الشرعي الصحيح ، والتمسك بالمبادئ الإسلامية ، يعطي للداعية أنموذجاً تطبيقياً قوياً في الجرأة على قول الحق ، وهو جدير بحق أن يُقتدى به في هذا المجال .

ب-الحافظ اليونيني: وبمزيد من النظر في كتب التاريخ أجد مواقف لدعاة آخرين لا تقل روعة عن مواقف الحافظ عبد الغني من حيث قوة الشخصية ، والجرأة في قول الحق والمجاهرة به ، ومن هؤلاء الحافظ عبد الله بن عثمان اليونيني ، فقد كان أماراً بالمعروف تهاً عن المنكر ، لا يهاب أحداً، شجاعاً مجداً مهيباً ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

وقد حكى أن العادل أتى والشيخ يتوضأ ، فجعل تحت سجاده دنانير ، فردّها وقال: كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق؟ فأبطل العادل ذلك^(١).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٤

(٢) تاريخ الإسلام - ٤٥٠ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٦

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٥٥

(٤) المصدر السابق - ٢١ / ٤٦٣

وكان الأجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له: (فعلت كذا وكذا) ، ويأمره بما يأمره ،
وينهاه عما ينهاه^(٢).

ج- الإمام النووي:

من الدعاة البارزين في قول الحق ، وقد عاصر ملوك أواخر الدولة الأيوبية ، وكان مواجهاً
للملوك والجباة بالإنكار^(٣).

وعندما أراد الملك الظاهر فرض الضرائب أرسل إليه: (إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق
وضعف بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار، وتجب الشفقة على الرعية، والدين النصيحة) ، فردّ
الظاهر ردّاً عنيفاً ، وردّ النووي ردّاً أعنف ، حتى كان الظاهر يقول: (أنا أفرع منه)^(٤).

د- الحافظ ابن عساكر:

وعلى نهج هؤلاء الأفاضل كان العالم الحافظ ابن عساكر ، فقد كان قد عاهد نفسه على
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم^(٥)، وقد روي أن الملك المعظم لما
أعاد الخمر أنكر عليه رحمه الله ، كما أنكر تضمين الخمر والمكس ، فأخذ منه تدريس المدرسة
التقوية ، وصلاحية القدس ، ولم يؤلّه تدريس العادلية^(٦).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٠١ ، تاريخ الإسلام - ٣٣٨ وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ١٠٣

(٣) الإمام النووي - ١٢٣

(٤) العز بن عبد السلام - ٣٤

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٥٥٦

(٦) المصدر السابق - ٢ / ١٨٨ ، البداية والنهاية - ١٧ / ١٢٢

هـ- ابن الحرستاني :

وله مواقف مشهورة في الجرأة والإصرار على تطبيق الحق وعدم المحاباة ، فقد روي أنه أتى يوماً بكتاب ، فرمى به وقال: (كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب) ، فبلغ العادل قوله فقال: (صَدَق، كتاب الله أولى من كتابي) ، وكان يقول للعادل: (أنا ما أحكم إلا بالشرع ، وإلا ما سألتك القضاء ، فإن شئت فأبصر غيري). وقد قيل له مرة: السلطان يسلم عليك ويوصي بفلان فإن له محاكمة ، فغضب وقال: الشرع ما يكون فيه وصية^(١).

و-الإمام العز بن عبد السلام:

ولقد برز في العصر الأيوبي عالم جليل اشتهر بالجرأة والشدة ، ورويت عنه مواقف كثيرة في ذلك ، وهذا يعطي الداعية درساً في إمكان تطبيق تلك الجرأة في مواضعها ، ويدفعه إلى الاقتداء بمثل هذا العالم الجريء ، هذا العالم هو سلطان العلماء العز بن عبد السلام .

قال عنه الكتبي : "كان أماراً بالمعروف نهاءً عن المنكر ، لا يخاف في الله لومة لائم"^(٢).

ولأحكام الشرع عند العز مكانة عظيمة ، فهو لا يرضى بانتهاكها أبداً حتى ولو كان السلطان نفسه ، وهو لا يهاب حاكماً ولا غيره إن انتهكت محارم الدين.

وكان رحمه الله متعالياً على الحكام لا بالتكبر عليهم أو البعد عنهم ، وإنما برفع راية العلم فوق رؤوسهم ، وهو قد يضحى بنفسه ومنصبه في سبيل ذلك^(٣)، وجرأة عز الدين هذه لم تكن على ضعاف النفوس أو على شرع الله كما كان يحصل من أنصاف العلماء ، وإنما كانت في مواطنها المطلوبة ، ولقد كان يستمدُّ جرأته من ثقته بالله وإعلانه لشرعه ، دون أن يكون له مطمع شخصي

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٨٠ - ٨٢

(٢) فوات الوفيات - محمد بن شاعر الكتبي - تحقيق: د/ إحسان عباس - ١ / ٥٩٥

(٣) العز بن عبد السلام - ٤٤

أو خوف على نفسه^(١). وقد سأله الكامل يوماً عن ما يصدر من أخيه الملك اسماعيل من هوية رمي البندق ، وهل يجوز ذلك؟ فلم يتهيّب العز من بيان الحق وقال: (بل يحرم عليه ذلك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه)^(٢).

وللعز بن عبد السلام مواقف مشهورة مع عدد من الملوك الأيوبيين، من ذلك:

١- موقفه مع الأشرف:

فقد روي أنه اختلف مع الأشرف الذي قال فيه كلاماً شديداً . فناصر العزّ ابن عبد السلام أبو عمرو بن الحاجب وجمال الدين الحصري ، وأنكرا على الملك الأشرف ، فترجع الملك وقال: (نحن نستغفر الله مما جرى ، والله لأجعلنّه أغنى العلماء)^(٣)، ثم إنه طلب الاجتماع بالعز بن عبد السلام ، فعنّف العز الملك قائلاً له: (تساوي بين أهل الحق والباطل ، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يكتموا ما أنزل الله إليهم؟ وكان الطريق أن تمكّن أهل السنة من أن يلحنوا بحججهم وأن يُظهروا دين الله ، وأن تُمكّن الموحّدين من إرشاد المسلمين وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين)^(٤).

٢- موقفه مع الملك الصالح اسماعيل:

ومن الملوك الذين كان للعز بن عبد السلام موقف معهم: الملك الصالح اسماعيل في دمشق، فقد رُوي أن الملك الصالح إسماعيل الأيوبي لما حكم دمشق ولّى العز بن عبد السلام خطابة الجامع الأموي الكبير بدمشق ، وبعد مدة قام الملك الصالح إسماعيل بقتال ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر لانتزاع السلطه من يده ، فوالى الصليبيين وأعطاهم حصن الصنفد والشقيف ،

(١) العز بن عبد السلام - ١١٣

(٢) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٤١

(٣) المصدر السابق - ٨ / ٢١٨

(٤) المصدر السابق - ٨ / ٢٣٧

وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح والطعام ، فمقتته المسلمون ، وغَضِبَ العز ، وصعد المنبر ، وخطب في الناس خطبة عصماء ، وأفتى بجرمة بيع السلاح للفرنجة ، وحرمة الصلح معهم ؛ لأنهم أعداء للإسلام والمسلمين ، وفي بيع السلاح لهم إضعاف لقوة المسلمين ، وزيادة في تفوق الأعداء عليهم ، وقال في آخر خطبته: "اللهم أبرم أمر رشد لهذه الأمة يعز فيه أهل طاعتك ، ويذل فيه أهل معصيتك ويؤمر بالمعروف وينهى فيه عن المنكر" ثم نزل . كما أنكرك عليه أبو عمرو بن الحاجب شيخ المالكية ، فلما علم الملك الصالح إسماعيل بذلك ، غضب عليهما غضباً شديداً وسجنهما ، وأمر بإبعاد العز عن الخطابة ، ثم أخرجهما من السجن ، وألزمهما منازلهما ، فخرج الشيخان من دمشق ، فقصده أبو عمرو الناصر داود في الكرك ، ودخل عز الدين الديار المصرية ، فتلقاه صاحبها الصالح أيوب بالاحترام والإكرام ، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر^(١).

٣- مواقفه مع الملك الصالح نجم الدين بن أيوب في مصر:

انتقل العز بعدها إلى مصر ، فوصلها سنة ٦٣٩هـ ، فرحب به الملك الصالح نجم الدين ، وولاه الخطابة والقضاء ، وكان أول ما لاحظته بعد توليه القضاء قيام الأمراء المماليك المملوكين للدولة الإسلامية بالبيع والشراء وقبض الأثمان ، وهو ما يتعارض مع الشرع ، إذ إنهم في الأصل مملوكون ، لا يحقُّ لهم البيع والشراء والزواج من حرائر نساء مصر ، فكان لا يُمضي لهم بيعاً ولا شراءً ، حتى تكالبوا عليه ، وشكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه فتوى الشيخ العز ، فذهب إلى الشيخ يسأله أن يعدل عن فتواه ، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء فليس هذا للسلطان ، فإن تدخل فالشيخ يقيل نفسه. فاجتمع أمراء الدولة من الأتراك و أرسلوا اليه ، فقال الشيخ: "نعقد لكم مجلساً و ننادي عليكم (بالبيع) لبيت مال المسلمين". فاستشاط نائب السلطنة غضباً ، و كان من المماليك ، وأقسم ليقتلنَّ الشيخ بسيفه ، وذهب إلى الشيخ عز الدين مع جماعة من الأمراء وطرق بابه ، ففتح الباب ابنه عبداللطيف ، فراعه منظر نائب السلطنة إذ رأى سيفه مسلولاً ، والغضب يعلو وجهه ، فدخل على والده وقال: انجُ بنفسك إنه القتل ، فردَّ عليه الشيخ بقوله: أبوك أقل من

(١) البداية والنهاية - ١٧ / ٢٥١ ، ذيل الروضتين - ١٧٠ - ١٧١ ، المنهل الصافي - ١ / ٢٨٦ ، العبر في خبر من عبر -

٣ / ٢٣٢ ، تاريخ الإسلام - ٤٠ وفيات (٦٣١-٦٤٠هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٤٢ - ٢٤٣

أن يُقتل في سبيل الله ، ثم خرج ، وحين وقع بصَرُّه على النائب سقط السيف من يد النائب وارتعد ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال: يا سيدي ماذا ستفعل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

إلا أن السلطان لم يذعن لحكم الشيخ ، فأرسل اليه من يتلطف إليه ، و بعد إصرار الشيخ أخبره الرسول أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء ، و أمر السلطان واجب ، و هو فوق قضاء الشيخ عز الدين ، وعلى أية حال فليس للشيخ أن يدخل في أمور الدولة ، فشؤون الأمراء لا تتعلق به ، بل بالسلطان وحده.

فأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء ، وقام فجمع أمتعته ، ووضعها على حمار ، ووضع أهله على حمير أخرى ، و ساق الحمير ماشياً . ولما سئل: إلى أين يا شيخ؟ قال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ ففيم المقام بأرض يُستضعف فيها أهل الشريعة ويُعتدى فيها على القضاء؟ فتجمع الناس وراءه ، وتبعه العلماء والصالحون والتجار والنساء والصبيان ، حتى كادت مصر تخلو من سكانها ، فخرج الملك الصالح مسرعاً ، ولحق بالعز وأدركه في الطريق وترضاه ، وطلب منه أن يعود وينفذ حكم الله ، فتم له ذلك ، واشتهر العز بعدها بأنه بائع الملوك^(١).

ولما أراد الظاهر بيبرس أن يستلم السلطة ، استدعى العلماء لمبايعته ، وكان بينهم العز الذي فاجأ بيبرس بقوله: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار -أي لا تصح بيعته- فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن أحضر ما يثبت أن البندقدار قد وهبه للملك الصالح أيوب الذي أعتقه ، وهنا تقدّم الشيخ فبايع بيبرس على الملك ، وكان هذا الملك من أعظم الملوك الذين حاربوا الصليبيين والتتار^(٢).

ولقد كان للعز رحمه الله مواقف جريئة مع الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ، واجهه فيها بأخطائه ، وأمره بالرجوع عنها والتوبة إلى الله تعالى .

من ذلك ما روي أن الشيخ عز الدين طلع ذات مرة إلى السلطان في يوم عيدٍ إلى القلعة ، فشاهد الأمراء والخدم والحشم يقبلون الأرض أمام السلطان ، وشاهد الجند صفوفًا أمامه ، ورأى

(١) حسن المحاضرة - ٣٤ ، طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢١٧

(٢) العز بن عبد السلام - ١١٤

الأبَّهة والعظمة تُحيطان به من كل جانب ، فتقدم الشيخ إلى السلطان، وناداه باسمه مجردًا قائلاً: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوي لك مصر ، ثم تبيح الخمر؟ فقال السلطان نجم الدين أيوب: هل جرى هذا؟ قال الشيخ: نعم تباع الخمر في الحانات وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، وأخذ الشيخ يناديه بأعلى صوته ، والعساكر واقفون ، فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عمَلته ، هذا من زمان أبي ، فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ) ^(١) ، فأصدر السلطان أوامره بإغلاق تلك الحانات ، ومنع تلك المفاصد ، وشاع الخبر بين جمهور المسلمين وأهل القاهرة، فسأل أحد تلاميذ الشيخ عن السبب الذي جعله ينصح السلطان أمام خدمه وعساكره في مثل هذا اليوم الكريم؟ فقال الشيخ: يا بني ، رأيتُ السلطان في تلك العظمة ، فأردتُ أن أذكره ؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، قال التلميذ: أما خفته؟ قال عز الدين: والله يا بني استحضرْتُ هيبة الله تعالى فصار قدامي كالقط ^(٢).

ومن مواقفه أيضاً أن بعض تلامذته أتوه في يوم من الأيام ، فقالوا: إن أستاذ الدار عند السلطان بنى فوق مسجد بالقاهرة طبلخانة -أي مكان مخصص للغناء والرقص والموسيقى والفساد- فلما تأكد العز بن عبد السلام من صحة هذا الخبر أصدر أمره ، وهو رئيس القضاة ، بهدمها بنفسه مع أولاده وبعض تلامذته ، و ذهب إلى المكان الذي يسمونه الطبلخانة ، وقام وأخذ الفأس ، و بدأ في هدم هذا المكان حتى سَوَّوه بالأرض ، ثم عزل نفسه عن القضاء ، فأدرك السلطان نجم الدين أهمية الشيخ فاسترضاه ^(٣).

(١) آية ٢٢ - سورة الزخرف

(٢) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ١١

(٣) المصدر السابق - ٨ / ٢١١ ، العز بن عبد السلام - ٧٨

نماذج متنوعة من الدعاة المتصنيفين بالجرأة على قول الحق:

- محمد بن الموفق الخبوشاني ، كان يقول بملء فيه: (أصعد إلى مصر لأزيل ملك بني عبيد اليهودي) ، وجعل تسييحه سبهم ، ورفض المال الذي أرسلوه إليه ، ورمى الدنانير ، وضرب رسولهم على رأسه . وبعد موت الخليفة العاضد أمر الخطيب أن يخطب للخليفة العباسي^(١).
- عبد الله الأذري ، أغلظ للسلطان في خطابه ، إذ قال بدار العدل: "اليد لأرباب الأملاك ، ولا يجل لأحد أن ينازعهم في أملاكهم ، ومن استحل ما حرم الله فقد كفر" ، فغضب السلطان غضباً شديداً وتغيّر لونه ، وقال: أنا أكفر؟ انظروا لكم سلطاناً غيري ، وانفضّ المجلس على وحشة من السلطان . فلما كان الليل أرسل السلطان في طلب القاضي ، فلما دخل عليه قام له ، وعظّمه ، وخلع عليه ، ونزل مجبوراً معظماً^(٢).
- محمود بن همام الدمشقي ، ما كان يُدهن أحداً في الحق ، ويُكلّم من حضره بالحق سواء كان أميراً أو قاضياً أو فقيهاً ، ولأهل السنة كان ناصرًا^(٣).
- قاضي الإسكندرية وخطيبها المفتي جمال الدين الريغي ، كان تقياً ورعاً ، لا تأخذه في الله لومة لائم^(٤).
- شهاب الدين الطوسي ، أكبر أئمة الشافعية ورئيسها ، وإليه فتياها وتدريسها ، وكم واجه الملوك بالحق المرّ ، وأنكر عليهم ما ينكرونه من العرف ، ويعرفونه من المنكر^(٥).
- الحافظ العماد ، كان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يرى أحداً يسيء صلواته إلا قال له وعلمه ، وقد خرج مرة إلى فسّاق فكسر ما معهم ، فضربوه حتى عُشي عليه ، فأراد الوالي ضربهم ، فقال: (إن تابوا ولزموا الصلاة فلا تؤذوهم ، وهم في حل)^(١).

(١) تاريخ الإسلام - ٢٨٠ وفيات (٥٨١-٥٩٠هـ)

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٤٤٣

(٣) تاريخ الإسلام - ٨٥ وفيات سنة (٦٣١-٦٤٠هـ)

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٧٣

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٦٨

- أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي ، كان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته ويكتب فيه إلى الملك ، حتى سمعنا عن بعض الملوك أنه قال: هذا شريك في ملكي^(٢).
- عبد الرحمن المقدسي بهاء الدين ، كان قوَّالاً بالحق ، لا يخاف في الله لومة لائم^(٣).
- سبط ابن الجوزي ، كان عالماً مُنكراً على أرباب الدول ، وتأتي الملوك وأرباب الدولة إليه زائرين وقاصدين^(٤).
- عماد الدين بن المشطوب الهكاري ، كان أميراً كبيراً ، وافر الحرمة عند الملوك ، وكان شجاعاً تمَّابه الملوك^(٥).

٣- رجوع الدعاة إلى الحق:

كان من أبرز مواقف الدعاة الأيوبيين الدالة على أهمية الرجوع إلى الحق وضرورة ذلك في مجال الدعوة موقف عظيم للعز يدل على جرأته العظيمة ، ووقوفه إلى جانب الحق ، وإن كان على حساب نفسه وسمعته ، فقد روي أنه أعلن بكل جرأة عدوله عن فتوى أفتى بها ، إذ ظهر له أنه أخطأ في تلك الفتوى ، فينادي رحمه الله في القاهرة على نفسه: (مَنْ أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ)^(٦).

ومثال بارز آخر على رجوع الداعية إلى الحق ما صدر من الأشرف عندما ندم على ما بدر منه تجاه العز بن عبد السلام عندما أخطأ في حقه، وأتَّهمه باتهامات باطلة، فصرَّح بخجله من الشيخ وقال: "لقد غلطنا في حق العز غلطة عظيمة"، وصار يترضاه، ويعمل بفتاويه ، ويطلب أن يقرأ عليه تصانيفه^(٧).

(١) تاريخ الإسلام - ١٨٦ وفيات (٦١١-٦٢٠هـ)

(٢) سير أعلام النبلاء - ٨ / ٢

(٣) تاريخ الإسلام - ١٩٣ وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ)

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ٤٧٧ / ١

(٥) وفيات الأعيان - ١٨٠ / ١

(٦) طبقات الشافعية الكبرى - ٢١٤ / ٨

(٧) المصدر السابق - ٢٣٨ / ٨

ومن هذه النماذج المضيئة يتضح لنا جلياً أهمية اتصاف الداعية بقوة الشخصية ، والجرأة على قول الحق ، ومواجهة المخطئ ببيان خطئه، ومحاولة رده عن ذلك الخطأ، والحرص على العودة إلى الحق إذا اتضح أنه كان على خلافه ، مع تحفظ على شدة بعضهم في التعامل مع الخطأ.

رابعاً: القدوة في الحرص على مصالح الناس

ربّي الإسلام أبنائه على استشعار أنهم أمة واحدة وجسد واحد ، يهتم بعضهم بأمر بعض، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ^١ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^(١)، وقال جل وعز: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)^(٢). ولقد مدح الله الأنصار رضي الله عنهم لاهتمامهم بأمر المهاجرين ورعايتهم لمصالحهم ، فقال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^٣ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٣) .

ورسول صلى الله عليه وسلم أكّد هذا المعنى وشدد عليه حين قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ)^(٤) ، وقال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)^(٥) ، كما قال أيضاً: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)^(٦).

(١) آية ١٠ - سورة الحجرات

(٢) آية ٩٢ - سورة الأنبياء

(٣) آية ٩ - سورة الحشر

(٤) رواه البخاري ، كتاب: الصلاة ، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، ١٢٨/١ ، برقم ٤٦٧

(٥) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب ، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، ١١٩/١٦ ، برقم ٦٥٣٨

(٦) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ،

١٥/٢ ، برقم ١٣٣

لذا كان من الأمور الهامة التي ينبغي للداعية الاهتمام بها والحرص على متابعتها: مصالح الناس وشؤون حياتهم الضرورية ، ولا سيما إذا كان لهذا الداعية مركز مهم في الدولة الإسلامية ، فهو بذلك الاهتمام والمتابعة سيكسب قلوب الناس ، وودّهم ، ويكون خير قدوة عملية لهم في تقديم الخدمة لمن يحتاجها ، والنصيحة لمن يجهلها ، بل وينفع الداعية بها ذاته أيضاً ، إذ إنها تنمّي فيه خلق التواضع ، وتعمقّ فيه معاني الخير ، وتجعل المجتمع يرى فيه حرصاً عملياً على كل ما يعود عليهم بنفع، أو يدفع عنهم ضرراً.

والأصل في الداعية أنه يسعى بكل جهده لنفع الناس ، ولكننا للأسف نفتقر إلى كثير من هذا في مجتمعنا الإسلامي المعاصر ، فنرى كثيراً من جوانب من الخير مخبوءة في نفوس أصحابها غير متعدية إلى الآخرين ، وكم يكون مخزناً حين تجد فقيهاً بصحبة جاهل، وقارئاً برفقة أمي ، وعابداً بجوار فاسق ، دون أن يتعدى نفع أي واحد منهم إلى صاحبه.

ولقد اطلعتُ على عدد من الأمثلة الدالة على حرص دعاة الدولة الأيوبية - ملوكاً وعلماء - على الاهتمام بمصالح الناس ومتابعتها وفيما يلي أمثلة لها .
من ذلك ما روي عن الموفق عبد اللطيف أحد معاصري صلاح الدين أنّ صلاح الدين كان يصرف أكثر الليل في تدبير ما يعملُه نهاراً^(١). كما وصفه العماد بقوله: (وكان صلاح الدين يدأب في يومه لغده ، مجتهداً في الزيادة على أمسه ، نائباً عن أعوان المسلمين ، ساهراً لهم في ليلهم، قائماً بأمرهم)^(٢).

ومنهم الملك العادل ، فقد قال عنه ابن واصل: " رأيتُه بالقدس ، الرجال والنساء يزاحمونه فلا يرُدُّهم"^(٣). كما روي أنه أحسن إلى الحُجَّاج ، وعزم على تسهيل طريق الحجاج ، وأن يبني في كلِّ منزلة مكاناً^(٤).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٦

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٣٠٣

(٣) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٨٥

(٤) المصدر السابق - ١ / ٥٨٣

والمملك الكامل محمد بن الغازي من المهتمين بأمور الرعية أيضاً ، فقد روي أنه كان محسناً لهم^(١). ومثله شيركوه أمير حمص ، فقد كان همّه في مصالح مملكه^(٢). ومنهم الملك الظاهر ، فقد روي أنه كان محسناً للرعية ، ويزور الصالحين ويتفقدهم^(٣).

ومن النساء اللواتي اشتهرن بقضاء الحوائج ستّ الشام خاتون ، فقد روي أن بابها كان ملجأ كل قاصدٍ في حاجة إلى الدولة^(٤).

أما العلماء الأيوبيون المهتمون بأمور الرعية فمن أشهرهم:

- الحافظ محمد بن عبد الغني ، فقد ذكر عنه أحد معاصريه: (أنه كان يسارع إلى الخيرات وإلى مصالح الجماعة ، ولما عزمْتُ على التزويج قام في ذلك ، وما أحوجني إلى تكلف شيء)^(٥).
- عيسى الهكاري الفقيه ، اشتهر بقضاء الحوائج ، فكان لا يدخل على صلاح الدين إلا ومعه أوراق في يده وفي عمامته ، فيكتب له عليها^(٦).
- أبو عمر بن قدامة المقدسي الجماعيلي ، كان يتفقد الأشياء النافعة كالنهر والسقاية ، كان قاضياً لحوائج الناس ، ومن سافر من الجماعة يتفقد أهاليهم ، وكان الناس يأتونه في القضايا فيُصلح بينهم^(٧).
- أبو حامد محمد بن كمال الدين ، كان يؤدي عن الغرماء^(٨).

(١) ذيل مرآة الزمان - ١ / ٤٣٠

(٢) تاريخ الإسلام - ٣٢٨ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٨

(٤) تاريخ الإسلام - ٢٩٠ - وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ)

(٥) المصدر السابق - ١٦٨ وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ)

(٦) المصدر السابق - ٢٢٥ وفيات (٥٨١ - ٥٩٠ هـ)

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٥ ، تاريخ الإسلام - ٢٦٦ وفيات (٦٠١ - ٦١٠ هـ)

(٨) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٦١

وبهذا يتضح حرص أولئك الدعاة على مصالح الناس ومتابعتها ، وما ذلك إلا لقناعتهم بأهمية هذا الأمر في الدعوة إلى الله تعالى ، فاهتمام الداعية بمصالح المدعو يعكس اهتمامه بالمدعو ذاته ، فيشعر المدعو بأهميته عند الداعية ، فيسارع إلى الاستماع له ، والاهتمام بتوجيهاته ، والتي من خلالها يستطيع الداعية أن يصحح ما عنده من أخطاء ، ويقوم مساره. والدعاة الأيوبيون بذلك الحرص أثبتوا أهمية هذا الأسلوب القويم ، فكانوا خير قدوة للدعاة المعاصرين لهم ومن تبعهم على مرّ العصور.

المطلب الثاني: أسلوب الموعدة الحسنة

أسلوب الموعدة الحسنة من الأساليب الهامة في مجال الدعوة ، فهو أسلوب نبوي استخدمه الأنبياء والدعاة على مرّ الأزمان والعصور ؛ نظراً لتأثيره القوي في النفوس. واهتم الدعاة الأيوبيون بأسلوب الموعدة الحسنة ، واستخدموه في دعوتهم ، ولذلك شواهد كثيرة يمكن الرجوع إليها بالاطلاع على تاريخ هذه الدولة المباركة. وفي هذا المبحث سأحدث بإذن الله تعالى عن أسلوب الموعدة الحسنة من خلال النقاط التالية:

- ١ تعريف الموعدة الحسنة
- ٢ أهمية أسلوب الموعدة الحسنة
- ٣ أشهر الوعاظ الأيوبيين
- ٤ نماذج من مواعظ الدعاة الأيوبيين

أولاً: تعريف الموعظة الحسنة

الموعظة والعِظة والوعظ في اللغة: النصح والتذكير بالعواقب.

قال ابن سيده: "هو تذكيرك للإنسان بما يُليِّن قلبه من ثواب وعقاب"

والهاء في "عِظة" عوض من الواو المحذوفة ، وفي التنزيل: (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ

فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ)^(١).

ولم يجرى بعلامة التأنيث ؛ لأنه غير حقيقي ، أو لأن الموعظة بمعنى الوعظ ، كأنه قال: فمن جاءه وعظ من ربه.

وقد وَعَظَهُ يَعِظُهُ ، وَاتَّعَظَ قَبْلَ الموعظة حين يُذكر الخبر^(٢).

وأما الموعظة اصطلاحاً فقد عرّفها الطبري - رحمه الله - فقال: "الموعظة الحسنة: العبر الجميلة

التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه ، وذكّرهم بها في تنزيله"^(٣).

وقيل: "هي ما يُعرف به سبب الانزجار عن المنهيات ، وتطبيق المأمورات ، والغرض منه الحث على تكميل النفوس بالعلم والعمل"^(٤).

وقال الجرجاني: "الموعظة هي التي تليِّن القلوب القاسية ، وتدفع العيون الجامدة ، وتُصلح الأعمال الفاسدة"^(٥).

قال تعالى: (ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)^(٦).

أي ذلك الذي تقدّم من الترغيب والترهيب والأحكام والحدود يوعظ به أهل الإيمان بالله، والجزاء على الأعمال في الآخرة^(٧).

(١) جزء من آية ٢٧٥ - سورة البقرة

(٢) انظر مادة (وعظ): الصحاح - ٣ / ١١٨١ ، لسان العرب - ٧ / ٤٤٦

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن - ١٤ / ٤٠٠

(٤) مفتاح السعادة ومصباح السيادة - أحمد مصطفى طاش كبري زيادة - ٢ / ٥٥١

(٥) التعريفات - ٣٠٥

(٦) جزء من آية ٢٣٢ - سورة البقرة

(٧) انظر: فتح القدير - ١ / ٢٤٤ ، أصول التربية الإسلامية - عبد الرحمن النحلوي - ٢٥٢

ثانياً: أهمية أسلوب الموعدة الحسنة

لقد استخدم الأنبياء عليهم السلام هذا الأسلوب في دعوتهم لأقوامهم ، فهذا نوح عليه السلام يعظ قومه قائلاً: (قَالَ يَنْقُومِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٣﴾ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١)، وهذا شعيب يقول لقومه: (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿١٧﴾ قَالَ يَنْقُومِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿١٨﴾ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٩﴾ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿٢٠﴾ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِء وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿٢٢﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ ﴿٢٣﴾ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٤﴾) وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِآلِذِي أُرْسِلَتْ بِهِء وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴿٢٥﴾ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (٢) ، وابراهيم عليه السلام وعظ قومه أيضاً قائلاً لهم: (وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾) قَالَ أَرَاغِبُ أَنْتَ عَن

(١) الآيات ٢-٤ - سورة نوح

(٢) الآيات ٨٥ - ٩٠ - سورة الأعراف

ءَالِهَتِي يَتَابِرَاهِمُ لِيْن لَمْ تَنْتَه لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ
لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا^(١).

وأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باستخدام الموعدة الحسنة في دعوته لقومه ، فقال
جل وعز: (: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا^(٢)) ، وقال: (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ^٣ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^(٣)) ، كما
مدح تعالى موعدة الحسنة وأسلوبه الرحيم في التعامل مع المدعوين ، فقال جل وعز: (فِيمَا رَحِمَةٍ
مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ
لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ^٤ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ^(٤)) .

ومما ذُكِرَ من مواعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه جابر بن عبد الله قال: شهدت
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة يوم العيد ، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة،
ثم قام متوكئاً على بلال ، فأمر بتقوى الله ، وحث على طاعته ، ووعظ الناس وذكرهم ، ثم مضى
حتى أتى النساء ، فوعظهن وذكرهن ، فقال: "تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم " ، فقامت امرأة
من وسط النساء سفعاء الخدين ، فقالت: لِمَ يا رسول الله ؟ قال: "لأنكن تُكثِرْنَ الشُّكَاةَ ، وتكفرن
العشير^(٥)" قال الراوي: فجعلن يتصدقن من حليهن ، يلقين في ثوب بلال من أقراطهن
وخواتمهن^(٦).

(١) الآيات ٤١ - ٤٧ - سورة مريم

(٢) آية ٦٣ - سورة النساء

(٣) آية ١٢٥ - سورة النحل

(٤) آية ١٥٩ - سورة آل عمران

(٥) العشير: الزوج

(٦) رواه مسلم في كتاب: صلاة العيدين ، باب: (لم يذكر اسم اللباب) ، ١٤٦/٦ ، برقم ١٩٩٨

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حكيماً في موعظته ، فكان يحرص على اختيار الوقت المناسب لها ، وذلك لئلا يُثقل على صحابته ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السّامة علينا)^(١).

ويمكن إجمال أهمية أسلوب الموعظة الحسنة في الآتي:

- ١ - الموعظة الحسنة أسلوب يتفق مع طبيعة الإنسان ، لأن الداعية إذا رغب المدعو وشوّقه إلى شيء ما ، أحسّ المدعو بأهمية ذلك الشيء ، فاشتاق إليه وطبّقه في حياته ، وبالمقابل إن خوّفه من شيء ما ونفّره منه ، جعل قلبه يهابه ويكرهه ، وبالتالي يبتعد عنه.
- ٢ - في النفس دوافع فطرية كامنة ، تحتاج إلى توجيه وإرشاد ، حتى تتحول تلك الدوافع إلى أخلاق طيبة ، وأفعال نافعة.
- ٣ - الموعظة الحسنة تؤثر في القلب ، فترقّقه وتُليّن قسوته ، وتُرهد من حب الدنيا ، حتى يتأثر بالوعاظ ، ويخضع ويرجع لخالقه.
- ٤ - الموعظة الحسنة من أهم أساليب الدعوة المؤثرة في المدعو إيمانياً، وخلقياً، ونفسياً، واجتماعياً ، وتوعّيه بتعاليم الإسلام ومبادئه ، وتدفعه إلى التطلّع لمعالي الأمور ، وتحثّه على التحلّي بكمكارم الأخلاق.

وقد اقتدى الدعاة الأيوبيون برسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام رضوان الله عليهم ، فحرصوا على استخدام أسلوب الموعظة الحسنة في دعوتهم ، وما ذاك إلا لاقتناعهم بأهمية هذا الأسلوب في تليين قلوب المدعويين ، والتأثير فيهم بالكلمة الطيبة بما يخشع القلوب ويهدّب النفوس . وقد ظهر عدد من الوعاظ في الدولة الأيوبية الذين اشتهروا بحسن الأسلوب ، وقوة التأثير في الوعظ ، فأثروا -ولا يزالون- بمواعظهم تلك في الكثير من العامة والخاصة .

(١) رواه البخاري في كتاب: العلم ، باب: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ،

ومن أشهر الوعاظ الأيوبيين:

١- الواعظ ابن الجوزي ، فقد روي أنه كان إذا وعظ اختلس القلوب ، وشققت النفوس ، دون الجيوب ، وقد توفي رحمه الله عام ٥٩٧ هـ^(١).

٢- ومنهم الواعظ الفقيه سبط ابن الجوزي ، كان حسن الصورة ، طيب الصوت ، حسن الوعظ ، كثير الفضائل والمصنّفات ، وله كتاب "مرآة الزمان" في عشرين مجلداً ، وهو من أحسن التواريخ . قدم من بغداد عام ٦٠٠ هـ ، وأخذ من جامع دمشق مكاناً للوعظ ، وحظي عند ملوك بني أيوب ، وقدموه وأحسنوا إليه ، وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار ، وكان الناس يتزاحمون على مجالسه للاستفادة منها ، وكانوا يبيتون ليلة السبت بالجامع ، ويتركون البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده ، ثم يسرعون إلى بساتينهم ، فيتذكّرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن^(٢).

وكان رحمه الله واعظ الزمان ، وله قبولٌ عظيم ، فكان يطلع على المنبر في بعض الأيام ويحدّق الناس إليه ، وينتحب ويكي ويكي الناس معه ، وكان يجلس الثلاثة الأشهر رجب وشعبان ورمضان في كل سبت ، والناس يتأهبون لحضور مجلسه قبل السبت بثلاثة أيام^(٣).

٣- ومن الوعاظ المفوّهين الذين عاصروا الدولة الأيوبية وخالطوها ، الفقيه الواعظ المفسّر ابن نجّ ، فقد كان مليح الوعظ ، لطيف الطبع ، كثير المعاني ، متديّناً ، حميد السيرة^(٤). ويذكر سبط ابن الجوزي أن ابن نجّ نشط في الوعظ والتحدّث ، وأن صلاح الدين وأولاده كانوا يحضرون مجلسه ويسمعون مواعظه ، وكان له الجاه العظيم والحرمة الزائدة^(٥). ولقد كان صلاح الدين يقدر ابن نجّ ، ويختاره للوعظ دائماً ، ولما فتح رحمه الله المسجد الأقصى ، طلب من ابن نجّ أن يعظ المسلمين بعد صلاة الجمعة الأولى ، وجلس السلطان أمامه يستمع لوعظه ، ويصف المؤرخ أبو شامة تلك الموعظة فيقول: "وكان صلاح الدين قد نصب للوعظ تجاه القبلة سريراً ، فجلس عليه زين الدين ابن نجّ ،

(١) تاريخ الإسلام - ٢٩٦ وفيات (٥٩١ - ٦٠٠ هـ)

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٤٧٨ ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد - ١ / ١٣٣

(٣) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٣٩

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٣٩٤

(٥) مرآة الزمان - ٥١٥ ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٨٢

فذكر من خاف ومن رجا ، وأتى بكل موعظة للراقيدين موقظة ، ولأعداء الله مُغلظة ، وضجّ المتباكون ، وعجّ المتشاكون ، ورقّت القلوب ، وخفّت الكروب ، وفي الجمعة الثانية طلب صلاح الدين إلى ابن نجا أن يُكرّر الوعظ في المسجد ، ففعل " ، وقال أيضاً رحمه الله عن ابن نجا: "وكانت عباراته حلوة مؤثرة ، أبكت المسلمين ، حيث وعظهم بكل موعظة تُنجيهم في الدنيا والآخرة، وحثّهم على مواصلة الجهاد بعد وصفه وبيان فضائله"^(١).

٤- ومنهم شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ، والذي لازم الخلوة والذكر والصوم إلى أن خطر له عند علوّ سنه أن يظهر للناس ويتكلم ، فعقد مجلس الوعظ بمدرسة عمه ، وكان يتكلم بكلام مفيد من غير تزويق ، ويحضر عنده خلق عظيم ، وظهر له القبول من الخاص والعام ، واشتهر اسمه ، وقُصد من الأقطار ، وظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا ، وصار أصحابه كالنجوم^(٢).

وقد لاقى الشيخ تكريماً وتبجيلاً من ملوك الدولة الأيوبية ، فقد روي أنّ الخليفة الناصر لدين الله أرسل الشيخ أبا حفص إلى حلب ، فلما قاربها خرج الملك الظاهر بعساكره إلى لقائه ، وأكرم نُزله . وفي ثالث يوم من قدومه أمر بكرسي الوعظ فنُصب له ، وجلس عليه للوعظ ، وجلس الملك الظاهر ومعه الأعيان ، فصدع بالوعظ حتى وجّلت القلوب ، ودمعت العيون^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٨٣

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٣٧٥

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٦٧

نماذج من أسلوب الوعظ لدى دعاة العصر الأيوبي :

١- مواعظ ابن الجوزي:

يقول ابن الجوزي: (وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به ، فإن الداخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العلم بالعمل ، فمُنِعوا البركة والنفع ، وإياك أن تتشاغل بالتعبّد من غير علم ، فإن خلقاً من المتزهدين والمتصوفة ضلُّوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم ، واستر نفسك بثوبين جميلين لا يُشهرانك بين أهل الدنيا برفعتهما ، ولا بين المتزهدين بضعتيهما ، وحاسب نفسك عند كل كلمة ونظرة وخطوة ، فإنك مسؤول عن ذلك ، وعلى قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون ، ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه ، زلّت موعظته عن القلوب كما يزل الماء عن الحجر ، فلا تَعِظْ إلا بنية ، ولا تأكلْ إلا بنية ، ومع مطالعات أخلاق السلف ينكشف لك الأمر^(١)).

وقال ابن الجوزي: (ينبغي لطالب العلم أن يصحح قصده ؛ إذ أن فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال ، فمن أراد الله به خيراً رزقه حسن القصد في طلب العلم، فهو يحصله لينتفع به وينفع به ، ولا يبالي بعمل مما يدلّه عليه العلم ، فتراه يتجافى أرباب الدنيا ، ويحذر مخالطة العوام ، ويقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة في الدنيا في تحصيل الكثير...^(٢)).

وقال أيضاً: (أيها الطالب تواضع في الطلب ، فإنّ التراب لما ذل لأخصم القدم صار طهوراً للوجه ، ولا تياس مع مداومة الخير أن يقوى ضعفك ، فالرمل مع الزمان يستحجر، وصابر في ليل البلاء ، فعين الصبر ترى فجر الأجر ، وما يُدرك منصب بلا نصب ، ألا ترى إلى الشوك في جوار الورد ، أيها المبتدئ تلتطف بنفسك ، فمدارة الجاهل صعبة تنقل من درج الرخص إلى سطوح العزائم ، ولا تياس من نيل المراد ، فأول الغيث قطرة ثم ينسكب. دُم على حضور المجلس ، فالطفل يحتاج كل ساعة إلى الرضاع ، فإذا صار رجلاً صبر على الفطام ، على أن الماء إذا كثر صدمه للحجر أثر^(٣)).

(١) رسالة إلى ولدي - ابن الجوزي - تحقيق: عمر عبد المنعم - ٣٩.

(٢) صيد الخاطر - عبد الرحمن بن علي بن الجوزي - تحقيق: د/ عبد الرحمن البر - ٤٤٢

(٣) اللطائف في الوعظ - ابن الجوزي ، تحقيق: محمد ابراهيم سنبل - ٧٧-٧٨

ويقول رحمه الله: (لا تسمع ممن يقول الجوهر والعرض والاسم والمسّمى ؛ لأنه شيء لا تحيط به أوهام العوام ، بل قل آمنت بما جاء من عند الله ورسوله)^(١).
 ووعظ رحمه الله بعض الولاة فقال: (اذكر عند القدرة عدل الله فيك ، وعند العقوبة قدرة الله عليك ، وإياك أن تشفي غيظك بسقم دينك)^(٢).

٢- من مواعظ العز بن عبد السلام:

- يقول رحمه الله: (والشرع ميزان يوزن به الرجال ، وبه يتبين الريح والخسران ، فمن ربح في ميزان الشرع كان من أولياء الله ، ومن نقص في ميزان الشرع ، فأولئك أهل الخسران ، وتفاوت خفتهم في الميزان . فإن رأيت إنسانا يطير في الهواء أو يمشي على الماء ، أو يخبر عن المغيبات ، ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات بغير سبب ، ويترك الواجبات بغير سبب مجوّز ، فاعلم أنه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة ، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وضعها الله للضلال)^(٣).

- ويقول رحمه الله: (الرقص بدعة ، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل ، ولا يصلح إلا للنساء ، وأما سماع الإنشاد المحرك للأحوال السيئة بما يتعلق بالآخرة ، فلا بأس به، بل يُندب إليه عند الفتور ، وسأمة القلوب ، لأن الوسائل إلى المندوب مندوبة ، والسعادة كلها في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون ، ولا يحضر السماع من في قلبه هوى خبيث ، فإن السماع يحرك ما في القلوب من هوى مكروه أو محبوب)^(٤).

- ومن مواعظه أيضاً: (أمرنا الله بالجهاد في نصرته دينه ، إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه ، فكما لا يجوز للملوك إغمد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء إغمد أسنتهم عن الزائفين والمبتدعين ، فمن ناضل عن الله ، وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله بعينه التي لا تنام ، ويُعزّه بعزّه الذي لا يُضام ، ويحوطه بركنه الذي لا يرام ، ويحفظه من جميع الأنام ، وينبغي لكلّ عالم إذا أدلّ الحق ، وأُخذ الصواب ، أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذلّ والخمول أولى منهما ، والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين ،

(١) تاريخ الإسلام - ٢٩٣ - وفيات (٥٩١ - ٦٠٠هـ)

(٢) المصدر السابق - ٢٩٢ - وفيات (٥٩١ - ٦٠٠هـ)

(٣) قواعد الأحكام - ٢ / ٢٨٢

(٤) فتاوى سلطان العلماء - ١٠٧

وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة^(١).

- وكان الأشرف قد وقع بينه وبين أخيه الكامل جفوة ، فوعظه العز بن عبد السلام قائلاً:
(أخوك الكبير ورحمك) ، وأمره بصلة أخيه والتعاون معه ضد التتار^(٢).

٣- موعظة الإمام النووي للسلطان الظاهر:

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى: (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٣) ، وقال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ نَمْنًا قَلِيلًا^ط فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)^(٤) ، وقال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى^ط وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ^ج وَاتَّقُوا اللَّهَ)^(٥) ، وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره ، ونصيحة عامة للمسلمين ، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله أنه قال: (الدين النصيحة: لله ولكتابه ورسوله ، وأئمة المسلمين وعامتهم)^(٦) ، ومن نصيحة السلطان -وقفه الله لطاعته وتولاه بكرامته- أن ينهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام ، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضعفة ، وإزالة الضرر عنهم ، قال تعالى: (وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٧) ، وفي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم)^(٨) ، وقال

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٢٣

(٢) المصدر السابق - ٨ / ٢٤٠

(٣) آية ٥٥ - سورة الذاريات

(٤) آية ١٨٧ - سورة آل عمران

(٥) جزء من آية ٢ - سورة المائدة

(٦) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: بيان أن الدين النصيحة ، ٢ / ٣٢ ، برقم ١٥٩

(٧) آية ٨٨ - سورة الحجر

(٨) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير ، باب: من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ، ٣ / ١٠٦١ ، برقم ٢٧٣٩

صلى الله عليه وسلم: (المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْزُقْ بِهِ)^(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْحَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمُفْسِدِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينُ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُوا)^(٤). وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان -أعز الله أنصاره- فقد أقامه الله لنصرة الدين ، والذب عن المسلمين ، وأدب له الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عيه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة ، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين ، وسائر المارقين ، ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسببه أهل الزرع والفساد ، وأمدته بالإعانة واللطف والسعادة ، فله الحمد على هذه النعم المتظاهرة والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين ، وزيادتها في خير وعافية آمين)^(٥).

٥- ولقد استعمل هذا الأسلوب في زمن صلاح الدين للتنبيه على أهمية صلاة الجمعة ، فقد أعلن ألا يتأخر أحد عن الجمعة وحضورها ، ومن عُثر عومل بالحبس والتقييد ، واللوم والتفنيذ^(٦)، وما ذاك إلا لاهتمامهم البالغ بهذه الشعيرة العظيمة ، حيث استخدموا أسلوب الوعظ بالترهيب والتخويف بالعقاب لمن تأخر عنها أو لم يحضرها.

-
- (١) رواه البخاري في كتاب: المظالم ، باب لَا يَظْلِمُ الْمُسْلِمَ الْمُسْلِمَ وَلَا يُسْلِمُهُ ، ٨٦٢/٣ ، برقم ٢٣١٠
(٢) رواه مسلم في كتاب: الإمارة ، باب فَضِيلَةَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَعُقُوبَةَ الْجَائِرِ وَالْحَثُّ عَلَى الرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَالنَّهْيُ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ ، ١٦٧/١٢ ، برقم ٤٦٧٨
(٣) رواه البخاري في كتاب: الجمعة ، باب الْجُمُعَةِ فِي الْقُرَى وَالْمُدُنِ ، ٣٠٤/١ ، برقم ٨٥٣
(٤) رواه مسلم في كتاب: الإمارة ، باب: فَضِيلَةَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَعُقُوبَةَ الْجَائِرِ وَالْحَثُّ عَلَى الرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَالنَّهْيُ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ ، ١٦٦/١٢ ، برقم ٤٦٧٧
(٥) الإمام النووي - ١٠٩
(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ - ٤٧

وبهذا يتّضح لنا بجلاء ضرورة استخدام الموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى وما ذاك إلا لتأثيرها العظيم في المدعو ، إذ إن الداعية يستطيع من خلال هذا الأسلوب أن يُوصل للمدعو ما يريد من أفكار وتوجيهات ، وبقدر ما يعتني الداعية بموعظته وتنسيقها ، يجني ثماراً يانعة ، ونتائج طيبة بإذن الله.

المطلب الثالث: أسلوب الحكمة

أسلوب الحكمة من الأساليب الهامة المؤثرة في مجال الدعوة إلى الله ؛ وذلك لأن الداعية أثناء قيامه بواجب الدعوة يتعرض للكثير من المواقف التي تحتاج منه إلى الحكمة القولية أو الفعلية ، وبدونها قد تفقد الدعوة أهميتها وتأثيرها.

وبالاطلاع على تاريخ الدولة الأيوبية ، أجد الكثير من الدلالات على ما تتمتع به بعض الدعاة من حكمة عظيمة ، كان لها أبلغ الأثر في مجال الدعوة إلى الله تعالى .
وفي هذا المبحث سأتحديث عن أسلوب الحكمة من خلال النقاط التالية:

- ١ - تعريف الحكمة
- ٢ - أهمية أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله
- ٣ - نماذج من حكمة دعاة الدولة الأيوبية

أولاً: تعريف الحكمة

الحكمة لغة: أحكمت الشيء صار محكما ، والحكيم المتقن في الأمور .
وحكم الرجل إذا بلغ النهاية في معناه .

واستحكم الرجل إذا تناهى عما يضره في دينه ودنياه^(١).

أما الحكمة اصطلاحاً: فهي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحججه ، وحسن الدعوة والتعليم ، ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي^(٢).

وعرفها علماء الدعوة: هي الإصابة في الأقوال والأفعال ، ووضع الشيء في موضعه^(٣).

ثانياً: أهمية أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله

إن أسلوب الحكمة من الأساليب الهامة في الدعوة ، وعلى الداعية أن يكون حريصاً على هذا الأسلوب ؛ وذلك لأنه مَعْنِيٌّ بواجبات ومهام كثيرة ، فقد نذر نفسه للنهوض بأعباء الدعوة ، وهي كثيرة ، فإذا عزم على ذلك نقد صور الحكمة تنفيذاً دقيقاً ، فانتهى بتوفيق الله إلى نتائج جيدة تدل على نجاحه وثاقب رأيه^(٤). وعلى العكس من ذلك إذا كانت المرحلة التي تصدى لها الداعية تقتضي منه أسلوباً معيناً ، فاختر غير ، وخالف الحكمة ، فإنه مع مرور الأيام سيجد نفسه يراوح مكانه ، أو تراه موضع نقد الآخرين.

ومما يدل على أهميته أن الله وصف به نبيه داود عليه السلام فقال جل وعز: (وَأَتَنَّهُ اللَّهُ

الْمَلِكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)^(٥)

وأمر تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باستخدام هذا الأسلوب في دعوة الناس إلى دين الإسلام فقال: (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^ط وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

(١) لسان العرب - ١٢ / ١٤٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان - ٢٤٨

(٣) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى - سعيد بن علي بن وهف القحطاني - ٢٧

(٤) انظر: التدرج في الأساليب الدعوية - عبد الله عياد الجهني - ١٧٥

(٥) آية ٢٥١ - سورة البقرة

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^(١) ، وهذا الخطاب من الله عز وجل ليس موجهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فحسب ، بل هو لكل من يؤدي مهمة مماثلة لمهمته عليه الصلاة والسلام في إرشاد الناس وتوجيههم لما فيه فلاحهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

ولقد تفضّل الله تعالى بهذه الحكمة على من يشاء من عباده ، وأثنى تعالى على من استخدمها في حياته وتعاملاته ، ولاشك أن الدعوة إلى الله من أبرز وأهم ما ينبغي أن يستخدم فيه هذا الأسلوب البليغ قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)^(٢)

ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس بأن يرزقه الله الحكمة ، مما يعطينا دلالة كبيرة على أهمية هذا الأسلوب ، وحاجة العلماء والدعاة إليه ، فقد روي عن عبد الله ابن عباس قال: ضمّني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره ، وقال: (اللهم علمه الحكمة)^(٣) . كما عدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمور المميّزة التي يُعْبَطُ عليها من امتلاكها، فقال عليه الصلاة والسلام: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَيْهِ هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)^(٤) .

نماذج من حكمة دعاة الدولة الأيوبية:

نجد عند دعاة الدولة الأيوبية نماذج لاستخدام الحكمة في الدعوة إلى الله وذلك في الصور التالية:

- أ - التدرج
- ب - مراعاة الأولويات
- ت - مراعاة اختلاف الظروف
- ث - استخدام المنهج المناسب

(١) آية ١٢٥ - سورة النحل

(٢) آية ٢٦٩ - سورة البقرة

(٣) رواه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة ، باب: ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ، ١٣٧١/٣ ، برقم ٣٥٤٦

(٤) رواه البخاري في كتاب: العلم ، باب: الإغْتِنَاطِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَقَالَ عُمَرُ تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوِّدُوا ، ٣٩/١ ، برقم ٧٣

أولاً: التدرج

التدرُّج لغةً: مأخوذ مِنْ دَرَجٍ يَدْرُجُ ، يقال: دَرَجَهُ إلى كذا تدرِجاً ، واستدرجه: أدناه منه على التدرِج^(١).

جاء في اللسان : دَرَجْتُ العليلَ تدرِجاً إذا أطعمته شيئاً قليلاً ، وذلك إذا نَقِه حتى يتدرج إلى غاية أكله ، كما كان قبل العلة ، درجة درجة^(٢).

والتدرُّج في الاصطلاح : البدء بتقديم الأمور المهمة في الدعوة إلى الله ، ثم الانتقال إلى غيرها شيئاً فشيئاً ؛ بغية الوصول إلى الغاية المنشودة بطرق مشروعة حتى يعتاد المدعو التكليف^(٣).

والتدرُّج سُنَّةٌ كونية تتوافق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فالنفس البشرية عندما تألف عادات وتتلأَم معها يصعب عليها تركها ، والإتيان بغيرها جملة واحدة .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل نزول التشريع إلى عباده شيئاً فشيئاً ، ومن أجل ذلك نزل القرآن منجماً ، قال تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)^(٤) .

ومن أشار إلى الحكمة من التدرج في التشريع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ تقول: (إنما نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ من الْمُفَصَّلِ فيها ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حتى إذا ثابَّ الناس إلى الإسلامِ نَزَلَ الحَلَالُ والحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَأَ تَشْرَبُوا الحَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدْعُ الحَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا)^(٥) .

وأدرك العلماء سر التدرج في التشريع ، ولاحظوا أنه أدعى إلى قبول الناس للأحكام بخلاف ما لو نزل التشريع دفعة واحدة ، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لنزول الفرائض والنواهي جملة واحدة ، فيثقل على النفس حملها^(٦).

(١) الصحاح - ١ / ٣١٤ - مادة (درج)

(٢) لسان العرب - ٢ / ٢٧٠ - مادة (درج)

(٣) التدرج في الأساليب الدعوية وأثره في الدعوة إلى الله - ١٤

(٤) آية ١٠٦ - سورة الإسراء

(٥) رواه البخاري في كتاب: فضائل القرآن ، باب: تأليف القرآن ، ١٩١٠/٤ ، برقم ٤٧٠٧

(٦) معالم الشريعة الإسلامية - د/ صبحي الصالح - ١٣٦

واستخدم دعاة الدولة الأيوبية هذا الأسلوب في دعوتهم ، وذلك لشعورهم بتأثيره الكبير في المدعويين ، إذ إن إصدار الأمر أو الحكم دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفور المدعو ، وإحجامه عن الاستجابة ، بينما تدرّج الداعية في الدعوة قد يؤثر في المدعو ، ويعطيه وقتاً كافياً للتفكير ، ومن ثم الاقتناع بما دعاه إليه الداعية.

ومن أمثلة التدرّج في العصر الأيوبي:

في سنة ٥٦٤ هـ دخل أسد الدين شيركوه إلى مصر ، فملكها ومعه صلاح الدين والعساكر النورية ، واستطاع القضاء على شاور وجنده ، إلا أنه توفي رحمه الله في العام نفسه ، وكانت مدة ولايته شهرين وخمسة أيام ، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين ، وأحضره عنده ، وخلع عليه ، وولاه الوزارة بعد عمه^(١).

وكتب نور الدين إلى صلاح الدين بعد أن تولّى الوزارة ، يطلب منه إلغاء الخلافة الفاطمية لتصير مصر سنّية بعد أن كانت شيعية ، ولكن صلاح الدين كان يعلم أن انتقال الشعب من مذهب إلى مذهب يصعب في يوم وليلة ، إذ لا بدّ من دعاةٍ يُهَيِّتُونَ الأذهان بتدرّج لذلك الانتقال المرتقب ، فرأى أن يبني مدارس تُذيع فقه أهل السنّة ، وأن ينشر كتباً تؤيّد مذهب الإمام الشافعي؛ لذا كتب إلى نور الدين داعياً له إلى التمهّل حتى يجيء موعد القطاف^(٢) .

ولكن نور الدين كان دائم الإلحاح على صلاح الدين لإقامة الخطبة بمصر للعباسيين ، وأنفد إليه أباه نجم الدين لأجل ذلك ، وقد أفضى به الأمر إلى أن اتّهم صلاح الدين ، وشنّع عليه ، وأكثر القول في ذلك ، وكان صلاح الدين يعتذر بالخوف من وثوب أهل مصر ، وامتناعهم عن الإجابة إلى ذلك ، لميلهم إلى العلويين ، كما أنّ أحواله لم تستقرّ بعد ، وأموره مضطربة ، وأعداؤه كثيرون ، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرّج ستفسد الأحوال ، إلا أن نور الدين لم يُصنع إلى قوله ، وأرسل إليه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه^(٣).

(١) انظر الكامل في التاريخ - ١١ / ٣٣٥

(٢) انظر: صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٨٤

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١٩٠ / ٢

وكانت بداية صلاح الدين بالتمهيد للدولة السنية بأن أمر بالاكتفاء بذكر الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان ثم علي في خطبة الجمعة سنة ٥٦٥هـ^(١).

وفي سنة ٥٦٦هـ كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه ، وتوقف أمراء المصريين عن التصرف ، ومُنِعوا من كل شيء ، فلما رأى صلاح الدين أنّ أمره قد قوي ، وأوتاد دولته قد تمكّنت من البلاد ، عزم على إظهار ما يُخفيه ، وقرر القبض على مَنْ تَبَيَّن من أمراء الدولة العبيدية ، فقام باعتقال الأمراء المصريين ، واستولى على دورهم ، فأل أمرهم إلى أن صار الأمير بؤاباً على الدار التي يسكنها ، وصار آخر سائس فرس كان يركبها ، وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعاً له ، ونحو ذلك من أنواع الهوان^(٢).

ولما انتهى صلاح الدين من القبض على جميع البلاد بيده ، وختلى مصر من المعاندين والمنابذين ، أبطل من الأذان عبارة (حي على خير العمل) ، وأنكر مَنْ يَتَسَمَّ بمذهبهم ، والانتساب إليهم ، ثم شرع في التفكير بعد ذلك في كيفية الابتداء بالخطبة لبني العباس^(٣).

ثم عقد صلاح الدين مجلس شورى لاستشارة الأمراء في كيفية الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم مَنْ أقدم على المساعدة ، وأشار بها ، ومنهم مَنْ خاف ذلك ، إلا أنّهُ لم يمكنه رحمه الله إلا امتثال أمر نور الدين.

فأمر نجم الدين رحمه الله - والد صلاح الدين - الخطيب بالجامع بقطع الخطبة للعاضد قائلاً له: "إنّ ذكّرتَ هذا المقيم بالقصر ضربتُ عنقك" ، فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً ، لكنه دعا للأئمة المهديين ، وللسلطان الملك الناصر ، ونزل ، فقبل له في ذلك فقال: " ما علمتُ اسم المستضيء ولا نعوته ، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة ، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك"^(٤).

وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يُعرف بالأمير العالم ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها . فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٣١٧

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره - ١٤٤ - ١٤٥

(٣) المصدر السابق - ١٤٨

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٩٠ - ١٩٩

الله ، فلم ينكر أحد ذلك عليه ، فلمّا كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد ، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك^(١).

ثانياً: مراعاة الأولويات

الأولويات هي الأمور الذي يستحق أن يُبدأ بها أولاً قبل غيرها ، فهي الفهم الدقيق والإدراك لترتيب الأمور ، وتقديم ما حقه التقديم ، وتأخير ما حقه التأخير ، بما يتناسب مع طبيعة الموضوع ، وفقه الأولويات ثمرة للموازنات الدعوية^(٢).

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب الحكيم في العهد الأيوبي أنه في سنة ٥٧٦هـ استقرت الأحوال في بلاد الشام ، فعاد صلاح الدين إلى مصر لتفقد أحوالها ، بعد أن وقّع الصلح والهدنة بين المسلمين والفرنج ، وفكّر بالحج في تلك السنة ، واستخار الله في أدائه ، ثم يعود إلى مجاهدة أعدائه ، فأشاع رحمه الله أن طريق الحج قد فُتح من الشام ، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس ، وصمّم على إبراء الذمّة منه.

وشرع - رحمه الله - يُرتّب الأمور لأداء هذا الركن العظيم ، فقيل له : (هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث ، وهذه المعازل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور ، ولا تغترّ بعقد الهدنة فإن القوم على ترّيب المكنة ، والغدر دأبهم) ، فمازال به الجماعة حتى حلّوا عزمه على الحج^(٣). وهكذا كان السلطان قاب قوسين أو أدنى من أداء فريضة الحج هذا العام لولا أن مستشاريه ، وهم طائفة من علماء الشريعة ، أثنوه عن عزمه بسبب ظروف الحصار والحرب وحالة التعبئة التي كانت الدولة الإسلامية تمر بها ، وبيّنوا له أن الجهاد أهم من الحج ، في تلك الظروف ، وبهذا لم يتمكن من ذلك بسبب التطوّرات في بلاد الأرمن على حدود بلاده الشمالية^(٤).

فقدرّ رحمه الله أن الأهم في تلك الظروف هو الجهاد وحماية بلاد المسلمين من العدو ، فبدأ بالأهم وهو الجهاد ، قبل المهم وهو أداء فريضة الحج.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٩٠ - ١٩٩

(٢) فقه الموازنات الدعوية - د/ معاذ البيانوني - ٣٠

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٢٩ - ٣٣٩

(٤) صلاح الدين - القائد وعصره - ١٩٣

وحادثة أخرى تؤكد اهتمام الدعاة بأسلوب مراعاة الأولويات وفقههم له ، فقد قرّر تقي الدين عمر - أبرز رجال الدولة وقائد العسكر - التوجّه إلى المغرب ، والسيطرة عليه ، وإقامة ملك فيه ، فأرسل إليه صلاح الدين قائلاً له: "لعمري إن فتح المغرب مهم ، لكن فتح بيت المقدس أهم ، والفائدة منه أتمّ ، والمصلحة منه أخصّ وأعمّ ، وإذا فتحنا القدس والساحل طَوَّينا إلى تلك الممالك المراحل"^(١).

ثالثاً: مراعاة اختلاف الظروف:

ينبغي للداعية أن يكون حكيماً متوازناً ، يستطيع استخدام الأسلوب المناسب في الوقت المناسب ، فيختار أسلوب دعوته حسب الظروف المواجهة له ، وذلك ليكون لدعوته وقع أقوى في نفس المدعو ، وليكون لها أثر أعمق في قلبه ، فتؤدي بمشيئة الله إلى الهدف الذي ينشده الداعية من دعوته.

ولهذا النوع من الحكمة أمثلة في العصر الأيوبي ، من ذلك: أنه لما مرض ريتشارد في يافا ، رأى السلطان صلاح الدين مجاملته ، فأرسل من يسأل عن صحته ويقدم له الدواء والفاكهة والثلج . ولقد استفاد المسلمون من هذه اللفتة الإنسانية ، فقد مهّدت طريق الوفاق ، فانعقد الصلح النهائي محدداً سيطرة الصليبيين على المنطقة الساحلية من صور إلى يافا^(٢)، وبهذا وصل صلاح الدين إلى نتيجة مُرضية لحكمته ، وأصاب عندما اختار أسلوباً مناسباً لمواجهة ذلك الظرف.

ومن أولئك الدعاة الحكماء العز بن عبد السلام ، فقد كانت حكمته - ولاسيما في التعامل مع الحكّام - من المزايا الكثيرة التي تميّز بها رحمه الله ، فساعدته على المضى في طريق الدعوة ، وكللتها بالنجاح والتوفيق ، فالعز بن عبد السلام لم يكن ضدّ الحكّام أو هو مجرد معارض - كما يظنّ بعضهم - بل كان مع الحق حيث سار ، فكان مؤيداً للحاكم الصالح ، واقفاً معه ، يجمع له الجموع ، وعندما انحرف الحاكم قاومه وناصحه وواجهه بالحق الواجب الامتثال^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٢٤٢

(٣) انظر: العز بن عبد السلام - ١٣١

ومما يؤكّد أهمية مراعاة اختلاف الظروف مقولة العز بن عبد السلام في الحادثة التالية: روي أن موسى بن الملك العادل لما مرض مرضة الموت قال لأكبر أصحابه: "أذهب إلى ابن عبد السلام وقل له: محبك موسى ابن الملك العادل أبي بكر يسلم عليك ، ويسألك أن تعوده ، وتدعو له ، وتوصيه بما ينتفع به غداً عند الله" ، فلما وصل الرسول إليه بهذه الرسالة قال: "نعم إن هذه العيادة لمن أفضل العبادات لما فيها من النفع المتعدي إن شاء الله تعالى" ، فتوجّه إليه ، وسلّم عليه ، فسرّ برؤيته سروراً عظيماً ، وقبّل يده وقال: "يا عز الدين اجعلني في حلّ ، وادع الله لي ، وأوصني وانصحي" ، فقال له: "أما محاللتك فيني كل ليلة أحال الخلق ، وأبيت وليس لي عند أحد مظلمة ، وأرى أن يكون أجري على الله ، ولا يكون على الناس ، عملاً بقوله تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا^ط فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)^(١) ، وأن يكون أجري على الله ولا يكون على خلقه أحب إلي ، وأما دعائي للسلطان فيني أدعو له في كثير من الأحيان ، لِمَا في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام ، والله تعالى يبصر السلطان فيما يُبصّر به وجهه عنده يوم يلقاه ، وأما وصيّتي ونصيحتي للسلطان فقد وجبت وتعيّنت لقبوله وتقاضيه"^(٢).

وإجابة العز هذه تعطي الداعية درساً وافياً في أهمية الحكمة في مراعاة اختلاف الظروف ، فالعز راعى الوضع الذي كان فيه الملك موسى ، واستخدم حكمته في بثّ ما أراده من توجيهات وأفكار ، بطريقة لبّقة تنمّ عن سعة إدراك هذا العالم الجليل ، وبُعد نظره ، وسداد رأيه.

رابعاً: استخدام المنهج المناسب

ذكاء الداعية وفطنته في اختيار منهج مناسب لدعوته من الأمور الحكيمة التي تساعد على نجاح الدعوة ، وتُيسّر للداعية جني ثمارها يانعة طيبة بإذن الله . فالداعية الناجح يستطيع تبليغ دعوته للمدعو في أي ظرف من الظروف ، فهو ذكي مُتوازن يبتكر ما يلزمه من أساليب دعوية ، ويستخدم مع كل مدعو ما يناسبه ، بحكمة وحسن تقدير للأمور ، قدوته في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح .

(١) آية ٤٠ - الشورى

(٢) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٤٠

إن فطنة الداعية تجعله يختار المنهج المناسب للموقف الذي هو فيه ، وذلك أدعى إلى نجاحه في دعوته وقطفه ثماراً يانعة . ومن هنا فإن المرونة وابتكار ما يناسب المواقف ، واستخدام ما يناسب المدعو بحكمة وحسن تقدير للأمور ، كل ذلك مطلوب من الداعية الحريص على نجاح دعوته.

ولنتأمل في هذا الموقف التربوي الذي يتعلم منه الدعاة الكثير ، فعن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّيِّ فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ أَدْنَهُ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِأُمَّكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِإِنْسَانِكِ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ (١).

فلو أن هذا الموقف حصل مع داعية غير بصير ، لسبب هذا الشاب وطرده أو فضحه على رؤوس الأشهاد ، بينما الإسلام يدعوك أن تقدم للناس لباس التقوى الذي يستر عوراتهم ، ويبرز محاسنهم ، ورسالة الداعية رسالة تربية في المقام الأول ، وجوهر رسالة الإسلام خلق وإحسان ، ووسيلتها القدوة الحسنة ، وأول ميادينها النفس والقلب (٢).

وبهذا استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكائه وفطنته أن يحقق هدفه الذي خطط للوصول إليه ، واستفاد من حكمته تلك أعظم فائدة .

ومثال آخر نلمسه في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يصلي في الكعبة في جوف الليل ، والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة ، فلم يرفع إليها يداً ، ولم يحرك نحوها ساكناً ، ولو أنه صنع ما صنع إبراهيم عليه السلام بأصنام قومه لما رآه أحد ، ولكن ماذا ستكون العاقبة؟ ستعود الأصنام لما كانت ، بل التي أحسن مما كانت ، ويُعاجل رسول الله بالأذى كما عوجل مَنْ سبَّه ، ولكنه صلى الله عليه وسلم علم أن سبيل العلاج شيء غير هذا ، إنه الصبر والاستمرار على الدعوة ، وتجميع الأنصار ، وتعبئة القوى ، فلما أتى الله باليوم الموعود كان صلى الله

(١) رواه أحمد في مسنده ، ٥٤٥/٣٦ ، برقم ٢٢٢١١ ، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٢) الدعوة: قواعد وأصول - د/ جمعة أمين عبد العزيز - ٢٢١

عليه وسلم يشير إلى الصنم بقضيب في يده قائلاً: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً" ، فينكفى على وجهه إلى حيث لارجعة ، وإنا لنعلم أن شباب الدعوة المحمدية الأولين كانوا كثيراً ما يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثوروا بأسلحتهم ، وأن يهبوا في وجوه أعدائهم ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يسكن ثورتهم ، ويطلب إليهم أن ينتظروا ، ولم يعجل بعجلة هؤلاء الشباب ، ولم يخفّ لخصمتهم بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم الآن ، ويكفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حتى تكتمل القوى ، وتنضج الثمرة ، وتطلع الأقدار بأيام الله ، ونحن نأثم إذا نصحنا الداعية أن ينهج بغير المنهج الذي سنّه الله لرسوله ، والتزمه صلى الله عليه وسلم في حكمة وأناة وقوة^(١).

ولقد لمع في العهد الأيوبي عدد من الملوك الذين اشتهروا بحكمتهم وذكائهم في استخدام المنهج المناسب للظروف المواجهة لهم ، فانتفع المسلمون بذلك ، واستفادوا كثيراً. فمن الملوك الأيوبيين الذين عُرفوا بالذكاء والسياسة الحكيمة صلاح الدين ، فقد استطاع رحمه الله بالملاينة والمسايرة أحياناً ، وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى ، وبالعامل العسكري في بعض الأوقات ، من تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام والقسم الأكبر من بلاد شرق الفرات ، تحت سياسته وقيادته ، وإلزام بقية القوى حتى حدود بلاد العجم بالمشاركة في الجهاد ضدّ الصليبيين^(٢). ومن الملوك الذين عُرفوا بالحكمة واستخدام المنهج المناسب الملك المعظم ، ويدل على ذلك ويؤكد حادثة محكّيتان عنه ، إحداهما ما روي أنه كان بالغور سارق يقطع الطريق ، ومعه مئة فارس ، فلما قبض عليه طلب من الملك المعظم ألا يشنقه وذلك ليجاهد الكفار ، فوافق المعظم ، وجاهد ذلك السارق جهاداً عظيماً حتى استشهد^(٣).

أما الحادثة الثانية فقد حكاها والي خولان (قرية قرب دمشق) ، فقال: "كنت والياً بالشوبك، وكان بها راهب متفرّجٌ ببعض الجبال ، فجاءني كتاب من الملك المعظم بنفيه فنفيته ، فغاب مدّة ، ثم جاء كتاب منه أن أعده إلى مكانه وتوصّ به ، فبحثت عن القصة فإذا به قد بعثه يكشف أخبار عدوّه ، ونفاه لئلا يُتّهم^(٤).

(١) الدعوة: قواعد وأصول - د/ جمعة أمين عبد العزيز - ١٣٦

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره - ٢٠٣

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٨٢

(٤) المصدر السابق - ٢٨٠

ومن أولئك الملوك الملك الظاهر ، فقد مدحه سبط ابن الجوزي فقال عنه: "كان مهيباً ، سائساً ، فظناً ، دولته معمورة بالعلماء ، وكان يزور الصالحين ويتفقدهم ، وله ذكاء مفرط"^(١)، ولقد كان له رحمه الله عقل وغور ودهاء وفكر صائب ، ومن دهائه وحكمته أنه كان يصادق ملوك الأطراف ، ويباطنهم ، ويوهمهم أنه لولاه لقصدتهم عمه العادل ، ويوهم عمه أنه لولاه لتحامل عليه ملوك الأطراف ، ولشققوا عصا الطاعة^(٢).

وبعد فإن الأمثلة السابقة غيض من فيض من الشواهد على استخدام الدعاة الأيوبيين لأسلوب الحكمة ، وما ذكرته كان على سبيل التمثيل لا الحصر لمواقف لدعاة حكماء كان لحكمتهم أثر بليغ في مجال الدعوة ، وهذا حريّ بدعاة كلّ زمان أن يقتفوا أثرهم ، ويتصرفوا مع المدعويين بحكمة لئلا يؤثروا فيهم على نحو مغاير من حيث لا يشعرون.

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٨

(٢) المصدر السابق - ٢١ / ٢٩٧

المطلب الرابع: أسلوب التربية والتعليم

أسلوب التربية والتعليم من الأساليب المهمة في مجال الدعوة ، فتعليم المدعو وتربيته هما الخطوة التالية التي ينبغي للداعية البدء بها مع مَنْ قَبِلَ الدعوة ، واستجاب للتوجيهات ، وقدوتنا في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد حرص عليه الصلاة والسلام على تعليم أصحابه ، وتربيتهم التربية القويمة بغرس تعاليم الإسلام وأخلاقه وتوجيهاته.

وفي العصر الأيوبي استخدم الدعاة هذا الأسلوب القويم ، فحرصوا على تعليم الناس تعاليم الدين الإسلامي ، وتربيتهم على أخلاقه وآدابه ، وذلك ليلا مس شغاف قلوبهم ، وليكون منهجاً يهديهم ، ويُسعدهم في دنياهم وآخرتهم.

وفي هذا المبحث سأحدّث عن أسلوب التعليم والتربية من خلال الفقرات التالية:

١ - أهمية أسلوب التعليم والتربية

٢ - جهود الدولة الأيوبية لدعم مسير العلم والتربية

٣ - نماذج من الدعاة المعلمين

٤ - العناية بتعليم الأطفال وتدريبهم

٥ - الاهتمام بالترفيه

أولاً: أهمية أسلوب التعليم والتربية

أسلوب التعليم والتربية من الأساليب الهامة التي لا غنى للداعية عنها ، لأن الدعوة بدون التعليم والتربية تبقى كلمات مثالية توجيهية ، لن يستفيد المدعو منها إلا بتطبيقها في واقع حياته العملية ، وهذا هو دور الداعية ، والذي يكمن في تعليم المدعو وتربيته بالطريقة الصحيحة المشروعة ، وبذلك يجتمع عنده كل من العلم والعمل.

وقد دعا الله عباده للعلم وحثهم على طلبه ، فقال جل وعز: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)^(١).

ولقد رفع الله مكانة أهل العلم على غيرهم ، فقال تعالى: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)^(٢).

قال الإمام الشوكاني: (معنى الآية أنه يرفع الله الذين آمنوا على من لم يؤمنوا درجات ، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ، ثم رفعه بعلمه درجات)^(٣).

ولقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل من علم وعلم فقال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به)^(٤).

(١) آية ١٢٢ - سورة التوبة

(٢) جزء من آية ١١ - سورة المجادلة

(٣) فتح القدير - ٥ / ١٨٩

(٤) رواه البخاري في كتاب: العلم ، باب: فضل من علم وعلم ، ٤٢/١ ، برقم ٧٩

وحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب العلم ، وبين الأجر والثواب الذي يحصل عليه طالب العلم ، فقال: (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)^(١).

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على تعليم الناس ، وتفقيهم في أمور دينهم ، ويبعث المعلمين من صحابته إلى الناس ليعلموهم ويفقهوهم.

فقد روي عن عبد الله قال: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علّمنا سنن الهدى ، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه)^(٢).

ويحرص عليه الصلاة والسلام على الإتيان والإخلاص في التعليم ، فينبه بذلك الدعاة إلى أهمية هذا الأمر ، فقد روي عن بن عباس رضي الله عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا التَّشَهُدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ)^(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا الإِسْتِحَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ)^(٤).

ولقد كان للنساء نصيب من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روي أنه جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرَّجَالُ بِحَدِيثِكَ فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ فَقَالَ اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا فَاجْتَمِعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: (مَا مِنْكُمْ امْرَأَةٌ

(١) سنن ابن ماجه ١/٨١ ، برقم ٢٢٣ ، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - ١/١٣٨ ، برقم ٧٠

(٢) رواه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى ، ٥/١٢٨ ، برقم ١٤٣٧

(٣) رواه مسلم في كتاب: الصلاة ، باب: التشهد في الصلاة ، ٤/٩٩ ، برقم ٨٥٣

(٤) صحيح البخاري في كتاب: التهجد ، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى ، ١/٣٩١ ، برقم ١١٠٩

تُقَدَّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةٌ إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ) ، فقالت امرأةٌ مِنْهُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَيْنِ قَالَ فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ وَأَنْتَيْنِ وَأَنْتَيْنِ وَأَنْتَيْنِ) (١).

وقد بعث رسول الله دعاة من صحابته إلى الناس ليُعلِّمُوهم تعاليم وتوجيهات الدين الإسلامي، فعن البراء بن عازب قال: (أول مَنْ قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، وكانوا يُقرئون الناس) (٢).

وروي عن أنسٍ أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمُنَا السُّنَّةَ وَالْإِسْلَامَ قَالَ فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَقَالَ هَذَا أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ) (٣).

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان مبيِّناً أهمية هذا الأسلوب: "إذا حصلت الاستجابة ، وقَبِلَ المدعو الدعوة إلى الله ، وهداه الله ، وشرح صدره للإسلام ، وحب على الداعي أن يتعهده بما يكفل له المناعة ضد الداء القديم ، ويُبَصِّرُهُ بِمَعَالِمِ الدِّينِ ، وَيُثَبِّتُهُ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ بِتَعْلِيمِهِ مَعَالِمَ الْإِسْلَامِ وَمَعَانِيهِ وَأَفْكَارِهِ ، فَلَا يَجُوزُ لِلدَّاعِي أَنْ يَتْرِكَ الْمُسْتَجِدِّينَ وَشَأْنَهُمْ بِمَجْرَدِ أَنْهَمُ قَبِلُوا الْإِسْلَامَ وَصَارُوا مِنْ عِدَادِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ تَبَقَّى فِيهِمْ بَقَايَا كَثِيرَةٌ أَوْ قَلِيلَةٌ مِنْ دَائِهِمُ الْقَدِيمِ: الشَّرْكَ بِأَنْوَاعِهِ ، مِمَّا يُعَرِّضُهُمْ إِلَى الْإِنْتِكَاسِ وَالرُّجُوعِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، أَوْ السَّيْرِ عَلَى غَيْرِ هَدًى ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ" (٤).

وقال أيضاً: "فعلى الدعاة إلى الله أن يُعَلِّمُوا النَّاسَ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ ، وَيَعْرِفُوهُمْ بِحُدُودِ اللَّهِ ، وَلَا يَكْتَفُوا مِنْهُمْ بِالْعَاطِفَةِ الطَّيِّبَةِ ، وَتَرْدِيدِ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ الْحَقَّةِ ، وَأَنْ الْإِسْلَامَ صَالِحٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ لَا تَكْفِي ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ تَفْصِيلِ الْإِسْلَامِ بِالْقَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ" (٥).

وفي العصر الأيوبي استخدم الدعاة أسلوب التعليم والتربية ، ولمع كثير من الدعاة الحريصين على نشر تعاليم الإسلام السمحة ، وتعليمها للناس ، وتربيتهم بها ، مما أدَّى إلى صيرورة الدين الإسلامي منهجاً يسير عليه الناس في شؤون حياتهم ، ويهتدون بهديه وأخلاقه.

(١) رواه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب: تَعْلِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمَثِيلٍ ، ٢٦٦٦/٦ ، برقم ٦٨٨٠

(٢) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار ، باب: مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ١٤٢٨/٣ ، برقم ٣٧١٠

(٣) رواه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة ، باب فَضَائِلِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، ١٥/١٦٠ ، برقم ٦٢٠٦

(٤) أصول الدعوة - ٤٤٢

(٥) المصدر السابق - ٤٤٣

ثانياً: جهود الدولة الأيوبية لدعم مسيرة التعليم والتربية

اهتمت الدولة الأيوبية بنشر العلم بين الناس ، وتعليمهم الدين الإسلامي ، فعمدت إلى بناء المدارس ، ودور القرآن ، ودور الحديث ، واستقدمت مشاهير العلماء. وكان هدف الدولة الأساس من التعليم هو إعادة صياغة الجماهير الإسلامية بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة^(١). وانقسمت دور التعليم ووسائله إلى قسمين في هذا العصر:

- ١ - المدارس ودور القرآن والحديث ، وهدفها إخراج جيل جديد من الناشئة الذين تصفؤ عقيدتهم ، وتعلو مقدرتهم إلى المرتبة التي يجب أن يحتلها المسلم.
- ٢ - المساجد ، فقد كانت -إلى جانب العبادة- مراكز تعليمية ركزت على بثّ الروح الإسلامية من جديد ، والتركيز على تجفيف التعاليم ، والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثاراً عميقة في عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والعسكرية^(٢).

وقد بذل مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين جهوداً عظيمة لدعم التعليم ، منها قيامه بتعمير المدارس ، فهو رحمه الله لما ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس السنيّة ، فعمّر مدارس للحنفية ، ومدارس للشافعية ، وأخرى للمالكية^(٣)، كما حوّل الأزهر إلى جامعة سنيّة ، ونشر دور القرآن والحديث في جميع أرجاء دولته، ورثب في هذه المؤسسات المدرّسين والطلبة ، وأجرى للجميع رواتب شهرية ، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها^(٤). ومن الملوك الذين اهتموا بأسلوب التعليم وشجّعوا عليه نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، فقد أمر بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة^(٥).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٥٧

(٢) المصدر السابق - ٢٥٧ ، ٢٥٨

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٥٤

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٩١

(٥) العز بن عبد السلام - ٢٢

ثالثاً: نماذج من الدعاة المُعلِّمين

- ظهر في العصر الأيوبي عدد من الدعاة المخلصين الذين حرصوا على نشر العلم، وتعليم الناس في المدارس والمساجد ، ومن أولئك الدعاة:
- ابن الصلاح ، وقد درّس بالمدرسة الصلاحية ببيت المقدس ، ثم درّس بالرواحية والأشرفية والشامية الصغرى^(١).
- شمس الدين بن كمال المقدسي الحنبلي ، وقد ولى مشيخة الأشرفية التي بالجلبل ، ودرّس بالضائية^(٢).
- شهاب الدين الطوسي ، وهو أكبر أئمة الشافعية ورئيسها ، وإليه فتياها وتدرّسها ، ولما وصل مصر كان تقي الدين عمر متولّيها ، فأعجبه سمى الطوسي ، فولاه مدرسته بمصر ، وهي المعروفة بمنازل العز^(٣).
- أبو المعالي مسعود بن محمد النيسابوري ، الفقيه الشافعي ، درّس بالمدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن الجويني ، ثم قَدِم دمشق ، ودرّس بالمدرسة المجاهدية ، ثم بالزاوية الغربية من جامع دمشق ، ثم خرج إلى حلب ، وتولى التدريس في مدرستين فيها ، ثم رجع إلى دمشق ، ودرّس بالزاوية الغربية، وحدّث ، وتفرد برئاسة أصحاب الشافعي^(٤).
- شرف الدين بن عصرون ، وقد أنشأ مدرسة بدمشق قبالة داره ، ودُفن فيها لما توفي، وكان شيخ المذهب^(٥).
- موفق الدين عبد الله بن قدامة ، كان علماً من أعلام الفقه الحنبلي ، يحرص الكلّ على التفقه على يديه ، وعلى دراسة كُتبه^(٦).
- أبو طاهر السلفي ، كان حافظ الإسكندرية ، وقدّ عليه أهل العلم يأخذون عنه ، وهو أستاذ صلاح الدين^(١).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ١٤٠

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٠

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٦٨

(٤) وفيات الأعيان - ٥ / ١٩٥ ، ١٩٦

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٠٩

(٦) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٧٨

-ابراهيم بن عبد الواحد العماد المقدسي ، أخو الحافظ عبد الغني ، كان يجلس في جامع دمشق من الفجر إلى العشاء ، يُقرئ الناس العلم ، فإذا لم يتفق له مَنْ يشتغل عليه اشتغل بالصلاة ، أقام بدمشق يُعلّم الفقراء ويُطعمهم^(٢) .

ولقد كان لأولئك العلماء تأثير كبير في المدعويين ، من ذلك ما روي أن الحافظ عبد الغني كان يقرأ الحديث يوم الجمعة بجامع دمشق وليلة الخميس ، فيجتمع له الخلق ، وكان يقرأ ويكي ، ويكي الناس كثيراً ، حتى إن مَنْ حضره مرّة لا يكاد يتركه ، وكان جامعاً للعلم والعمل^(٣) .

ولعظم أجر العلماء ، ورفعة قدرهم عند الله حرص الكثير منهم على عدم أخذ أجرٍ على تعليمهم ، وما ذلك إلا احتساباً للأجر عند الله تعالى . ومن أبرز أولئك العلماء الإمام كمال الدين أبو البركات الأنباري النحوي ، فقد روي أن بابه كان مفتوحاً لطالبي العلم ، يُعلّمهم لوجه الله تعالى ، وكان لا يقبل من أحدٍ شيئاً^(٤) .

وثمة رواية تبين اهتمام العلماء بجمع الكتب بهدف الاستفادة منها ، وتعليمها العامة ونشر مافيهها من معلومات مفيدة ، واحترام الناس لأولئك العلماء وعدم الاعتراض على تصرفاتهم مهما كان الموقف:

فقد روي أن صلاح الدين عندما دخل مدينة حلب أذن لتاج الدين محمد المسعودي - وهو معلّم أحد أبنائه - بأن يقوم بفحص كتب إحدى المكتبات ، وأخذ ما يرغب من كتبها ، ويروي أحد شهود العيان - واسمه أبو البركات الهاشمي - بأن المسعودي قام باختيار عددٍ كبيرٍ من الكتب ، حشاها في عدلٍ^(٥) دون أن يعترض أحد^(٦) .

(١) تاريخ مدينة دمشق - الحافظ ابن عساكر - تحقيق: محب الدين العمري - ٢٠٨ / ٥

(٢) تاريخ الإسلام - ١٨٢ وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ)

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٤٣

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٠٠

(٥) العدل: الجوّالق والغرارة ، وعاء من الخيش ونحوه ، يوضع فيه القمح ونحوه .

انظر : مادة عدل ، غرر - المعجم الوسيط - ٦٥٤

(٦) مكنتات المساجد - ٢٥٣

وقد اعتنى أولئك الدعاة بالتدريس واهتموا به ، ومن أبرز الأمثلة على الدعاة المتميزين في ذلك العز بن عبد السلام ، فقد كان رحمه الله مُتفَنّاً بالتدريس ، وإيراد المَلَح والنوادر والأشعار في دروسه ، قال عنه اليونيني: "كان مع شدّته فيه حُسن المحاضرة بالنوادر والأشعار"^(١).

ومثله الشيخ ابن قدامة رحمه الله ، روي أنه كان له أسلوب فريد في التعليم ، وقد ذكر أحد طلابه أنه كان يحب أن يمازحهم ويباسطهم في القراءة^(٢).

وشاركت النساء الرجال في التعليم ، فهذه الشيخة بنت سعد الخير ، المسندة، أجاز لها خلق كثير ، وحدثت بدمشق ومصر ، وتزوجها ابن نجية^(٣).

رابعاً: العناية بتربية الأطفال وتعليمهم

الأطفال من الشرائح المهمة في المجتمع الإسلامي ، وحرّي بالدعاة الاهتمام بتدريسهم ، والعناية بتربيتهم ، إذ إنهم جيل المستقبل المنتظر ، فالاهتمام بتربيتهم ، وتدرّيسهم ، وتنشئتهم على نهج الإسلام القويم يشحنهم بما يقوّي إيمانهم وقلوبهم ، ويزوّدهم بما يلزمهم من معارف وعلوم ، فيتهيأ لهم مستقبل زاهر بإذن الله تعالى ، ويتقوّى بهم المجتمع الإسلامي ضدّ التحديات التي قد تواجههم .

ولللألعاب والترويح أهمية خاصة في حياة الطفل ؛ إذ يتعرف الطفل عن طريق لهُوهِ بالعالم المحيط به ، مما يمنحه السعادة والفرح ، وينمّي عنده الإمام بكثير من جوانب الحياة ، وبذلك يكون للعب والترويح قيمة تربوية في إذكاء مواهب الطفل ، وتنميته على نحو طبيعي. واللعب ضروري لتنمية مهارات الاكتشاف وهو وسيلة للتعرف على ما يحيط به ، ويساعده على التكيف ، وباللعب يتفاعل الطفل اجتماعياً، كما أنه يبرز مواهب الطفل وقدراته^(٤).

ويؤكّد الغزالي أهمية لعب الأطفال فيقول: "وينبغي أن يؤذن له -أي للصبي- بعد الانصراف من الكُتّاب أن يلعب لعباً جميلاً ، يستريح إليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب في اللعب ، فإنّ منع

(١) حسن المحاضرة - ١ / ٣١٦ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٥ / ٣٠٢

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٩

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٠٠

(٤) الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية - سهام مهدي جبار - ٤٢٢

الصبي من اللعب ، وإرهاقه بالتعلم دائماً ، يميت قلبه ، ويُبطل ذكائه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً^(١).

ولقد اهتّم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتربية الأولاد ، والإحسان إليهم والرحمة بهم ، والسنة النبوية تزخر بالعديد من الأمثلة الدالة على عنايته عليه الصلاة والسلام بهذه الشريحة الهامة من المجتمع ، ولعل المثال الآتي يعطينا صورة واضحة لذلك التعامل الرحيم مع الأطفال ، فقد روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا. فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ. وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ. فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمَرَ عَلَى صَبِيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ. فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَبِضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي. قَالَ: فَظَلَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ. فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٢).

وقد وجدت في المراجع التي أُرِحت للدولة الأيوبية نماذج من اهتمام الدعاة بتربية الأطفال وتعليمهم ، وأبرز ما يُعطينا دلالة على أهمية التربية ، وضرورتها للنشء ، ما قام به نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من تربية وتدريب لولده منذ طفولته ، حيث تربى في ديوان والده أثناء طفولته ومراهقته في مدينة بعلبك وقلعتها وسهل البقاع ، وقد ساهم في تلك التربية بعض علماء بعلبك الذين كانوا يعيشون فيها مثل المحسن بن أبي المضاء ، والذي كان وزير والده ، وغيرهم . ثم تدرّب عسكرياً بارتباطه مع عمه أسد الدين شيركوه في حلب ، إذ كان استقلاله المالي بإقطاعه الصغير الذي منحه إياه نور الدين ، وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره^(٣). ولقد نتج عن هذه التربية والتدريب ملك من أعظم الملوك الذي ذكرتهم الإنسانية ، وسطرّ التاريخ أمجادهم بين ثناياه، وافتخر بإنجازاتهم.

وسار صلاح الدين على نهج والده في الاهتمام بتربية بأبنائه ، فمن حرصه رحمه الله على تربيتهم ، وتعليمهم أن سلّمهم لشيخ أفاضل ليعلموهم ، ويُربّوهم أمثل تربية ، فقد رُوي أن السلطان لما رُزق بابنه الملك العزيز عثمان ختنه ، وسلّمه إلى صدر الدين بن الجاور معلماً له^(٤).

(١) إحياء علوم الدين - الغزالي - ٨ / ١٣٣

(٢) رواه مسلم في كتاب: الفضائل ، باب: كان رسول الله أحسن خلقاً ، ٦٠/١٥ ، برقم ٥٩٦٨

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ٤٥

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٠

ومن صور تربيته وتعليمه لأبنائه أنه كان إذا سمع حديثاً من شيخ ذي رواية عالية أسمعها أولاده ومماليكه ، وكان يأمرهم بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له^(١)، وقد أمر الفقيه أبا المعالي النيسابوري بأن يجمع له عقيدةً فيها كل ما يحتاج إليه في أمور دينه ، وحفظها أولاده الصغار حتى تترسخ في أذهانهم من الصغر^(٢).

وكان رحمه الله يهتم كثيراً بتشجيع الأطفال على حفظ القرآن وتلاوته ، فقد روي أنه اجتاز يوماً على صبي صغير بين يدي أبيه ، وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته ، فقرّبه ، وجعل له حظاً من خاص طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه مزرعة^(٣).

كما كان رحمه الله يُربي أولاده على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، ومن ذلك حرمة دم المسلم ، ومما يدل على ذلك أن بعض أولاده وخدمه طلبوا منه أن يأذن لهم في قتل أسير ، وتجريب سيوفهم بجرح الأسرى فلم يأذن لهم ، فقيل له: "لأي سبب منعتهم من ثواب الجهاد؟ فقال: (لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ، وهم الآن لا يُفرقون بين المسلم والكافر)^(٤).

ومن الدعاة العلماء الذين اهتموا بتعليم الأطفال ، وتربيتهم ، الشيخ ابن قدامة ، فقد قال عنه أخوه الشيخ موفق: "ربّانا أخي ، وعلمنا ، وحرص علينا ، كان للجماعة كالوالد ، يحرص عليهم ، ويقوم بمصالحهم"^(٥).

وكان رحمه الله متفهماً لطبيعة الأطفال ، وحاجتهم إلى اللعب ، ومما يدل على ذلك أن طلابه كلّموه في صبيان يشتغلون عليه أنهم يلعبون في درسه ، فقال: "هم صبيان ، ولا بد لهم من اللعب ، وأنتم كنتم مثلهم"^(٦).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٩

(٢) وفيات الأعيان - ٥ / ١٩٥ ، ١٩٦

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٩ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٩

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٤٢ ، الفتح القسي في الفتح القدسي - ٤٨١

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٥

(٦) المصدر السابق - ٢٢ / ١٦٥

خامساً: الاهتمام بالترفيه

اشتمل الدين الإسلامي على جميع جوانب الحياة ، ولبي جميع احتياجات النفس البشرية ، لذا دعا المسلم إلى الترفيه واللهو المباح بهدف التقوي على الطاعات والعبادات ، ولقد جاء في قصة يوسف عليه السلام على لسان إخوته قوله تعالى: (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(١)، كما ذكر تعالى مسابقتهم فقال جل وعز: (قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)^(٢) .

وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فأبطأ بي جملي وأعيا فأتى علي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: جابر ، فقلت: نعم، قال: ما شأنك؟ قلت: أبطأ علي جملي وأعيا فتخلفت فنزل يحجنه بمحجنه ، ثم قال اركب ، فركبت فلقد رأيته أكفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: تزوجت؟ قلت: نعم قال: بكرًا أم ثيبًا؟ قلت: بل ثيبًا قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك. قلت: إن لي أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة بجمعهن وممشطهن وتقوم عليهن^(٣) .

وعن عائشة قالت: (والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحراهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم ، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف ، فاقدروا قدرَ الجارية الحديثة السن ، الحريصة على اللهو)^(٤) ، وقد زوي عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليتعلم اليهود أن في ديننا فسحة ، إني أرسلت بحنيفة سمحة)^(٥) ، وقد ثبتت في السنة ألوان من الترفيه واللهو المباح كالمسابقة بالأقدام والخيول والمصارعة والرمي بالسهام والمداعبة والممازحة ونحو ذلك مما هو معلوم .

(١) آية ١٢ - سورة يوسف

(٢) آية ١٧ - سورة يوسف

(٣) رواه البخاري في كتاب: البيوع ، باب: شراء الدواب والحمير وإذا اشترى ذابئة أو جملاً وهو عليه هل يكون ذلك قبضاً قبل أن ينزل وقال بن عمر رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بعينه يعني جملاً صعباً، ٧٣٩/٢، برقم ١٩٩١

(٤) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير ، باب: اللهو بالحزاب ونحوها ، ١٠٦٣/٣ ، برقم ٢٧٤٥ . ومعنى الحديث: ينبغي أن يُراعى المربي شأن البنت الصغيرة السن ، ويُلبّي حاجتها إلى اللهو واللعب.

(٥) رواه أحمد في مسنده - ١١٥/٤٣ ، برقم ٢٥٩٦٢ وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح - ٩٤/١

ولقد علم سلمان أبا الدرداء رضي الله عنهما قاعدة التوازن في جوانب الحياة كلها ، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين سلمانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً فَقَالَ مَا شَأْنُكَ مُتَبَدِّلَةً قَالَتْ إِنَّ أَخَاكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا قَالَ فَلَمَّا جَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَرَّبَ إِلَيْهِ طَعَامًا فَقَالَ كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ قَالَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِيُقُومَ فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ تَمَّ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يُقُومُ فَقَالَ لَهُ تَمَّ فَنَامَ فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ تَمَّ الْآنَ فَعَامًا فَصَلِّ يَا فَقَالَ إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَا ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ صَدَقَ سَلْمَانُ^(١).

وقد نصَّ علماء المسلمين على أهمية جانب الترويح المباح وفائدته في التربية ، فقد أشار الغزالي إلى ذلك بقوله: "ترويح النفس بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة، فإنَّ النفسَ ملول ، وهي عن الحق نفور ؛ لأنه على خلافِ طَبْعِهَا ، فلو كُفِّت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت ، وإذا رُوِّحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت ، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات . وترويح القلب الغرض منه تهييج دواعي النشاط في العبادة ، فإن القلوب إذا أكرهت عميت ، وهذا أمر لا يستغنى عنه ، فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروِّح ، وفي تكليفها الدوام والملازمة ما يدعو للفتور ، وقد قال علي رضي الله عنه (رُوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً ، فَإِنَّمَا إِذَا أَكْرَهْتَ عَمِيَتْ)"^(٢).

ولقد اهتمَّ الدعاة الأيوبيون بعنصر الترفيه ، فكانت حياتهم متوازنة بين العمل الجادِّ مع شيء من الترفيه المباح الذي يجدد لهم نشاطهم ، ويُقَوِّبهم على طاعة الله .

من ذلك ما رُوي أنه كان خارج دمشق ميدانان شديدا الخضرة على نهر بردى ، وكانا من أبداع المناظر ، وكان يخرج إليهما صلاح الدين ، ومن قبله نور الدين ونجم الدين ، وكانوا يلعبون فيه بالصواجحة - لعب الكرة من على ظهور الخيل - وكانوا يسابقون بين الخيل فيهما ، وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصواجحة^(٣).

(١) رواه البخاري في كتاب: الصوم ، باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له ،

٢ / ٦٩٤ ، برقم ١٨٦٧

(٢) إحياء علوم الدين - ٢ / ٢٣٩

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٦

كما روي أنه في سنة ٥٧٧هـ خيّم السلطان صلاح الدين في بركة الجب للصيد ولعب الأكرة^(١)، وفي سنة ٥٩٠هـ ركب للصيد بالجيزة^(٢).

وقبل مَرَضِ السلطان الأخير الذي توفي فيه أخذ رحمه الله إجازة أمضاها شرق دمشق في الصيد^(٣).

وهكذا تبين من خلال عرض ما ظهر لي من استخدام الدعاة لأساليب الدعوة في العصر الأيوبي حرصهم البالغ على دفع مسيرة الدعوة إلى الأمام ، وحنّي ثمار الجهود المبذولة في ذلك . ومن أهم الأساليب التي استخدمها دعاة العصر الأيوبي أسلوب القدوة والتمسك بأهداب الخلق الإسلامي وتطبيقاته تمسكاً مَبْنِيّاً على الكتاب والسنة ، حتى إننا لنحسب أنفسنا جدّ قرييين من التطبيق العملي لتوجيهات الشُّنة وآدابها ، على الرغم من كثرة الصوارف التي كان الزمان يعجّ بها. ومنها أيضاً: أسلوب الموعظة الحسنة ، فقد اجتهد الواعظون في هذا العصر في تصحيح كثير من المنكرات الشائعة ، وفي تهيئة القلوب لقبول النصح والإرشاد ، مما أدى إلى تَقَبُّلِ الكثيرين لتوجيهات الشريعة ، ورجوعهم عن المنكرات .

كما استخدم الدعاة أسلوب الموعظة الحسنة ، وعرضت نماذج مُستلَّة من نصوص الوعظ في ذلك العصر ، وأحسنوا باستخدام وجوه متنوعة لأسلوب الحكمة ، فأثروا في المدعوين أعظم تأثير وأبلغه.

وقد شهد هذا العصر نهضة كبيرة في التربية والتعليم ؛ نظراً لدعم الحكّام له ، وحرصهم على متابعة مسيرة العلم والعلماء ، ولا سيما بعد أن واجهوا إرثاً سقيماً يتمثّل في نشر مذهب الرافضة أيام الدولة العبيدية ، فكان الملوك والولاة والعلماء مجتهدين في نشر علوم السنة النبوية ، ومذاهبها الفقهية ، وتصحيح ما هيمن على البلاد طوال قرون مضت.

ومما سبق يتبيّن أن على الدعاة في كل زمان ومكان أن يجتهدوا دوماً في استخدام الأسلوب المناسب في الوقت المناسب ، فأصناف المدعوين مختلفة ، والأسلوب الذي قد يؤثّر في بعض المدعوين قد لا يؤثّر في بعضهم الآخر.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧١ - ٧٢

(٢) المصدر السابق - ١ / ١٢٠

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ٤٧٦

المبحث الثالث

ميادين الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

وقد وعى ذلك دعاة الدولة الأيوبية ، فنجد حرصهم على الدعوة الإسلامية في شتى الأماكن في مختلف الميادين . ومن أهم الميادين التي اجتهد فيها الدعاة إلى الله واعتنوا فيها :

١ - ميدان المدارس

٢ - ميدان المعارك

٣ - ميدان القصور

٤ - ميدان المسجد

المطلب الأول: ميدان المدارس

اهتم بنو أيوب بإنشاء المدارس ودور التعليم ، وهم أول من أحدث المدارس بالفسطاط^(١) ، وهذا يُظهر لنا مدى احترامهم للعلم ، وما وصلت إليه دولتهم من الرقي^(٢) . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المدارس في هذا العصر إنما نشأت وزاد الاهتمام بها لمواجهة الفكر الشيعي الذي انتشر أيام العبيديين في مساجد مصر ودور العلم ودور الحكمة ومجالس القصر. إلا أن هذا لم يكن الهدف الرئيس الذي من أجله توسّع المسلمون في إقامة مدارسهم ، بل هدفوا من وراء ذلك إلى إعداد رجال يستطيعون العمل في مجال الدعوة للتصديّ للأفكار الخارجة على الدين ، كما هدفوا إلى نشر العلم الشرعي ، وذلك بتدريس القرآن والحديث والسنة والفقه ، بالإضافة إلى فروع العلوم الأخرى التجريبية والنظرية. ولم يقتصر دور تلك المدارس على التعليم فحسب ، بل كانت في الوقت نفسه مساجد تؤدّي في معظمها صلاة الجمعة^(٣) .

وكان من أبرز سمات التعليم في العصر الأيوبي الاتجاه إلى العناية بالقرآن الكريم حفظاً ودراسة وتديراً ، وإنشاء الدور الخاصة بذلك . ويتحدّث النعيمي عن سبع دور أنشئت لهذا الغرض في كتابه: "الدارس في تاريخ المدارس" ، ومن هذه الدور في الشام^(٤) :

- ١ دار القرآن الكريم السنجارية التي وقفها علاء الدين علي بن اسماعيل السنجاري.
- ٢ دار القرآن الكريم الوجيهية التي وقفها وجيه الدين بن المنجا محمد بن عثمان .
- ٣ دار القرآن الكريم الجزرية ، عمّرها محمد بن محمد المقرئ شمس الدين بن الجزري وسمّاها دار القرآن ، وأقرأ الناس بها.

واعتني بالحديث الشريف أيضاً في هذا العهد ، دراسة وتديراً ، وأنشئت الدور الخاصة به . ويُورّخ النعيمي لست عشرة داراً خاصة بالحديث لاحظ نشاطها في عهده^(٥) .

(١) الفسطاط: مدينة مصر القديمة . الصحاح - فسط - ٣ / ١١٥٠

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ٣ / ٣٩٠ ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٤١٤

(٣) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية - د/ فتحية النبراوي - ٢٤٧

(٤) انظر: الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣-١٨

(٥) انظر: المصدر السابق - ١ / ١٩-١٢٢

وسأتناول في هذا المطلب الأمور التالية:

- ١ - اهتمام الملوك الأيوبيين بميدان المدارس
- ٢ - اهتمام الأمراء الأيوبيين بميدان المدارس
- ٣ - اهتمام نساء بني أيوب بميدان المدارس
- ٤ - اهتمام علماء بني أيوب بميدان المدارس
- ٥ - اهتمام الدعاة بتغيير أماكن المنكر إلى مدارس

أولاً: اهتمام الملوك الأيوبيين بميدان المدارس

اهتم ملوك بني أيوب بميدان المدارس اهتماماً كبيراً ، وأولّوه عناية بالغة ، ومما يدل على ذلك ما جاء في سجل دار الكتب بالمسجد الأقصى ، والذي قيل عنه: "إن الناظر في سجل دار الكتب بالمسجد الأقصى يجد أن مصاحف ، وكتباً كثيرة قد وقفت عليها منذ العصر الأيوبي" (١) .
ومن أهم الملوك الذين اهتموا بهذا الميدان:

-صلاح الدين الأيوبي ، مؤسس الدولة الأيوبية ، فقد رُوي أنه لما توحدت مصر مع بلاد الشام كانت قد حُرِّبَتها القيادة العبيدية ، فجدد في تعميرها في جميع المجالات ، ويروي أبو شامة جانباً من ذلك فيقول: "عمّر السلطان صلاح الدين المدرسة المجاورة لقبة الإمام الشافعي بالقرافة ، والتي درّس فيها الخبوشاني ، كما عمّر مدرسة مجاورة لمشهد الحسين ، ومدارس للحنفية ، وأخرى للشافعية" (٢) .

ومن المدارس التي أنشأها رحمه الله المدرسة الناصرية الجوانية (٣) . ومنها أيضاً مدرسة قريبة من ضريح توران شاه بالاسكندرية (٤) . وفي الفسطاط كان صلاح الدين أول من أحدث المدارس فعمّر فيها مدرسة للمالكية ومدرسة ابن زين التجار للشافعية ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته، فأنشؤوا مدارس أخرى لتدريس المذهب السني (٥) .

ومن المدارس التي بناها رحمه الله : المدرسة السوفية للحنفية ، والقمحية للمالكية ، وغيرها من المدارس (٦) .

-أسد الدين شيركوه ، أنشأ المدرسة الأسدية لطلاب المذهبين الشافعية والحنفية بالشرف القبلي ظاهر دمشق ، وهي المطلّة على الميدان الأخضر (٧) .

(١)الدارس في تاريخ المدارس - ١١٢

(٢)كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤٤٧/٢-٤٤٨ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٨٨، ٩٣ ،

السلوك لمعرفة دول الملوك-١/٦٣ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- ٦/٧٨

(٣) المصدر السابق - ١/ ٤٥٨

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١/ ٧٦

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء- ٣/ ٣٩٠

(٦) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١/ ٢٤٣

(٧)كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١١٤/٢ ، الدارس في تاريخ المدارس- ١/ ١٥٢

-الملك العادل: أنشأ المدرسة العادلية الكبرى والتي فيها تربته ، وقد بناها بناءً محكماً متقناً، وفيها قدّر الله جمع كتاب "الدارس في تاريخ المدارس"^(١)، كما ألف أبو شامة كتابه "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" في مكتبة المدرسة العادلية ، وصنّف ابن خلكان كتابه "وفيات الأعيان" في هذه المدرسة . وذلك يدل على قيمة هذه المدرسة العظيمة ، وأنها كانت تضمّ بين جنباتها مجموعة ضخمة من الكتب في شتى فروع المعرفة بحيث أصبحت تكفي مراجع لتأليف الموسوعات الكبيرة^(٢).

وقد ذكر أبو شامة -الذي كان طالباً فيها- أن أول من ألقى الدرس فيها الفقيه جمال الدين المصري ، وحضر أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء ، كما حضر الملك المعظم ، ودارت المناقشات حول الدرس مع العلماء بإيوان المدرسة.

وكان الفقيه جمال الدين المصري يدرّس الفقه بها ، وكان قبل بدء درس الفقه يُمهد ببعض الآيات القرآنية ، ويفسرها ويناقشها مع طلبته ، وظلّ يسير على هذا المنوال حتى فسّر القرآن بكامله سنة ٦٢٣ هـ وهي السنة التي توفي بها^(٣).

-الملك الأشرف: أنشأ دار الحديث الأشرفية الحنفية في دمشق ، وبنى سكناً للشيخ المدرّس بها ، وسمع بها صحيح البخاري على الزبيدي ، ودرّس فيها ابن الصلاح^(٤). كما أنشأ دار الحديث الأشرفية البرّانية ، وقد بناها للحافظ جمال الدين المقدسي ، ودرّس فيها شمس الدين بن قدامة ، وولي مشيختها شمس الدين بن الكمال^(٥).

-الملك الظاهر ، أنشأ المدرسة الظاهرية البرّانية في حلب^(٦)، وعند افتتاحها عمل الظاهر دعوة عظيمة لفقهاء حلب وأعيانها ، وحضر بنفسه أول درس بها ، وفوّض إدارتها ونظارتها إلى

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٦٤ ، الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٦١

(٢) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٩٢

(٣) المصدر السابق - ٨٥

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٢٢ ، الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٧٨ ، مفرج الكروب في أخبار

بني أيوب - ٥ / ١٤٣

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٤٧

(٦) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٤٠ ، الأعلام الخطيرة - محمد بن علي بن شداد - تحقيق: يحيى عبارة - ٤١٢

القاضي ابن شداد ، وأول من افتتح التدريس بها ضياء الدين محمد بن الحسن العجمي ، وظلت هذه المدرسة في رعاية العلماء من أسرة بني العجمي حتى سقوط حلب بيد المغول^(١).

-الملك الكامل: بنى على شرف الميدان ظاهر دمشق مدرسة ، ووقفها على أصحاب أبي حنيفة ، وهي من أحسن المدارس وأنصرها^(٢).

-الملك المعظم عيسى بن العادل ، أنشأ المدرسة المعظمية ، وأول من ذكر بها الدرس مجد الدين قاضي الطور ، وقد عيّن هذا الملك ابنه الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ناظراً لهذه المدرسة. وكانت هذه المدرسة إلى جانب اهتمامها بتدريس الفقه الحنفي تدرّس الحديث والتفسير والقراءات والنحو والمعاني والبديع والأصول . ومن أهم الكتب التي درّست بهذه المدرسة: كتاب "الجامع الكبير" ، وكتاب "الهداية" ، وكتاب "كنز الدقائق" ، وأمّهات كتب الحديث والكشاف في التفسير والكافية في النحو وغيرها من الكتب^(٣).

كما أنشأ الملك المعظم أيضاً المدرسة النحوية في بيت المقدس ، ووقف عليها وقوفاً حسنة، وخصّصها للاشتغال بالعربية ، ورتب لها إماماً يصلّي الصلوات الخمس، ورتّب لها طلبة النحو وشيخاً لهم ، وقد استمرت هذه المدرسة تؤدي دورها في الحركة الفكرية منذ إنشائها في أوائل القرن السابع الهجري ، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري^(٤). وجدّد الملك المعظم رحمه الله الزاوية النصرية لإقراء القرآن الكريم والاشتغال بالنحو^(٥).

-الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه ، بنى المدرسة القاهرية بالموصل، ودُفن بها^(٦).

-الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر ، أنشأ دار الحديث الناصرية بسفح قاسيون ، وباشر مشيختها الشيخ كمال الدين الشريشي وابنه جمال الدين محمد^(١).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٩٩ - ١٠٠

(٢) ذيل مرآة الزمان - ١ / ١٦

(٣) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٨٢ ، ١٠٧

(٤) المصدر السابق - ١١٠

(٥) المصدر السابق - ١١٢

(٦) المصدر السابق - ٦٧

-الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين ، بنى مدرسة للشافعية وأخرى للحنفية^(٢)، وبنى المدرسة التَّقوية الشافعية ، وله بمصر المدرسة المعروفة بمنازل العز ، بناها للعلامة شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود الطوسي الشافعي، يقال: إنها كانت دار سكنه ، فوقف عليها وقفاً كثيراً ، وجعلها مدرسة. وله في الفيوم مدرستان: شافعية ومالكية ، وعليها وقف جيد أيضاً ، وبنى بمدينة الرها مدرسة^(٣).

-الملك مظفر الدين كوكبوري ، بنى دار الحديث المظفرية ، وممن تولى مشيخة هذه الدار أبو محمد عبد القادر الرهاوي ، وأبو عبد الله محمد بن عمر المقدسي^(٤).

ثانياً: اهتمام الأمراء الأيوبيين بميدان المدارس

سار أمراء بني أيوب على نهج ملوكهم في الاهتمام بميدان المدارس مُدركين أهميته البالغة في الدعوة إلى الله تعالى ، ومن أهم أولئك الأمراء:

-الأمير سيف الدين فارس الدوادار ، وقف المدرسة الفارسية ، وقرّر فيها لكل أمير في كل شهر خمسة عشر درهماً ، وفي كل موسم وعيد لكل واحد خمسة عشر درهماً ، وكان يصرف لكل مدرس ثمانون درهماً ، ولكل مقرر خمسة عشر درهماً^(٥).

- الأمير ناصر الدين الحسين بن علي ، أنشأ المدرسة القيمرية ، ووقفها على القاضي شمس الدين علي الشهرزوري ، وممن وليها عبد الله الأذري^(٦).

-الأمير ركن الدين منكورس ، أنشأ المدرسة الركنية البرانية ، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وكان من خيار الأمراء ، ينزل كل ليلة وقت السحر إلى الجامع وحده، ويواظب على حضور الصلوات فيه مع الجماعة ، وكان قليل الكلام ، كثير الصدقات^(٧).

(١) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ١١٥

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥٥

(٣) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٥٦ ، الكامل في التاريخ ، ١١ / ٣٦٦ ، الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٢١٧

(٤) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٧٠ - ٧١

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٤٢٨

(٦) المصدر السابق - ١ / ٤٤٣

(٧) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥١٩

- الأمير أبو الفضائل بدر الدين بن لؤلؤ ، وقد درس بها أبو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر الموصلبي ، ودرس كمال الدين موسى بن منعة^(١).
- الأمير سيف الدين علي بن جندر ، أسّس مدرسة لتدريس مذهب الإمام مالك ، ومذهب الإمام أحمد^(٢).
- الأمير سيف الدين أيازكوج ، مملوك أسد الدين شيركوه ، وأحد أمراء صلاح الدين ، أنشأ المدرسة الأزكشية ، وجعلها وقفاً لفقهاء الأحناف^(٣).
- الأمير فخر الدين عثمان الياروقي ، كان يشغل منصب أستاذ الملك الكامل، بني المدرسة الفخرية^(٤).

ثالثاً: اهتمام علماء بني أيوب بميدان المدارس

وقد عُني العلماء بإنشاء المدارس والتدريس فيها ، ومن العلماء البارزين الذين عُنيوا بذلك بهاء الدين بن شداد ، فقد كانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس ، وليس فيها من العلماء إلا نفر يسير ، فاعتنى ابن شداد بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها ، وعُمّرت في أيامه المدارس الكثيرة. ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد ، وحصل بها الاشتغال والاستفادة ، وكثُر الجمع بها^(٥). ومن أهم المدارس التي أنشأها رحمه الله على عهد الملك الظاهر غازي المدرسة الصاحبية على المذهب الشافعي^(٦).

ومن أهم المدارس التي أنشأها العلماء:

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٦٨

(٢) الأعلام الخطيرة - ١ / ١١٣

(٣) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية - ٢٥٠

(٤) المصدر السابق - ٢٥١

(٥) وفيات الأعيان - ٧ / ٨٩-٩٠ ، زبدة الحلب في تاريخ حلب - ٣ / ١٣٢

(٦) الأعلام الخطيرة - ١ / ١٠٢

-المدرسة الحنبلية الشريفة بدمشق ، واقفها الشيرازي الفقيه الواعظ شيخ الحنابلة بالشام ، كان إماماً عارفاً بالمذهب والفقه والأصول ، صاحب عبادة ، اشتغل عليه جماعة كثيرون ، وكان فقيهاً بارعاً ، وواعظاً فصيحاً^(١).

-المدرسة الضيائية المحاسنية ، بناها ضياء الدين محاسن ، يقول عنه ابن شداد: "كان رجلاً صالحاً ، وفقهياً عارفاً بالمذهب ، وزاهداً ، ما نafs في منصب قط ولا دنيا ، ولا آذى مسلماً ، ولا تنعم في ملبس ولا مأكلا ولا زاد على ثوب وعمامة"^(٢).

-المدرسة الرواحية ، بناها أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة ، ووقفها على الشافعية، وفوض تدريسها ونظرها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري ، وله في حلب الشهباء مدرسة أخرى مثلها^(٣).

-المدرسة الجاروخية ، بناها جاروخ برسم المدرّس أبي القاسم محمود بن المبارك ، أحد العلماء الأذكياء ، والمحرّرين في المذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية ، وسمع الحديث من جماعة ، وكان ذكياً فصيحاً بليغاً^(٤).

-المدرسة البدرية ، أنشأها بدر الدين الهكاري ، ووقفها على فقهاء الشافعية في عهد الملك المعظم عيسى ، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة^(٥).

-دار الحديث المهاجرية ، أنشأها أبو القاسم علي بن مهاجر الموصلية ، ووقف عليها الوقوف الحسنة ، والكتب النفيسة^(٦).

-دار الحديث العروية ، بالجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي ، أول من فتحه شرف الدين محمد بن عروة ، وبني فيه البركة ، ووقف على الحديث دروساً ، ووقف خزائن كتبه فيه^(٧).

(١) الدارس في تاريخ المدارس - ٧٥ / ٢

(٢) المصدر السابق - ٩٩ / ٢

(٣) المصدر السابق - ٢٦٥ / ١

(٤) المصدر السابق - ٢٢٠ / ١

(٥) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ١٠٧

(٦) المصدر السابق - ٧٠ - ٧٢

(٧) الدارس في تاريخ المدارس - ٨٢ / ١

-مدرسة الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني ، فقد بناها بجوار تربة الشافعي ، وأوقف على تلك المدرسة أوقافاً ، وأعطها في بنائها ألوفاً^(١) .

- دار الحديث الضيائية ، أنشأها الحافظ ضياء الدين المقدسي ، وأعانه عليها أهل الخير ، وجعلها دار حديث ، ووقف عليها كتبه التي وُصفت بأنها (كثيرة عظيمة). وقد نمت كتب هذه المكتبة إذ أوقف عليها مجموعة من العلماء كتباً منهم: ابن الحاجب وابن سلام وابن هائل والحافظ عبد الغني والشيخ علي الموصلي . وقد تجمّع في مكتبة هذه المدرسة من الكتب الوقفية ما دفع بجمال الدين بن عبد الهادي إلى القول بأنه كان بها (كتب الدنيا والأجزاء الحديثية) ، وكان فيها مذاهب الأئمة الأربعة ، والتوراة والإنجيل^(٢) .

ويجدر التنويه هنا بحكم قراءة كتب أهل الكتاب ، ويمكن استنباط هذا من الدليل الآتي ، فقد روي أنه جاء عُمَرُ بن الحُطَّابِ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ إني مَرَرْتُ بِأَخٍ لي من قُرَيْظَةَ فَكَتَبَ لي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَةِ ، أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قال فَتَعَيَّرَ وَجْهَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال عبد الله ، فقلت له ألا تَرَى ما يُوَجِّهُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فقال عُمَرُ رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم رَسُولاً قال فَسُرِّي عَنِ النبي صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ قال والذي نفسي بيده لو أَصْبَحَ فيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الأُمَّمِ وَأنا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ^(٣) .

وروي عَنْ جَابِرٍ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الحُطَّابِ أتى رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بنسخةٍ من التوراة فقال: يا رسولَ اللَّهِ هذه نسخةٌ من التوراة ، فسكت ، فجعلَ يقرأُ وَوجهَهُ رسولَ اللَّهِ يتغيَّرُ ، فقال أبو بكرٍ: ثَكَلْتِكَ الثَّوَاكِلُ ما ترى بِوَجْهِ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَنَظَرَ عُمَرُ إلى وَجْهِ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فقال: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ ، وَمِنْ غَضَبِ رسولِهِ ، رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ نبياً ، فقال رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسُ محمدٍ بيده لو بَدَأَ لَكُمْ مُوسَى فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ عن سِوَةِ السَّبِيلِ ، وَلَوْ كانَ حَيًّا وَأَدْرَكَ نُبُوءِي لاَتَّبَعَنِي"^(٤) .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٩٣ - ٢٩٤

(٢) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٩٦ - ٩٧

(٣) رواه أحمد في مسنده - ٤٧٠/٣ - برقم ١٥٩٠٣ ، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة - ٦٢٨/٧ وقال: حسن لغيره

(٤) رواه الدارمي في سننه - تحقيق: حسن الأسد - ٤٠٣/١ ، وقال: الحديث حسن.

قال ابن حجر: "والذي يظهر كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم ، والأولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن من العلم ويصبح من الراسخين في الإيمان ، فهذا لا يجوز له النظر في شيء من ذلك ، بخلاف الراسخ فيجوز ، ولا سيما عند الاحتياج إلى الردّ على المخالف . ويدلّ على ذلك نقل الأئمة قديماً وحديثاً من التوراة ، وإلزامهم اليهود بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم بما يستخرجونه من كتابهم ، ولولا اعتقادهم بجواز النظر فيه لما فعلوه وتواردوا عليه ، وأما غضب الرسول صلى الله عليه وسلم فهو من فعل ما هو خلاف الأولى إذا صدر ممن لا يليق منه ذلك"^(١).

-ومن المدارس التي أنشأها العلماء: مدرسة القاضي الفاضل بالقاهرة للشافعية والمالكية ، وكان فيها قاعة للإقراء ، وقد قرأ بها الإمام الشاطبي ناظم الشاطبية ، ثم تلميذه أبو عبد الله القرطبي. وقد بلغ من عناية القاضي الفاضل بهذه المدرسة أن أوقف عليها خزانة كتب نفيسة ضمت أمهات الكتب الأصول^(٢).

كما بنى بالقاهرة مدرسة بدرب ملوخية ، وقد استفتح التدريس بها يوم السبت مستهل المحرم من سنة ثمانين وخمسمئة^(٣).

-المدرسة الجوزية ، أنشأها محيي الدين عبد الرحمن بن الجوزي في أيام الملك الصالح عماد الدين^(٤).

-المدرسة الدخوارية ، وواقفها هو الطبيب المشهور عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي الملقب بالدخوار ، والذي انتهت إليه معرفة الطب ، وكان بارعاً في ذلك المجال ، وصنف فيه التصانيف ، وقد أوقف داره على الأطباء بدمشق ، وأوقف عليها عدداً من الضياع ، وأماكن أخرى تدّر دخلاً وفيراً للصرف منه على الأطباء والطلاب ، وكانت تلك المدرسة أشبه بكلية الطب ، وظلت تقوم بدورها في تدريس الطب زمناً طويلاً^(٥).

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ١٣ / ٥٢٦

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٩٢ ، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية - ٢٥٠

(٣) وفيات الأعيان - ٣ / ١٦٢

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ٢ / ٣٠

(٥) المصدر السابق - ٢ / ١٢٧ ، الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٨٩

رابعاً: اهتمام نساء بني أيوب بميدان المدارس

لم يكن الاهتمام بميدان المدارس مقصوراً على رجال الدولة الأيوبية ، بل اهتمت النساء الأيوبيات بهذا الميدان العظيم ، وذلك لإدراكهن لأهمية دوره البالغ في مجال الدعوة إلى الله .

ومن أبرز النسوة اللاتي اعتنين بهذا الميدان:

- الخاتون ست الشام ابنة نجم الدين أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين ، كانت كثيرة البر والإحسان والصلاة وبأبها ملجأً للقاصدين ، أنشأت المدرسة الشامية البرانية ، وهي من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأوقافاً ، درّس فيها تقي الدين بن الصلاح^(١).

وأنشأت أيضاً المدرسة الشامية الجوانية ، وقد درّس فيها الشيخ تقي الدين بن الصلاح ، وتاج الدين بن أبي عصرون^(٢).

- ربعة خاتون بنت نجم الدين أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين ، زوجة مظفر الدين ، قدمت إلى دمشق ، وفي خدمتها العاملة أمّة اللطيف بنت الناصح الحنبلي ، فأحببتها ، وحصل لها من حبها أموال عظيمة ، ونصحتّها ببناء المدرسة صاحبة بسفح قاسيون ، فبنتها ووقفتها على الحنابلة^(٣).

- صاحبة ضيفة خاتون بنت الملك العادل ، وزوجة الملك الظاهر صاحب حلب ، أنشأت مدرسة الفردوس ، وألحقت بها رباطاً ، وجعلت فيها مجموعة من الفقهاء والطلبة ، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة ، وتعدّ هذه المدرسة من أكبر مدارس حلب ، وتعاقب على التدريس فيها جماعة من الفقهاء والعلماء^(٤).

- الست الخاتون عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب ، بنت أخي صلاح الدين ، وأخت فروخشاه ، أنشأت المدرسة العذراوية بمدينة دمشق ، وهي وقف على الشافعية والحنفية^(٥).

- عزيزة خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين ، وزوجة السلطان الملك المعظم ، أنشأت المدرسة الماردانية ، ووقفتها ، وجعلت شرط وقفها ألا يكون مدرستها مدرساً لغيرها^(٦).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٢٩ ، الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٢٧٧

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٢٩ ، الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٠١

(٣) تاريخ الإسلام - ١٦٢ (وفيات ٦٤٠ - ٦٥٠ هـ) ، الدارس في تاريخ المدارس - ٢ / ٧٩ ، ١١٢

(٤) الأعلام الخطيرة - ٤١٢ ، الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ١٠٠

(٥) وفيات الأعيان - ٢ / ٤٣٥ ، الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٧٣

- بنت الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل ، أنشأت المدرسة المرشيدية ، وكان أول من دَرَسَ فيها صدر الدين أحمد بن شهاب الدين علي الكاشي^(٢) .

- خاتون بنت الملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك زنكي ، امرأة الملك الأشرف ، أنشأت المدرسة الأتابكية وأوقفتها ، ولما تُؤفِّت دُفنت بها^(٣) .

- زمرد خاتون ، أنشأت المدرسة الخاتونية البرانية ، وقد سمعت الحديث من أبي الحسن علي بن قبيس ، واستنسخت الكتب ، وحفظت القرآن الكريم ، وبنت المسجد الكبير بصنعاء ، ووقفت مدرسة للحنفية كبيرة ، وجاورت المدينة المنورة ، فماتت ، ودُفنت هناك بالبقيع^(٤) .

- والدة الملك الصالح اسماعيل ، أنشأت المدرسة الشامية البرانية ، ودرّس فيها تقي الدين بن الصلاح^(٥) .

- السيدة عاشوراء زوجة الأمير أيازكوج الأسدي ، وإليها تنسب المدرسة العاشورية ، وقد أوقفتها على فقهاء الحنفية^(٦) .

خامساً: اهتمام الدعاة بتحويل بعض الأبنية إلى مدارس

حرص الأيوبيون على إنكار ما يجدونه من منكرات في دولتهم ، وتحويل بعضها إلى مدارس لتدريس العلم الشرعي .

من ذلك أنه بعد سقوط دولة العبيديين كان بمصر دار سجن تُسمّى (دار معونة) يُحبس فيها مَنْ يُراد حَبْسه ، فأمر صلاح الدين بهدمها، وأزال ما كان فيها من الظلم ، وبنها مدرسة للشافعية، وكان ذلك في سنة ٥٦٦هـ^(٧) .

(١) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٩٢

(٢) المصدر السابق - ١ / ٥٧٦

(٣) المصدر السابق - ١ / ١٢٩

(٤) المصدر السابق - ١ / ٥٠٢

(٥) المصدر السابق - ١ / ٢٧٧

(٦) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية - ٢٥١

(٧) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١٨٠/٢ ، الكامل في التاريخ - ٣٦٦/١١

وبعد فتح بيت المقدس قام صلاح الدين بتحويل كنيسة القديس حنّا إلى مدرسة للشافعية، وعيّن الفقيه مجد الدين طاهر الكلابي الحلبي أول مدرس لها ، وقد عُرفت فيما بعد بالمدرسة الصلاحية^(١).

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أنّ الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل قام بشراء دارٍ للأمير صارم الدين قايماز النجمي ، وكان بها حمّام ، فحوّل تلك الدار إلى دار حديث ، وهدم الحمّام ، وبناه سكناً للشيخ المدرس بها ، وجعل شيخها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الذي أملى بها الحديث^(٢).

(١) صلاح الدين - القائد وعصره - ٣٣٩-٣٤٠

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٢٢

المطلب الثاني: ميدان المعارك

استغلّ الدعاة الأيوبيون أرض المعركة ميداناً خصباً للدعوة إلى الله تعالى ؛ وذلك لإدراكهم حاجة الجند وقادتهم للتوجيه والتذكير بفضل الجهاد ، وأهمية إخلاص النية فيه لله تعالى ، وتجديد التوبة فقد تكون تلك اللحظات هي اللحظات الأخيرة بالنسبة لهم.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن العلماء والفقهاء في حصار عكا كانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامي بين الجند ، ويبثون الشجاعة في نفوسهم ، ويذكرونهم بما أعدّه الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم ، ويستشهدون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ؛ ليرفعوا من روحهم المعنوية ، ويزيدوا من مصابرتهم في الجهاد ، وكان القرءاء يقرءون القرآن ، ويحذرون الجند من الفرار^(١).

ويوجّه قائد الجيش صلاح الدين جنده بعد فتح اللاذقية فيقول لهم: "قد أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وامثال أمره فيه بالانقياد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع أهل الأرض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله في اللقاء ، ولم نبال بأعداد الأعداء"^(٢).

وكان الدعاة يدعون الأسرى إلى الإسلام قبل أن يقيموا عليهم الحد الشرعي ، فقد روي أنه قُتِلَ كُلُّ مَنْ أُسِرَ فِي مَعْرَكَةِ حَظِينَ مِنْ جُنُودِ مَلِكِ الصَّلِيبِيِّينَ (الدَّوَيْتَةِ وَالِاسْتَبَارِيَّةِ) بَعْدَ عَرْضِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ أَوْلَاً وَرَفُضِهِمْ^(٣).

وثمة موقف حدث بعد غارة من الغارات يُبيِّن مدى حرص الدعاة على التوجيه والنصح في كل وقت ، وكل ميدان ، يقول أبو شامة: "أغار عسكر حلب على عسكرنا في مدة مقامنا على عزاز ، فأخذوا على حين غرة وغفلة ما تعجلوه وعدادوا ، فركب أصحابنا في طلبهم ، فما أدركوا إلا فارساً واحداً ، فأمر السلطان بقطع يده . فقلت للمأمور وذلك بمسمع من السلطان: "تمهل ساعة لعلّه يقبل مني شفاعاً". ثم قلت: "هذا لا يحلّ" ، وقدرك بل دينك عن هذه يحلّ". وما زلت أكرّر عليه الحديث حتى تبسّم ، وعدادت إليه عاطفته ورحم ، وأمر بجبسه ، وسرّني سلامة نفسه.

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٣٣٠ - ٣٣٢

(٢) المصدر السابق - ٢٤٠

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ٢٩٠

ثم دخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال: "ما هذا الفشل والوفى ، وإن سكتُم أنتم ، فما أسكت أنا"، ودمدم وزجر ، وغضب وزأر ، وقال: "لِمَ لا يُقتل هذا الرجل ، ولماذا اعتُقل!" ، فوعظه السلطان واستعطفه ، وسكّن غيظه وتعطفه ، وتلا عليه: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) ^(١) ، وأطلق سراحه ، وتمّ في نجاحه نجاحه ^(٢).

وتأكيداً لهذا الأمر العظيم ، أمر الدعوة إلى الله في كل ميدان يُطلعنا التاريخ الأيوبي على الحادثة التالية :

ففي سنة ٥٧٦هـ هادن السلطان صلاح الدين الفرنج ، وتوجّه إلى بلد الروم ، فأصلح بين نور الدين محمد قرا أرسلان وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قليج أرسلان بن سعود ، واجتمعوا على نهر يقال له (كوك سو)، وكثرت ثمّ الهدايا والدعوات والأفراح والهبّات ^(٣). وهكذا فإن على الدعاة اليوم أن يهتموا بميدان المعركة ويولوه عناية كبيرة ، فذلك بلا ريب سيؤدي إلى نتائج دعوية عظيمة.

(١) جزء من آية ١٦٤ - سورة الأنعام

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٤٠٨ - ٤٠٩

(٣) المصدر السابق - ٣ / ٥٥

المطلب الثالث: ميدان القصر

من أبرز الميادين التي حرص الدعاة الأيوبيون على الدعوة فيها القصر ، وأشهر الدعاة الذين يُذكرون في هذا المجال صلاح الدين الأيوبي وأولاده ووزرائه ، وثمة مواقف كثيرة تؤكّد ذلك ، وقد تحيّرت منها الآتي:

لقد كان من أبرز مجالات الدعوة في القصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد حرص صلاح الدين على ملاحظة مستشاريه ، ومدى تمسّكهم بالصلاح والمعروف ، وقد ذكر الذهبي في "سير أعلام النبلاء" أن صلاح الدين وجد مرة في مكتب مستشاره العماد دواة حبر محلاة بالفضة ، فما كان من صلاح الدين إلا أنكر عليه هذا الاستعمال ، وبيّن له عدم جواز ذلك ، فأجابته العماد أنّ في جواز ذلك وجهاً ذكره أبو محمد الجويني^(١).

وذكر المؤرخون أن مجالس صلاح الدين في القصر ما كانت تعرف الباطل والمزح الفارغ، قال الذهبي: (ولم يكن لمُبْطِلٍ ، ولا لِمَزَّاحٍ عنده نصيب)^(٢). وكانت مجالسه في قصره حافلة بأهل العلم يتذاكرون في نصوصه وآفاقه ، وهو يُحسن الاستماع والمشاركة^(٣).

ويذكر المؤرخون أن الملك الكامل بن صلاح الدين كان عالماً من علماء الحديث ، حريصاً على علمه ونقله ، وللعلم عنده مكانة عظيمة ، وذكر الذهبي أن الشيخ ابن الصفرأوي خرّج له أربعين حديثاً ، وكان يحرص على نيل إجازات العلم من المشايخ ، وعلى الاجتماع بالعلماء^(٤). أما الملك الأجد فقد عُرف بأنه كان شاعراً ، وله نظم رائع ، وديوان^(٥).

وقد شهدت هذه القصور الأيوبية التخطيط البعيد لجهاد الدولة مع الصليبيين ، كما شهدت استقبال أهل العلم ، كما شهدت هذه القصور احتضان الوزراء الصالحين كالقاضي الفاضل ، الذي عُرف عنه البذل والكرم وحب العلم ، وتقديم العلم الخالص للملك صلاح الدين.

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٧

(٢) المصدر السابق - ٢١ / ٢٨٨

(٣) المصدر السابق - ٢١ / ٢٨٢

(٤) المصدر السابق - ٢١ / ١٢٨

(٥) وفيات الأعيان - ٢ / ٤٥٣

وتقع في القصر عدد من الحوادث الدالة على سعة صدر السلطان ، وتغاضيه عن هفوات ، وأخطاء غلمانه وأتباعه ، تربية له منهم على الأخلاق الكريمة ، وتنبهها لأهل القصر على ما ينبغي أن يكون عليه الداعية الحق.

فقد روي أن السلطان صلاح الدين كان يوماً جالساً ، وإلى جانبه بعض الغلمان يلعبون ، فرمى أحدهم بحذاء ، فأخطأته ، ووقعت بالقرب من السلطان ، فالتفت صلاح الدين إلى الجهة الأخرى ، وكأنه تغافل عنها وعن صاحبها^(١). ولا يخفى على أحد أن السلطان كان في إمكانه أن ينتقم لنفسه من هؤلاء العابثين ، ولكنه تغافل عن حظ نفسه ، وكأن شيئاً لم يكن.

وروي أنه طلب مرّة الماء فلم يُحضِرْ له أحد شيئاً ، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر ، فقال: "يا أصحابي والله قد قتلني العطش" ، ولم يُنكر على خدّمته التمهل في إحضار الماء^(٢).

ويذكر أبو شامة أنه كان لصلاح الدين إمامٌ يُصَلِّي به ، وهو يكتب له مثل خطّه ، فاستغلّ الإمام ثقة صلاح الدين وزور لأصدقائه أوامر سلطانية بمنحهم أموالاً ، وكان صاحب الديوان ومُتولّي الخزان يشكّ في أنّ التوقيع صحيح ، ودام هذا الأمر سنين طويلةً ، ثمّ انكشف أمره لدى السلطان ، وجلس أمراء السلطان يُغرونه به ، فقال له مستشاره العماد سرّاً : "تعبه للقرآن" ، فقال: "نعم" ، ونفّس من خنّاقه ، وأمر بإطلاقه^(٣). والسلطان في ذلك يُقيل عثرة ذوي الهيئات ، وكان يستطيع أن يفتك به أشدّ الفتك ، ولكنه نهج منهج العفو مجتهداً في ذلك.

وفي مرضه الأخير الذي مات بعده بمدة قليلة ، جلس مُسنداً ظهره إلى وسادة وطلب ماءً ، فأحضر له ماء فاتر فوجده شديد الحرارة فطلب تعديله ، فعرض له ماء شديد البرودة ، فلم يغضب ولم يقل سوى هذه الكلمات: "سبحان الله ، لا يمكن لأحدٍ تعديل الماء؟". يقول القاضي ابن شداد والذي حضر ذلك الموقف: "فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منّا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي: أبصر هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مُفارقتها ، والله لو أنّ هذا صدر من بعض الناس كان قد ضربَ بالقَدْح رأسَ من أحضره"^(٤).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب القلوب - ١٩٢

(٢) الكامل في التاريخ - ٩٦/١٢

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٩٨ / ٣

(٤) المصدر السابق - ٣٦٠ / ٤ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٤١٧ / ٢

ولقد اقتدى الملك العادل بأخيه صلاح الدين في الاهتمام بهذا الميدان فنجده يهتم بدعوة وزيره النصراني إلى الإسلام ، ويحرص على ذلك حتى أسلم . فقد روي أنه وزر للملك العادل أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال ، مدة يسيرة ، وكان نصرانياً ، فأسلم على يده بعد عوده مع الأفضل علي بن صلاح الدين إلى مصر^(١).

المطلب الرابع: ميدان المسجد

للمسجد مكانة خاصة في الإسلام ، فهو ميدان للدعوة بالموعظة الحسنة ، وجذب العامة إلى آداب الإسلام وأخلاقه ، وحلّ المشكلات التي تواجههم في معاشهم ، وهو مكان رحب لعبادة الله تعالى وطاعته والتقرب إليه وطلب رضوانه ، وهو المكان المقدس الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية ، وسطع منه نور الإيمان ، وفيه تأخت قلوب المسلمين ، واتحدت رايات الجهاد لإعلاء كلمة الحق تبارك وتعالى؛ لذلك حبا الله المسجد فضلاً عظيماً ، وأعلى مكانته ، وأضافه لنفسه سبحانه، فقال تعالى: (وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)^(٢).

قال القرطبي: "والمراد البيوت التي تبنيتها أهل الملل للعبادة ، وقال سعيد بن المسيب: "أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، فهذه الأعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد لغيره بها"، وقال ابن عباس: "المساجد هنا مكة التي هي القبلة" ، قال القرطبي: والقول الأول أظهر هذه الأقوال^(٣).

لذا تبوأ المسجد منزلة عظيمة في قلوب المسلمين ، فهو المكان الذي به تزكو نفوسهم ، وتطمئن قلوبهم ، وتتألف أرواحهم ، يجتمعون فيه بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان ، خاشعين متذللين بين يدي الخالق المتأن ، وهو الميدان الرحب الذي يدعون فيه لشرع الله القويم ، آمرين بالمعروف ، ناهين

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٩٢

(٢) آية ١٨ - سورة الجن

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن - ٢١ / ٢٩٧

عن المنكر ، واعظين ، معلّمين ، مرشدين الإنسانية إلى ما فيه الخير والصلاح والفوز في الدارين . وعلى هذا فإن رسالة المسجد متنوعة ، تشمل مجالاتٍ مختلفة ، تهدف إلى نشر القيم الإسلامية ، وغرس الآداب والأخلاق الحميدة ، وتقويم حياة المسلم وتصحيح ما اعوجّج من سلوكه .

ولقد تبوّأت المساجد مكانة عظيمة في عهد الأيوبيين ، ووردت الكثير من الأخبار الدالة على عظيم عنايتهم بها ؛ وما ذاك إلا لفهمهم العميق لكونها ميداناً عظيماً للدعوة إلى الله تعالى ، وإعلاء رايته ، ونشر تعاليمه ، وإرشاد الخلق إلى ما فيه صلاحهم في حالهم ومآلهم ، كما أنه ميدان دعوي عظيم لغير المسلمين ، فهو معلّمٌ بارز للمدن الإسلامية يلفت نظر الزوّار غير المسلمين ، فهم لم يألّفوه من قبل في بلادهم ، فتدور في خلدهم أسئلة عن كُنه هذا الشيء ووظيفته ، فيدفعهم ذلك إلى البحث والسؤال ، والذي قد يؤدي إلى الاقتناع بالدين الإسلامي واعتناقه . كما أن سماعهم للأذان المرفوع من المساجد فيه دعوة لهم إلى التوحيد والإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الأذان فيه تصريح بوحداية الله تعالى ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونقض لعقيدة التثليث الباطلة التي يعتقدها النصارى .

ومن الشواهد على ذلك أنه لما استأذن ملك صقلية من الملك الكامل في الدخول إلى القدس والمبيت فيها ذكر أن أهم أهدافه أن يسمع الأذان ، فقد قال : " والله إن أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين ، وتسييحهم بالليل" ^(١) .

ومن أبرز الشواهد على اهتمام الأيوبيين بالمساجد ما ذكره عن وجود (٦٦٠) مسجداً في دمشق ^(٢) .

ومن أهم المساجد التي اعتنى بها الأيوبيون المسجد الأقصى ، وقد زُوي الكثير من أخبار اهتمام الأيوبيين به . من ذلك أن صلاح الدين أمر بتعمير محراب له وترخيمه وتكميل حسنه وتتميمه ، ووضع منبراً رسمياً في أول يوم قضى به الفرض . واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسنه لائق وبجماله شائق ، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك نور الدين محمود بن زنكي لبیت

(١) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك - ٢٣١/١

(٢) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - د/ عبد الرحمن المزيني - ٧٧

المقدس قبل فتحه بنيّف وعشرين سنة ، فأمر أن يكتب إلى حلب ويُطلب ، فحُمِل وعُمِل على ما أمر به وامتل (١) .

وقد أمر السلطان بتنظيف ما حول المحراب من أفنية بحيث يجتمع الناس للجمعة في الساحة المتسعة ، وفُرشت البسيطة بالبُسط ، وتُلي التنزيل ، وعُزل الإنجيل ، وضُقت السجادات ، وصُفّت العبادات ، وأُقيمت الصلوات ، ونطق الأذان ، وخُرس الناقوس ، وعاد الإيمان الغريب إلى موطنه ، واجتمع الزهاد والعباد ، وتوافد الرُكع والسجّد ، وصدح المنبر ، وأبكى الوعّاظ ، وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء (٢) .

وروي أنه ربّب لقبة الصخرة إماماً ، وحمل إليها مصاحف وختمات ، وربّب قائمين بأمرها لرعاية مصالحها . كما أمر بإزالة ما في المسجد الأقصى من آثار النصرانية ، وعُسلت الصخرة بعدة أحمال من ماء الورد ، ومُحّرت وفُرشت ، وربّب في المسجد من يقوم بوظائفه ، وجُعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية ، وأُغلقت كنيسة قمامة ، ثم فُتحت ، وقُرر على من يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤدونها (٣) .

ولقد تنافس بنو أيوب فيما يُؤثرونه في بيت المقدس من الآثار الحسنة ، وفيما يجمع لهم ودّ القلوب ، وشكر الألسنة . فيحكى أن الملك المظفر تقي الدين عمر حضر يوماً إلى قبة الصخرة ومعه ماء الورد ومال الصدقة ، فتولّى بيده كُنس تلك الساحات ، ثم غسلها مراراً ، ثم أتبع الماء بماء الورد ، وكذلك طهّر حيطانها ، وغسل جدرانها ، ثم أتى بمجامر الطيب وبجرها ، ثم فرّق ذلك المال على ذوي الاستحقاق . أما الملك الأفضل فقد فرش فيها الفرش الرفيعة ، واعتمد بناء أسوار القدس وحفر خنادقه (٤) .

ومن المساجد التي اعتنى بها في هذا العصر المسجد النبوي الشريف ، فقد ورد في الأخبار أن صلاح الدين أرسل (٢٤) خادماً خصياً لخدمة الحرم النبوي ، وجعل عليهم شيخاً اسمه بدر الدين الأسدي ، وكان هؤلاء بداية فئة الأغوات التي توالى على خدمة المسجد النبوي في الأجيال التالية ،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٩٢

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٧٧ - ٣٨٢

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٩٧

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٩٩ ، الفتح القسي في الفتح القدسي - ١٤١

وارتبط اسمها باسمه ، وأوقف لهم صلاح الدين قريتي قبالة ونقادة في صعيد مصر؛ ليكون دخلهما رواتب دائمة لهم ولمن يخلفهم^(١).

ومن الأعيان الذين اهتموا بهذه الوسيلة الوزير ابن شكر فقد روي أنه عمّر جامع المزة ، وجامع حرستا ، وأنفق على أرضه مالا كثيراً لتجهيز البلاط المناسب لساحاته ثم التفت إلى القوّارة ، وهي مجمع المياه ؛ لتكون بين أيدي المصلين ، وبعد ذلك تفرغ لبناء المصلى نفسه^(٢).

ونظراً لاهتمام القادة المسلمين بالمساجد اهتم بها بعض القادة من النصارى ، واعتبروها وسيلة لكسب المسلمين الخاضعين لسيطرتهم . ومن ذلك مسجد القسطنطينية الذي دارت بشأنه العديد من السفارات بين صلاح الدين وإمبراطور الروم ، والذي كان يُبدي اهتمامه بهذا المسجد، وقد أرسل صلاح الدين من أجل ذلك إماماً وخطيباً للمسجد^(٣). ولقد كان لدخول الإمام والخطيب إلى القسطنطينية أثر في إظهار الإسلام ، وقد وصف ذلك ابن شداد فقال: "..... وكان يوم دخولهم -أي الإمام والخطيب- يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار ، ورقى الخطيب المنبر ، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية"^(٤).

وهكذا استطاع المسلمون لفت انتباه السلطة الرومية إلى أهمية المسجد في الإسلام ، ومكانته في قلوب المسلمين ، فحاز على اهتمامها وعنايتها ، فساعد بذلك على تذليل المصاعب، وتمهيد الطرق أمام الدعوة الإسلامية لنشر تعاليمها في ذلك المجتمع .

ونظراً لكون المسجد ميدان دعوي مهم في الدولة الإسلامية فإن دور يقوم به هو تقديم الوعظ والإرشاد والنصح عن طريق الخطب والدروس والمواعظ ، والتي تكون موجهة للمسلمين وغيرهم . وقد اشتهر في هذا العصر الكثير من الخطباء والوعاظ ، ونشطوا كثيراً في إلقاء ما عندهم في مساجد هذا العصر^(٥).

وبعد فهذه بعض الأمثلة عن عناية الأيوبيين بهذا الميدان العظيم ، ودوره العظيم في مجال الدعوة إلى الله ، وإرشاد المدعوين إلى طريق الخير والرشاد.

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢ / ١٨٣

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٢٩٥

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٠٢

(٤) المصدر السابق - ٢٠٢

(٥) انظر أشهر الوعاظ والخطباء : ص ٢٠٤-٢٠٦

وهكذا بدت صورة اهتمام الأيوبيين بميادين الدعوة واضحة للعيان ، فبنو المساجد العظيمة ، واتخذوا من المدارس ، والقصور ، وأرض المعركة ميادين لنشر تعاليم الشريعة الكريمة ، وأخلاق الإسلام الغراء، فكانت تلك الميادين بحق محضناً مناسباً للحائرين ، ومشاعل منيرة للسائرين ، أرشدتهم إلى ما فيه صلاح الدارين ، وأضاءت لهم دروب الهداية في هذه الحياة. فحريّ بكل من نذر نفسه للدعوة إلى الله أن يقتدي بهؤلاء الدعاة الأفاضل ، وأن يدعو إلى الله في كل مكان يراه مناسباً لإرشاد الخلق وإصلاحهم منتهزاً الفرص المواتية ، فالفرصة إن ضاعت قد لا تعود ثانية ، فيندم الداعية على تفويتها، ولات ساعة مندم .

الفصل الخامس
معوقات الدعوة في عهد
الدولة الأيوبية

المبحث الأول معوقات داخلية

اعترض مسار الدعوة الإسلامية في العهد الأيوبي معوقات كان لها بعض الأثر في نشاط مظاهر الدعوة وتعثرها. ولعل هذا أمر طبيعي في تاريخ كل دعوة صالحة إلى سواء الصراط ، ولم تخل منها الدعوة في العهد النبوي نفسه ، مع كونها معززة بالنبي المعصوم صلى الله عليه وسلم المسدّد بالوحي .

ومعظم هذه المعوقات في العصر الأيوبي ناشئة من ضخامة الموروثات السيئة التي ورثتها من جراء انحرافات قديمة متجذرة .

وسوف أعرض في هذا الفصل ما أعتقد أنها من أبرز هذه المعوقات ، وكيف اجتهد ملوك هذه الدولة في التغلب عليها ، وتثبيت المسار الصحيح للدعوة.

ولقد كان من أبرز العوائق التي اعترضت مسيرة الدولة الأيوبية:

١ الفرق الضالة: العبيدية - الإسماعيلية

٢ التعصب المذهبي

٣ الضعف الديني ومظاهره

٤ الخلط بين السنة والبدعة

٥ التنافس بين الأمراء الأيوبيين وموقف العلماء منه

٦ الخرف

٧ الجوائح

قبل البدء بالحديث عن المعوقات سأذكر تعريف العلماء للعائق.
المعوقات لغة : جمع عائق ، والعائق: مِنْ عاق عن الشيءِ وَعَوَّقَهُ عنه ، أي: منعه منه ،
وشغله عنه^(١).

وما أعنيه في الاصطلاح: أنّ العائق هو كل سبب من الأسباب التي تقف أمام حركة انتشار
الدعوة ، أو تُشوّه معناها ومضمونها الذي نصّ عليه الكتاب والسنة ، وتصبح هذه الدعوة بهذه
العوائق جسماً بلا روح ، ولم تُعدّ تُحقّق أغراضها التي أرادها الله عز وجل.

المطلب الأول: الفرق الضالة

كان لظهور عدد من الفرق الضالة في عصر الدولة الأيوبية أثر كبير في إعاقة الدعوة الإسلامية،
وإضلال كثير من الناس . ولقد واجه الدعاة في هذا العصر هذه الفرق ، ووقفوا منهم موقفاً حاسماً ،
فحاربوهم ، وبذلوا جهدهم في القضاء عليهم. ومن أبرز هذه الفرق:

١- العبيدية:

من الفرق الضالة التي آذت الدعاة في هذا العصر وأضلت الناس ، وكانت من أبرز العوائق
الدعوية أمام الدولة الأيوبية: العبيدية ، والتي كان مذهبها شيعياً رافضياً ، وقد روت كتب التاريخ ما
سببته هذه الفرقة من مصائب عظيمة للأمة الإسلامية .

من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما يرويه الذهبي عن الشيعة الرافضة ، وما عملوه في مآتم
عاشوراء ومبالغتهم في سب الصحابة رضوان الله عليهم^(٢).

وأولئك العبيديون هم في الحقيقة ليسوا عُبيديين ، وإنما هم أذعياء يُنسبون إلى عُبيد ، وكان اسمه
سعيداً ، وكان يهودياً حدّاداً ببلدة سلمية ، وذكرت أشياء كثيرة في قبائحهم ، وما كانوا يجهرون به
في بعض الأحيان من الكفر وأشكاله^(١) .

(١) المعجم الوسيط - مادة عوق - ٦٣٧

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٤١٦

وقد استطاعت الدولة العبيدية منذ القرن الرابع الهجري أن توطد نفوذها في مصر وجنوب الجزيرة العربية ، ومضت في سياستها الرامية إلى تقويض الخلافة العباسية ، ونشر الفكر الشيعي ، وأرسلوا دعايتهم في شرق العالم الإسلامي وغيره يدعون إلى إسقاط الحكومة العباسية ، ويؤشرون بالعدل والرخاء في ظلّ الحكم العبيدي ، واستطاعوا التأثير في صفوف العامة والجيش . واستمرّ هذا الحال حتى قدوم السلاجقة الذين أنقذوا الخلافة العباسية ، وعقيدة أهل السنة ، ولكن العبيديين تحالفوا مع الإسماعيلية الباطنية ، ومضوا في تأليب عامة المسلمين ، وإثارة الفتن وتنفيذ الاغتيالات^(٢) . وقد حرص الأيوبيون على القضاء على هذه الدولة ؛ لأنّ لهم انتماءً مذهبياً ضالاً في ظلّ دولة عاشت مئات السنين تروّج لمبادئها ، وكان قضاء صلاح الدين عليهم بمنزلة توفيق من الله أتاح لهذه المبادئ الضالة الانحسار ، كما أتاح لمذهب أهل السنة والجماعة الانتشار ، وأراح العالم الإسلامي من شرهم ومكايدهم .

وقد انقطعت الخطبة العباسية بمصر سنة ٣٥٨هـ ، وعادت سنة ٥٦٧ هـ ، وفي هذه السنة استقرت قدم بني أيوب في مصر^(٣) . وفي اليمن أصبح النفوذ العبيدي مهدداً منذ قضاء صلاح الدين على الخلافة العبيدية ، فقد أرسل رحمه الله أخاه شمس الدولة توران شاه على رأس حملة عسكرية إلى اليمن للقضاء على دولة بني مهدي بزييد ، والتي كانت تناصر العبيديين^(٤) . وقام العبيديون بعد أن أسقط صلاح الدين ملكهم بعدة محاولات بهدف استعادة ملكهم ، ففي سنة ٥٦٩ هـ قامت جماعة من الشيعة في مصر بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة العبيدية بمصر ، وقد خطّطوا لذلك بالتحالف مع الصليبيين لمساعدتهم في القضاء على صلاح الدين ودولته ، وذلك باستدعائهم ليهاجموا مصر من الشام ، فينشغل بهم صلاح الدين ، وبذلك يتيسر لأولئك المتآمرين تنفيذ ما يريدون . وكان على رأس هؤلاء المتآمرين الشاعر عمارة اليميني وعبد الصمد الكاتب والقاضي هبة الله العويرس وغيرهم من جند المصريين^(٥) .

(١) البداية والنهاية - ١٦ / ٤٥٨

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٨٥ - ٨٦

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١ / ١٢٢

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٦٩ ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب - د/ محمد جمال الدين سرور - ٩٧

(٥) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٨٢-٢٨٣

ولعل مما يُثير الدهشة من أمر هذه المؤامرة أن يكون بعض قادتها من الفقهاء الذين تناسوا دورهم الرئيسي في الجهاد ضدّ الصليبيين ، وانساقوا وراء الهوى الذي لا طائل من ورائه سوى تمزّق وحدة المسلمين في هذه المدة العصيبة التي تمرّ بها الأمة الإسلامية .

وقد تمّ الكشف عن هذه المؤامرة بأمر الله عن طريق أحد الفقهاء المخلصين لصالح الدين، والحريصين على مصلحة الدولة الإسلامية ، وهو الفقيه الواعظ زين الدين بن نجّاح ، فقد وثقوا به ، وأطلعوه على نيّاتهم ، وكان يُناجيهم في ما زُيّن لهم من سوء أعمالهم ، ويُدّاخلهم في عزم خروجهم على الدولة^(١)، فلما شعر ابن نجّاح بخطورة أمرهم قام بإخبار صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة ، فأمره بمخالطتهم ، وإخباره بما يتجدّد من عزائمهم ، ففعل ذلك ، وصار يخبره بكلّ ما رغّبوا فيه ، ثم إن صلاح الدين أمر بالقبض عليهم لما تأكّد من صحة ما نقله له الفقيه ابن نجّاح وأمر بصلبهم ، والقضاء عليهم ، وبذلك سكنت الفتنة .

وقد قرّب السلطان زين الدين بن نجّاح ، وأحسن إليه ، وكان يستشيريه ، ويروقه تدبيره ، ويميل إليه لتقديم معرفته ، وكرّم سجاياه^(٢) .

وبعد أن انتهى صلاح الدين من أمر المتآمرين اعتقل أهل القصر بداية ، ثم نُقلوا إلى أماكن مختلفة ، وأعطى القصر لأخيه العادل ، ذلك لأنّ صلاح الدين رأى أنهم مهما بقوا فيه فهم مادة لا تنحسر الأطماع عنها ، فإن القصر حباله للضلال منصوب للبدع والمؤامرات^(٣) .

وبالرغم من قضاء صلاح الدين على الخلافة العبيدية إلا أنه كان لا يزال يعُدُّ جند مصر وأهل القصر العبيدي أعداءً لدولته ، ويتوقع منهم القيام بعمل ضده لذا كان متحرّزاً منهم ، فوضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار .

ومما يدلّ على شدة حذره من هؤلاء الأعداء أنه أمر بإدخال العيون عليهم من جماعتهم ، يقول المؤرخ أبو شامة رحمه الله: (فدسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم)^(٤) .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٨٣

(٢) انظر: المصدر السابق - ٢/٢٨٢-٢٨٤ ، الكامل في التاريخ - ١٠/٥٣ - ٥٤ ، سير أعلام النبلاء - ٢٠/٥٩٤ ،

السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٥٣

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١/٢٢١ ، وانظر: السلوك لمعرفة دول الملوك - ١/٥٣

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١ / ٢٢١

ومع ذلك استمرّ عملهم سرّياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة ، فكان لا يمرّ عليهم شهراً ولا سنةً إلا وهم يُدبّرون المكائد ، ويعقدون الاجتماعات ، ويبعثون الرسل إلى الصليبيين ؛ لئيسقوا معهم ما يعتمل في أنفسهم من تأمرٍ وكيد^(١).

وبالرغم من كل هذه الحيلة فقد ثار الشيعة أشياع العبيديين أكثر من مرة في محاولة لإعادة الخلافة العبيدية لحكم مصر ، فقد زوي أنّه ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة ، عدّتهم اثنا عشر رجلاً ليلاً ، ونادوا بشعار العلويين: يا آل علي ، وسلكوا الدروب ينادون ، ظناً منهم أن رعية البلد يُلبّون، ويملكون البلد ، فلم يلتفت أحدٌ منهم إليهم ، ولا أعارهم سمعه ، فلما رأوا ذلك تفرّقوا خائفين . فكتب بذلك إلى صلاح الدين ، فأهمّه أمرهم وأزعجه ، فدخل عليه القاضي الفاضل ، فأخبره الخبر فقال له: "ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتمّ ، حيث علمت من بواطن رعيّتك المحبة لك والنصح ، وترك الميل إلى عدوك ، ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيّتك ، وخسرت الأموال الجليلة عليهم ، لكان قليلاً ، فسُرّي عنه"^(٢).

وفي محاولةٍ أخرى لإعادة الدولة المصرية للحكم زوي أن إنساناً يُقال له (الكنز) نرح إلى أسوان ، فأقام فيها ، ولم يزل يُدبّر أمره ، ويجمع السودان عليه ، ويُخيّل إليهم أنه يملك البلاد، ويُعيد الدولة المصرية ، فاجتمع عليه خلقٌ كثيرٌ وجمعٌ وافرٌ من السودان ، وقصد قوص ، فأنهى خبره إلى صلاح الدين ، فجزّد عسكرياً عظيماً ، وجعل مقدّمه أخاه العادل ، فلقبهم بمصاف ، فكسرهم ، وقتل منهم خلقاً عظيماً ، واستأصل شأفتهم ، وأخذ ثأرتهم ، وذلك في صفر سنة ٥٧٠ هـ واستقرت له قواعد الملك^(٣).

واستمر رجال صلاح الدين يتتبعون من له ميل في الدولة العبيدية ، فقتلوا منهم كثيراً ، وأسروا كثيراً^(٤).

وقد عثروا في سنة ٥٨٨ هـ على رجل اسمه عبد الأحد من أولاد حسن ابن الخليفة العبيدي الحافظ لدين الله ، وأحضر إلى الملك العزيز بالقاهرة ، فقيل له: أنت تدّعي أنك الخليفة؟ قال: نعم ، فقيل له: أين كنت في هذه المدة؟ فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه ، ووصل إلى طنبة ، فاختمى

(١) صلاح الدين-القائد وعصره - ١٦٩

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٦٠ ، الكامل في التاريخ - ١٢ / ٢٤

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٣٣٨ ، وفيات الأعيان - ٧ / ١٦٥

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٥٤

بها ، ثم خرج إلى مصر ، فأواه رجل ، وشرع يتحدث له في الخلافة ، وأنه وقع بعدة بلاد ، وأقطع أناساً ممن بايعه ، فسُجِن . كما عثروا على بعض أقارب الوزير شاور ، وقد ثار بالقاهرة ، فسُجِن هو وجماعته^(١) .

ولم تكن مواجهة أولئك الباطنية من جانب الملوك فحسب ، بل كان للعلماء دور كبير في مواجهتهم ، وفَضَحهم ، وبيان فساد عقائدهم .

ومن أولئك العلماء ابن الجوزي الذي تحدّث عن فرقهم وعقائدهم ، وبيّن كفرهم وباطل مذهبهم ، وخروجهم عن الدين كليّة ، ومما قاله في هذا المجال: "...ثم إنهم تفلسفوا ، ولم يزالوا مستهزئين بالنواميس الدينية ، والأوامر الشرعية ، وتحصّنوا بالحصون ، وكثرت شوكتهم ، وأظهروا إسقاط التكاليف ، وإباحة المحرمات ، وصاروا كالحیوانات العجماوات بلا ضابط ديني ، ولا واضح شرعي"^(٢) .

ومن العلماء الذين اجتهدوا في مواجهة الباطنية ، والتحذير منها ، وكشف ضلالها أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، فقد أفرد للحديث عنهم فصلاً كاملاً ، تحدّث فيه عن تاريخهم ودعوتهم ، وفَضَح مذهبهم الخبيث ، وأكّدهم نسبهم إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وكان مما قاله عنهم: "وذكر جماعة من العلماء أنهم لم يكونوا أهلاً لنسبتهم إلى فاطمة رضي الله عنها ، ولا نسبهم إليها صحيح ، بل المعروف أنهم بنو عبید ، والذي كان والده من نسل القداح الملحد المجوسي ، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام ، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية ، قتل من الفقهاء والمحدثين جماعة كثيرة ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم ، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالهم"^(٣) .

وقال: "واشتهر لهم ذلك بين العوام ، فصاروا يقولون: الدولة الفاطمية ، والدولة العلوية ، وإنما هي الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملحدة"^(٤) .

وعرض بعد ذلك جملة من مساوئهم وضلالاتهم بهدف التنبيه عليها ، وتحذير الناس منها حيث قال: "ولكن لا بدّ من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لمن يعتقد إمامتهم ، وخفي عنه مُحالهم ، ولم يعلم

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١/١١١

(٢) كيد الشيطان لنفسه قبل خلق آدم - ١٠٩

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢/٢١٤-٢١٥

(٤) المصدر السابق - ٢/٢١٦

مكابرتهم ، وليُعذر مَنْ أزال دولتهم ، وأمات بدعتهم ، وقلل عدّتهم ، وأفنى أمتهم ، وأطفأ جمرتهم" (١).

وهكذا يتضح كيف أن العبيدين كانوا عائقاً كبيراً في وجه الدعوة الإسلامية في عهد بني أيوب ، ولكن وقوف الدعاة بقوة بوجه هذا العائق ساعد كثيراً بفضل الله تعالى على التخفيف من مخاطره ، بل والقضاء على الكثير من أشياعه وأتباعه وإضعافه بشكل كبير.

٢-الإسماعيلية الباطنية:

وهي من أبرز هذه الفرق وأشدها ، وقد نظروا إلى صلاح الدين على أنه العدو المباشر لهم ، لدوره البارز في إلغاء الخلافة العبيدية ، وتحالفوا مع أعدائه الصليبيين ، وكان مقرهم بمصياف (٢). وقد حاصر صلاح الدين رحمه الله قلاع الباطنية ، وضيق عليهم في عام ٥٧٢هـ (٣)، كما شردوا من بلاد مصر ونُفوا (٤)؛ لذا حَقَّدَ أتباع هذه الفرقة عليه ، وحاولوا اغتياله أكثر من مرة ، فقد زُوي أنهم وثبوا على صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ، وجرحوه (٥) .

كما حكى ابن الأثير أنه رحمه الله لما كان بمنبج وثب عليه باطني يريد قتله ، فجرحه برقبته ، فأسرع حراسه ، ودفعوا الباطني ، وجاء ثاب وثالث حتى نجَّاه الله منهم (٦).

وفي بلاد الشام استمر مؤيدو الباطنية بيت الرعب ، وإحافة مؤامرات الاغتيال ، وعندما احتل الصليبيون فلسطين ، والسواحل السورية راح الباطنيون يستعينون بالصليبيين ، ويعقدون معهم المحالقات ضدَّ المملكة السنية ، وقاموا فيما بعد بمحاولتين لاغتيال السلطان صلاح الدين (٧) .

ومن سار على هدي هؤلاء الطوائف في إضلال الناس وفتنتهم عن دينهم رجلٌ ظهر بدمشق مُدَّعياً أنه عيسى بن مريم وأضل طائفة ، فأفتى العلماء بقتله ، وعلَّقوا رأسه مع كلبين ميّتين (٨) .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢١٨/٢

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٢١٢

(٣) صبح الأعشى - ١ / ١٥٨

(٤) صلاح الدين - القائد وعصره - ١٧٣

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٠

(٦) انظر: الكامل في التاريخ - ١١ / ٤٣٠

(٧) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٨٧

وبهذا يتضح لنا جلياً اهتمام دعاة هذا العصر بالوقوف بوجه الفرق الضالة التي تُعيق تقدّم الدعوة، وحرصهم البالغ على نقاء الحياة الإسلامية ، وحماية المسلمين من أفكار تلك الفرق الهدّامة.

المطلب الثاني: التعصّب المذهبي

على الرغم من أن المجتمع الإسلامي في عصر الدولة الأيوبية لم يَخُلُ من الدعاة المخلصين العاملين ، وأنه كان هناك نشاط دعوي يعمل بدأب ونشاط ، إلا أن هذا النشاط أعاقه التعصّب المذهبي والانقسام ، وكان هذا التعصّب المذهبي من العوائق الدعوية البارزة في هذا العصر ، فقد انقسم الناس إلى عدد من المذاهب ، وتعصّب كلٌّ لمذهبه ، ودافع عن رأيه بكل قوة وصرامة ، وإن أدّى الأمر إلى الاقتتال أو المعاداة ونحوها . وقد استنفذ هذا الصراع جهود الجميع ، وقسم الأمة إلى فرقٍ متناحرة متنافرة.

ومن أبرز المذاهب التي تعصّب أصحابها وتناحروا فيما بينهم الحنابلة والشافعية، وكان لأصحاب هذين المذهبين دور عظيم ، إلا أنهم وقعوا في أخطاء منهجية كبيرة ، أثّرت سلبياً في أداء الدعوة الإسلامية ، وأعاقت تقدّمها ، وبدّدت بعض جهود أبنائها .

ولقد تركّزت أخطاء هذه المذاهب في أنّ ولاء أصحابها كان لانتماءاتها المذهبية أكثر من ولائها للأصول الشرعية الصافية ، أو للأمة التي تنتسب إليها ، كما أن كلّ جماعة منها كانت تعدّ نفسها صاحبة الحق الوحيد في السّاحة بسبب تاريخها العريق^(٢).

فقد رُوي أن الحنابلة ثاروا على البرهان البلخي لأنه نال منهم^(٣)، كما روي أن ابن عساكر كان يتورّع من المرور في زقاق الحنابلة لئلا يَأْتُمُوا بالوقعة فيه ، وذلك لأن العامة منهم ييغضون بني عساكر لكونهم أشاعرة^(٤) .

(١) تاريخ الإسلام - ٢٥ وفيات سنة (٥٩١-٦٠٠ هـ)

(٢) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٣٩ - ٤٠

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٢٧٦

(٤) المصدر السابق - ٢ / ١٨٨

وفي سنة ٥٨٠هـ أنكر الحنابلة على الشهاب الطوسي تكلمه في مسألة من مسائل الكلام في مجلس وعظه ، وترافعوا إلى الملك المظفر بمخيمه ، فأصدر أمراً برفع كراسي وعظ الفريقين ، وقد أطلق كلٌّ من الفريقين لسانه في الآخر^(١).

أما في سنة ٥٧٨هـ قام الحنوشاني بنبش قبر أبي الكيزان الظاهري ؛ لأنه دُفن إلى جانب قبر الشافعي وقال: (لا يكون صديق وزنديق في موضع واحد) ، فثار الحنابلة عليه وصار بينهم حملات^(٢).

وأوضح مثال يبيّن عظم الفتنة بين الحنابلة والشافعية في هذا العصر ، ومدى تفاقم المشاكل بين الطرفين: الفتنة التي جرت بين الحافظ عبد الغني والأشعرية الشافعية في سنة ٥٩٥هـ ، وكان أمّاراً بالمعروف داعيةً إلى السنة ، فقام عليه الأشاعرة ، وأفتوا بقتله ، فأخرج من الشام طريداً^(٣)، كما بلغت شدة تعصب هؤلاء إلى أنهم قالوا بتكفير الحافظ عبد الغني^(٤) ، بل همّوا بقتله .

موقف الملوك الأيوبيين من التعصب المذهبي:

وقد وقف ملوك بني أيوب إلى جانب الحافظ عبد الغني ، ومن أبرزهم الملك العادل ، فقد استدعاه وأكرمه ، ثم إن العادل سافر إلى دمشق ، وبقي الحافظ بمصر ، وهم ينالون منه ، حتى عزم الكامل على إخراجه ثم تراجع ، وسأل صفوة العلماء عنه، فأثنوا عليه ، فقال: (لا يصل إليه مكروه)^(٥).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٨٨

(٢) العبر في خبر من عبر - ٣ / ٩٥ ، تاريخ الإسلام - ٢٨٠ وفيات سنة (٥٨١-٥٩٠هـ)

(٣) العبر في خبر من عبر - ٣ / ١١٠ ، تاريخ الإسلام - ٢٣ وفيات سنة (٥٩١-٦٠٠هـ) ، شذرات الذهب في أخبار من

ذهب - ٤ / ٣١٩

(٤) تاريخ الإسلام - ٤٥٥ وفيات سنة (٥٩١-٦٠٠هـ)

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٤٦١

وممن دافع عن الحافظ عبد الغني والحنابلة **الملك العزيز** ، فقد رُوي أنه خرج إلى الصيد ، فجاءته كتبٌ في أذية الحنابلة وفتنة الحافظ ابن عبد الغني ، فقال: (إذا رجعنا من هذه السفرة أخرجنا من بلادنا من يقول بهذه المقالة) ، فاتَّفَق أنه عدا به الفرس ، فشبَّ به ، فسقط ، فمات^(١) .

أما **الملك الأشرف** فقد رُوي عنه كرهه للعصبيَّة في المذاهب ، ومما يؤكِّد ذلك أنه لما وقعت الفتنة بين الحنابلة والشافعية تعصَّب الشيخ عز الدين بن عبد السلام على الحنابلة ، وكتب إلى الأشرف يقع فيهم ، فأجابه الأشرف: (يا عز الدين الفتنة ساكنة لعن الله مثيرها)^(٢) .

ولم يقتصر التعصب والتناحر بين أتباع المذاهب فحسب ، بل نال الصوفية وأتباعهم في هذا العصر ، حيث استقلَّ كل شيخ من مشايخ الصوفية بأتباعه في رباط خاص مما بينه الخلفاء والسلطين والوزراء في الحضرة والريف والبادية ، كذلك قامت الخصومات بين الفقهاء والمتصوِّفة إلى جانب الفتن المذهبية^(٣) ، وانتشرت طوائف الجهلة والبعيدين عن منابع العلم الشرعي ، وأصبحت القضية ذات دلالاتٍ مستفادٍ من حظِّ النفس ، ولم تعد مرتبطة بالإخلاص لله والسعي لرضاه .

ومن هنا فإنَّ الانتصار الحقيقي ينبغي أن يكون لشعائر الله التي نصَّت عليها أصول الشريعة ، وليس للعادات والأعراف التي تصطدم بها . وقد وصل الأمر ببعض الصوفية أن خرجوا عن تعاليم الشريعة ، واستباحوا المحرَّمات ، وذهبوا إلى أن المراد خلوص القلب إلى الله ، أما التقيُّد بالشرع فهو رتبة القاصرين عن الفهم والمقلِّدين^(٤) .

آثار التعصب المذهبي

كان لذلك التعصب المذهبي آثارٌ سلبيةٌ في الحياة الإسلامية: السياسية والاجتماعية والفكرية والتربوية والتعليمية.

١- فمن الناحية السياسية أدَّى التعصَّب المذهبي إلى تنافس زعماء المذاهب في التقرُّب من السلطين والقادة ، ومكَّر كلَّ مذهبٍ للإيقاع بالآخر ، وللاستئثار دونه بمناصب الدولة ووظائفها

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٢ ، ٤٦١

(٢) تاريخ الإسلام - ٢٧٢ وفيات سنة (٦٣٠-٦٤٠ هـ) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ١٤١/٥ ، سير أعلام النبلاء -

١٢٦ / ٢٢

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٦٢

(٤) المصدر السابق - ٥٧-٥٩

تحت حجة الغيرة على الدين ، وقد وجد بعضهم في الانتساب للمذاهب وسيلةً لتحقيق مطامعهم ، فصار بعضهم يتنقلون بين هذه المذاهب حسب نفوذها في الدولة .

ونتيجة لهذا التعصّب أصبحت العلاقات بين المذاهب الإسلامية والحكومات القائمة تتشكّل حسب مواقف هذه الحكومات من تلك المذاهب ، وحسب استجابتها أو رفضها لأطماع هذه المذاهب .

ونتيجة لهذا التنافس بين المذاهب على حطام الدنيا تحت شعار الحرص على الدين استخفّ الأمراء والحكّام بالمشايخ والوعّاظ ، وصاروا يُعيّنون القضاة والمدرّسين أو يعزلونهم ، ويُنزّلون بهم العقاب ، ويتدخلون في وضع المناهج الدراسية ، وتعيين المذهب الرسمي للدولة^(١) .

٢- أما من الناحية الاجتماعية فقد أثر التعصّب المذهبي في المجتمع ، فأشاع التفكّك والاضطراب، فقد صار المذهب الواحد يضمّ أخلطاً من المشايخ والطلبة والتجار والعوام الذين يريدون المذهب وسيلة لمنافعهم الخاصة ، وكانت تربط هؤلاء جميعاً روابط هشّة تقوم على المظهر أكثر من الجوهر ، إذ يكفي الفرد أن ينتمي للمذهب انتماءً اسمياً دون فهم أو تطبيق ، وأن يصحب أفراد هذا المذهب في اجتماعاتهم لينال نصرتهم ، ويشاركهم مكاسبهم . أما الذين يخالفون تعاليم المذهب أو ينفصلون عنه يصبحون هدفاً للإيذاء ، وعُرضةً للطعن في الدين والخلق مهما كانت منزلتهم من الفهم والإيمان والاستقامة .

ونتيجة لذلك انقسم الناس على بعضهم ، وانصرفوا عن التحديات التي تهدّدهم من الداخل والخارج ، واستنزفوا طاقاتهم في الخصومات والمصادمات المذهبية^(٢) . وأدّى ذلك كله إلى ضعف مفهوم الأمة الإسلامية ، وحلّت محلّه مفاهيم العصبية العشائرية والإقليمية والمذهبية^(٣) .

٣- وكما أثر التعصّب في ترابط المجتمع الإسلامي ، أثر أيضاً في الناحية الفكرية لهذا المجتمع ، ولقد كان من أخطر هذه الآثار: انقطاع أتباع المذهب عن الاتصال المباشر بالقرآن والسنة ، والتوجّه إلى مؤلفات رجال هذا المذهب على اعتبار أنّها الفهم الصحيح للقرآن والسنة ، وأسبغوا على كتّابهم ومفكّريهم ألقاباً ، وجعلوهم فوق النقد والمناقشة ، وعادوا كلّ مخالف^(٤) .

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٥٢-٥٣

(٢) انظر: المصدر السابق - ٤٨-٤٩

(٣) انظر: المصدر السابق - ٨١

(٤) انظر: المصدر السابق - ٤٣-٤٤

كما تعطلّ الفكر الإسلامي عن الإبداع والاجتهاد ، فصارت المؤلفات إما تكراراً لأفكار السابقين من رجال المذهب ، أو إطاراً وإشادة بتضحياتهم وأعمالهم ، وفي كل هذه الأعمال الفكرية لم تنل المشكلات المعاصرة للأمة الإسلامية آنذاك سوى إشارات هامشيّة ، ومَن يخرج على تقاليد المذهب في الانغلاق والتعصّب وينفتحون على الآخرين يصبحون هدفاً للاهتمام بالنفاق وعدم الالتزام، زُوي عن ابن عقيل قوله: (وكان أصحابنا الحنابلة يريدون مني هجران جماعة من العلماء ، وكان ذلك يجرمني علماً نافعاً)^(١) ، وجتّ أفهام الذين تعصّبوا لمذاهبهم ، ولم يملكوا أن يُنتجوا إلا الشروح والمختصرات والحواشي^(٢) .

وبهذا نجد أنفسنا أمام واقعٍ فرض نفسه ، وهو تحوّل مؤسسات الفكر الإسلامي عن رسالتها الرئيسية في ترشيد المجتمع ، وتوجيهه إلى مؤسسات مهنية أكاديمية اتّسمت بالمذهبية والانقسام والابتعاد عن أصول الكتاب والسنة^(٣) .

٤- ولقد كان للتعصب المذهبي آثار تعليمية وتربوية خطيرة أيضاً ، فقد تسرّب شيوخ المذاهب إلى المدارس ، وانتشروا فيها ، وأثروا في مناهجها وأهدافها واتجاهاتها، كما شاع الخلاف والتعصب والصراع بين الموجهين والمرشدين والوعاظ والطلبة ، فتحوّلت مجالس الدرس وساحات المدارس إلى ميادين لمناصرة آراء المذاهب ، وتفنيد آراء المخالفين ومهاجمتهم ، كما وقع الانشقاق بين الدراسات الإسلامية وبين العلوم الطبيعية والطب والفلك ، وذلك بسبب تأثير الفقهاء في السلطات التي وقفت من العلوم الطبيعية موقفاً سلبياً يقوم على الريبة وعدم التشجيع .

وهذا مثلاً يُوضّح الحالة السيئة الذي وصل إليه المجتمع نتيجة التعصب المذهبي، فقد قام جماعة من أنصار الشافعية بمهاجمة أبي جعفر بن موسى -شيخ الحنابلة- وهو في مسجده ، فدافع عنه أنصار الحنابلة ، واقتتل الناس بسبب ذلك ، وحين تفاقمت الأمور تدخلت السلطة ، وجمع الخليفة بين شيوخ المذهبين ، وسوّي الأمر، ومُنع الوعاظ من التدريس حتى لا يتعرضوا لآثار الفتنة. ولكن الفتنة اشتعلت في العام التالي ، واشتبك طلبة النظامية من الحنابلة والشافعية ، وانتصر لكل فريقٍ أنصاره من العوام ، وقتل عشرون تقريباً وجرح آخرون^(٤) .

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - عبد الرحمن ابن جوزي - ٩ / ٢١٢ ، سير أعلام النبلاء - ١٩ / ٤٤٣

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٤٢ - ٤٤

(٣) المصدر السابق - ٦٩

(٤) البداية والنهاية - ١٢ / ١١٤ - ١١٧

المطلب الرابع: الضعف الديني

مرّت الأمة الإسلامية في بعض سنوات العهد الأيوبي في مرحلة من الضعف الديني ، وعدم التزام الحكّام بتعاليم الشرع الحكيم ، فأدّى ذلك إلى انتشار المنكرات ، وفساد الحياة الاجتماعية ، وعدم الاكتراث بتوجيه الناس إلى المعروف ، أو نهيهم عن اقتراف المنكر .

وعلى الرغم من الخطر الصليبي الذي كان يهدّد البلاد الإسلامية إلا أننا نلاحظ بوضوح ضعف المجتمع الإسلامي ، وانتشار الفساد فيه في مختلف الميادين ، كما نلاحظ أيضاً سوء وضع رؤسائهم ، وانتهائهم إلى حالة من التفكك والصراع .

لذا استطاع الصليبيون-دون مقاومة تُذكر-أن يسيطروا على أراض واسعة ، فلم يقدّم بعض السلاطين إزاء ذلك الزحف بأي عمل يوقفه ، وظلّت جماعات الأمة مشغولة بقضايا ليست ذات شأن يتنافسون فيها^(١).

ومن مظاهر الضعف الديني في هذا العصر:

١- من أهمّها خطأ فادح وقع فيه بعض الخلفاء ، وأثر بشكل واضح في سير الدعوة ، وجعلها تواجه إشكالات كبيرة ، وكان ذلك الخطأ يكمن في توسيد الأمر إلى غير أهله ، وعدم انتقاء الشخص المناسب للمكان المناسب له ، فتسبّب ذلك في إلحاق الظلم بالفرد والمجتمع ، وانتشار الفساد والمنكرات في الرعيّة.

فقد قلّد السلاطين والولاة الكثير من وعّاظ المذاهب الذين كانوا يعظون الناس بأسلوب ، ويعيشون في بيوتهم بأسلوب آخر ، وثمة نماذج من شيوخ المذاهب ، حينما تقلدوا مناصب القضاء والأوقاف أخذوا الرشاوي ، واقتنوا الجوّاري ، وآلات الموسيقى ، وفرش الحرير^(٢).

من ذلك ما روى أن الملك الظاهر أمر آبيك بن عبد الله على حمص ، وكان عنده تشييع وجوّر على الرعيّة^(٣).

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٨٩ وما بعدها

(٢) المصدر السابق - ٧٨

(٣) ذيل مرآة الزمان - ٢ / ٤٣٧

ومن أولئك الذين تولّوا وهم لا يصلحون للولاية الوزير عبد الله بن علي ابن شكر حيث يُروى أنّه كان لا يأكل من الدولة ولا فلساً ، ويُظهر أمانةً مُفرطَةً ، فإذا لاح له مال عظيم اجتنحه ، وكان له في كلّ بلد ضيعة أو أكثر في مصر والشام ، كما رُوي أنه كان يجتمع إليه بعض المنافقين مثل الجمال المصري وابن كسا البلبيسي والمجد البهنسي ، وكانوا يوهّمونه أنّه أكتب من القاضي الفاضل بل ومن ابن العميد ، وفي الفقه أفضل من مالك ، وفي الشعر أكمل من المتنبي، ويحلفون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان^(١).

ومن هؤلاء أيضاً رئيس قضاة دمشق عبد العزيز الجيلي ، وقد ولاه القضاء الملك اسماعيل ، والذي كان متفلسفاً فاسد العقيدة دهرياً مستهتراً بأمر الشريعة ، يجيء إلى صلاة الجمعة سكران وداره مثل الحانة^(٢)، ويُروى أنه كان عنده شهود زور، فكان الرجل يحضر إلى مجلسه ، ويُدعى عليه ، فيُنكر ، فتحضر الشهود ، فيُلزّمه القاضي ، ويحكم عليه ، فيصالح غريمه على النصف ، فاستُبيحت أموال الناس^(٣).

وقد أذن ذلك القاضي للنساء في دخول جامع دمشق ، فدخلنه ، وامتلأ المسجد بالنساء والرجال ليلة النصف ، وتأدّى الناس بذلك^(٤).

ومنهم أيضاً ابن صغرى مسند الشام ، إذ يُروى أنه كان فيه شُحّ بالتسميع إلا بعرض من الدنيا ، فكان يأخذ من آحاد الأغنياء على التسميع^(٥).

ومن أولئك أيضاً أبو الحسن السامري وزير الملك الصالح عماد الدين اسماعيل، كان يبالي في هدم الدين ، وعند موته ظهر له من الأموال ما لا يوصف^(٦).

ولقد طال ذلك الفساد والضعف الديني بعضاً من مؤلفات هذا العصر ، وكتاب "خريدة القصر" يُعطينا نموذجاً واضحاً على ذلك الفساد ، فيحفل ذلك الكتاب بأشعارٍ في بيان جمال

(١) تاريخ الإسلام ١١١ وفيات (٦٢٠-٦٣٠ هـ)

(٢) المصدر السابق - ١٢٦ وفيات (٦٤٠-٦٥٠ هـ)

(٣) المنهل الصافي - ٧ / ٢٨٢ ، تاريخ الإسلام - ١٢٥ وفيات (٦٤٠-٦٥٠ هـ)

(٤) تاريخ الإسلام - ١٢٦ وفيات (٦٤٠-٦٥٠ هـ)

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٢٨٣

(٦) تاريخ الإسلام - ٣٨٥ وفيات (٦٤٠-٦٥٠ هـ)

الغلمان ، وتعلّق الرجال بهم ، ونحن اليوم نعجب من سيورة هذا الضرب من الشعر ، واستحلال هؤلاء الشعراء لهذا الفن ، يقول فتیان الشاغوري أحد شعراء هذا العصر:

أنا في الهوى لَحْمٌ على وضم لِمَا عايْنْتُ من برح ومن برحاء
بمشمّر عن معصميه مُزَنَّرٌ يهتز بين التيه والخيلاء
ظبي لواحظه أشدّ مَوَاقِعاً من شفرة يديه في الأحشاء^(١)

٢- ومن مظاهر الضعف الديني في العصر الأيوبي ما ظهر من فساد بعض الملوك ، وارتكابهم لمنكرات عظيمة ، فأعاق ذلك تقدم الدعوة الإسلامية ، ووقف حائلاً دون تمسك الناس بتعاليمها، لأنهم عندما يرون فساد قدوتهم المتمثلة في ملوكهم ، فإنّ تمسكهم بدينهم سيضعف ويضمحلّ مع مرور الأيام .

ومن الملوك الذين عُرفوا بسوء السيرة: الملك أقيس بن الكامل صاحب اليمن، ويُلقب بالمسعود ، فقد ذكرت كتب التاريخ أنه كان شاباً جباراً فاتكاً ، قتل باليمن نحو ثمانمئة شريف ، وكان من أفجر الملوك ، وأكثرهم فسقاً ، وأقلهم حياءً ، وقد ذُكر عنه ما تقشعُر منه الأبدان ، وتنكره القلوب^(٢).

كما رُوي أنّه نهب أموالاً كثيرة من التجار في اليمن ، وقد رحل منها يطلب الشام ، وكان معه ٥٠٠ مركب ، و١٧٠٠ خادم ، و١٠٠ قنطار عنبر ، بالإضافة إلى ما روي عن وجود خمسمئة حُرّة من بنات الناس يطؤون حراماً في قصره^(٣)، كما ذُكر أنه كان يرتكب المعاصي ، ويعسف بالتجار دون أن يهاب ، بل كان يشرب الخمر ، ويرمي الطيور بالبندق في وسط الحرم الشريف بمكة، وقيل: إن أباه سرّ بموته^(٤).

(١) خريدة القصر وجريدة العصر- العماد الأصفهاني - تحقيق: د/ شكري فيصل - ١ / ٢٥٨

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ٤٣ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٢١١

(٣) كنز الدر وجامع الغر- ٧ / ٢٦٤

(٤) تاريخ الإسلام - ٢٧٤ وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ) ، سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٣٣١ ،

كنز الدر وجامع الغر- ٧ / ٢٩٧ - ٢٩٨

وقد ذكر صاحب "النجوم الزاهرة" أنه كان يسكر ، وينام بدار على المسعى ، فيخرج أعوانه يمنعون الناس من الصياح والضجيج في المسعى ، ويقولون: (الأمير سكران نائم! لا ترفعوا أصواتكم بالذكر والتلبية) ، وقد قَتَلَ خلقاً كثيراً من الأكابر والعظماء^(١).

وعلى الرغم من اشتهاار الملك العادل بالسيارة الحسنة ، والخلق القويم ، إلا أنه كان ربما ترك الجهاد ، وقاتل على الدنيا^(٢).

ومن الملوك الذين اشتهر عنهم سوء السيرة توران شاه ، والذي كان أكبر من صلاح الدين في السن ، ولقد كان يرى في نفسه أنه أحق منه بالملك ، وكانت تبدو منه كلمات في سكره في حق صلاح الدين ، فلما بلغ ذلك صلاح الدين أبعدته بأن بعثه إلى اليمن ، فسفك الدماء ، وقتل الأمثال ، وأخذ الأموال ، وانهمك على الفساد مع الغلمان ، وقدم الأراذل ، ولم يَطِبْ له اليمن ، فعاد إلى الشام على مضض من صلاح الدين ، فأعطاه بعلبك ، ولكن بلغه عنه أشياء ، فأبعده إلى الإسكندرية ، فتوجه إليها ، وأقام بها معتكفاً على اللهو ، ولم يحضر أي حروب أو غزوات مع أخيه صلاح الدين ، ومات بالإسكندرية^(٣).

ومن الملوك الذين صلحت سيرتهم مع وجود بعض السوء فيها الصالح اسماعيل ، فقد زوي أنه عزل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن الخطابة عندما ندد الشيخ به ، وأجبره على ملازمة داره وألا يُفتي . وهنا غادر الشيخ الشام إلى مصر ، فأراد اسماعيل مساومة العز للرجوع مقابل إعادة مناصبه له بتقبيله يد السلطان ، فقال العز لمنذوب السلطان: "يا مسكين ما أرضاه أن يُقبَّلَ يدي فضلاً عن أن أقبَّلَ يده ، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به" ، فأمر الصالح اسماعيل باعتقاله ، ولقد جاءت عساكر مصر فيما بعد ، وانهمز الصليبيون ، وتابع الشيخ مسيره إلى مصر.

وقد أراد الملك اسماعيل أن يتبجح أمام الصليبيين بما فعل مع الشيخ ، فسخروا منه ، وقالوا: (لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجله ، وشربنا مرقها)^(٤).

(١) تاريخ الإسلام - ٥٩ وفيات (٦١١ - ٦٢٠ هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٢١١

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٢٢٥

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٨٧ ، تاريخ الإسلام - ٣٨٨ وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ)

(٤) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤

٣- ومن مظاهر الضعف الديني السيئة انتشار الخمر بين الناس ، واستحلال الكثير لشربه ، وانعدام الإنكار عليهم ، ففي سنة ٥٩٢ هـ غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها ، وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطاني ، واستيفاء رسمه بأيدي مستخدميه ، وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار ، وحصل منه شيء حُمِل إلى العزيز ، فصنع منه آلات الشرب . ومثل ذلك حدث في سنة ٥٩٤ هـ ، فقد كثر التظاهر بعصير العنب ، واستباحة الحرمان ، وعدم المنكر لهذا الأمر^(١) .

وإن استباحة الناس للخمر تعطينا تصوّراً واضحاً عن مدى الفساد الذي فشا في تلك المدّة، وعن ضعف تدبُّن بعض حكام الدولة الأيوبية ، وتهاونهم في بعض أحكام الإسلام ، مما أدى إلى جعل مهمة الدعاة تغدو أصعب لإضافة المزيد من العوائق في طريق سيرها الشائك .

ومما ترويه كتب التاريخ عن ذلك ما ذُكر أن الملك المعظّم أعاد في سنة ٦١٥ هـ القيان والخمور وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان أبوه قد أبطلها، بحيث أنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل خمراً إلى دمشق إلا بالحيلة الخفيّة ، واعتذر المعظم في صنعه هذا المنكر بقلّة الأموال على الجند ، وما استشعر أن هذا يُدبّل عليهم الأعداء^(٢) .

أما الأفضل فقد رُوي أنه أقبل بدمشق على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب مع مَنْ حوله من الأصحاب ، ثم ترك ذلك من غير سبب ، وتاب، وجدّد في الذكر والزهد ، وأتاب ، وأزال المنكرات وأراق الخمور ، وأقبل على العبادة ، ولبس الخشن من الثياب ، وشرع في نَسْخِ مصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه ، وواظب على الصيام ، وجالس الفقراء ، وبالغ في التقشف ، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل^(٣) .

ومن الملوك الذين استباحوا بعض المنكرات كالخمر الملك القاهر ، فقد رُوي أنه سكر فقتله الخمر^(٤) . ومنهم أيضاً الملك الناصر صاحب حماة الذي كان مدموم السيرة ، يأخذ السكّر منه فيطلب أشياء عجيبة وتُحقّق له^(٥) .

(١) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٣٦-١٤٢

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ٧٦

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٢٤ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٩

(٤) تاريخ الإسلام - ١٢٢ وفيات (٥٨١-٥٩٠ هـ)

(٥) المنهل الصافي - ٥ / ٢٩٤

وفي أيام العزيز كثر اجتماع النساء والرجال على الخليج وعلى ساحل مصر ، وتلوث النيل بالمعاصي القبيحة^(١).

وعلى نحوٍ عام فسد كثير من جوانب بعض أزمنة العصر الأيوبي ، واقتصرت الممارسات الدينية على أداء الشعائر والعبادات ، واحتفت آثار التوجيه الديني في العلاقات والمعاملات ، وصار الحديث عن المثل العليا والقضايا العامة إما وسيلة ثقافية يتكسب بها الخطباء والوعاظ والمدرسون ، أو مثاليات وخيالات يستخفّ بها الكثيرون ولا يُعيرونها اهتماماً ، وقد وصف أبو شامة مجتمع تلك المدة فقال: (كانوا كالجاهلية همّة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً)^(٢) ، وتطفح كتب التاريخ التي أرّخت لتلك المدة بشواهد على ذلك الفساد ومظاهره.

٤- ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب ، بل رافق هذا الفساد مضاعفات في اللهو ، فقد شاعت ألعاب مصارعة الحمام ، كما شاع الرّثا ، وشرب الخمر ، وانتشرت الملاهي والجواري والمغنيات إلى درجة ارتفعت من أجلها الشكاوي^(٣).

ومن الشواهد على ذلك الفساد ما ذكره صاحب كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" أنه في سنة ٥٩٠هـ كثرت المنكرات ، وتجاهر عامة الناس بكل قبيح ومنكر من غير نكير عليهم ، فترقّب أهل الدين حلول البلاء^(٤).

٥- ومن المنكرات التي ظهرت في حقبة من هذا العصر القتل ، فقد ذكر أنه في سنة ٥٩٢هـ كثر القتل بالقاهرة بأيدي السكارى ، وأعلن المنكر بها ، فلم تنسلخ ليلة إلا عن جراح وقتل بين المعريدين ، وكثر ذلك حتى خُطفت الأمتعة والمآكل من السوق ، وأفحش الناس في إظهار المنكرات ، ولم ينههم أحد . وفيها كثر وثوب السكارى على من يلقونه ليلاً ، وضربهم إياهم بالسكاكين ، فلا تخلو ليلة من قتيل أو قتيلين ، ولم يؤخذ لأحد بثأر ، ولا وقع كَشْفٌ عن مقتول منهم ، ولم يتمكن

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٣٦

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ١ / ٧

(٣) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٨٢-٨٣

(٤) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٩

والي القاهرة مِنْ مَنْعِهِمْ ، وَوُجِدَ فِي الْخَلِيجِ سِتَّةَ نَفَرٍ قَتَلُوا مَرِيَّطِينَ ، فَلَمْ يُسَأَلْ عَنْهُمْ ، وَلَا وَقَعَ إِنْكَارٌ لَأَمْرِهِمْ^(١).

كما يُعْطِي صَاحِبَ "السُّلُوكِ لِمَعْرِفَةِ دَوْلِ الْمَلُوكِ" مَلَخَصاً عَنِ الْفَسَادِ الَّذِي حَدَثَ فِي سَنَةِ ٥٩٤ هـ ، حَيْثُ اسْتُبِيحَ فِيهَا مَا كَانَ مَحْظُوراً مِنْ فَتْحِ أَبْوَابِ التَّأْوِيلَاتِ ، وَأَخَذَ مَا بِأَيْدِي النَّاسِ بِالمَصَادِرَاتِ ، وَتَظَاهَرَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالمُنْكَرَاتِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ^(٢).

كما ذَكَرَ صَاحِبُ كِتَابِ "النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ" شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ الْفَسَادِ ، فَقَالَ: إِنَّهُ فِي سَنَةِ ٦٤٩ هـ كَثُرَ الظُّلْمُ بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ ، وَعَظُمَ الجُورُ وَالمَصَادِرَاتُ لِكُلِّ أَحَدٍ ، حَتَّى أَخَذُوا مَالَ الْأَوْقَافِ ، وَمَالَ الْأَيْتَامِ عَلَى نِيَةِ القُرْضِ ، وَمِنْ أَرْبَابِ الصَّنَائِعِ كَالْأَطْبَاءِ وَالشُّهُودِ^(٣).

المطلب الخامس: الخلط بين السنة والبدعة

استطاع الأيوبيون بفضل الله تعالى القضاء على الدولة العبيدية الرافضية في مصر بعد أن حكمتها قرنين وثمانين سنين ، وكان العاضد آخر خليفة عُبيديٍّ^(٤). وبعد وفاته تَوَلَّى صلاح الدين الخلافة ، وبدأ يسعى سعياً حثيثاً إلى إضعاف المذهب الشيعيِّ ، وإعلان مذهب السنة^(٥)، ثم نشط في إعمار المدارس السنيَّة ، وتعيين القضاة من الشافعية، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي^(٦).

وبالرغم من اهتمام الأيوبيين بالسنة وإحيائها ونشرها بين أفراد المجتمع إلا أنه وُجِدَ فِي هَذَا العَصْرِ بَعْضُ المَظَاهِرِ البِدْعِيَّةِ المَخَالَفَةِ لِسُنَّةِ ، وَالتِّي انْتَشَرَتْ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ ، وَلاَقَتْ قَبُولاً لَدَيْهِمْ ، وَبِالتَّالِي نَجِدُ أَنَّ العَصْرَ الأيوبي خَلَطَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَبَعْضِ مَظَاهِرِ البِدْعَةِ . وَسَوْفَ أَضْرِبُ بَعْضَ الأمثلة على ذلك ، وليس على سبيل الحصر، ومنها ظهور ما يُسَمَّى بالخَوَاقِقِ وَالمَزَاجِ.

(١) السُّلُوكِ لِمَعْرِفَةِ دَوْلِ الْمَلُوكِ - ١ / ١٣٧-١٣٨

(٢) المَصْدَرُ السَّابِقُ - ١ / ١٤٢

(٣) النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ فِي مَلُوكِ مِصْرَ وَالقَاهِرَةِ - ٧ / ٢٣

(٤) الكَامِلُ فِي التَّارِيخِ - ١١ / ٣٧٠

(٥) الخَطَطُ - ١ / ٣٥٨ ، وَانظُرِ الحُرُوبَ الصَّلِيبِيَّةَ - ١٢٣

(٦) العَبْرُ فِي خَبَرِ مَنْ عَبَرَ - ٣ / ٤٩

والخوانق كلمة أعجمية واحدها خانقاه ، بمعنى دار الصوفية ، وكتاب "الدارس في أخبار المدارس" للنعمي حافلٌ بأسماء الخوانق ، ومنها ما أنشأه الملوك أنفسهم مثل الخانقاه الأسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير^(١)، والخانقاه النجمية أنشأها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين^(٢)، والخانقاه الناصرية التي أنشأها صلاح الدين بجبل قاسيون^(٣)، ومنها أيضاً الخانقاه الحسامية، منسوبة لأم حسام الدين بنت أيوب ست الشام أخت صلاح الدين^(٤). ولم أقف على حقيقة ما كان يجري في هذه الدور من مظاهر مخالفة للشرع.

كما انتشرت في هذا العصر الزوايا ، وكان فيها الطامات ، ويذكر النعمي عن الزاوية الحريرية، التي كان عليها الشيخ علي الحريري ، أبو محمد أبي الحسن علي ابن مسعود الدمشقي الفقير، الذي نشأ بدمشق ، ثم تمفقر ، وعظّم أمره ، وكثُر أتباعه، وأقبل على السّماعات والمداح، وبالغ في ذلك ، ومنْ خَبَرَ أمرَه رمَاه بالكفر والضلال ، فقد بدت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء كالشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ تقي الدين بن الصلاح . وتبعه الفقراء المعروفون بالحريرية أصحاب الزيِّ المنافي للشرعية الإسلامية ، وباطنهم شرٌّ من ظاهرهم ، وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة ، والتهاون بها من إظهار شارة أهل الفسوق والعصيان ، الشيء الكثير . وكان يجمع مجلسه بين الغناء الدائم والرقص وترك الإنكار على ذلك ، وترك الصلوات ، وقد أضلّ خلقاً كثيراً^(٥).

ومن تلك الزوايا الزاوية اليونسية ، نسبة للشيخ يونس بن يوسف الشيباني ، من أولي الشطح، المتوفى سنة ٦١٩ هـ ، يقول عنهم النعمي: (وهم شرّ طوائف الفقراء، ولهم أعمال تدلّ على الاستهتار والانحلال قولاً وفعلاً ، أستحي من الله ومن الناس التفوّه بها ، ولا يغتزّ المسلم بكشف ولا بحال)^(٦).

(١) الدارس في تاريخ المدارس - ٢ / ١٣٩

(٢) المصدر السابق - ٢ / ١٧٤

(٣) المصدر السابق - ٢ / ١٧٨

(٤) المصدر السابق - ٢ / ١٤٣

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ٢ / ١٩٧

(٦) المصدر السابق - ٢ / ٢١٥

وقد ظهرت عدد من البدع الأخرى كبدعة المولد النبوي ، وتصديق المنجّمين، وغيرها فَصَلْتُ الحديث عنها في مبحث العقيدة.

المطلب السادس: التنافس بين الأمراء الأيوبيين

سعى صلاح الدين في توحيد سورية ومصر ، واستردّ بيت المقدس ، وأنجز العديد من الإنجازات إلى أن توفي سنة ٥٨٩ هـ ، ثم انقسمت الدولة إلى دويلات يتآمر بعضهم على بعض ، فالعزیز على مصر ، والأفضل على دمشق ، والظاهر على حلب ، وطغتكين على اليمن ، والعاذل على الكرك والشوبك^(١).

وكانت قضية الوراثة المتجدّدة باستمرار في تلك المدة عامل ضعف في قدرة القيادة على مواجهة التحديات في الأوقات الحرجة ، وفي تفكّك الوحدة التي حققها صلاح الدين تدريجياً ، وإضافة لذلك فإن الطموح الشخصي لبعض أفراد الأسرة الأيوبية ، والصراعات الداخلية فيما بينهم كان لهما دور في هذا التفكّك^(٢). وكان السلطان صلاح الدين يشعر بأن وحدة الأمة الإسلامية التي بذل قصارى جهده في تحقيقها ستتأثر كثيراً بتنازع أبناء البيت الأيوبي ، والصراعات الداخلية. فقد روى القاضي ابن شداد الحوار الذي دار بينه وبين السلطان في أحد الأيام ، والذي يُستشفّ منه خوف صلاح من الخلافات وآثارها ، يقول ابن شداد: قال لي السلطان في بعض محاوراته في عقد الصلح: "أخاف أن أصالح وما أدري ما يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم بلاد ، فيخرجون لاستعادة ما في أيدي المسلمين ، وترى كل واحد من هؤلاء - يعني أخاه وأبناءه- قد قعد كلٌّ في رأس تلّه - قلّعته- ويقول: (لا أنزل) ، ويهلك المسلمون" ، قال ابن شداد: "فكان والله كما قال ، اختلفوا واشتغل كل واحد بناحيته ، فكان الصلح مصلحةً"^(٣).

ومن الخلاف الذي حدث قبل وفاة صلاح الدين ، ما روي أنه لما توفي الملك المعظّم شمس الدولة أشفق السلطان من نوابه باليمن ، وذكر ما بين ولائها من الإحن ، فقد وصل له الخبر بما

(١) العز بن عبد السلام - ٢٢

(٢) انظر: صلاح الدين-القائد وعصره -٤٢٧

(٣) سير أعلام النبلاء- ٢١ / ٢٨٩

يجري فيها من الفتن ، فندب إلى زيد سيف الإسلام ومعه عدة من الأمراء ، من جملتهم صارم الدين خُطْبُبا ، وظهير الدين طغتكين بن أيوب ، وقد أمره أن يقطع ما بها من الفتن ، ويحفظ البلاد ، ويصلح الأمور التي يُحشى عليها من الفساد ، وأن يُوَيِّ ويعزل ويعدل ، فأجرى الأمور بها على أحسن نظام^(١).

وبعد وفاة صلاح الدين رحمه الله تنازع أولاده واختلفوا ، ودبّ الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي ، وصاروا يتقاتلون على حكم البلاد ، فكانوا فرقا وأحزابا متفرقين^(٢)، ولكن من لطف الله بهم أنهم لما تنازعوا واختلفوا يسّر الله نقص همّة الأعداء ، وزالت الشهامة منهم^(٣). وقد تأثرت وحدة البيت الأيوبي كثيراً بسبب تنازعهم ، وتأثرت بذلك الأمة الإسلامية ، مما أعاق الدعاة والعلماء من القيام بواجب الدعوة المنوط بهم.

ولقد فصلت كتب التاريخ في الحديث عن تلك المنازعات والخلافات ، وأنا هنا لست بصدد سردها وإحصائها ، وإنما أريد إعطاء أمثلة عنها لبيان مدى التأثير السيئ الذي أحدثته في العالم الإسلامي في تلك المدة .

من ذلك ما روي عن النزاع الكبير والقتال الذي حدث بين العادل والأفضل ابن صلاح الدين^(٤). ومنه أيضاً ما وقع بين الظاهر عبد الله صاحب اليمن ، والمجاهد من نزاع على الملك ، فقد أمسك الملك المجاهد الملك الظاهر وحبسه بقلعة تعز ، ثم خنقه ، وأظهر أنه مات حتف أنفه^(٥). كما جرى بين الأفضل والعزيم فتن وحروب ، ثم اتفق العزيم مع العادل على الأفضل ، وقصدا دمشق ، وحاصراه ، وأخذها منه ، فالتجأ إلى صرخد^(٦). ولما طلب الأشرف من الكامل الرقة ، امتنع وأرسل إليه عشرة آلاف دينار عوضها فردّها ، فغضب الكامل ، وتنمّر الأشرف ، ووقع الشقاق بين الأخوين بسبب ذلك^(٧).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٩٤ - ٩٥

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٣ ، البداية والنهاية - ١٧ / ١٧٤

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٩

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٦٢-٦٣

(٥) المنهل الصافي - ٧ / ٨١

(٦) تاريخ الإسلام - ١٢٣ وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ)

(٧) المصدر السابق - ١٩ وفيات (٦٣٠-٦٤٠ هـ)

ومن ذلك أن الملك الكامل سار ليأخذ دمشق من ابن أخيه الناصر داود ، وأغاثه أسد الدين صاحب حمص ، فاستنجد الناصر بعمه الأشرف^(١). وفي سنة ٦٣٤ هـ قويت الخلافات بين الكامل وأخيه الأشرف^(٢).

كما حكى صاحب "تاريخ الإسلام" عن المواجهات التي حدثت بين الملك الصالح والملك الناصر^(٣). وروي أنه لما بلغ الكامل وفاة الأشرف ، سار لدمشق وقد تملكها الصالح ، فحاصره ، وأخذها منه وملكها^(٤). كما رُوي أنه لما بلغ السلطان المسعود موت عمه المعظم ، تجهّز ليأخذ الشام ، وكان ثقله في خمسمئة مركب ، ومعه ألف خادم^(٥).

ومن ذلك عصيان المظفر غازي بن الملك العادل على أخيه الملك الأشرف في حكم خلاط سنة ٦١٢ هـ ، واستولى الأشرف على خلاط ، وأخذها من أخيه غازي. وجرى القتال على دمشق ، واستولى الملك الكامل عليها من أخيه الأشرف^(٦).

ومن صور تلك النزاعات أيضاً أنه لما أخذ الصالح اسماعيل دمشق ، اعتقل عمر ابن الصالح نجم الدين أيوب في قلعة دمشق ، ثم توفي ، فتألم أبوه لموته ، واتهم عمه بأنه سقاه ، وتجهّز له وحرابه^(٧).

وقد بلغ من شدة النزاع بين الأمراء الأيوبيين أن استعان بعضهم بالفرنج ضد بعضه البعض ، فقد روي أن اسماعيل بن العادل صاحب دمشق استعان بالفرنج على حرب أخيه ، وأطلق لهم حصن الشقيف ، وكانت جنباياته على المسلمين عظيمة^(٨).

كما وصلت شدة الخلاف بين الأمراء إلى حدّ الاختلاف ، والقتال في أيام الحج ، وعدم احترام هذا الموسم العظيم ، ففي سنة ٦١٠ هـ حجّ الظاهر خضر بن صلاح الدين من حلب ، فلما

(١) العبر في خبر من عبر - ٣ / ١٩٤ ، ذيل مرآة الزمان - ١ / ١٢٨

(٢) تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر - ٢ / ٢٤١

(٣) تاريخ الإسلام - ٣١ وفيات (٦٣٦ - ٦٤٠ هـ)

(٤) المصدر السابق - ٢٥٧ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)

(٥) المصدر السابق - ٢٧٤ وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ)

(٦) تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر - ٢ / ٢٣٥

(٧) تاريخ الإسلام - ١٣٣ وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ)

(٨) المصدر السابق - ٣٨٣ وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ)

قارب مكة صدّه قُصَاد الملك الكامل محمد بن العادل عن الحج ، وقالوا: (إنما جئت لأخذ بلاد اليمن) ، فقال الظاهر خضر: (يا قوم قيّدوني ودعوني أفضي مناسك الحج) ، فقالوا: (ليس معنا مرسوم إلا بردك) ، فزُد إلى الشام من غير أن يحج ، فتألّم الناس لذلك^(١).

كما زُوي أن الأمير شمس الدين بن المقدّم محمد بن عبد الملك لما توجّه إلى الحج ، رفع علم صلاح الدين ، فأنكر عليه أمير الركب العراقي طاشكتين ، وقال: (لا يُرفع هنا إلا علم الخليفة) ، فتقاتل الفريقان ، وجرح ابن المقدم ، فتوفي من جراحه^(٢).

ولما حج الملك المسعود ابن الملك الكامل من اليمن في عسكر عظيم ، منَعَ عَلمَ الخليفة أن يصعد الجبل ، وأصعد علم أبيه ولبس السلاح ، وقال لجنده: (إن أصدعوا علم الخليفة فاكسروه ، وانهبوا البغاددة)^(٣).

ولم يقتصر الصراع والخلاف على الأمراء بل تعدّى إلى العلماء ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما حدث بين شمس الدين العماد المقدسي والتقيّ شبيب الحراني من شتّان ، نتيجة عزل أخ لشبيب كان يعمل مع شمس الدين ، فحمل شبيباً تعصّب لأخيه وكتب رقعة إلى الملك الظاهر يتّهم فيها الشمس بسلب ودائع للتجار ، وأنه يقدح في الدولة ، وكتب محضراً ، فحُبس الشمس ، ثم أُطلق سراحه ، وحُبس شبيب لتحامله^(٤).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٧٧ - ١٧٨

(٢) البداية والنهاية - ١٦ / ٥٩٩

(٣) تاريخ الإسلام - ٥٨ وفيات (٦١١ - ٦٢٠ هـ)

(٤) ذيل مرآة الزمان - ٢ / ٤٧٠

موقف العلماء والدعاة من النزاع بين أبناء البيت الأيوبي:

ولم يقف كلٌّ من العلماء والدعاة أمام تلك الخلافات والنزاعات مكتوفي الأيدي ، بل بذلوا جهودهم في التوفيق بين الأمراء ومحاولة إزالة الخلاف والشقاق فيما بينهم. ومن أبرز العلماء الذين كان لهم دور في ذلك:

١- الفقيه عيسى الهكاري:

بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة العاضد ، اعترض بعض الأمراء النورية، ورفضوا طاعة صلاح الدين ، وكادت تحدث فتنة ، لولا لطف الله ثم الدور الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري ، فقد أخذ يسعى جاهداً بين هؤلاء الأمراء ، إلى أن استطاع أن يُقنعهم ، ويجمعهم بالترغيب والترهيب^(١). وبهذا يتضح لنا الدور العظيم البارز الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري في تثبيت دعائم الدولة الأيوبية ، فقد استطاع بعد توفيق الله له ثم بقوة شخصيته وذكائه أن يُوطد الأمور لصلاح الدين حتى يُتيح له التفرغ للجهاد ضدّ الصليبيين .

٢- القاضي بهاء الدين بن شداد:

قام القاضي بهاء الدين بن شداد بالتوفيق بين أبناء البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين ، فقد توجه إلى حلب لجمع كلمة أبناء صلاح الدين ، وتحليف بعضهم لبعض^(٢) ، كما كان له دور بارز في تهدئة الأمور ، وفضّ كثير من المنازعات بين الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، والملك العادل من جانب ، والملك الأفضل من جانب آخر^(٣).

(١) انظر: الكامل في التاريخ-١٧/١، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية -٢/٧٠-٧١ ، وفيات الأعيان-

١٥٥- ١٥٣/٧

(٢) وفيات الأعيان - ٧ / ٨٨

(٣) زبدة الحلب في تاريخ حلب - ٣ / ١٣٥

٣- القاضي الفاضل:

أما القاضي الفاضل فقد كان مقيماً بدمشق عند الملك الأفضل بعد وفاة صلاح الدين ، وقد رأى من تصرفات الملك الأفضل ما استنكره ، مثل وضع كلِّ ثقته في وزيره الجديد القاضي الضياء بن الأثير ، الذي حسنَّ للأفضل إبعاد أمراء أبيه ، وأكابر أصحابه ، وقد نصحه القاضي الفاضل ولكن لم يستجب لنصحه ، فعزم عندئذ الفاضل على ترك دمشق ، والتوجُّه إلى الديار المصرية عند الملك العزيز ، الذي كان على العكس من الأفضل ، فقد كان يقرب أصحاب أبيه ويكرمهم ، فعظم بذلك شأنه .

وقد أحسن العزيز استقبال القاضي الفاضل ، وجعله عنده في محلِّ والده احتراماً وتقديراً له^(١). واستطاع القاضي الفاضل بعد ذلك بما له من مكانة وخبرة وهيبة وحكمة أن يُوفِّق بين الأخوين: الملك العزيز عثمان والملك الأفضل ، وتقرَّر الصلح بينهما على يديه على أن يُقيم العادل بمصر عند العزيز ليقرِّر قواعد ملكه ، وأن يرجع الأفضل إلى دمشق ، وتعاهد الجميع على ذلك^(٢). ولقد كان القاضي الفاضل مُستاءً كثيراً من الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي ، ومما يؤكِّد استيائه ، ذلك الكتاب الفاضلي الذي جاء فيه: (أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا ، وإن الأبناء اختلفوا فهلكوا ، وإذا غرب نجمٌ ما في الحيلة تشريقه ، وإذا بدأ حريق ثوبٍ فما يليه إلا تمزيقه، وهيئات أن يسدَّ على قَدَرٍ طريقه ، وقد قُدِّرَ طريقه ، وإذا كان الله مع خصم على خصم ، فمن كان الله معه فمن يطيقه)^(٣).

٤- سبط ابن الجوزي:

وهذا سبط ابن الجوزي رحمه الله يسهم إسهاماً كبيراً في إزالة الخلاف بين المعظم والأشرف ، واتحاد كلمة الأيوبيين ، ووقفهم ضد الصليبيين الموجودين في مصر ، مما ساعد على انسحابهم من دمياط ، واسترداد المسلمين لها في سنة ٦١٨ هـ، وقد حكى سبط ابن الجوزي ما قام به للتوفيق بين الأخوين ، فقد ذكر أنه خرج من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة ، فاجتمع بالمعظم في حمص ،

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤١٩ - ٤٢٠

(٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب - ٣ / ١٣٤ - ١٣٥

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٤٣٤

فأرسله إلى أخيه الأشرف بكتاب من ثمانين سطراً ليعاتبه على تأخُّره عليه . فخرج سبط ابن الجوزي ووصل إلى الأشرف الذي استقبله ، فطلب سبط ابن الجوزي منه الاجتماع مع المعظم للوقوف في وجه الصليبيين قائلاً له: (المسلمون في ضائقة ، فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ، وملكوا إلى حضرموت ، وعفوا إلى مكة والمدينة والشام ، وأنت تلعب؟ قم الساعة وارتحل). فافتنع الأشرف بكلام السبط ، وأمر بالرحيل إلى المعظم ، ووصل الجيش إلى مصر ، ووقفوا بوجه الصليبيين ، وتمكنوا من استعادة دمياط. وكانت فرحة الفقهاء والعلماء عظيمة بعودة دمياط ، فأخذوا يتبارون بإنشاء قصائد التهئة بهذا النصر العظيم^(١).

٥- القاضي محيي الدين بن الجوزي:

ومن قاموا بالإصلاح أيضاً القاضي محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ، فقد روي أنه لما توفي الملك الأشرف ، توجه الملك الكامل إلى دمشق ومعه أخوه الناصر داود صاحب الكرك و نابلس والقدس ، وحاصروا دمشق حصاراً شديداً، حتى سلّم الصالح اسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل على أن له بعلبك وبصرى ، وسكن الأمر ، وكان الصلح بينهما على يد ذلك القاضي من جهة الخليفة في بغداد^(٢).

٦- القاضي كمال الدين بن العديم:

وفي عام ٦٣٥ هـ توجه القاضي كمال الدين بن العديم رسولاً من حلب ؛ للتوفيق بين الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ، والملك المظفر صاحب حماة . وقد بذل ابن العديم في سفارته هذه أقصى جهوده ليوفق بين الملكين المتنازعين، ولكن أبي كلّ منهما أن يجيب صاحبه إلى ما يريد ، فاضطر ابن العديم للرجوع إلى حلب^(٣).

(١) الذيل على الروضتين - ١٢٨ - ١٣٠

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ٢٣٤ - ٢٣٥

(٣) زبدة الحلبي في تاريخ حلب - ٣ / ٢٣٥

وبهذا نخلص إلى نتيجة واضحة بيّنة ، وهي أهمية اتحاد كلمة الدعاة ، وخطورة وقوع الاختلاف بينهم ، وقد حذر الله تعالى من الاختلاف بين الدعاة ، وبيّن نتائجه الوخيمة على الأمة الإسلامية ، فقد قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(١)

المطلب السابع: الترف

أذن الله سبحانه وتعالى بفتح الكثير من البلاد على يد أبناء الدولة الأيوبية ، فغنموا من ذلك مغنم عظيمة ، وتجمّع لدى الكثير منهم ثورات وأموال طائلة ، وقد أدّى ذلك إلى شيوع الترف والبذخ والتبذير في صرف الأموال ، ولا شك أن ذلك ألهى الناس ، وأشغلهم بأمور الدنيا وملذاتها عن القيام بواجب الدعوة .

ومن صور الترف التي روتها كتب التاريخ -على سبيل التمثيل لا الحصر- ما ذكره صاحب "تاريخ الإسلام" أن دار الملك الظاهر بالقلعة كانت مُزَيَّنَةً بأواني الذهب الكثيرة^(٢)، كما رُوي أنه لما زُفّت إليه بنت العادل صفية خاتون ، تزوّجها على خمسين ألف دينار ، وحمل جهازها على ثلاث مئة جمل ، وخمسين بغلاً ، وجوارٍ على مئة جمل ، منهن مئة مغنية يلعبن بأنواع الملهى ، ومئة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة ، وكان دخولها لحلب يوماً عظيماً ، وخلع عليها الزوج جواهر بثلاث مئة ألف درهم ، منها خمسة عقود جواهر بمئة وخمسين ألف درهم ، وعصابة جواهر لا نظير لها ، وعشر قلائد عنبر مذهب ، وخمس قلائد بغير ذهب ، ومئة وسبعون قطعة من ذهب وفضة ، وعشرون تختاً من ثياب ، وعشرون جارية ، وعشرة خدم^(٣).

وفي سنة ٦١٠ هـ ولدت صفية لابن عمها الظاهر مولوداً سماه محمداً ، ولقبه بالملك العزيز غياث الدين ، فزيّنت حلب ، واحتفل الظاهر احتفالاً زائداً ، وأمر فصيح له من الذهب والفضة

(١) آية ٤٦ - سورة الأنفال

(٢) تاريخ الإسلام - ١٥٩ وفيات سنة (٦١١-٦٢٠هـ)

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٢٢٩ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٧٦

جميع الصور والأشكال ما وزن بالقناطر ، وصاغ له عشرة مهود من ذهب وفضة ، سوى ما عمل له من الأبنوس والصندل والعود وغيره، ونسج للصبي ثلاث فرجيات من لؤلؤ ، في كل فرجية أربعون حبة ياقوت وزمرد ، ودرعان وخوذتان وبركستوان ، كل ذلك من لؤلؤ وثلاثة سروج مجوهره ، في كل سرج عدة قطع من جوهر رائع وياقوت وزمرد ، وثلاث سيوف علائقها وقبضاتها من ذهب مرصع بأنواع الجواهر ، وعدة رماح من ذهب أستنها جوهر^(١).

المطلب الثامن: الجوائح

نزل بالناس في عهد الدولة الأيوبية عددٌ من الجوائح الخطيرة من وباء وفقر وجوع وغلاء ، أدّت إلى انشغال الناس عن أمور الدعوة ، بل وارتكبوا المحرمات والمعاصي في سبيل مواجهة تلك الجوائح . وقد عقد السيوطي في "حسن المحاضرة" فصلاً بعنوان (ذكر الحوادث الغربية بمصر من غلاء ووباء وزلازل)^(٢).

ففي سنة ٥٩٧هـ جرت أمور تتجاوز الوصف في الجوع المفرط ، فلو قال قائل: مات ثلاثة أرباع أهل الإقليم لما أبعد ، وأكلت لحوم الآدميين^(٣). كما كثر الفقراء بمصر في تلك السنة ، وخلت الأرياف ، واشتدّ بالناس الجوع ، وأكل بعضهم بعضاً ، وأكلوا الميتة^(٤).

وكانت أشدّ أزمة القحط في السنة الأولى من سلطنة الملك العادل ، ويروى أنه حدث في عهده قحط أدى إلى مجاعات رهيبة في البلاد أدّت إلى أن يتصرّف الناس فيها تصرفات غير لائقة^(٥).

كما يروي صاحب "تاريخ الإسلام" الكثير من الأخبار عن غلاء فاحش أصاب البلاد^(٦)، وبسبب ذلك الغلاء الفاحش كثر حمل الغلّة من البحيرة إلى بلاد المغرب ، وكثرت بين الأمراء إشاعة

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٦ - ٢٩٧ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٧٧

(٢) حسن المحاضرة - ٢٧٤

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٣٢٨

(٤) كنز الدرر وجامع الغر - ٧ / ١٤٨

(٥) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٥٣ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ١٧٣

(٦) تاريخ الإسلام - ٣١ وفيات سنة (٥٩١-٦٠٠ هـ)

أنَّ إقطاعهم ستؤخذ منهم ، فقصّروا في عمارة البلاد ، وارتفع السعر بالإسكندرية ، وبلغ القمح كلّ إردبّ بدينار ، وأخذ في الزيادة ، وتعذّر وجود الخبز ، وضجّ الناس^(١).

كما عمّت البلوى بتحصيل الضرائب ، وخرجت في التزيّد عن الحدّ ، ودخلت الشبهة في أحوال الكثير من الناس بسببها ، وكان صلاح الدين رفعها ومحا آثارها ، وعوّضه الله عنها بما حازه في الفتوحات^(٢).

وفي سنة ٦٣٢هـ كان الوباء العظيم بمصر ، فقد مات في شهر نيّف وثلاثون ألف إنسان^(٣). وقد وصل الجوع ببعض جهّال المسلمين أنهم كانوا يُزوّدون الفرنج بالغلّات مقابل المال ، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً في بعض الأزمان التي تصيبهم^(٤).

إن هذه الصورة المختصرة لوضع الحياة الاقتصادية في تلك المدة تعطينا صورة عن إهمال الدولة للمصالح العامة ، إذ لم تنل تلك المصالح شيئاً من الإنفاق ، فأهمّلت العناية بالريّ والزراعة ، والطرق ، وشؤون الأمن ، وعانى جماهير المسلمين من ضروب الجوع ، فعمّ الفقر ، وكثرت المصائب ، والأمراض سنة بعد سنة ، وأصبحت سمة ميّزت المجتمعات الإسلامية ، وأسهمت إسهاماً بالغاً في إضعافها أمام الأخطار الخارجية ، والوقوف بوجه الدعوة الإسلامية ، وإعاقة تقدمها^(٥).

وبعد ، فهذا عرض للمعوقات التي وجدتُ أنها واجهت مسار الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية ، وكانت حجر عثرة أمام تقدمه . ولا شك أنّ كل ظلم و عسف وجور سيكون مقابله عقوبة من الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الله عز وجل لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولكن الناس قد ظلموا أنفسهم ، وما وقفوا أمام اجتياح المنكرات ، ولو أنهم آمنوا واتقوا لنزلت عليهم من السماء البركة العميمة . والواقع أن هذا العصر مليء بشواهد تدل على الخير والشر ، وعلى الحق والباطل ، وعلى المنكر والمعروف.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٩

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ٣ / ٥٣٨

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٢٨٧

(٤) تاريخ الإسلام - ٦٨ وفيات سنة (٥٨١ - ٥٩٠هـ)

(٥) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٧٨ - ٨٠

وكم كنت أودُّ من الأسرة الأيوبية بمجموعها وامتداد حكمها أن تكون قد تابعت سيرة الملك الصالح صلاح الدين ، إذن لاستمر عِزُّ الدولة وبقيت صلتها بالله صلَّةً قوية متينة ، ولأثر ذلك بلا ريب في نجاح الدعوة الإسلامية وتقدّمها على مختلف الأصعدة والمجالات.

المبحث الثاني

معوقات خارجية

كان وصول الأيوبيين إلى سدّة الحكم في مصر والشام فاتحة خير عميم على واقع الأمة الإسلامية بعد عصور طويلة من الفوضى والضعف والتشرذم والتأخر الحاد في مسيرة الدعوة الإسلامية ؛ إذ استسلم الناس للبدع والتفرُّق ، وضُعفت الشخصية المسلمة بعد تفوّق الصليبيين ، وتمكّنهم من ناصية البلاد.

وجاء الأيوبيون وقد عصفت بالدعوة رياح عاتية تحدّثت عن مظاهرها معوّقاتها الداخلية قبلاً ، وأودّ الآن أن أشير إلى معوّقاتها الخارجية ؛ إذ يشاء الله وهو الحكيم الخبير أن تواجه الدولة الأيوبية أكبر تحدٍّ يواجه الأمة بأسرها ، وهو الخطر الصليبي . وبقيناً لو أن هذا الزحف الرهيب قد تمكّن وحقق أغراضه لعاث في الدعوة الإسلامية فساداً ؛ وذلك لأنّ منطلق قادة هذا العدوان منطلق ديني بحت ، بالإضافة إلى الأطماع المادية ، وهذا ما أوضحه خطاب البابا في الجنود الذاهبة للحرب في المشرق: " اذهبوا وأزعجوا البرابرة ، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار ، هبوا اليوم ، وقدموا قواكم ، وسواعدكم ثمناً لإيمانكم ، وتسلّحوا بسلاح الدين والتقوى ، فأنتم بذلك تنالون النعيم الدائم . إنكم إن انتصرتم على عدوّكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً ، وأنتم إذا خذلتهم ، فستموتون حيث مات يسوع ، فلا ينساكم الرب من رحمته ، فيحلّكم محل أوليائه . ياقوم إذا دعاكم الرب يسوع إلى مساعدته فلا تتواروا في بيوتكم قاعدين ، ولا تفكّروا في شيء إلا فيما وقع فيه إخوانكم المسيحيون من الذل والهوان والمسكنة ، ولا تسمعوا إلا إلى القدس وزفراته ، واذكروا جيداً ما قاله المسيح: " الذي يترك بيته ووطنه وزوجه وأولاده حياً فيّ ومن أجلي ، فسيخلد في النعيم" ^(١) .

ثم أخذ بطرس الناسك يجوب أرجاء أوروبا ركباً حماراً أعجف ، مرتدياً ملابس رثة حافي القدمين ، يحمل على صدره صليباً كبيراً ، ويعلو صوته في بكاء متشنّج ، وهو يحكي آلام المسيحيين في المشرق ، وكيف بالّ العربيّ الهمجي على قبر المسيح ^(٢) .

وقد بذل الصليبيون جهدهم في تشويه صورة المسلمين في نظر شعوبهم ؛ ليُشجّعوهم على قتال المسلمين ، فصوّروا صورة المسيح وصورة عربي يضره ، فإذا سألوهم من هذا الذي يضر المسيح؟ قالوا: (هذا من بني العرب يضره ، وقد جرحه ومات) ، فينزعجون ويخرجون لنصرتهم ^(١) .

(١) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ١٨-٢٠

(٢) المصدر السابق - ١٨-٢٠

ولم يكن الصليبيون يَخْرُجون رجالاً فقط ، بل خرجت نساؤهم أيضاً . قال العماد في الفتح القسي: "وفي الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس في زيِّ الرجال، ويحاربن عبادة"^(٢).

ونقل عنه أبو شامة قوله: "ووصلت في مركب فيه ثلاثمئة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعت من جزر البحر ، وانتدبن للجرائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء ، وأهن لا يمتنعن عن العزبان ، ورأين أهنن لا يتقربن بأفضل من هذا الثربان ، وزعن أن هذه قرية ، ما فوقها قرية ، ولا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزوبة"^(٣).

ولما بلغ الفرنجة نية المسلمين بفتح بيت المقدس ، حشدوا ، وتجمّعوا من كل فج عميق ، وسير البطريرك يستصرخ ملوك الفرنجة ، ويقول لهم: "الموت عليكم بهذه الأرض المقدسة أخير لكم مما تسلمون بيت معبودكم" . وبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فقال: "نعم نأخذ منهم بحول الله وقدرته ، ونخرّب بيوتهم ، وانكسر لاهوتهم ، ونهدم القمامة ، التي يدعون أنها القيامة محل صلاتهم"^(٤).

وقد أثار انتصار المسلمين في حطين ، وعودة بيت المقدس إلى الحكم الإسلامي حقد الفرنجة وملوك أوروبا^(٥).

وكانت هذه الحروب الصليبية أكبر معوّق خارجي لمسيرة الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية التي انشغلت انشغالاً تاماً لا يهدأ بمواجهة خطرها ، والوقوف أمام زحفها الهادر. وكانت الحرب بين الطرفين سجّالاً ، ويكمن خطرهما في أنها كلّفت خزينة الدولة من المال الذي كان يمكن إنفاقه على الإصلاحات الداخلية التي تلزم لازدهار الدعوة وتقدّمها ، بالإضافة إلى إزهاق الأرواح ، وتخریب البلاد ، وانشغال البال بما ينتج عنها.

(١) البداية والنهاية - ١٦ / ٦١٢

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٣٤٩

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٠٥

(٤) كنز الدرر وجامع الغرر - ٧ / ٨٤

(٥) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٢٥٤

وعلى كل حال فقد أفردت في مبحث وسائل الدعوة حديثاً عن جهاد المسلمين والحروب الصليبية ، ودور الملوك الأيوبيين فيها ، ولم تعرف الدعوة في عهد الدولة الأيوبية معوقاً خارجياً ذا شأن غير هذه الحروب.

الفصل السادس
نتائج الدعوة وعوامل نجاحها في
عهد الدولة الأيوبية

المبحث الأول
نتائج الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

إنّ مَنْ يطلّع على أحوال كثير من بلدان العالم الإسلامي قبيل زمن الدولة الأيوبية تستوقفه مظاهر الفوضى ، والفساد ، وتأخّر مسيرة الدعوة الإسلامية المبنية على الكتاب والسنة .
ومن هنا كان لاعتلاء هذه الدولة مقاليد الحكم ثمار يانعة ، وخير عميم ، ونتائج باهرة على أحوال العالم الإسلامي ، والدعوة الإسلامية.

ويمكن أن أوجز نتائج الدعوة في عهد الدولة الأيوبية فيما يلي :

- ١ - تصحيح المسار العقدي
- ٢ - دخول الكثير من غير المسلمين في الإسلام
- ٣ - تغيير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين وتأثرهم بعادات المسلمين وأخلاقهم
- ٤ - وحدة العالم الإسلامي
- ٥ - انحسار المدّ الصليبي
- ٦ - رعاية شؤون الحرمين
- ٧ - ازدهار الحركة العلمية

المطلب الأول: تصحيح المسار العقدي

تبيّن من خلال البحث أن الدولة العبيديّة وبعض المذاهب الباطنية كانت تعيثُ فساداً في مصر واليمن والحجاز وبعض القلاع والحصون في بلاد الشام ، وقد صاحب هذا رواج العقائد الباطلة التي سبق أن فصلتُ فيها القول .

وبوصول الأيوبيين إلى الحكم تمّ القضاء على هذه العقائد ، وعادت لمذهب أهل السنة سيادته ، ففتحت المدارس التي تُدرّس المذاهب الأربعة ، ونشط العلماء الذين حاربوا ما كان قد انتشر من البدع ، وانحسر أنصار العبيدية والباطنية^(١).

وقد حرص الأيوبيون على تصحيح المسار العقدي ؛ لأن العقيدة الإسلامية الصحيحة هي السبيل الوحيد للخلاص من التفرق ، وتوحيد صفوف المسلمين عامة ، والعلماء والدعاة خاصة ، فهي من وحي الله تعالى ، وهدى نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه الرّعيّل الأول من الصحابة الكرام ، وأيّ تجمع على غيرها مصيره التفرق ، والتنازع ، والإخفاق ، قال الله تبارك وتعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)^(٢) .

والحقيقة أن تصحيح المسار العقدي مرتبط بازدهار العلم ، وكثرة العلماء ، ومجالس العلم، وإنما يخشى الله من عباده العلماء ، ويُذكّرُ للأيوبيين عنايتهم الكبيرة في هذا الجانب ، فأنشؤوا المدارس السّنية ، واحترموا العلماء ، وأولّوهم الرعاية ، واستشاروهم في أعمالهم^(٣).

على أنني أشرتُ في دراستي هذه إلى ما كان في العصر من بدعٍ كانت عائقاً أمام تثبيت العقيدة الصحيحة^(٤).

(١) انظر جهود الأيوبيين في القضاء على المذاهب الباطلة ص ٧٥-٧٩

(٢) آية ١١٥ - سورة النساء

(٣) انظر: مبحث عوامل نجاح الدعوة

(٤) انظر: مبحث العوائق الداخلية

المطلب الثاني: دخول الكثير من غير المسلمين في الإسلام

كان من أعظم نتائج الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية إعجاب عدد كبير من النصارى بالإسلام ، ثم اعتناقه والدخول فيه بنفس راضية.

ومن الشواهد على ذلك إسلام كثير من الجنود الصليبيين ، والانضمام لجيش صلاح الدين ضد قومهم^(١). ومن ذلك أيضاً إسلام فارس صليبي يُدعى (روبرت أوف سانت ألبانس) سنة ٥٨٠هـ، وتزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين^(٢)، وفارس آخر صليبي مشهور يُدعى (رانيود) أسلم ، وانضم بفرقة العسكرية إلى المسلمين^(٣). بل إن إبنِي أخت الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد هربا من المعسكر الصليبي سنة ٥٨٧هـ ، والتحقا بجيش المسلمين ، وقد أكرمهما السلطان صلاح الدين ، وأحسن إليهما^(٤).

وقد حكى القاضي جمال الدين يعقوب الحاكم أنه شاهد مرة الشيخ عبد الله اليونيني وهو يتوضأ إذ مرّ نصراني ، ومعه حملٌ بغل ، فعثرت الدابة ، فسقط الحمل ، فرآه الشيخ ، وقد فرغ من وضوئه ، فأعانه على رفع الحمل ، فأعجب النصراني بحسن معاملة الشيخ اليونيني له ، وأسلم على يديه^(٥).

وقد حكى ابن الجوزي عن آثار دعوته للنصارى فقال: (وأسلم على يديّ نحو مئتين من أهل الذمة)^(٦)، وفي رواية أخرى: (وأسلم على يدي عشرون ألفاً)^(٧).

ولقد كانت دماثة أخلاق صلاح الدين ، وحسن تعامله مع النصارى تجذبهم إلى اعتناق الدين الإسلامي ، وقد وصف ذلك آرنولد فقال: "..... حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية"^(٨).

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام - ١١١

(٢) المصدر السابق - ١١١

(٣) المصدر السابق - ١٠٨

(٤) انظر: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٤٨

(٥) البداية والنهاية - ١٧ / ١٠٣

(٦) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد - ٣٧

(٧) المصدر السابق - ٣٧

(٨) الدعوة إلى الإسلام - ١١١

ومن الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في ذلك العصر رجال الدين النصارى ، ومن الأمثلة على ذلك: إسلام (دانيال) أسقف خابور^(١)، وإسلام عبد الواحد الصوفي الذي كان قساً راهباً بكنيسة مريم سبعين سنة ، وقد أسلم قبل موته بأيام^(٢).

وقد أشار آرنولد نقلاً عن المصادر اللاتينية إلى خلوّ كثير من الأسقفيات القبطية في مصر من الأساقفة ، فمثلاً: في دير مكاربوس وحده لم يبق غير أربعة قساوسة بعد أن كان عددهم يتجاوز الثمانين^(٣). كما ذكر آرنولد نقلاً عن بعض المصادر الغربية كثرة اعتناق القساوسة الصليبيين الإسلام الإسلام في هذا العصر^(٤).

ولحسن معاملة الأيوبيين لأقباط مصر تحوّلت أعداد كبيرة منهم إلى الإسلام^(٥). وقد علّق آرنولد على إسلام الأقباط قائلاً: "ولكثرة عدد الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبي يعتبرونهم أشد ميلاً لقبول الدين الإسلامي من أي طائفة أخرى"^(٦). ولا ريب أنّ ما ذكر في المصادر التاريخية عن إعجاب غير المسلمين بالإسلام ، وتحوّلهم إليه لا يعدو أن تكون نماذج وأمثلة بسيطة ؛ وذلك لأن تلك المصادر لم تهتمّ بإحصاء عدد من اعتنق الإسلام ، بل كان جلّ اهتمامها منصباً على تأريخ الأحداث العسكرية ، أو كتابة سير العلماء والقادة ونحو ذلك.

(١) الدعوة إلى الإسلام - ١٠٧

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ٢٥٧

(٣) الدعوة إلى الإسلام - ٦٢٩

(٤) المصدر السابق - ١١٢

(٥) الدعوة إلى الإسلام - ١٣٠

(٦) المصدر السابق - ١٢٦-١٢٧

المطلب الثالث: تغيير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين وتأثرهم بعبادات المسلمين وأخلاقهم

كان من النتائج البارزة للدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية تغيير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين ، وتأثر بعضهم بعبادات المسلمين وأخلاقهم ، فأدى ذلك إلى تحوّل مشاعر الكره والبغضاء في نفوسهم تجاه المسلمين إلى صداقة ، ووُدّ ، وحسن تعامل معهم .
فبعد نجاح المسلمين في فتح بيت المقدس ، ونتيجة لمخالطة الكثير منهم للنصارى ، بدأ أولئك النصارى يتأثرون بعبادات المسلمين ، ويأخذون منها الشيء الكثير كإطلاق اللحي ، وبعض أنواع اللباس ، والطهارة ، وعدم أكل لحم الخنزير ، والحجاب ، بل وحسن التعامل ، ودمائة الأخلاق^(١).

ومن الشواهد على ذلك ما حكاه أسامة بن منقذ من استغرابهم لاهتمام المسلمين بالنظافة الشخصية ، ومحاولتهم تقليد المسلمين في ذلك ، وترددهم على الحمامات لهذا الغرض^(٢).
ومن الأخلاق الإسلامية الحسنة التي اكتسبوها من معاشرتهم للمسلمين الغيرة على النساء، فقد كانت مفقودة عندهم ، وقد لاحظ أسامة بن منقذ ذلك من مشاهدته لحياتهم ، ومعاشرته لهم، ويقول عن ذلك: (وليس عندهم من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي مع امرأته ، فيلقاه رجل آخر فيأخذ المرأة ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ينتظر ، فإذا طوّلت عليه تركها مع المتحدث، ومضى)^(٣). وقد أشار بعض الباحثين إلى أن تلك العادة القبيحة بدأت تتغير نسبياً في الجيل الثاني بعد اختلاطهم بالمسلمين^(٤).

ومن الأمور الحسنة التي تغيرت عند بعضهم ترك أكل لحم الخنزير ، ومما يدل على ذلك أن صديقاً لأسامة دعاه إلى مرافقته لزيارة أحد الفرنجة في بيته ، فلما دخلوا عليه دعاهم إلى مائدة حسنة ، وطعام في غاية النظافة والجودة ، فلما رأى ذلك الإفرنجي أسامة بن منقذ متوقفاً عن الأكل

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية - ٧٢٦/٢

(٢) انظر: كتاب الاعتبار - ١٥٥

(٣) انظر: المصدر السابق - ١٥٤

(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية - ٧٥٢/٢

قال له: "كل طيب النفس ، فأنا ما أكل من طعام الإفرنج ، ولي طبابخات مصريات ما أكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير" (١).

ومن الأمور الهامة التي اكتسبها الفرنج من مخالطتهم بالمسلمين لين الطباع وحسن التعامل، وقد لاحظ ذلك أسامة بن منقذ فقال: (ومن الإفرنج قوم عاشروا المسلمين ، ففارقوا سوء طبعهم، فهم أصلح من قريبي العهد ببلادهم) (٢).

ونظراً لمخالطة المسلمين للنصارى بدأ بينهم نوع من الصداقة والألفة ، ومن الشواهد على ذلك ما روي أن أسامة بن منقذ كان له أصدقاء من النصارى يمكنونه من الصلاة في المسجد الأقصى ، ويمنعون أحداً من إزعاجه ، وذلك عندما كان المسجد الأقصى تحت سيطرة النصارى (٣). وقد جرت مسابقات وألعاب بين المسلمين والفرنج في بعض الأحيان على سبيل الترفيه (٤).

والإسلام لا يمنع من وقوع مثل هذا البرِّ والتلاطف والتعامل الحسن بين المسلمين وغير المسلمين ، وقد جاء التصريح بإباحة ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ حُبُّ الْمُقْسِطِينَ) (٥).

قال الطبري في تفسير هذه الآية: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين - من جميع أصناف الملل والأديان - أن تبرؤهم ، وتصلوهم ، وتقسطوا إليهم ، فالله يحب المنصفين الذين يُنصفون الناس ، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم ، فيبرؤن من برهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم) (٦).

(١) انظر: كتاب الاعتبار - ١٥٩ - ١٦٠

(٢) انظر: المصدر السابق - ١٥٩

(٣) انظر: المصدر السابق - ١٥٣ - ١٥٤

(٤) انظر: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٦٩ - ١٧٠

(٥) آية ٨ - سورة الممتحنة

(٦) تفسير الطبري - ٥٧٣/٢٢

وقال الشوكاني: (إن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل)^(١).

واستطاع المسلمون أن يغيّروا نظرة غير المسلمين الحاقدة والعدائية إلى الإسلام والمسلمين ، وأن يستبدلوا بها نظرة إعجاب واحترام وتقدير لتعاليم الدين الإسلامي وعدل المسلمين وتسامحهم وأخلاقهم الرفيعة ، بل ودفعت عدداً كبيراً منهم إلى تفضيل الحياة في ظل الحكم الإسلامي.

ويؤكد ذلك ما نقله توماس آرنولد عن بعض الكتّاب الغربيين ، كقول أحدهم: (..ومن المؤكّد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين...)^(٢).

وقول آخر: (... ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين رحّبوا بالسيادة الجدد ، واطمأنوا إليهم ، ورضوا بحكمهم)^(٣).

ولم يكن عامة الصليبيين هم الذين تغيّرت نظرهم للإسلام والمسلمين فحسب، بل تغيّرت نظرة علماء اللاهوت المسيحي أيضاً ، وذلك نتيجة اختلاطهم بالمسلمين ، فكوّنوا رأياً أكثر إنصافاً عن الإسلام^(٤).

إن تغيّر نظرة الصليبيين إلى المسلمين وإعجابهم بهم وتقديرهم لهم ما هو إلا نتيجة الجهود الدعوية العظيمة التي بذلها الدعاة في العصر الأيوبي .

(١) فتح القدير - ٢١٢/٨

(٢) الدعوة إلى الإسلام - ١١٦

(٣) المصدر السابق - ١١٦

(٤) المصدر السابق - ١١٠

المطلب الرابع: وحدة العالم الإسلامي

لا ريب أن ما شهدته العالم الإسلامي قبيل زمن الدولة الأيوبية أمرٌ لافتٌ للنظر بالنسبة إلى تفرّقه دولاً وأشتاتاً ، ومن هنا فإن الأيوبيين سَعوا إلى إيجاد وحدة حقيقة لأرجاء واسعة من العالم الإسلامي ؛ إدراكاً لأهمية هذه الوحدة في تقوية الدولة ، كما بذلوا جهودهم في إلغاء مظاهر الضعف التي كانت تعصف بأجزائها .

وقد امتدّ حكم الأيوبيين بفضل الله تعالى ليشمل مصر ، والنوبة ، والسودان ، وبلاد الشام ، وبعض مدن الجزيرة الفراتية كالرّها ، ونصيبين ، وسنجار ، وآمد ، وكيفا وميافارقين^(١) ، وقد فصلّت في الحديث عن ذلك في التمهيد.

إن الوحدة التي شهدها العالم الإسلامي وقت الحكم الأيوبي وحدة تميّزت في تاريخ الأمة الإسلامية ، وقد استثمر الملوك الأيوبيون هذه الوحدة في نشر مذهب أهل السنة ، والوقوف أمام الغزو الصليبي ، وإشاعة جوّ من الأمن في ربوعه ، كما كان لهذه الوحدة أثر كبير في التخفيف من الفتن والثورات التي كانت معهودة في العصور السابقة.

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ١٠ ، وانظر: ص ٢٠

المطلب الخامس: انحسار المدّ الصليبي

انتهزت القوى الصليبية المدعومة من أوروبا حال العالم الإسلامي المتفكك ، فأرسلت الحملات تلو الحملات للسيطرة على الأماكن المقدّسة ، والقضاء على أية صحوة يمكن أن يشهدها المسلمون ، وكان ثمة تفهقر واضح في الصف الإسلامي لمواجهة الزحف الصليبي العارم. ولكن الأيوبيين استطاعوا فعلياً الوقوف المباشر أمام محاولات الصليبيين ، وشهد عصرهم صراعاً طويلاً بين الجانبين ، سواء في العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه صلاح الدين ، أو في عصر أبنائه من بعده ، وإن الخسائر الكبيرة التي مُني بها الصليبيون في العهد الأيوبي كانت تجعلهم يُعيدون حساباتهم في استيلائهم على الأماكن المقدّسة وغيرها . وقد تكلفوا كثيراً من الأرواح والعدّة ، فشعروا أنهم أمام خصم شديد البأس ما كانوا يشهدونه قبل مجيء صلاح الدين وأبنائه. وقد سبق لي التفصيل في مظاهر هذا الجهاد المبارك^(١).

(١) انظر: مطلب وسيلة الجهاد في وسائل الدعوة

المطلب السادس: رعاية شؤون الحرمين

كان الحرمان الشريفان قبيل زمن الدولة الأيوبية في أيدي العبيديين وأنصارهم، كما كانت الطرق إلى الحرمين غير آمنة ، فكثُر النهب والسلب للحجاج والمعتمرين ، وكانت المكوس الباهظة تُرهقهم .

وعندما تسلّم الأيوبيون مقاليد الحرمين أصلحوا شأنهما بالخدمات المعمارية والمعاشية ، وأبطلوا المكوس على القادمين ، يقول القاضي الفاضل: (وانتشر الأمن في الطرق المؤدية إليهما)^(١)، كما تبين في ثنايا هذا البحث^(٢).

وقد عاشت المدينة المنورة فترة انتعاش في عهد صلاح الدين ، ومعظم العهد الأيوبي بعده، لا يُقلقها شيء سوى الحملة الصليبية التي هدّتها سنة ٥٧٧ هـ^(٣).

وقد أبطل صلاح الدين ما يؤخذ من الحاج بجدّة ، مما يأتي إليها عن طريق البحر ، وفي المقابل عوّض صاحب مكة كلّ سنة (٨٠٠٠) إردب قمحاً ، وأمر أن يُحمل لفقراء الحرمين مثلها^(٤)، كما عُني بإصلاح المرافق ، وحفر الآبار ، وأرسل أموالاً للقبائل المقيمة على طريق الحرمين ؛ لكي لا يتعرّضوا للحجاج^(٥) ، وألغى الحملة التي كان المؤذنون في الحرمين يضيفونها إلى الأذان الشرعي ، وهي (حي على خير العمل)^(٦).

واهتم العادل بالحرمين كاهتمام صلاح الدين ، فواصل إرسال الأموال والأعطيات ، وبخاصة بعد أن اتّسع ملكه ليشمل جميع البلاد التي كان يحكمها صلاح الدين^(٧). وقد روي أن الملك المعظم بنى في طريق الحجاز آثاراً حسنة^(٨).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٢٠-١٢١ ، حسن المحاضرة - ٢٠ ، بدائع الزهور في وقائع

الدهور - ١ / ٢٤٩

(٢) انظر: ص ٤٣٨-٤٣٩

(٣) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢ / ١٨٣

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٩٣

(٥) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢ / ١٨٢

(٦) المصدر السابق - ٢ / ١٩٥

(٧) المصدر السابق - ٢ / ١٩٤

(٨) البداية والنهاية - ١٧ / ٤٢

وقد أشار القاضي الفاضل إلى تلك الإصلاحات في أحد كتبه فقال: "من البشائر التي لا عهد لحاجّ ديار مصر بمثلها ، ولا عهد لملك من الملوك المصرية بالحصول على فخرها وأجرها: انقطاع المكّاسين^(١) عن جدة وعن بقية السواحل " ، وأشار إلى أن الحرمين الشريفين كانا مهجورين من إسعاف أهل الاقتدار ، وقال: (والمحروم من قدر فيهما على خير ، فأضاع فرصته بترك البدار)^(٢). وتحوّلت مكة والمدينة في العهد الأيوبي إلى بيئة سُنّية تزخر بالعلماء ، وبذلك يكون الأيوبيون قد عزّزوا حسناتهم ، وآثارهم الطيبة برعاية شؤون الحرمين ، وما يتّصل بهما.

(١) المكّاسون: أخذوا الضرائب.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٠

المطلب السابع: ازدهار الحركة العلمية

شهد هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً للحركة العلمية في إنشاء المدارس ، وما صاحبها من إقامة الأوقاف الغنية التي تدعم المسيرة العلمية لهذه المدارس^(١)، كما شهد وفرة في تأليف المصنّفات ، والموسوعات العلمية ؛ وذلك لكثرة علماء هذا العصر.

وكان لتقريب العلماء من الحكّام أثر كبير في هذا الازدهار ، فألوهم الكثير من العناية والاهتمام .

وكان أولئك الحكّام إلى جانب ذلك مهتمّين بالعلم ، فكانوا من طلبة العلم ومن المؤلفين، فقد شهدوا بأنفسهم مجالس العلم ، وتركوا لنا مؤلفات قيّمة ، وكان لهم مشاركات في أحداث عصرهم العلمية ، ولعل من أشهر علماء العصر أسرة المقادسة الذين عاشوا في هذا العصر ، فقد تركوا فيه موسوعات علمية مهمة ، ومن أشهر العلماء من الملوك صلاح الدين وأبناؤه كالمعظم والأفضل والظاهر وغيرهم^(٢).

ومن أرنح للحياة العلمية لهذا العصر خرج بنتائج تؤكّد كثرة العلماء ، وتعدّد المصنّفات . وبذلك حفظ لنا هذا العصر جهود المتقدّمين ؛ لأن كثيراً من كُتُب هؤلاء المتقدّمين قد ضاعت ولم تصلنا ، ولم نتعرف عليها إلا من خلال موسوعات علماء الدولة الأيوبية في كثير من العلوم والتخصصات^(٣).

وهكذا أثمرت الجهود الدعوية للدولة الأيوبية ثماراً يانعة ، فقد قدّمت للأمة الإسلامية خدمات عظيمة ، واستطاعت خلال مدّة حكمها أن تؤثّر بشكل إيجابي في المسار العقدي ، فقد بذلت جهوداً مضيئة في تصحيحه ، وملمت شتات أمة الإسلام بتوحيدها لأرجائها ، ووقفت في وجه الزحف الإفرنجي الصليبي ، وحفظت للحرمين الشريفين قداستهما ، فاعتنت بهما عناية خاصة، وأنزلت العلم والعلماء منزلة كريمة ، ولم تأل جهداً في خدمة العلم وأهله.

(١) انظر: ص ٣٢٦-٣٣٨

(٢) انظر: ص ٤١٤-٤٢٠

(٣) انظر: الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري

المبحث الثاني
عوامل نجاح الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

تحتاج الدعوة الإسلامية لتصل إلى الهدف المنشود منها إلى عدد من العوامل التي تساعد على النجاح إلى حد بعيد في مجالاتها المختلفة ، وتحقق لها التقدم ، وتمنح الدعوة القدرة على التأثير والتفاعل ، وتعينهم على عرض مبادئهم وأفكارهم في كل وسط ، وعلى كل صعيد.

وبالاطلاع على أحداث عصر الدولة الأيوبية تبين لي أن أهم العوامل التي ساهمت في نجاح الدعوة في عهد الدولة الأيوبية بعد توفيق الله تعالى تتركز في الأمور التالية:

١ - صدق اللجوء إلى الله تعالى والإخلاص له وشكره على الفتح

٢ - اهتمام الملوك والعلماء بالعلم

٣ - الإصلاحات

٤ - تعيين الولاة

٥ - حرص الملوك والعلماء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٦ - صلاح البطانة

٧ - الأخذ بأسباب القوة والحنكة العسكرية

٨ - الشورى

٩ - علو همة الداعية

وسأتحدث عن هذه العوامل بالتفصيل في المبحث التالي.

المطلب الأول: صدق اللجوء إلى الله تعالى وشكره على الفتح

إن الاستعانة بالله تعالى ، والتوكل عليه سبحانه ، وشكره تعالى على نعمه من أهم ما ينبغي للداعية التركيز عليه ، وعدم إغفاله ، وماذاك إلا للأسرار العظيمة التي تكمن في هذه العبادات العظيمة ، فإلخسارة من لا يستعين بربه سبحانه ، ولا يلجأ إليه في الملمات والشدائد ، ولا يشكره تعالى على عطاياه وهباته ، فمثل هذا من أين يستلهم النصر ، وينتظر الفرج؟

والداعية في استعانتها بالله تعالى ولجوءه الدائم له ممتثل لأوامر الله تعالى ، مقتدٍ بالرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ مِّمَّا وَهَبُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)^(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وعدتهم ، ونظر إلى أصحابه تيفاً على ثلاثئة ، فاستقبل القبلة ، فجعل يدعو ، ويقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه ، وأخذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فوضع رداءه عليه ، ثم التزمه من ورائه ثم قال: كفاك يا نبي الله بأبي وأمي مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك) ، فأنزل الله: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ) ((^(٢)).

ولقد ضرب الدعاة الأيوبيون أروع الأمثلة في الاستعانة بالله ، واللجوء إليه في الشدائد والمحن ، وشكره تعالى على مامنٍ عليهم من نصر وفتح.

(١) الآيات ١٤٦ - ١٤٧ - سورة آل عمران

(٢) آية ٩ - سورة الأنفال ، والحديث رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير ، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم،

١- أمثلة على الاستعانة بالله واللجوء إليه في الملمات والشدائد:

كان السلطان صلاح الدين يقصد دائماً بوقعاته الجُمع ، ولاسيما أوقات صلاة الجمعة ؛ تَبَرُّكاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فرمما كانت أقرب إلى الإجابة^(١).

ويصف المؤرِّخ أبو شامة السلطان صلاح الدين في معركة حطين: (والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله ، فهو يمضي بنفسه على الصفوف ، ويحضُّهم ويعدُّهم من الله بنصره المؤلف ، ويُعزِّي المؤمنين بالألوف ، وهم بمشاهدته إِيَّاهم يجيدون ويجذُّون ، وَيَصُدُّون العدو وَيُرْدُّون)^(٢).

أمَّا العماد فيصِفُ ذلك المشهد في كتابه البرق الشامي: (وهذا مكثُرٌ للتكبير ومنتظرٌ للتكبير، وهذا ناجٍ للسعادة ، وهذا راجٍ للشهادة ، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله ، فهو يمضي بنفسه على الصفوف ، ويحضُّهم ويعدُّهم من الله بنصره المؤلف)^(٣).

وفي حصار عكا عبَّ السلطان ميمنته وميسرته ، وطلب من الله نُصرتَه ، وهو يمرُّ بالصفوف ، ويأمر بالوقوف ، ويحضُّ على حظِّ الأبد ، ويحث على الجِلاذ والجَلَد^(٤).

وكان السلطان رحمه الله يلجأ إلى الله ، ويستخيره جلَّ وعز عندما يحزبه أمرٌ ما ويشغله . ومن ذلك ما حدث له عندما تشاور مع أصحابه قبل الوصول إلى عسقلان ، فانتهوا إلى أن المصلحة في خرابها خشية أن يستولي عليها الإفرنج وهي عامرة ، فيقتلوا مَنْ بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا بها طريق مصر ، وخشي السلطان من ذلك ، وعَلِمَ عَجَزَ المسلمين عن حفظها ، فلما أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيداً منها ، فبات هناك مهموماً بسبب الخراب، وما نام إلا قليلاً. يقول صاحب "النوادر السلطانية": (ولقد دعاني في خدمته سحراً، وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت ، وبدأ الحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل ، وشاوره في ذلك ، وطال الحديث في المعنى. ولقد قال لي: "والله لأنَّ أفقد أولادي بأسرهم أحب إليَّ من أن أهدم منها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله ذلك وعيَّنه لحفظ

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٩٣

(٢) المصدر السابق - ٣ / ٢٨٢

(٣) المصدر السابق - ٣ / ٢٨١ - ٢٨٢

(٤) المصدر السابق - ٤ / ٩٥

مصلحة المسلمين كيف أصنع؟" ثم استخار الله تعالى ، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها^(١).

وثمة موقفٌ عظيمٌ يحكيه لنا ابن شداد في "نادره" يُظهر لنا بجلاء استعانة صلاح الدين بالله دائماً ، ولجوءه إليه عندما تدلهمُ الشدائد ، وتتكاثر الهموم ، يقول ابن شداد: كان الفرنج -خَذَلهم الله- نازلين بموضعٍ قريبٍ من القدس الشريف ، وكان السلطان صلاح الدين بالقدس ، وقد سَيَّر الجواسيس على العدو ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ، ومحاصرته ، وتركيب القنابل عليه ، فاشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وشاورهم ، فَأَتَوْا بمحاملةٍ باطنها غير ظاهرها ، وأصرَّ الجميعُ على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فإنها مخاطرة بالإسلام ، وذكروا أنهم يقصدونهم ، ويخرج هو بطائفة من العسكر يكون حول العدو يمنع ميرتهم ويُضيق عليهم ، ويكونون هم بصدَدِ حِفْظِ البلد ، والدفع عنها ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك، وهو مُصِرٌّ على أن يبقى بنفسه علماً منه إن لم يقيم لم يقيم أحد ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء منهم خبر أنهم لا يقيمون إلا أن يُقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم ، فعلم أن هذا إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، فضاقت صدره، وتقسم فكره ، ولقد جلسْتُ في خدمته في تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاءً ، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، فَأَخَذَنِي الإشفاق عليه، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة ، فما وصلت لبيتي ، وأخذت لبعض شأني إلا وأدَّان المؤذن ، وطلع الصبح، فدخلت على السلطان ، وهو يجرُّ الماء على أطرافه ، فقال: ما أخذني النوم أصلاً ، ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا فقلت له: قد وقع لي واقع ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى ، فقال: وما هو؟ قلت: الإخلاق إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتماد في كشف الغمة عليه. فقال: وكيف نصنع؟ فقلت: اليوم جمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويُصَلِّي على العادة بالأقصى ، ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ، ويصلي ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده ، وتقول في باطنك: (إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاق إليك والاعتصام بجلالك ، والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل) ، فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك . ففعل ذلك كله ، وصَلَّيْتُ إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين ، ورأيتُه ساجداً ،

(١)النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية-١٨٦-١٨٧، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية-٢٧٨-٢٧٩

ودموعه تتقاطر على شبيبته ، ثم على سجاداته ، ولا أسمع ما يقول ، فما انقضى ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك يخبر فيها أن الفرنج متخبّطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم ، ثم جاءت رقعة ثانية تخبر أنّهم رحلوا عائدين إلى الرملة، فهذا ما شهدته من آثار إخلاده إلى الله تعالى^(١).

ومن المواقف التي تحكي صدق لجوء السلطان إلى ربه سبحانه وتعالى ما قام به عندما اشتدّ به المرض طوال شهر رمضان وشوال ، فنذر رحمه الله: أنه إن خلّصه الله من نَبوة هذه النوبة ، وأغفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية ، اشتغل بفتح بيت المقدس ، ولو يبذل الأموال والأنفس ، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله والجهاد في سبيله ، وإنجاد أهل الإسلام، وألا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وإنجاز الموعد^(٢).

واقترى جموع المسلمين بسلطانهم في صدق اللجوء إلى الله ، وطلب العون منه ، فيصف لنا ابن الأثير معنويات المسلمين في المعسكر الصلاحي أثناء إحدى المعارك: (وأما المسلمون فقد طمعوا فيهم ، وكانوا قبل يخافونهم ، فباتوا يُحرّض بعضهم بعضاً ، فأكثروا من التهليل والتكبير)^(٣).

وفي سنة ٦١٤ هـ أيام الملك العادل ، وصل الفرنج إلى الناس ، ففزعوا ، وابتهلوا إلى الله ، وكثر ضجيجهم بالجامع^(٤).

وجاء في أحد كتب القاضي الفاضل ما يدلّ على أهمية الاستعانة بالله ، واللجوء إليه في كلّ حال ، قال: "إنما أتينا من قبل نفسنا ، ولو صدقناه لعجلّ لنا عواقب صدقنا ، ولو أظعننا لما عاقبنا بعدونا ، فلا يستخصم أحدٌ إلا عمله ، ولا يلمّ إلا نفسه ، ولا يبرّج إلا ربه ، ولا ينتظر العساكر أن تكثر ، ولا الأموال أن تحضر ، ولا فلان الذي يعتقد أن يُقاتل ، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير، فكلُّ هذه مشاغل عن الله ، ليس النصر بها ، فالنصر بالله ، واللفظ منه ، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله من ذنوبنا ، فلولا أنّها تسدّ طريق دعائنا ، لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق"^(٥).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية-١٢، ٢١٧ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية-٣٠٩/٤-٣١٠

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٦٥/٢

(٣) الكامل في التاريخ - ١١ / ٥٣٤

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١٨٦

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ١٨٠

٢- أمثلة على شكر الله تعالى على ما أنعم به:

من ذلك أن السلطان صلاح الدين رحمه الله لما فتح حلب ركب ، وصعد إلى قلعتها سُمع وهو صاعد يقرأ: (قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ^(١) ، وقال: والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة ، والآن وقد تبينت أنني أملك البلاد ، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت ^(٢) .

كما قرأ رحمه الله أيضاً في هذا المقام قوله تعالى: (وَأَوْزَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا^٣ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) ^(٣) ، ثم صار إلى المقام ، فصلى ركعتين أطلال فيهما السجود ، ثم خرج ودار في جميع القلعة ، ثم عاد إلى المخيم ، وأطلق المكوس والضرائب ، وسامح بأموال عظيمة ^(٤) .

ويذكر ابن الأثير اللحظات الأخيرة من معركة حطين عمن حكى له عن الأمير الشاب الأفضل الذي كان إلى جانب والده يرقب التطورات ، قال: (كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهده ، فلما صار ملك الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملة منكراً على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بالودي ، قال: فنظرت إليه وقد علتة كآبة واربدّ لونه وأمسك لحيته، وتقدّم وهو يصيح: كذب الشيطان ، فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصدّوا التلّ ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى وعطف المسلمون عليهم ، فألحقوهم بالتلّ ، فصحت أيضاً: هزمناهم ، فالتفت إلي والدي وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي ذلك سقطت الخيمة ،

(١) آية ٢٦ - سورة آل عمران

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٦٨

(٣) آية ٢٧ - سورة الأحزاب

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٦٨

فنزّل السلطان مباشرة ، وصلى ، وسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من الفرحه ، وجدّد الاستبشار بما وجد^(١).

وفرّح الناس كثيراً بالنصر في معركة حطين ، وباتوا ليلتهم على أتم سرور وأكمل حبور ، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر لله والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح^(٢).

وكان القاضي الفاضل غائباً عن وقعة حطين ، فلما بلغته كتب رسالة إلى السلطان يصف فيها مدى فرحة الناس بالنصر ، وشكرهم العظيم لله تعالى ، وقد جاء في تلك الرسالة: (لِيَهْنِ الْمَوْلَى أَنْ اللَّهُ قَدْ أَقَامَ بِهِ الدِّينَ الْقَيِّمَ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْهِ النِّعْمَتَيْنِ: الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ ، وَأَوْرَثَهُ الْمَلِكِينَ: ملك الدنيا والآخرة ، كتب المملوك هذه الرسالة والرؤوس إلى الآن لم تُرفع من سجودها ، والدموع لم تُمسح من خدودها ، وكلّما فكّر المملوك أن البيع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة ، يقال اليوم فيه: إنه واحد ، جدّد لله شكراً ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنه)^(٣).

ولما فتح صلاح الدين بيت المقدس توجّهت جموع المجاهدين إلى الأقصى المحرّر ، ونظّفوه من مما تراكم فيه من أوساخ المحتلّين وقاذوراتهم ، وفي أول جمعة أُقيمت فيه امتلاءً الجامع ، وسالت لركة القلوب المدامع^(٤).

ولقد كان فتح السلطان لبيت المقدس فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق كثير ، ذلك أنه لما بلغ الناس ما منّ الله به على السلطان من فتوح الساحل شاع قصده للقدس ، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلّف معروف عن الحضور وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وحُطب فيه ، وصلبت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحُطّ الصليب الذي كان على قبة الصخرة، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٨٧ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ١٩٣ ،

الكامل في التاريخ - ١١ / ٥٣٦

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٩٧

(٣) المصدر السابق - ٣ / ٣٠٠

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٣٠٥

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٣٢

المطلب الثاني: الاهتمام بالعلم

العلم الشرعي هو أفضل ما اكتسبته النفوس ، وعمرت به القلوب ، وشغلت به الأوقات ؛
فيه يرفع الله أقواماً ، ويضع آخرين قال الله تعالى: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)^(١).

إنه حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، وهو الميزان الذي توزن به الرجال
والأقوال والأعمال ، وبه يتمكن العبد من تحقيق العبودية لله تعالى .

إنّ مذاكرة العلم الشرعي تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قرية ، وبذله صدقة ، ودراسته
تعديل الصيام والقيام ، فالحاجة إليه فوق كل حاجة ، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين .

وبالعلم الشرعي يعرف المؤمنون ربهم ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وبه يعرفون أمره ، ونهيته،
وحدوده ، وشرعه ، وبهذا كله يتحقق لهم خشية الله سبحانه وتعالى قال جل ذكره: (إِنَّمَا تَخْشَى

اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)^(٢) .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛
لأنه كلما كانت المعرفة له أتم ، والعلم به أكمل كانت الخشية أعظم وأكثر)^(٣).

وبالعلم يُخرج الله الناس من الظلمات ، ويحصلون على أكمل السعادات ، وأعظم المنازل قال
الله تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۗ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٤).

وقد أدرك دعاة بني أيوب - ملوكاً وعلماء - هذه الأهمية الكبيرة للعلم ، وذلك الفضل
العظيم لأهله ، فحرصوا أشد الحرص على طلبه وتعلّمه والاستزادة منه دون كللٍ أو ملل ، بهمة
عالية، وصدر رحب ، ونفسٍ تواقّة لما هو أسمى وأعلى .

(١) جزء من آية ١١ - سورة المجادلة

(٢) جزء من آية ٢٨ - سورة فاطر

(٣) تفسير ابن كثير - ٣ / ٧٢٤

(٤) آية ١٢٢ - سورة الأنعام

وتخفل كتب التاريخ التي أرّخت للدولة الأيوبية بالكثير من الأمثلة التي يلمس فيها القارئ بجلاء اهتمام كل من الملوك والعلماء بالعلم ، وتطلّعهم الدائم لتحصيله ، فكان ذلك من أهم العوامل التي ساعدت على رعاية الدعوة الإسلامية في عصرهم وتقدّمها بشكل ملحوظ .

أولاً: اهتمام ملوك بني أيوب بالعلم

١- اهتمام صلاح الدين بالعلم

ومن أبرز هؤلاء الملوك صلاح الدين ، فقد اعتنى بالعلم عناية بالغة ، وجعله من أولى اهتماماته ، وكان عنده رحمه الله علم ومعرفة ، وسمع الحديث وأسمعه^(١) . وقد رُوي أنه سمع من أبي الطاهر السلفي ، والفقير علي بن بنت أبي سعد^(٢) ، واسماعيل بن مكّي^(٣) ، ولما سار إلى الاسكندرية قال: (نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف الزهري) ، فسمع هو وأولاده الموطأ عليه^(٤) ، وجاء في بعض الروايات أنه شرع في قراءة الموطأ ثاني يوم دخوله إلى الاسكندرية^(٥) ، ودرس على الشيخ قطب الدين النيسابوري الذي كتب عقيدة الإسلام له ولأولاده^(٦) . وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ، ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد^(٧) ، فإذا سمع عن شيخ رواية عالية استحضره ، وسمع عليه ، وأسمع أولاده ومماليكه ، وإن لم يحضر الشيخ تردد هو إليه ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، وقد تردّد إلى الحافظ الأصفهاني بالاسكندرية ، وروى عنه أحاديث كثيرة^(٨) .

(١) الكامل في التاريخ - ١٢ / ٩٧

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٧٨

(٣) تاريخ الإسلام - ١٠٢ وفيات (٥٨١ - ٥٩٠هـ)

(٤) البداية والنهاية - ١٦ / ٥٥١ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٢٦٨ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

التورية والصلاحية - ٣ / ٨٩ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٩٨

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٦

(٦) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٧ ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٧٨

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٧

(٨) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٨-٩ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٢

وقد سمع من القاضي بهاء الدين بن شداد واستحضره وأكرمه وسأله عن جزء حديث ليسمع منه ، فأخرج له جزءاً فيه أذكار من البخاري ، فقرأه عليه بنفسه ، ثم جمع كتاباً مجلداً في فضائل الجهاد وأحكامه وآدابه وقدمه له ولازمه^(١).

وكان رحمه الله يحب أن يقرأ الحديث ، فإذا مرَّ بحديث فيه عِبْرَةٌ رَقَّ قلبه ودمعت عيناه^(٢)، كما واظب رحمه الله على سماع الحديث الشريف حتى بين الصفيين في المعركة^(٣) ، وذلك استجابة لنصيحة القاضي ابن شداد فقد قال له: (قد سُمع الحديث في مواطن كثيرة ، ولم يُنقل أنه سُمع بين الصفيين ، فإن رأى المولى أن يُؤثر عنه ذلك كان حسناً) ، فأذن السلطان في ذلك ، فأحضر جزءاً ، كما أحضر مَنْ له به سماع ، فقرأ عليه والعسكر على ظهور الدواب بين الصفيين يمشون تارة ويقفون تارة^(٤). وقد عيّن رحمه الله لسماع الأحاديث النبوية - بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي - ميقاتاً^(٥)، وكان يحفظ الحماسة ، ويظنّ أن كل فقيه يحفظها^(٦)، وحدث عنه يونس الفاروقي والقاضي عماد الدين الكاتب وغيرهما^(٧).

أما مجالسه رحمه الله فكانت حافلة بأهل العلم والفضل^(٨)، وقد شهد بذلك الموفق عبد اللطيف رحمه الله فقال: (أول ليلة حضرته وجدت مجلسه حفاً بأهل العلم يتذاكرون ، وهو يُحسن الاستماع والمشاركة ، ويأتي بكلّ معنى بديع)^(٩).

وقد ذكر ابن شداد أن السلطان رحمه الله كان يُلِمُّ بكل ما يدور في مجلسه من أحاديث الفقه، ويشارك فيها برأيه ، ويقول قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء^(١٠).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٣٨٥ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٣ - ٤ - ٨٦ ، كتاب الروضتين في أخبار

الدولتين النورية والصلاحية - ٩ / ٤

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٠

(٣) حسن المحاضرة - ٢١

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٩

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٧٣

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢ ، الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٧

(٨) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ٨ ، تاريخ الإسلام - ٣٥٥ وفيات (٥٨٠-٥٩٠هـ)

(٩) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢

(١٠) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٥

ولقد بلغ من اهتمام السلطان صلاح الدين بالعلم أن اهتمّ به حتى في مرضه ، فقد رُوي أنه مرض مرّة ، فكان مجلسه لا يخلو من أولي فضل وذوي نباهة ونُبل ، يتجادبون بحضرته أطرف الفوائد، فتارة أحكام شرعية ومسائل فقهية ، وآونة في صناعات شعرية وألفاظ عربية ومعانٍ أدبية ، ومرة في أحاديث الأجواد وشيم الأجواد، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد^(١).

٢-اهتمام المعظم بالعلم:

ومن الملوك الذين اهتموا بطلب العلم الملك المعظم ، فقد حفظ القرآن الكريم، وتفقه في مذهب الإمام أبي حنيفة على الشيخ جمال الدين الحصري ، وبرع فيه ، وانفرد عن بني أيوب بالمذهب الحنفي ، فإنه لم يكن فيهم حنفي غيره بل كلهم شافعية، كما لازم التاج الكندي مدة ، وكان ينزل إلى داره بدرج العجم من القلعة والكتاب تحت إبطه ، فيأخذ عنه كتاب سيبويه ، وشرحه للسيرافي ، وأخذ عنه الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ، والحماسة وغير ذلك من الكتب المطوّلة ، وقرأ مسند الإمام أحمد على حنبل بن عبد الله الرصافي ، وقرأ سيرة ابن هشام على ابن المحلي القاضي أبي محمد عبد الله بن محمد ، واعتنى بشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات بمعاونة غيره، وله كتاب في العروض ، وكان يجب كتاب سيبويه ، وطالعه مرّات ، ولما وقع على تاريخ بغداد وجد فيه مطاعن على أبي حنيفة ، فردّ عليه في كتاب سمّاه: "السهم المصيب في الردّ على الخطيب". وقد شجّع رحمه الله العامة على طلب العلم حيث جعل لمن يحفظ الإيضاح ثلاثين ديناراً سوى الخلع ، ولمن يحفظ الجامع الكبير مئتي دينار ، ولمن يحفظ المفصل للزخشرمي مئة دينار ، وقد روي أن جماعة كبيرة حفظوا كتابين ، فوقّ الملك المعظم بوعده . كان يتكلّم مع العلماء وينظر ويبحث ، وكان عالماً بعدّة علوم فاضلاً فيها ، وقد أمر رحمه الله أن يُرتّب له مسند الإمام أحمد ، وقد يفوته الوزن العروضي في كتاباته ، مع أن له تصنيفاً في العروض ، وله ديوان شعر ، وكان يجب العلماء ويكرمهم ويجتهد في متابعة الخير ، ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وكتاب

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٣٩

سيبويه^(١). وقد رُوي أنه كان له ولعٌ في الكتب ، وأسّس مكتبة نادرة^(٢). وكان رحمه الله قدوة لطلبة العلم ، فقد أنهى حِفْظَ كتابٍ في الفقه من عشرة مجلدات ، فعجب الناس منه ، وقالوا له: إن أكبر مدرّس في الشام يحفظ هذا المتن مع تفرّغه ، وأنت مع شغلك تحفظه؟ فأجاب: أسألوني عن جميع مسائلها ، فإن قصّرتُ كان الصواب معكم، وإلا فسَلّموا لي^(٣).

والداعية عندما يُعنى بمتابعة العلوم الشرعية يصبح له سمتٌ وهدْيٌ خاص مصبوغ بالتوجيهات الشرعية ، وهذه ثمرة يانعة من ثمار الدعوة ومكتسباتها.

٣-اهتمام الكامل بالعلم:

ومن الملوك المحبّين للعلم الملك الكامل حيث كان مُحِبّاً للحديث وأهله ، حريصاً على حِفْظِهِ ونَقْلِهِ ، وللعلم عنده سوق قائمة على سوق . خرّج له أبو القاسم ابن الصفرأوي أربعين حديثاً . كان معظماً للسنة ، راغباً في نشرها والتمسُّك بها ، مؤثراً للاجتماع مع العلماء^(٤)، وعنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يسأل عنها العلماء ، وكان مغرماً بسماع الأحاديث النبوية ، وقد تقدّم عنده بسببها الشيخ عمر ابن دحية ، وبنى له دار الحديث ، وكان يبيت عنده أكثر الليالي مع جماعة من أهل الفضل^(٥).

يقول عنه الذهبي في سِيَرِهِ: (كان الكامل عنده مسائل الفقه والنحو يوردها ، فمن أجاب فيها حظي عنده ، كان مُحِبّاً للحديث وأهله ، حريصاً على حفظه ونقله ، مؤثراً للاجتماع بالعلماء والكلام معهم حضراً وسفراً ، يبحث ويفهم)^(٦).

(١) انظر : تاريخ الإسلام - ٢٠٣ (وفيات سنة ٦٢٠-٦٣٠ هـ) ، ١٦٧ (وفيات ٦١٠-٦٢٠ هـ) ، ١٤٥ (وفيات ٦١١-

٦٢٠) ، الدارس في تاريخ المدارس - ١/٥٨٠-٥٨٢ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٧٦-٢٨٠

(٢) معجم البلدان - ٢ / ٢٧٠

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٧٧

(٤) تاريخ الإسلام - ٢٥٥ (وفيات ٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٠٠

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٧-١٢٩

ويحكى لنا ابن النجار عن اهتمام الكامل بالعلم فيقول: (لما دخلت مصر طلبني السلطان - يعني الكامل - فحضرت عنده ، وكان يسألني عن أشياء من الحديث ، وأيام الناس ، وأمرني بملازمة القلعة ، فكنت أحضر فيها كل يوم) ^(١).

٤- اهتمام الأفضل بالعلم:

ومن اهتم بالعلم أيضا من الملوك الأفضل ، فقد روي أنه كان ذا فضيلة ومعرفة وكتابة ونباهة ^(٢)، وقد اهتم بتجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية ^(٣). سمع رحمه الله من أبي الطاهر بن عوف وعبد الله بن برّي النحوي والفضل بن البانياسي ، وأجاز له جماعة ، وحدث ^(٤).

٥- اهتمام المظفر بالعلم:

ومن المهتمين بضرب من العلوم الفلكية عَلَم من الملوك هو الملك المظفر ، فقد روي أنه استخدم الشيخ علم الدين قيصر ، وكان مهندساً في العلوم ، فبنى له أبراجاً بحمأة ، وطاحوناً على نهر العاصي ، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصدة ، وكان المظفر يحضر وهو يرسمها ، ويسأل عن مواضع دقيقة منها ^(٥).

٦- اهتمام المحسن بالعلم:

أما الملك المحسن فقد روي أنه سمع تاريخ بغداد من الحافظ عز الدين محمد بن عبد الغني ^(٦)، الغني ^(٦)، وسمع الحديث بدمشق من صدقة الحرّاني وحنبل وابن طبرزد ، وبمصر من البوصيري ، وبمكة من الحصري ، وببغداد من الداھري ^(٧)، وروى عن يحيى الثقفي وابن صدقة ، وكتب الكثير وقرأ ^(٨).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ١٣٣

(٢) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٢٠

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٢٥٥

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٧ ، تاريخ الإسلام - ١٢٣ (وفيات ٦٢٠ - ٦٣٠)

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٤٠٦

(٦) تاريخ الإسلام - ١٦٧ (وفيات ٦١٠ - ٦٢٠ هـ)

(٧) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٦٨

٧-اهتمام الظاهر بالعلم:

والمملك الظاهر من المهتمين بالعلم أيضاً ، فقد سمع من الفقيه أبي الطاهر بن عوف في الاسكندرية ، ومن ابن برّي النحوي في مصر ، ومن الفضل البانياسي في دمشق، وحدّث بجلب^(٢)، وقد روي أنه اشترى كتاب "صورة الأقاليم" للبلخي^(٣).

٨-اهتمام المنصور بالعلم:

ومن الملوك الذين اعتنوا بالعلم ، وألّوه عناية بالغة الملك المنصور ، فقد كان في خدمته مئتا فقيه ونحوي ومهندس ، وألّف تاريخاً كبيراً في مجلدات ، وألّف "طبقات الشعراء" ، وكتاب "مضمار الحقائق" نحو عشرين مجلدة ، وجمع في خزانته من الكتب ما لا مزيد عليه ، وكان كثير البحث والمطالعة ، وله ديوان شعر ، ولقد ورد عليه أبو الحسن علي بن الآمدي فبنى له مدرسة ، وواظب على حضور مجلسه^(٤).

٩-اهتمام المؤيد بالعلم:

يذكر صاحب "شفاء القلوب" عن الملك الأيوبي المؤيد أنّ لديه علوماً متنوّعة من فقه وطبّ وأدب ، وله كتاب "تقويم البلدان" و "المختصر في أخبار البشر" ، ونظم كتاب "الحادي" فأجاده ، وله موشّحات^(٥).

١٠-اهتمام الأعز بالعلم:

ومن المهتمين بالعلم الملك الأعزّ بن صلاح الدين ، فقد سمع من ابن برّي ، وأجاز له جماعة، وحدّث بعرفة ودمشق^(٦).

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ١٨

(٢) تاريخ الإسلام - ١٥٨ (وفيات ٦١١ - ٦٢٠) ، سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٦ - ٢٩٧

(٣) معجم البلدان - ٦ / ١٤٦ ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة - ٤١٤

(٤) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٤٦ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٤ / ٧٨

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٤٦٢

(٦) تاريخ الإسلام - ٣٠٠ (وفيات ٦٢٠ - ٦٣٠)

١١- اهتمام العزيز بالعلم:

وتحدّث الذهبي عن الملك العزيز في سيره ، وذكر أنه حدّث عن أبي طاهر السلفي وابن عوف^(١).

١٢- اهتمام توران شاه بالعلم:

ومن المهتمين بالعلم الأمير توران شاه بن الناصر صلاح الدين ، فقد سمع الحديث بدمشق من محيي الدين بن الثقفى ، وأجازه ابن البري ، وانتقى له الديمياطي^(٢).

١٣- اهتمام المعظم بن العادل بالعلم:

ومن المبرزين في هذا المجال الملك المعظم ابن الملك العادل ، فقد قصده الفقهاء فأكرمهم وأعطاهم ، ولم يُسمع منه كلمة نزقة ، وتردّد مدّة في الفقه إلى الحصري حتى تأهل للفتيا^(٣).

ثانياً: اهتمام العلماء بالعلم

لم يقتصر الاهتمام بالعلم وطلب الاستزادة منه في عهد الدولة الأيوبية على الملوك فحسب، بل كان هذ المطلب السامي من أبرز ما تطلع إليه علماء هذا العصر وطلبة العلم ، ومن أبرز العلماء الذين اهتموا بتعزيز المسيرة العلمية في هذا العصر:

١- القاضي الفاضل:

فمن أبرز علماء هذا العصر القاضي الفاضل ، حيث كان له ولع بالكتابة وتحصيل الكتب، وكان قليل النحو ، لكن له دربة قوية توجب قلة اللحن ، كتب في الإنشاء ما لم يكتبه أحد ، نُقل

(١) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٢

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٦٩

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ١٢٠

عنه أنه قال: (إن مسودّات رسائله في المجلّدات والتعليقات في الأوراق إذا اجتمعت ما تقصر عن مئة مجلّدة) ، قيل: إن كتبه التي ملكها تكون مئة ألف مجلّدة ، وله نظم كثير^(١).
ولقد حذا ابنه القاضي الأشرف بهاء الدين أحمد حذوّه ، فقد رُوي أنه كان مثابراً على سماع الحديث وتحصيل الكتب^(٢).

٢- الإمام النووي:

أما الإمام النووي فقد ضُربَ به المثلُ في انكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً ، وهجره النوم إلا عن غلبة ، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو التردّد على شيوخ ، حتى إنه كان في ذهابه وإيابه في الطريق يشتغل في تكرار محفوظه^(٣).

٣- التاج الكندي :

ومن العلماء المهتمين بطلب العلم التاج الكندي المقرئ النحوي الأديب ، كان أوحد عصره في فنون الآداب ، وعلوّ الآداب ، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه ، وكان قد لقي جلة المشايخ ، وأخذ عنهم ، وسافر إلى الديار المصرية ، واقتنى من كتب خزائنها كل نفيس ، وعاد إلى دمشق ، واستوطنها ، وقصده الناس ، وأخذوا عنه ، وله كتاب مشيخة على حروف المعجم^(٤).

٤- الحوراني :

ومن العلماء البارزين الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المقرئ التاجر، قرأ بالروايات ، وسمع الحديث ، ورحل إلى بغداد ، وسمع بها من أبي القاسم بن حصين ، وكان يصلّي بجامع دمشق بحلقة الحنابلة صلاة التراويح ، ويقرأ فيها بعدة روايات يخلطها ، ويردّد الحرف المختلف فيه، فأُنكر ذلك عليه ، وقالوا : هذا مذهب ترتيب النظم في القرآن الكريم^(٥).

(١) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٩٢

(٢) وفيات الأعيان - ٣ / ١٦٣

(٣) المجموع - ٣٠

(٤) وفيات الأعيان - ٣ / ٣٣٩ - ٣٤٠

(٥) الدارس في تاريخ المدارس - ٢ / ١١٤

٥- ابن عساكر:

وابن عساكر من العلماء البارزين الذين لهم باع طويل في الاهتمام بالعلم ، فقد ذكر صاحب السير أنه لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف ، حتى في نزاهة وخلواته ، وكان يحاسب نفسه على كل لحظة تذهب في غير طاعة^(١).

٦- القاسم بهاء الدين :

ومن العلماء أيضاً القاسم بهاء الدين أبو محمد ، الذي عمل كتاب الجهاد ، وسمعه منه السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٦هـ^(٢).

٧- الجماعيلي:

ومن الفضلاء المهتمين بالعلم أيضاً عماد الدين المقدسي الجماعيلي، الذي حفظ القرآن ، وكان عالماً بالقراءات والنحو والفرائض ، وقرأ بالروايات وأقرأ بها ، وصنّف "الفروق في المسائل الفقهية" ، وكتاباً في الأحكام لكنه لم يتمّه ، حيث لم يكن يتفرغ للتصنيف من كثرة اشتغاله وإشغاله^(٣).

٨-المزيد من العلماء:

ومنهم أيضاً سبط ابن الجوزي فقد روي أنه كان رحمه الله مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف ، مصنفاً لأهل العلم والفضل ، مبايناً لأهل الخزية والجهل^(٤).
وكذلك ابن أبي عصرون الذي كان من علماء الدولة^(٥). أما صدر الدين محمد بن عبّاد الخلاطي ، فقد كان إماماً عالماً بالفقه ، تفقّه على جمال الدين الحصري ، ودرس بالمدرسة السيوفية،

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٥٥٦

(٢) المصدر السابق - ٢١ / ٤١١

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٤٩ - ٥١

(٤) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٤٧٧

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ١٢٥

من مؤلفاته: تلخيص الجامع الكبير في الفقه^(١). ومنهم حسام الدين محمد الإخسيكتي ، كان إماماً في الفروع والأصول ، تفقه على محمد بن محمد العيدي وهو أستاذه ، له مؤلفات منها: "المنتخب الحسامي" ، وهو مختصر مشهور في أصول الفقه^(٢).

ومن علماء هذا العصر العالم القدوة سيّد القراء القاسم الرّعيني الشاطبي ، كان يتوقّد ذكاءً ، وله الباع الطويل في فنّ القراءات والرّسم والنحو والفقه والحديث ، وله النظم الرائق ، سمع من السّلفي ، وكان نزيل القاضي الفاضل ، فرّبته بمدرسه لإقراء القرآن ، ولإقراء النحو واللغة ، وقد انتهت إليه رياضة الإقراء ، وقد جاء عنه: "لا يقرأ قصيدي هذه إلا ينفعه الله بها ؛ لأنني نظمتها لله" ، وكان إذا قرئ عليه "الموطأ" ، و(الصحيحان) ، يُصحّح النسخ من حفظه ، وكان يتجنّب فضول الكلام ، ولا ينطق إلا لضرورة ، ولا يجلس للإقراء إلا على طهارة^(٣).

وفي العصر الأيوبي قام عدد من العلماء بمشروع علمي ضخم ، وهو ترتيب مسند الإمام أحمد ، ففي سنة ٦٢٣هـ أحضر البكريّ المحتسب الجمال بن الحافظ والشرف الإربلي والبرازيلي ، وقرّر معهم أن يرتّبوا مسند أحمد على الأبواب ، وقرّر للجمال في الشهر خمسين درهماً ، وللآخرين ستين درهماً ، وبذل لهم الورق ، وأجرة النساخ^(٤).

اهتمام العلماء بالمذاهب الأربعة

ولقد تميز عهد الدولة الأيوبية باهتمام العلماء بالمذاهب الفقهية الأربعة ، فنجد بروز كثير من العلماء في كلٍ منها .

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ١٩٨

(٢) المصدر السابق - ١٩٨

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٦١-٢٦٤

(٤) تاريخ الإسلام - ٢٣ (وفيات ٦٢٠ - ٦٣٠هـ)

١ - من علماء المذهب الحنفي :

مجد الدين محمد بن محمود الأستروشنى ، فقد كان من الفقهاء المتقدمين في عصره، ومن المجتهدين ، درس على أبيه وعلى ابن الشهيد السمرقندي ، له مؤلفات منها: "جامع أحكام الصغار" و "الفصول"^(١).

ومنهم أيضاً جمال الدين محمود بن أحمد الحصري ، انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه ، ولد في بخارى ، وتفقه فيها على الحسن بن منصور قاضيخان ، عاش بالشام ودرس بالمدرسة النورية بدمشق، وتولى الإفتاء ، وتفقه عليه الملك المعظم عيسى ويوسف سبط ابن الجوزي ، من مؤلفاته: "التحرير في شرح الجامع الكبير" و "الوجيز في فقه الحنفية"^(٢).

٢ - من علماء المذهب المالكي:

جمال الدين بن الحاجب عثمان بن عمر ، فقيه مالكي من كبار العلماء بالعربية ، درس بزاوية المالكية في جامع دمشق ، وذاع صيته بها حتى قال عنه شهاب الدين بن أبي شامة: (كان ابن الحاجب ركناً من أركان الدين في العلم والعمل ، بارعاً في العلوم الأصولية ، مُتقناً لمذهب الإمام مالك بن أنس ، ثقة حجة ، مصنفاً للعلم وأهله، ناشراً له) ، من مؤلفاته: "منتهى السؤل في علمي الأصول والجدل" ، و"مختصر منتهى السؤل والأمل" ، وقد لاقت كتبه القبول التام لجزالتها وحسنها^(٣).

ومنهم أيضاً نجم الدين عبد الله بن محمد بن شاس الجذامي السعدي ، عمدة محقق أخذ عن أئمة ، وحدث عنه الحافظ زكي الدين المنذري ، درس بالمدينة المجاورة للجامع العتيق بمصر ، من مؤلفاته: "الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة"^(٤).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ١٩٧

(٢) المصدر السابق - ١٩٧ - ١٩٨

(٣) المصدر السابق - ٢١٥ - ٢١٦

(٤) المصدر السابق - ٢١٥

٣ - من علماء المذهب الشافعي:

عماد الدين محمد بن يونس الموصللي ، نشأ بالموصل ، وتفقه ببغداد ، وولي القضاء بالموصل ، وكان له صلة كبيرة في دولة الأمير نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وكان يستشيريه ويستفتيه ، وصنف له رسالة في علم الكلام ، ولم يزل معه حتى انتقل من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي ، ولم يكن في بيت الملك أمير شافعي سواه ، وقد أوكلت إليه الخطابة في الجامع المجاهدي مع التدريس في المدرسة النورية والعزية والزينية والبغشية والعلانية ، وقد كان إمام عصره ، وانتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي ، وكان ورعاً نظاراً أصولياً فقيهاً ، من مؤلفاته: "اختصار المحصول في أصول الفقه" (١).

ومن علماء هذا المذهب سيف الدين علي بن أحمد الآمدي الفقيه الأصولي الحنبلي ثم الشافعي ، تفنن في علوم النظر والكلام والحكمة وأصول الفقه وأصول الدين ، قال عنه سبط ابن الجوزي: (لم يكن في زمانه من يُجاريه في الأصولين وعلم الكلام) ، وقد تنقل بين آمد وبغداد والديار المصرية والشام ، من مؤلفاته: "منتهى السؤل في علم الأصول" (٢).

ومن العلماء أيضاً عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني ، الذي تفقه على والده وغيره من العلماء حتى صار إماماً في الفقه والتفسير والحديث والأصول وسائر العلوم النقلية والعقلية ، كان طاهر اللسان كثير الأدب ، من مؤلفاته: "شرح المسند للإمام الشافعي" و"المحمود في الفقه" (٣).

ومن علماء المذهب الشافعي البارزين شهاب الدين أبو شامة ، مؤرخ محدث باحث ، ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق ، قال عنه الغزاري: (بلغ شهاب الدين درجة الاجتهاد ، والحق أنه لم يكن في وقته مثله مكانة وديانة وعفة ، وكان متواضعاً) ، من مؤلفاته: "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" و"شرح الشاطبية" (٤).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٢٣١

(٢) المصدر السابق - ٢٣٢

(٣) المصدر السابق - ٢٣١ - ٢٣٢

(٤) المصدر السابق - ٢٣٤

٤ - من علماء المذهب الحنبلي:

نصير الدين محمد بن عبد الله السامري ، برع في الفقه والفرائض ، وولي القضاء بسامراء وأعمالها مدة ، ثم ولي القضاء والحسبة في بغداد ، من مؤلفاته: "البستان في الفرائض" و "الفروق في الفقه"^(١).

ومن علماء هذا المذهب البارزين موفق الدين محمد بن قدامة المقدسي ، فقيه من أكابر الحنابلة ، مجتهد ، كان ثقة حجة في المذهب الحنبلي ، برع وتبحر في فنون كثيرة ، ومجلسه معمور بالفقهاء والمحدثين . من مؤلفاته: "الروضة في أصول الفقه" ، و"ذمّ الوسواس" ، و"المغني" ، و"المقنع" وغيرها^(٢).

ومن العلماء أيضاً مجد الدين عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية الحرّاني ، فقيه أصولي محدث مفسر ، صنّف ودرّس ، وكان أعرف أهل زمانه بالمذهب الحنبلي ، من مؤلفاته: "الأحكام الكبرى في الفقه" و "المنتقى في أحاديث الأحكام" وغيرها^(٣).

ثالثاً: اهتمام النساء بالعلم

ولم يكن طلب العلم في عهد الدولة الأيوبية مقصوراً على الرجال فحسب ، بل طلبت المرأة العلم أيضاً ، وغدّت من العالمات الفقيهاً في عصرها . من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:
- الشيخة أم عبد الكريم فاطمة بنت سعد الخير الأنصاري ، درست على يد كثير من العلماء ، وتزوجت الداعية المشهور زين الدين علي بن نجا الواعظ الموصوف بالدهاء ، وحنكة الرأي . ولقد شاركت الشيخة فاطمة زوجها في مسيرته الدعوية ، وتنقلت معه في كل من دمشق ومصر ، فقد ألفت الدروس والمواعظ ، وحدث عنها عدد كبير من العلماء ، وأجازت الحافظ المنذري ، وأحمد بن الخير سلامة شيخ الذهبي^(٤).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٢٥٩

(٢) المصدر السابق - ٢٦٠

(٣) المصدر السابق - ٢٦١

(٤) سير أعلام النبلاء - ٤١٢ - ٤١٣

-ومثلها الشيخة الصالحة المسندة عفيفة بنت أحمد الفارفانية ، درست على جماعة كبيرة من العلماء ، وحصلت على إجازات عالية من أصبهان وبغداد حتى وصل عدد الشيوخ الذين درست عليهم أكثر من خمسمئة شيخ ، ثم جلست للتدريس ، وخرّجت كبار العلماء^(١).

-ومنهن الشيخة عائشة بنت الحافظ معمر بن الفاخر القرشية التي درست على كثير من العلماء ، وحين أكملت دراستها جلست للتدريس ، ودرس عليها الكثير من مشاهير العلماء وأجازتهم^(٢).

-ومنهن كريمة بنت المحدث العدل أبي محمد عبد الوهاب بن عليّ بن الخضر أم الفضل القرشية الأسدية ، شيخة صالحة مسندة الشام ، سمعت من عدد من العلماء ، كانت امرأة صالحة جليلة طويلة الروح على الطلبة لا تملّ الرواية^(٣).

-ومنهن أيضاً عائشة بنت المجد عيسى بن العلامة موفق الدين بن قدامة أم محمد المقدسية الصالحة العفيفة ، سمعت من جدّها وغيره^(٤).

رابعاً: اهتمام الملوك بالعلماء

ومن أهم العوامل المساعدة على نجاح الدعوة ، والإسهام في وصولها إلى الهدف المنشود منها: اهتمام الملوك بالعلماء واحترامهم وتقديرهم ، ووضعهم في المكان اللائق بهم ؛ لأن ذلك سيؤدّي إلى اهتمام العامة بهؤلاء العلماء ، فينشأ أبناء الأمة الإسلامية على احترامهم وتقديرهم ، وبالتالي الاهتمام باتباعهم ، وتطبيق ما يدعون إليه من أحكام وآداب شرعية ، فيحقق الداعية ما يصبو إليه بإذن الله تعالى من نتائج مرضية ، ويؤثّر بشكل مباشر في تقدّم الأمة الإسلامية في المجالات كافة.

وقد أدرك ملوك بني أيوب ذلك ، واهتموا بالعلماء اهتماماً بالغاً ، ومنحهم كل تقدير واحترام وتوقير.

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٣١٢

(٢) سير أعلام النبلاء - ٤٩٩ - ٥٠٠

(٣) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري - ٢٧٨

(٤) المصدر السابق - ٢٧٨ - ٢٧٩

فقد رُوي أن سبط ابن الجوزي حَظي عند ملوك بني أيوب ، وقدموه ، وأحسنوا إليه^(١) ، كما روي أن الملوك وأرباب الدولة كانوا يأتون إليه زائرين وقاصدين ، وقد رُي رحمة الله في طول زمانه في جاهٍ عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة^(٢) .

كما رُوي عن صلاح الدين أنه كان ينتقي أمثال العلماء ليكون قريباً منهم ، وقد أَلحَّ على القاضي ابن شداد-وهو ابن الموصل- ليكون معه^(٣) ، كما يذكر صاحب السير أن صلاح الدين كان محباً للفقهاء وأهل الخير محسناً لهم^(٤) ، وكان يحترم ابن الركي قاضي دمشق^(٥) . ومن شدة اهتمامه رحمه الله بالعلماء كان يحمل معه في الغزو الفقهاء ، وقد أُسر الفقيه عيسى الهكاري وأخوه الظهير في وقعة الرملة ، وافتداه السلطان بعد سنتين بستين ألف دينار^(٦) .

وكان ابن نجية معظماً عند صلاح الدين ، وكان صلاح الدين يكاتبه ، ويحضر مجالسه ، وكذلك ولده العزيز من بعده^(٧) . كما كان ابن الصلاح أيضاً معظماً عند السلطان^(٨) .

أما الملك العادل فقد اعتنى بالعلماء ، وأنزلهم المنزلة اللائقة بهم ، من ذلك ما روي عن عنايته البالغة بالشيخ جمال الدين بن الحرستاني بحيث جهّز له ما يُفرش تحته ، وما يستند عليه في مجلس الحكم لضعفه وكبره^(٩) . أما الملك الأفضل فقد روي أنه كان يحبّ العلماء ويعظّم حرمتهم^(١٠) .

(١) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد - ١ / ١٣٣

(٢) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٤٧٧

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٤

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ١١٣

(٥) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٣٥٨

(٦) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٩٤

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٣٩٤

(٨) المصدر السابق - ٢٣ / ١٤٠

(٩) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٣٨٩

(١٠) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٢٠

ومثله الملك الظاهر الذي قيل فيه إنه كان محباً للعلماء^(١)، وكانت دولته معمورة بالعلماء ، وكان يزور الصالحين ويتفقدهم ، كما أحسن إلى طلبة الحديث كثيراً^(٢) .
ومن الملوك الذين اهتموا بالعلماء الملك المنصور ، فقد ذكر الذهبي عنه أنه كان محباً للعلماء ، يقرّبهم ويُعطيهم ، وكان في خدمته ما يناهز مئتي معمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والكتّبة^(٣) .
أما الملك المظفر فيُروى أنه كان يحب أهل العلوم^(٤) ، ومثله الملك الكامل ، ويروى أنه كان يحب العلماء^(٥) ، ومن اهتمامه واحترامه لأهل العلم أنه كان يُنزل العلماء منازلهم ، فقد رُوي أنّ أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه كانوا أكابر دولته^(٦) ، كما كان رحمه الله يفتخر بخطيب الاسكندرية وقاضيها ، ويعتقد بركته^(٧) .

خامساً: اهتمام الدولة الأيوبية بالأطباء

اهتمت الدولة الأيوبية بالطب والأطباء ، ومن أشهر الأطباء الذين اعتنت بهم الدولة الأيوبية يوسف الرحبي ، والذي أقبل على معالجة المرضى ، وقرر له الملك صلاح الدين ثلاثين ديناراً على القلعة والبيمارستان ، ولم يزل مُبجلاً في الدولة^(٨) .

ومن الأطباء البارزين حكيم الزمان عبد المنعم بن عمر الغساني الأندلسي الجلياني ، والذي كان علامة زمانه في صناعة الطب والكحل وأعمالهما ، وصناعة الكيمياء ، بارعاً في الأدب وصناعة الشعر ، وعمل المديجات ، أتى من الأندلس إلى الشام ، وأقام بدمشق إلى حين وفاته ، وكانت له دكان في اللبّادين لصناعة الطب ، وكان صلاح الدين يحترمه ، وكان له منه الإحسان

(١) وفيات الأعيان - ٤ / ٦

(٢) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٦-٢٩٧ ، ٢٣ / ١٨

(٣) المصدر السابق - ٢٢ / ١٤٦ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٣٨

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٤٠٦

(٥) المصدر السابق - ٣٠٠

(٦) المصدر السابق - ٣٠١

(٧) سير أعلام النبلاء - ٢٣ / ٢٧٣

(٨) المصدر السابق - ٢٢ / ٣٧١

الكثير والإنعام الوافر ، وله في صلاح الدين مدائح كثيرة ، وصنف له كتباً. وقد خلّف ولده عبد المؤمن بن عبد المنعم ، وكان كحّالاً ، ويشعر أيضاً ، ويعمل مديحات ، وقد خدم بصناعة الكحل الملك الأشرف أبا الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب^(١) .

ومن الأطباء الذين اعتني بهم في ظل هذه الدولة مهذب الدين بن النقاش ، الذي ولد ونشأ ببغداد ، وكان عالماً بعلم العربية والأدب ويتكلم الفارسية ، وقد خدم بصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك دمشق ، وحظي عنده^(٢) .

ومنهم أيضاً أبو زكريا يحيى الأندلسي البياسي ، من الفضلاء المشهورين ، والعلماء المذكورين ، أتقن الصناعة الطبية ، وتميز في العلوم الرياضية ، وقد وصل من المغرب إلى ديار مصر ، وأقام بالقاهرة مدة ، ثم توجه إلى دمشق ، وقطن بها ، وقرأ على مهذب الدين بن النقاش ، ولازمه ، وكتب بخطه كتباً كثيرة في الطب وغيره ، وكان يعرف النجارة ، وعمل لابن النقاش آلات كثيرة تتعلق بالهندسة ، وقد خدم الملك الناصر صلاح الدين بصناعة الطب وبقي معه مدة ، ثم استعفى من ذلك ، وطلب المقام بدمشق ، فأطلق له الملك الناصر أعطيات ، وبقي مقيماً في دمشق وهو يفيد منها إلى أن توفي رحمه الله^(٣) .

ومن الأطباء المشهورين في هذا العصر القاضي شمس الدين أحمد بن الخليل ، كان أوحده زمانه في العلوم الحكمية ، وعلامة وقته في الأمور الشرعية ، عارفاً بأصول الطب وغيره ، محباً لفعل الخير ، وكان رحمه الله ملازماً للصلاة والصيام وقراءة القرآن ، ولما ورد إلى الشام في أيام السلطان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل استحضره ، وسمع كلامه ، فوجده أفضل أهل زمانه في سائر العلوم ، وكان الملك المعظم عالماً بالأمور الشرعية والفقه ، فحسن موقعه عنده ، وأكرمه ، وأطلق له عطاء وجراية ، وبقي معه في الصحبة ، ثم جعله مقيماً بدمشق . وقد ولاه الملك المعظم القضاء ،

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين أبو العباس المعروف بابن أبي

أصْبَعَةَ - ١٥٧ / ٢

(٢) المصدر السابق - ١٦٢ / ٢

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ١٦٣ / ٢

وجعله قاضي دمشق ، وله تصانيف لا مزيد عليها في الجودة ، وكان ساكناً في المدرسة العادلية ، ويلقي بها الدرس للفقهاء ، ولم يزل على هذه الحال إلى أن توفي رحمه الله وهو في سن الشباب^(١).

ولم يكن اهتمام الدولة الأيوبية بالأطباء المسلمين فحسب ، بل شمل غير المسلمين أيضاً ترغيباً لهم في الإسلام ، ورغبة فيما عندهم من العلوم النافعة ، وهذا أمر شائع ومعروف في التاريخ الإسلامي فالرسول عليه الصلاة والسلام وُلد في زمن كانت السيطرة فيه للقوى الأجنبية كالفرس والروم ، فاستعان صلى الله عليه وسلم بنقدهم وعمّالهم المهرة المتخصصين في الصناعة الحربية وغيرها من العلوم والصناعات المفيدة ، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم استفادوا من معارف غيرهم من الأمم ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه استفاد من طرق تنظيم الدواوين والحسابات وتنظيم بيت المال من علوم غير المسلمين ، ولم تستقل الدولة الإسلامية بعلومها إلا بعد فترة طويلة نسبياً ، وذلك عندما قامت بإكمال مظاهر السيادة ، ومنها سك عملتها الخاصة ، واستغنت عن العملات الأخرى الفارسية والرومية ، وقامت بتنظيم أمور التجارة والبريد والمواصلات على أسس جديدة.

والخلاصة أن المسلمين استفادوا من علوم وخبرات غيرهم حتى أنشؤوا كياناتهم الخاص ، وبدؤوا بعد مدة بتصدير العلوم والخبرات لمن حولهم ، وهذا هو المنطق والعقل ، فالحكمة ضالة المؤمن ، وأينما وجدها التقطها ، فهي نور من الله ، والمؤمن هو أولى بالعلم ، فنحن أمة أقرأ ، وكما قال الرسول لأصحابه نحن أولى بموسى منهم^(٢) ، وبالفرح بنجاته وسيرته وإنجازاته.

ومن أبرز الأمثلة من السيرة النبوية على الاستعانة بغير المسلمين استعانة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمُرشد يدهم على طريق المدينة في رحلة الهجرة ، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ رجلاً من بني الدليل ثم من بني عبد بن عدي هادياً خريّتاً - الحريّة: الماهر بالهداية - وهو على دين كفار قريش ؛ فأمناه ، فدفعنا إليه راحلتيهما ، وواعده غار ثور بعد ثلاث ليالٍ ، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليالٍ ثلاثٍ فارتحلا ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي فأخذ بهم أسفل مكة وهو طريق الساحل)^(٣).

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ٢ / ١٧١

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب: الصيام ، باب: صوم يوم عاشوراء ، ٩/٨ ، برقم ٢٦٠٩

(٣) رواه البخاري في كتاب: الإجارة ، باب: استئجار المشركين عند الضرورة ، ٧٥٠/٢ ، برقم ٢١٤٤

ومثال نبوي آخر عظيم في الاستعانة بغير المسلم ما روي أنه كان فكاك بعض أسرى معركة بدر ، وهم من الكفار (ومن المحاربين أيضا) ، تعليم أطفال الصحابة القراءة والكتابة ، فقد روي عن ابن عباس قال: (كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)^(١).

وفي العصر الأيوبي كان من الأطباء غير مسلمين البارزين عفيف بن عبد القاهر سكرة اليهودي ، من أهل حلب ، عارف بصناعة الطب ، مشهور بأعمالها ، وجودة النظر فيها له ، وأكثر أولاده مشتغلون بصناعة الطب ، ومقامهم بمدينة حلب ، ولعفيف مقالة في القولنج ألفها للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٢).

وهكذا نخلص إلى أن الاهتمام بالعلم وأهله عامل هام من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية في هذا العصر ، وهذا يُثبت للدعاة مكانة العلم وأهله ، وأنه أساس كل تقدم ونمو ، ومشعل كل حضارة ورقية .

المطلب الثالث: الإصلاحات

يشير المؤرخون إلى حسنات يذكرونها عن تاريخ الملوك الأيوبيين ، تتعلق بالجهود الكبيرة التي بذلوها في سبيل الإصلاحات المادية التي تُيسّر للناس معيشتهم ، وتجعلهم يحسّون بالاستقرار والأمان.

والحقيقة أن ثمة فارقا كبيرا بين ملك اتخذه الناس وليّ أمر لهم ، فينشغل بمرافقه ومصالحه وراحة بطانته ولا يعنيه أمر الرعية ، فيبيتون وهم قلقون في معاشهم ومواصلاتهم ، وبين ملك تهّمه مصالح الناس فيسهر عليها ، ويُذلل مصاعبها ومشكلاتها .

ألم تجعل نصوص الشريعة إمطة الأذى عن الطريق -مثلاً- شعبة من شعب الإيمان ، وذلك في الحديث الشريف: " الإِيْمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) رواه أحمد في مسنده - ٩٢/٤ ، برقم ٢٢١٦ ، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث حسن

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ٢ / ١٦٣

وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةٌ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ " وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" (١) ، ولنتأمل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يسترعي الله عبداً رعية يموت حين يموت وهو غاش لها إلا حرّم الله عليه الجنة" (٢) ، رأيت إلى غش أكبر من أن يتغافل ولي الأمر عمّا يستطيعه من إصلاح شؤون معاش مَنْ يليهم . ولنقرأ الحديث الآخر: " ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة" (٣) ، رأيت إلى تباطئه وانشغاله عن رعيته بشؤون نفسه ، إن هذا الوالي كما في الحديث: النار أولى به .

ومن هنا نخرج إلى أن عناية وليّ الأمر بمثل هذه الإصلاحات المادية له فيها مثوبة كبيرة عند ربه من ناحية ، وللناس فيها فوائد كبيرة في تخفيف وطأة المعيشة عليهم، فينصرف الواحد منهم إلى عبادة ربّه بكثير من الاطمئنان، ولا ينشغل عنها بصوارف مختلفة. ولعلي أشرع الآن في بيان بعض هذه الجهود الحثيثة التي بذلها الملوك الأيوبيون لإصلاح شأن الممالك التي يلوونها . ولا يخفى على أحد ما لهذه الإصلاحات من دور في تهيئة الأجواء المناسبة للدعاة ؛ ليقوموا بشأن الدعوة في مناخ مناسب.

أولاً: إصلاحات صلاح الدين

ولقد كان لصلاح الدين قصب السبق في هذا المجال ، فقد روي أنه جمع أطباق الذهب وسيوف الزينة التي أخذت من القصر الفاطمي ، وشيّد بأثمنها الوفيرة مدارس وملاجئ ومستشفيات (٤).

ولقد أُقيمت في عهده الخانات والفنادق على طرق القوافل بين المدن والمقاطعات ، وأجري فيها الماء والصهاريج ، وبُنيت الأسواق التجارية ، وازدهرت الصناعات المختلفة والزراعة الواسعة حتى أصبح كلٌّ من مصر والشام تروج بالبساتين والمروج ، وتزخر بالمحاصيل والصناعات، كما اعتنى

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: بَيَانِ عَدَدِ شُعَبِ الْإِيمَانِ وَأَفْضَلِهَا وَأَدْنَاهَا وَفُضِيلَةَ الْحَيَاءِ وَكَوْنِهِ مِنَ الْإِيمَانِ ، ٦/٢ ، برقم ١١٧

(٢) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ، ١٣٦/٢ ، برقم ٣٢٠

(٣) رواه مسلم في كتاب: الإيمان ، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ، ١٣٧ / ٢ ، برقم ٣٢٢

(٤) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٨٦

بالتجارة وبناء القناطر والجسور، وأسند الإشراف على هذه المهمة لخيرة قواده وهو الأمير بهاء الدين قراقوش^(١).

كما روي أنه رحمه الله أنشأ البيمارستان وزوّده بأشهر الأطباء ، وأنفق عن سعة في بنائه وإحضار أدوات العلاج^(٢)، وجّهز أيضاً السُّبُل للحجاج^(٣).
كما روي أنه لما دخل الاسكندرية سنة ٥٧٧ هـ شرع في عمارة الخليج ، ونقل فوهته إلى مكان آخر^(٤).

ومما قام به السلطان أيضاً في مجال الإصلاحات أن أنشأ ديواناً خاصاً بالأسطول ، وخصّص له موارد هامة منها : متحصلات إقليم الفيوم ، وإيراد ديوان الزكاة ، فضلاً عن حصالة النطرون ، وقد قسّم السلطان الأسطول إلى قسمين : قسم لحماية سواحل مصر وقسم لحماية سواحل الشام ، ومنذ عام ٥٧٥ هـ أصبح الأسطول قوة ضاربة^(٥).
ومن ذلك أيضاً أمره بإبطال النقود التي وقع الاختلاف فيها وتضرّر بها العامة، كما أمر أن يكون ما يُضرب من الدنانير ذهباً مصرياً ، ومن الدراهم الفضة الخالصة ، وأبطل الدراهم السود لاستثقال الناس الميزان ، فسّر الناس بذلك^(٦).

٢- إصلاحات المعظم:

حج الملك المعظم سنة ٦١١ هـ ، وجدّد المصانع والبرك ، وأحسن إلى الحجّاج كثيراً . أما في الشام فقد بنى سور دمشق ، وبنى بالقدس مدرسة ، وبنى بجانب جعفر الطيار مسجداً ، وبنى بمعان دار مضيّف ، وحمّامين ، وكان قد عزم على تسهيل طريق الحجّاج ، وأن يبني في كلّ منزلة مكاناً^(٧).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٨٦ - ٢٨٧

(٢) صبح الأعشى - ٣ / ٤١٧ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٦

(٣) إتحاف الوري بأخبار أم القرى - ٢ / ٥٥٩

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٧٦

(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٩٨

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٩٧

(٧) الدارس في تاريخ المدارس - ١ / ٥٨٢

٣- إصلاحات الكامل:

ومن الملوك الذين اهتموا بإصلاح الطرق ، وتوفير عوامل السلامة فيها الملك الكامل فقد رُوي أن الطرق كانت آمنة في زمانه رحمه الله^(١). كما يروى أنه كان في زيادة النيل يخرج بنفسه، وينظر في الجسور وإصلاحها ، ويُرتب على كلِّ جسرٍ من الأمراء مَنْ يتولّاه ، وأيُّ جسرٍ اضطرب عاقب مُتولّيه ، وعُمِرَت في أيامه ديار مصر^(٢).

٤- إصلاحات المنصور:

ومن الملوك المهتمين بالرعية ، وإصلاح شؤون البلاد الملك المنصور ، حيث روي أنه كان يقضي في أمور الرعية من الصباح إلى الليل ، كما كان مؤثراً لعمارة بلده ، وبني القلعة^(٣).

٥- إصلاحات الأمير مظفر الدين كوكبري:

أما الأمير مظفر الدين كوكبوري بن علي ، أمير صلاح الدين على الرها وحران ، فقد نقل المؤرخون عنه أموراً عجيبة من الإصلاحات ، ووجوه الخير ، فقد عُني هذا الأمير بخدمة صلاح الدين الأيوبي وتمكّن منه ، وزوّجه صلاح الدين أخته الست ربيعة خاتون بنت أيوب ، وقد أبان مظفر الدين عن نبذة وعزيمة وقوة نفس ، وكان في وقعة حطين نعم النصير لصلاح الدين^(٤).
وقد بنى أربع مساكن للزّمنى والعميان ، وملاها بهم ، وكان يأتيهم بنفسه كل خميس واثنين ، ويدخل إلى كلِّ واحد في بيته ، ويسأله عن حاله ، ويتفقده بشيء ، وينتقل إلى الآخر حتى يدور على جميعهم ، وهو يُبأسطهم ويمزح معهم^(٥).

(١) تاريخ الإسلام - ٢٥٦ وفيات (٦٣١-٦٤٠هـ)

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ١٥٧

(٣) المصدر السابق - ٤ / ٧٨

(٤) وفيات الأعيان - ٤ / ١١٥

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥٤ ، وفيات الأعيان - ٤ / ١١٦

وبنى داراً للنساء الأرامل ، وداراً للضعفاء الأيتام ، وداراً للملاقيط رتب بها جماعة من المرضى^(١)، وكان يدخل البيمارستان ، ويقف على كل مريض ، ويسأله عن حاله^(٢). وكان له دار ضيافة يُقدّم إليها كلُّ قادم من فقير أو فقيه ، فيأكل فيها الغداء والعشاء ، وإذا عزم على السفر أعطوه ما يليق به^(٣). وكان يبعث أمناءه في العام مرتين بمبلغ يطلق به سراح الأسرى ، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئاً^(٤).

ويقيم في كل سنة سبيلاً للحجّ ، ويبعث في العام بخمسة آلاف دينار للمجاورين ، وهو أول مَنْ أجرى الماء إلى عرفات ، وعمل آباراً بالحجاز ، وبني له هناك تربة^(٥). وكان مظفر الدين كوكبوري ينفق في كل سنة على الخانقاه مئتي ألف ، وعلى دار المضيف مئة ألف ، وعلى الأسارى مئتي ألف دينار، وفي الحرمين والسبيل ثلاثين ألف دينار^(٦). ومن المعلوم أنّ وجوه الخير التي يُؤدّيها ولي الأمر للرعية لها أثر كبير في الراحة، والاستقرار النفسي ، وتوفّر الجو المناسب لممارسة الأنشطة الدعوية.

من أهم البلاد التي حظيت باهتمام الأيوبيين:

واهتمّ الملوك الأيوبيين رحمهم الله بالمناطق التي كانت تقع تحت حكم الدولة الأيوبية ، وتنقل لنا كتب التاريخ مظاهر هذا الاهتمام ، ومدى التطوير الذي أدخلوه على تلك البلاد . ومن أبرز البلاد التي اهتم بها ملوك بني أيوب :

١- **الاسكندرية:** وهي أول بلدة سار إليها صلاح الدين في أيام سلطانه ، حيث مرّ عليها، وعمّ أهلها بالإحسان ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها^(١). وبعد مدّة مرّ عليها السلطان مرة

(١) وفيات الأعيان - ٤ / ١١٦

(٢) المصدر السابق - ٤ / ١١٦

(٣) المصدر السابق - ٤ / ١١٦

(٤) المصدر السابق - ٤ / ١١٦

(٥) المصدر السابق - ٤ / ١١٦

(٦) وفيات الأعيان - ٤ / ١١٧

أخرى ، وخيّم عند السواري ، وشاهد الأسوار التي جدّدها ، والعمارات التي مهّدها ، وأمر بالإتمام والاهتمام^(٢).

وهذا يعطي الدعاة درساً في ضرورة متابعة ما أنجز من أعمال ومراجعتها ، وتفقدتها بين حين وآخر ؛ للاطمئنان على سير الدعوة ، والمساهمة في إنجازها.

٢-القاهرة : وهي من أهم البلاد التي لاقت الاهتمام والعناية من الملوك الأيوبيين ، وإلى صلاح الدين يرجع الفضل بعد الله عز وجل في جعلها مأوى للعامة والخاصة من أبناء البلاد ، لأنّ مَنْ سَبَّه من الحكّام كانوا بينون ديارهم في حيزٍ مستقلٍّ عُرف بالقطائع أوالعسكر ، فلا يسمحون لغير الحراس من الجند أن يقيموا في هذه العواصم المستحدثة^(٣).

وقد بلغت القاهرة أعظم اتساع لها ، وشهدت عصراً زاهراً من العمران والبناء في عهد صلاح الدين ، وآثاره فيها تنطق بمدى اهتمامه بالعاصمة المصرية^(٤).

ومن أعظم الآثار التي خلفها الأيوبيون في القاهرة: السدّ العظيم وقلعة الجبل ، والتي كانت من الإنشاءات العسكرية الهامة التي ميّزت عصرهم ، وقد رأوا أنّها تحمي البلاد وتقيها غزوات الصليبيين^(٥).

ومن الآثار المهمّة للأيوبيين أيضاً بناء السور الجديد المحيط بالقاهرة ومصر ؛ لأنه كان قد تهدّم أكثره ، وصار طريقاً لا يردُّ داخلاً ولا خارجاً ، وقد أنفقوا عليه أموالاً لا تُحصى ، وكُلّف بهذا المشروع الضخم بهاء الدين قراقوش ، إلا أنّ الأجل لم يمتدّ بصلاح الدين ليرى المشروع كاملاً ، فلم يتمّ البناء إلا في عهد ابن أخيه الملك الكامل^(٦). هذا بالإضافة إلى إنشاء كثير من المدارس التي ساعدت بشكلٍ ملحوظٍ على عمران القاهرة ، وقد امتدّ العمران ليشمل القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع^(٧).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٨٢

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٨٩

(٣) الخنط - ١ / ٣٦٤ ، صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ١١٩ ، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية - ٣٠٥

(٤) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية - ٣٠٥

(٥) المصدر السابق - ٣٠٥

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٧٩ ، العبر - ٣ / ٦١ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٨٤

(٧) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية - ٣٠٦

٣- بلاد الشام:

اعتنى الأيوبيون ببلاد الشام عناية كبيرة ، فقد رُوي أنّ صلاح الدين زار حلب وانطلق منها إلى حمص ، فرتبّ أمورها ، وأسقط المكوس منها^(١).

كما رُوي أنه لما عاد من عسقلان عن طريق الساحل إلى دمشق ، تفقّد في طريقه المدن ، والحصون التي مرّ بها ، يقول صاحب "النوادر السلطانية": (ويمرّ على البلاد يتفقّد أحوالها ، ويُودِعُها الرجال والعُدَد حتى أتى عكا)^(٢).

ومن الملوك المهتمين ببلاد الشام الملك الظاهر غازي ، الذي عمّر أسوار حلب^(٣)، كما روي روي أنه أجرى الماء من جيلان إلى حلب ، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة ، وبقي البلد يجري الماء فيه^(٤).

٤- بلاد الحرمين :

عاشت المدينة المنورة فترة انتعاش في عهد صلاح الدين ، ومعظم عهد الأيوبيين من بعده ، لا يقلقها شيء سوى قلق الحملة الصليبية التي هدّتها عام ٥٧٧هـ^(٥).

ومن أبرز ما قدّمه صلاح الدين للمدينة المنورة إرساله الأموال الكثيرة إليها ؛ لإصلاح مرافقها ، وتأمين الطرق إليها ، وحفر الآبار فيها ، كما أرسل رحمه الله أموالاً للقبائل المقيمة على طريق الحرمين لكيلا يتعرّضوا للحجاج والمسافرين^(٦). واهتم الملك العادل بالحرمين كاهتمام صلاح الدين ، فواصل إرسال الأموال والأعطيات وبخاصة بعد أن اتسع ملكه ، وشمل البلاد التي كان يحكمها صلاح الدين^(٧).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١ / ٩١

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٩٦

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٩٨

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٢٥٤

(٥) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢ / ١٨٣

(٦) المصدر السابق - ٢ / ١٨٢ - ١٨٣

(٧) المصدر السابق - ٢ / ١٩٤

ومن الملوك الذين ذكر التاريخ اهتمامهم بالحرمين : الملك المظفر ، وُرُوي أنه كان يدعم ركب الحجاج ، ويدفع الأموال بالحرمين للمحتاجين ، وله بمكة آثار ، وهو أول من أجرى الماء إلى عرفات، وعَمَّر بالجبل مصانع للماء^(١).

ومنهم أيضاً الملك المعظم ، ويروى أنه حجَّ في سنة ٦١٦ هـ ، وبني في طريق الحجاز آثاراً حسنة^(٢).

٥- بيت المقدس :

كان المسجد الأقصى قبل فتح صلاح الدين له في حالة يُرثى لها ، إذ وضع الفرنج فيه الخنازير والخبث والمراحيض وسدُّوا المحراب ، فبادر المسلمون إلى تنظيفه وتطهيره ، وبسطوا فيه البسط، وعُلِّقت القناديل ، وفرح صلاح الدين بالفتح إذ هيأه الله ثانياً بعد عمر بن الخطاب في هذا الفتح^(٣).

واعتنى السلطان ببيت المقدس عناية كبيرة ، وقد ذكر صاحب "الروضتين" أنّ بيت المقدس لم يزل ملحوظاً بالعمارة ، والتحصين في عهد السلطان^(٤)، ومن أبرز إصلاحاته رحمه الله في بيت المقدس بعد هذا الفتح العظيم قيامه بتحصين المدينة وترتيب أمورها^(٥)، وتشديد أسواره وتحسينها ، وتعميق خنادقه ، وتوثيق طرائقه ، وكان رحمه الله ذا خبرة في شؤون البناء والإصلاحات ، ومن المواقف التي حدثت معه في بيت المقدس أنه عند بناء أسوار بيت المقدس وخنادقه قال له الصانع: "هذه الحجارة التي تُقطع من أسفل الخندق رخوة" ، فقال: "كذا تكون الحجارة التي تلي القرار والنداوة ، فإذا ضربتها الشمس صلبت"^(٦).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٥ / ٥٥

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ٤٢

(٣) تاريخ الإسلام - ٢٦ وفيات (٥٨١-٥٩٠هـ)

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٣٤

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٣٩

(٦) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٨٢

كما زاد رحمه الله في وقف المدرسة سوقاً بدكاكينها وأرضاً ببساتينها ، وكذلك عيّن الكنيسة التي في شارع قمامة لليمارستان ، ونقل إليه العقاقير والأدوية^(١)، كما أزال ما حول قبة الصخرة من المنكرات والصور والصلبان^(٢)، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً^(٣)، ولم ينصرف من بيت المقدس إلى دمشق حتى بنى فيها مدارس ومستشفيات^(٤)، وقد أمر رحمه الله القاضي أبا المحاسن بالمقام بالقدس لعمارة بيمارستان أنشأه فيه ، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه ، ثم انطلق لإزالة المظالم عن نابلس^(٥).
ومن اهتم ببيت المقدس من العلماء الفقيه عيسى الهكاري ، فقد رُوي أنه صنع شبابيك من حديد حول الصخرة العظيمة ؛ لصيانتها من أي عبثٍ ، وذلك بعد أن أزال صلاح الدين ما أقامه الصليبيون من منكرات وصور وصلبان حولها^(٦).

ويمكننا أن نعدّ قضاء صلاح الدين على العبيديين من أعظم إنجازاته في مجال الإصلاحات التي قدّمها للأمة الإسلامية ، فقد رُوي أنه رحمه الله ضبط محتويات قصر الخليفة العبيديّ ، ووكل بها بهاء الدين قراقوش ، فما كان يدخل إلى القصر شيء ولا يخرج منه شيء إلا بمراى منه^(٧)، كما احتاط رحمه الله على أهل الملك العبيدي العاضد وأولاده في موضع خارج القصر ، جعله برسمهم على الانفراد ، وقرّر لهم ما يكفيهم ، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم ، وفرّق بين النساء والرجال ليكون أسرع إلى انقراضهم ، واستعرض من بالقصر من الجوّاري والعبيد ، والعدّة والعديد ، فأطلق من كان حرّاً ، وأعتق من رأى إعتاقه ، ووهب من أراد هبته ، وفرّق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً^(٨).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٣٢

(٢) البداية والنهاية - ١٦ / ٥٩٤

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٩٨

(٤) الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٤٣

(٦) المصدر السابق - ٣ / ٣٩٨

(٧) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ١٨٤

(٨) المصدر السابق - ٢ / ١٩١-١٩٣ ، ٢١٠

المطلب الرابع: تعيين الولاية

كان الملوك الأيوبيون -ولاسيما صلاح الدين بوصفه أكثرهم فتحاً للبلدان- يهتمون بتعيين الولاية على المناطق الجديدة ، وإمدادهم بالوصايا المفيدة ، وأخذ العهد عليهم بالسير على منهاج الله، ومتابعتهم من حين لآخر ؛ ليطمئنوا على سير الأمور في تلك المناطق ، والتزامهم بشرع الله القويم ، إذ لا فائدة من الاستمرار في المعارك والفتوحات دون تزويد تلك البلاد المفتوحة بالولاية المسؤولين عن إدارتها وقيادتها إلى ما فيه السعادة الدينية والدنيوية ، ولكي تسير حياة المجتمع الجديد بأمن ونظام. وسأذكر في السطور التالية أمثلة على تعيين الملوك للولاية والوصايا التي رزّوهم بها.

فقد رُوي أن السلطان صلاح الدين لما دخل مدينة آمد ، وجلس في دار الإمارة ، حلف نور الدين بن قرا أرسلان على أن يُظهر بها العدل ويقمع الجور ، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان ، مع معاداة الأعداء ، ومصافاة الخلان في كل وقت وزمان ، وأنه متى استمدّه من آمد لقتال الفرنج وحده لذلك يقظان وإليه عطشان^(١).

ولما تسلّم رحمه الله جبلة سلّمها إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وبجّل قاضي جبلة وشرفه ، وحبس عليه ملكاً نفيساً ، ووقفه ، وصرفه في أملاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه^(٢).

ولما فُتحت عكا حضر القاضي الفاضل إلى الكنيسة ، ورتّب بها المنبر والقبلة ، ثم ولى السلطان الفقيه جمال الدين عبد اللطيف السهروردي الخطابة والإمامة ، وولاه مناصب الشريعة فقد تولّى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف^(٣).

ومن البلاد التي فتحها صلاح الدين أيضا عسقلان ، وفوّض القضاء والحكم والخطابة والحسبة وجميع الأمور الدينية فيها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي^(٤). ولما فتح السلطان بيت المقدس صلّى مع الأمراء الجمعة الأولى في الكنيسة العظمى ، بعد أن قام القاضي

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٥٦

(٢) المصدر السابق - ٤ / ٢٠

(٣) المصدر السابق - ٣ / ٣١٢

(٤) المصدر السابق - ٣ / ٣٢٩

الفاضل بترتيب المنبر والقبلة ، وكان الخطيب والإمام والفقهاء: جمال الدين عبد اللطيف السهروردي ، الذي ولاه السلطان مناصب الخطابة والقضاء والحسبة والوقف^(١).

وقد عيّن رحمه الله على المسجد الأقصى النظّار والأئمة والخطباء وغيرهم من العاملين الذين يُحتاج إليهم للإشراف على هذا المسجد الشريف ، والمساجد الأخرى التي أُعيد تجديدها بعد مدّة طويلة من الإهمال ، كما قام بترتيب إدارة المدينة ، فعَيّن الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري والياً عليها^(٢)، ورَتّب أيضاً في قبة الصخرة إماماً حسناً^(٣). وقوِّض القضاء إلى القاضي بهاء الدين بن شداد^(٤)، كما أوكل إليه النظر في الأوقاف التي أُوقفت وزيدت على المسجد الأقصى وقبة الصخرة والخانقاه والمدرسة الشافعية والبيمارستان الذي أنشأه في كنيسة داخل مجمّع الاستبارية السابق^(٥).

ومما اهتم به صلاح الدين في بيت المقدس بعد فتحه له: محراب داود ، إذ رَتّب له إماماً ومؤذنين وقوَّماً ، وأمر بعمارة جميع المساجد^(٦).

أما الملك العادل فقد رُوي أنه لما دخل حلب في رمضان ، خلع على المقدمين والأعيان العطاءات ، وولّى القلعة صارم الدين بزغش ، وولّى الديوان والإقطاعات شجاع الدين بن البيضاوي ، وولّى الإنشاء وما يتعلّق بأمور المسلمين للصنيعة ابن النحّال ، وكان نصرانياً وأسلم على يد العادل^(٧).

إن اهتمام الملوك الأيوبيين بانتقاء أفضل الولاة ، وتعيينهم على البلاد المفتوحة ، أسهم على نحو كبير في تهيئة البيئة المناسبة للبذرة الدعوية ؛ لتنمو ويشتدّ سوقها بعون من الله ثم رعاية الولاة والدعاة الصالحين .

(١) صلاح الدين-القائد وعصره - ٣٠١

(٢) المصدر السابق - ٣٣٩

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٣٩٨ ، البداية والنهاية - ١٦ / ٥٩٤

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٣٨

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٣٩

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٤٠٠

(٧) المصدر السابق - ٣ / ١٩٤

المطلب الخامس: الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز ما يميّز الأمة الإسلامية ، وهي خصيصة من خصائصها ، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) ^(١)، وهذه الشعيرة منزلة عظيمة في الإسلام ؛ وذلك لما لها من أهمية وفضل، فهي مهمة الأنبياء والرسل ، والمجتمعات المسلمة في حاجة ماسّة إليها ، ولا يخفى على أحد أنها عبادة من أجلّ العبادات وأكرم الطاعات ، وبهذه الشعيرة تظهر شعائر الدين ، وتعلو أحكامه ، وتُحفظ حرّامات المسلمين من الشرور والفتن ، ويُعزّز أهل الإيمان ، ويُذلّل أهل العصيان، ويتمّ استقرار المجتمع وشيوع الأمن فيه ^(٢).

ولتحقق الدعوة الإسلامية النجاح في مسيرها كان لابد لأبنائها من الحرص على دعوة الناس إلى تطبيق الأوامر التي أمرنا الشارع بها ، والنهي عن المنكرات التي أمرنا الشارع بتركها والابتعاد عنها. واهتمّ الدعاة الأيوبيون ملوكاً وعلماءً بهذا الأمر والنهي ، وحرصوا على تطبيقه وممارسته في مجتمعهم ، ولهذا الاهتمام وذلك الحرص الكثير من الأمثلة والتطبيقات ، وسأذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر.

أولاً: اهتمام الملوك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من ذلك نفي صلاح الدين رحمه الله للشاعر ابن عنين من دمشق بسبب وقوعه في الناس ، وكان ذلك الشاعر مولعاً بالهجاء ، وثلب أعراض الناس ، وله قصيدة طويلة جمع فيها من رؤساء دمشق وسمّاها: "مقراض الأعراض" ^(٣).

(١) آية ١١٠ - سورة آل عمران

(٢) انظر في منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - د/عبد الرحيم بن

محمد المغذوي- ١٠٠

(٣) وفيات الأعيان - ١٤ / ٥

وفي سنة ٥٩٠ هـ ركب السلطان للصيد بالجيزة ، ومرّ بباب زويلة ، فأنكر بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق ، وأمر بدمها ، فهُدمت مباشرة محتسب القاهرة ، ومرّ بصناعة العمائر ، فرسم بسدّ طلاقات الدور المجاورة للنيل ، فسُدّت^(١).

ومن الملوك الذين حرصوا على إنكار المنكر الملك العادل الذي أمر رحمه الله بإبطال الخمر والقيان^(٢).

ومثله الملك الظاهر الذي أمر بإراقة الخمر في سائر بلاده ، وتوعّد من يعصرها بالقتل ، فأريق منها ما لا يُحصى^(٣).

ومنهم أيضاً الملك الأشرف موسى بن العادل ، فقد حكى عن نفسه قائلاً: (مات مملوك من ممالكي ، وترك ولداً ليس يكون في الناس بتلك البلاد أحسن شباباً ولا أحلى شكلاً منه ، فأحبته وقرّيته ، وكان من لا يفهم أمري يتهمني به ، فاتفق أنه عدا عليه إنسان ، فضربه حتى قتله ، فاشتكى عليه أولياء المقتول ، فقلت: أثبتوا أنه قتله ، فأثبتوا ذلك ، فدافع عنه ممالكي وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات فلم يقبلوا ، ووقفوا لي في الطريق ، وقالوا: قد أثبتنا أنه قتله ، فقلت: خذوه، فتسلموه فقتلوه ، ولو طلبوا مني ملكي فداء له لدفعته إليهم ، ولكن استحيت من الله أن أعارض شرعه بحظ نفسي)^(٤).

ومن الملوك الذين أشاد التاريخ بإنكارهم للمنكر الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد، وقد ولاه صلاح الدين حمص بعد وفاة والده ، فمكث فيها سبعة وخمسين سنة ، وكان من أحسن الملوك سيرة ، وطهر بلاده من الخمر والمكوس والمنكرات ، وكانت في غاية الأمن والعدل^(٥).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك - ١٠ / ١٢٠

(٢) البداية والنهاية - ١٧ / ٤٥

(٣) ذيل مرآة الزمان - ٢ / ٤٥٤

(٤) البداية والنهاية - ١٧ / ٢٣٣

(٥) المصدر السابق - ١٧ / ٢٤٩

ثانياً: اهتمام العلماء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كان ابن عساكر صاحب "تاريخ دمشق" من أبرز العلماء المهتمين بهذا الأمر ، وقد اشتهر بكثرة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقلة الالتفات إلى الأمراء^(١).
ومنهم القاضي الفاضل ، فقد روي أنه نهى الملك العزيز عن التساهل في إقامة الشعائر الإسلامية^(٢).

ومن المهتمين أيضاً بذلك أسرة المقداسة ، ومنهم أبو عمر المقدسي الجماعيلي، فقد رُوي أنه كان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته ، ويكتب فيه إلى الملك ، حتى إن بعض الملوك كان يقول: هذا الشيخ شريك في الملك^(٣)، ومنهم الضياء المقدسي فقد وصفه الذهبي أنه كان أماراً بالمعروف^(٤).
ومنهم أيضاً العز بن عبد السلام والذي كان إمام عصره ، والقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ، ولم يُر مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق وشجاعة وقوة جنان وسلطنة لسان، وكان في الحق لا يخشى لومة لائم^(٥)، قال عنه الكتبي: (كان أماراً بالمعروف تهأء عن المنكر)^(٦) ، ومن أشهر مواقفه في هذا المجال أنه لما انتقل رحمه الله إلى مصر رحّب به الملك الصالح نجم الدين ، وولاه الخطابة والقضاء، وكان أول ما لاحظته بعد توليه القضاء قيام الأمراء المماليك المملوكين للدولة الإسلامية بالبيع والشراء وقبض الأثمان ، وهو ما يتعارض مع الشرع ؛ إذ إنهم في الأصل مملوكون لا يحق لهم البيع والشراء و الزواج من حرائر نساء مصر ، فكان لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء ، حتى تكالبوا عليه ، وشكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه فتوى الشيخ العز ، فذهب إلى الشيخ يسأله أن يُعدّل من فتواه ، ولكن الشيخ أصرّ أن ينادي عليهم ويبيعهم.

إلا أن السلطان لم يدعن لحكم العز بن عبد السلام ، فجمع الشيخ أمتعته ووضعها على حمار ، ولكن الناس تجمعوا وراءه وتبعه العلماء والصلحاء والتجار والنساء والصبيان ، حتى كادت

(١) سير أعلام النبلاء - ٢٠ / ٥٥٦ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٢ / ٢٣٩

(٢) بدائع الزهور - ١ / ٢٥٠

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢٢ / ٥

(٤) المصدر السابق - ٢٣ / ١٢٦

(٥) الذيل على الروضتين - ٢١٦

(٦) فوات الوفيات - ١ / ٥٩٥

مصر تخلو من سكانها ، فخرج الملك الصالح مسرعاً ، ولحق بالعز ، وأدركه في الطريق وترضاه ،
وطلب منه أن يعود ، وينفذ حكم الله ، فتم له ذلك^(١) .

وهكذا يتبين كيف كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عاملاً قوياً من عوامل نجاح الدعوة
في هذا العصر ، فبحرص الدعوة على ذلك صلح ولاتهم ، وصلحت مجتمعاتهم ، فتقدمت الأمة
الإسلامية وارتفعت على مختلف المستويات.

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ٨ / ٢١٦ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٦٩

المطلب السادس: صلاح البطانة

إن اعتماد الدعاة على الرجال الثقات في كل ما يمتّ للدعوة بصلة ، من الأمور الهامة لتحقيق النجاح لهذه الدعوة المباركة ، إذ يساعد أولئك الرجال الداعية في مهمته الربانية ، ويمدونه دائماً بالنصائح القويمة ، والآراء السديدة .

والمملوك الدعاة من أحوج الناس لبطانة صالحة ، وذلك لكثرة المشاكل ، والمعضلات التي تمرّ بهم في تسيير دولتهم ، فيحتاجون حينها إلى حكيم بعيد النظر يُحسن الإدلاء برأي سديد ، ونصيحة قويمة .

وقد حرص صلاح الدين رحمه الله على اختيار الصالحين الثقات ذوي الرأي الحكيم ليكونوا بطانته المقربين إليه ، يعتمد على آرائهم وتوجيهاتهم في كل ما يعرض له من مشكلات. فقد روي أن مماليكه وخواصه ، بل وأمرأه وأجناده كانوا أعفّ من الزهاد والعبّاد^(١).

كما روي أن من أبرز قضاياه: كمال الدين الشهرزوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون، وأبا حامد بن أبي عصرون ، ومحيي الدين بن الزكي ، أما وزيره فالصفي بن القابض ، وكاتبه: القاضي الفاضل ، والعماد الكاتب^(٢).

وشكّل الأكراد الهكارية أمراء جيش صلاح الدين وقادته ، ومن أشهرهم سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن من أمراء الدولة من يُضاهيه في المنزلة ، وكانوا يسمّونه الأمير الكبير، ووصف القاضي الفاضل موته بأنه: (تهدّم به بنيان قوم، والدهر قاضٍ ما عليه لوم)^(٣)، كذلك كان ضياء الدين عيسى الهكاري ، الذي كان من أكبر أمراء الجيش في الدولة الأيوبية ، وكان فقيهاً تفقه على الإمام أبي القاسم بن البزري ، وسمع من الحافظ أبي الطاهر السلفي ، والحافظ ابن عساكر ، وكان يتمتع بشجاعة فائقة ، وحنكة عسكرية ، وقد روي أنه أُسر ، فخلّصه صلاح الدين بمبلغ ستين ألف دينار^(٤)، ولم يكتف صلاح الدين في فكّ الفقيه عيسى بفدائه بالأموال فحسب ،

(١) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٦٥٩

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ١٩٦

(٣) وفيات الأعيان - ٧١ / ١٨٢ - ١٨٣

(٤) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٣-٢٧٩

بل أطلق لأجله جماعة من الكفار ممن كانوا عنده في الأسر ، وهذا دليل على عظم قدر الفقيه لدى صلاح الدين^(١).

ولقد كان أحد أسباب تلك العلاقة الحميمة بين السلطان والفقيه عيسى رأي حكيم نفع الله به الأمة الإسلامية نفعاً عظيماً ، فحفظه له السلطان والتاريخ .

فقد زُوي أنه لما توفي أسد الدين شيركوه اتفق الفقيه عيسى وبهاء الدين قراقوش على ترتيب السلطان صلاح الدين موضعه في الوزارة ، ودققا الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود ، فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك ، واعتمد عليه ، ولم يكن يخرج عن رأيه ، وكان كثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام ، وكان واسطة خير للناس ، نفع بجأه خلقاً كثيراً^(٢).

وتتوالى الأحداث لتؤكد أهمية ومكانة الفقيه عيسى ، وذلك عندما أراد صلاح الدين في عام ٥٧٨هـ أن يحاصر الموصل ، ويستعيدها من صاحبها عز الدين مسعود ، ويضمها إلى الجبهة الأمامية، ولكن بعد مناوشات عديدة بين الطرفين تدخل الخليفة العباسي ، وأرسل صدر الدين شيخ الشيوخ مندوباً عنه للتوسط في الصلح بين الطرفين ، فأرسل صدر الدين إلى صلاح الدين يطلب منه إنفاذ بعض ثقاته لحضور مباحثات الصلح بين الطرفين ، فتقدم السلطان إلى الفقيه عيسى المهكاري وإلى القاضي الفاضل أن يحضرا ، فمضيا وحضرا عند شيخ الشيوخ ، وقام كلٌّ من القاضي الفاضل والفقيه عيسى بالتباحث مع شيخ الشيوخ نيابة عن صلاح الدين حتى استقرّ الصلح بين الطرفين ، وحُقت بذلك دماء المسلمين^(٣).

وبذلك يتضح لنا اعتماد صلاح الدين على الثقات من رجال الدين في دولته في المهام الدبلوماسية ، والتحدث في الأمور الهامة نيابة عنه ؛ وذلك لثقتة في بُعد نظرهم وحكمتهم ورأيهم القويم.

كما يتضح لنا أيضاً ضرورة استعانة الداعية بالبطانة الصالحة ، وأثر ذلك في سير أمور الدولة على خير ما يُراد.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٤٦٤ ، الكامل في التاريخ - ١ / ٨٦

(٢) وفيات الأعيان - ٣ / ٤٩٧

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١١٦-١٢٥ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب -

١١٨/٢-١٢٣ ، الكامل في التاريخ - ١٠ / ١١٤-١١٥

ومن خيرة بطانة صلاح الدين وملازميه: القاضي الفاضل ، ولم يختره السلطان إلا لمعرفته التامة بأخلاقه الرفيعة ، وصفاته الحسنة ، فقد رُوي أنه كان كثير الحسنة ، دائم التهجد ، ملازم القرآن ، نزهاً عفيفاً ، قليل اللذات ، وكان لباسه لا يساوي دينارين ، ولا يصحبه سوى غلام له ، ويكثر زيارة القبور ، ويُشيع الجنائز ، ويعود المرضى ، وكان له صدقات ، واستخلصه السلطان لنفسه^(١).

وقد خصّ السلطان نفسه بزین الدين بن ابراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي ، وجعله من مستشاريه ، ويصوّر أبو شامة طبيعة العلاقة بين الاثنين فيقول: (وكان السلطان يستشيريه ، ويروقه تدبيره ، ويميل إليه لتقديم معرفته وكرمه سجيته)^(٢).

ومن ذكرهم التاريخ من أصدقاء صلاح الدين ، ومعاوية في بعض الأحيان القاسم بن مهنا الذي تسلّم إمارة المدينة المنورة سنة ٥٦٣ هـ ، وكان عاقلاً تقياً محبوباً كثير الأسفار ، اتصل برجال عصره ، وأقام معهم علاقات وطيدة ، فقد سافر إلى بغداد ، وأكّد ولاءه للعباسيين ، وسافر إلى مصر ، واتصل بصلاح الدين ، فأحبه صلاح الدين ، وقامت بينهما علاقات وطيدة ، واصطحبه معه في بعض معاركه ، وكان يتفائل بوجوده معه ، ويستبشر بالنصر^(٣).

ومن خيرة قواد صلاح الدين ومعاونيه الأمير بهاء الدين قراقوش ، وكان عالماً فقيهاً ، كرّس نفسه للخدمة العسكرية والإدارية ، وكانت سياسته في القاهرة حكيمة وحازمة ، وقد ساعد ذلك على إزالة آثار العبيديين ، وتضييق الخناق على بقاياهم ، لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربتة إلا بالإشاعات وتشويه السمعة^(٤).

ولم تقتصر خدمة هذا الأمير للسلطان صلاح الدين فحسب ، بل كان من خيرة بطانة الملك المنصور محمد بن عثمان ، وكان قراقوش هو القائم بأمر دولته ، فساس الناس أحسن سياسة^(٥).

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٣٢٥

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٥٨

(٣) التاريخ الشامل للمدينة المنورة - ٢ / ١٨٢

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - ٢٦٣ - ٢٦٤

(٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ١ / ٢٥٢

المطلب السابع: الأخذ بأسباب القوة والحكمة العسكرية

أمر الله عز وجلّ المسلمين بأن يعدوا ما استطاعوا من القوة والحذر واحتياطات الأمن لنشر الدعوة وحماية منجزاتها ، قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ^١ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ^(١)) ،

وحذّر تعالى الأمة المسلمة من الغفلة ، وغيوبة الوعي ، وأمّرها أن تبقى يقظة حذرة من مكايد عدوها ، فقال جلّ وعزّ: (يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا^(٢)) .

وينبغي الداعية أن يمتاز بقدر من الذكاء والحكمة والحكمة العسكرية ، فتبغات الدعوة إلى الله كثيرة ، وهي من المهمات الصعبة ، ولكي يتحقق لها النجاح ، وتصل إلى أهدافها المنشودة ينبغي أن يُخطط الداعية لها جيداً ، يأخذ بأسباب النجاح ، ويفكر بحكمة وذكاء وحكمة في كل الطرق التي قد تؤدي إلى نجاحها ، وتساعد على تحمّل تبغات الدعوة ، وذلك ليستطيع أن يتصرف التصرف السليم إبان الظروف الصعبة ، والمواقف الحرجة التي قد تصادفه أثناء قيامه بأمر الدعوة ، أو خلل تعامله مع أصناف متباينة من المدعوين .

إن أي عمل يسير بعشوائية دون تخطيط سابق سينتهي بفشل ذريع ، أو على الأقل لا يحقق إلا جزءاً يسيراً من الأهداف المرجوة ، والداعية إلى طريق الله تعالى يسير دائماً على هدى ونور ، ويخطط لدعوته ، يأخذ بأسباب القوة ، ثم يتوكل على الله تعالى متيقناً النجاح والفلاح لدعوته في الدنيا والآخرة .

ولقد كان ملوك الدولة الأيوبية متمتعين بقدر كبير من الدهاء والحكمة العسكرية ، حريصين كثيراً على الأخذ بأسباب القوة ، وكان الأنموذج الأمثل للذكاء والحكمة : صلاح الدين ، لذا سأقتصر في هذه الفقرة في ذكر أمثلة عن حنكته وذكائه وسياسته رحمه الله في التعامل مع الأحداث الهامة في

(١) آية ٦٠ - سورة الأنفال

(٢) آية ٧١ - سورة النساء

عصره دون ذكر ما يتعلّق ببقية الملوك الأيوبيين ، حيث أن ذكر ما يتعلق بسياسة صلاح الدين ودكائه يغني عن ذكر من سواه من الملوك .

لقد وصف المؤرخون صلاح الدين بأنه كان رجل سياسة وحرب ، عالي الهمة ، بعيد النظر متواضعاً مع جنده ، وأمراء جيشه ، لا يستطيع المتقرب منه إلا أن يُحسّ بحب له ممزوج بهيبة^(١). ولقد كان رحمه الله كثير العناية بجسمه ، مهتماً بتقويته دائماً ، لا يغفل يوماً عن تمرين جسمه بالرياضة البدنية ، وذلك ليستعين بذلك على تحمّل الشدائد^(٢).

وثمة حادثة وقعت مع صلاح الدين قبل تولّيه الحكم دلّت على حنكته العسكريّة ، وعظيم دهائه ، فقد روي أن شاوور كان يركب في الأبهة العظيمة ، والعدّة الحسنة ، والآلة الجميلة على عادتهم الأولى ، وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق ، وكان شاوور قليل الركوب ، فجعل الأمراء يتصدّونه ، ورأى أسد الدين قبل قبض شاوور بليلة كأن شاوور دخل داره ، وناوله سيفه وعمامته ؛ فتأوّله أسد الدين بالقبض عليه ، وأخذ منصبه.

ثم إن شاوور ركب يوماً في أبعته وجلاله ، فلما عاينه الأمراء هابوه ، وأحجموا عنه ، وكان يوماً عظيم الضباب ، وكان خروج شاوور من باب القنطرة للسلام على صلاح الدين ، فتقدّم صلاح الدين فسلم عليه ودخل موكبه ، ثم سايره ، ثم مدّ يده إلى تلايبه ، وصاح عليه ، فرجّله . ولما رأى ذلك عسكر شاوور نهبوا ما كان مع رجاله ، وقتلوا منهم جماعة ، وحمل الملك الناصر شاووراً راجلاً إلى خيمة لطيفة ، وأراد قتله ، فلم يمكنه دون مشاورة أسد الدين . وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاوور ، ، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين ، فقتله في الحال ، وأنفذ رأسه إلى القصر ، ولما بلغ الكامل بن شاوور قتل أبيه هرب إلى القصر ، وخلع العاضد على أسد الدين ، وقلّده الوزارة ، وأنفذ إليه طبق فضة رأس الكامل بن شاوور ورؤوس أولاده وإخوته^(٣).

وبعد أن قام صلاح الدين بإزالة العوائق التي يمكن أن تقف أمامه ، قام بإعلان الخطبة العباسية ، وقد تمّ ذلك على مراحل بعد استشارة أمراءه كعادته:

١ أمر قراقوش بتشديد السيطرة على القصر بحيث صار العاضد معتقلاً في أيدي الأتراك .

(١) الأعلام - ٨ / ٢٢٠

(٢) الحروب الصليبية - ١٥٠

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٦٣ ، ١١١ ، وفيات الأعيان - ٢ / ٤٤١

٢ في يوم الجمعة أمر الخطيب بالدعوة للإمام أبي محمد ، فتحاله العامة العاضد ، وهو يريد أبا محمد المستضيء العباسي ، وقد عرف العاضد بذلك ، وكان مريضاً.

٣ وفي الجمعة التالية نُحُطِب للخليفة المستضيء ، وهو الذي قَلَّد صلاح الدين بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وتوفي العاضد بعدها بثلاثة أيام أو أربعة ، وبذلك اتَّحدت مصر والشام تحت قيادة واحدة^(١).

وقام صلاح الدين رحمه الله بعد ذلك ببعض التحركات الدقيقة ، والتي كان يهدف من خلالها تقوية دولته ، وتثبيت أسسها ، ففي سنة ٥٦٤ هـ توجه الواعظ الدمشقي زين الدين إلى بغداد ، حيث كان مكلفاً بمهمّة خاصة غير رسمية كلفه بها صلاح الدين (بموافقة نور الدين) لإطلاع الخليفة المستنجد والوزير الجديد على ما حصل في مصر حقيقة ، ودون ضجة تُثير انتباه العام والخاص من الناس ، فاستُقبل في ديوان الخلافة ، وخَلَع الخليفة عليه أهبّة سوداء ، فكانت عنده يلبسها في الأعياد^(٢).

ولما تحوَّف نور الدين من اتّساع نفوذ صلاح الدين ، ساسه صلاح الدين ، واعترف له بالملك ، وفي هذه الأثناء سيّر جيوشه إلى اليمن فامتلكها ، ثم توفي نور الدين ، فزال الفجوة بين صلاح الدين والزنكيين^(٣).

وعندما تولى رحمه الله القيادة أبدى مقدرةً فائقةً على تصريف الأمور ، فاستمال قلوب الناس ، واسترضى الأمراء الناقمين عليه ، فاستتب الأمر له بلا منازع ، ولم يبق للخليفة العبيدي العاضد إلا الاسم ، ولاح لنور الدين صاحب الشام أن يقطع الخطبة العبيدية ، وأن يقيم الخطبة العباسية بمصر ، فأرسل إلى صلاح الدين بذلك ، فنقذ ذلك ، وكان العاضد مريضاً ثم مات دون أن يُعلمه بذلك^(٤).

ومع أنه تمكّن رحمه الله من القضاء عليهم إلا أنه كان دائم اليقظة والتحرُّز من حركاتهم وأخطارهم ، يخبرنا بذلك المؤرخ أبو شامة فيقول: (ولم يزل رحمه الله يتوسّم من جند مصر ، ومن أهل القصر بعد ما أزال من بدعتهم ، ونَقَضَ مِنْ عُرَا دولتهم ، أنهم أعداء وإن تعدّت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام . وكان لا يحتقر منهم حقيراً ، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً ،

(١) صلاح الدين-القائد وعصره - ١٤٥-١٤٦

(٢) المصدر السابق - ١٥٠-١٥١

(٣) الحروب الصليبية - ١٣٥

(٤) المصدر السابق - ١٢٦

وعيونهم لمقاصدهم موكولة ، وخطراته في التحرُّز منهم مستعملة ، لا تخلو سنة تمرُّ ولا شهر يكثر من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرَّعون إليه ، وحيلة يُبرمونها ، ومكيدة يتممونها. وكان أكثر ما يتعلَّلون به ، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة إلى الفرنج خذلهم الله ، والتي يوسَّعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم ، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم . وكان ملك الفرنج كلما سوَّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم ، والتحيُّل في مفاوضاتهم سيِّر (جرج) كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإلهم باطناً ، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا ، وعاقداً معهم القبيح الذي يشمل عليه في وقته علمنا^(١).

وبعد اشتداد ساعد الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين ، واستقرار الشام ومصر أمنياً ، تحوَّل تدريجياً من سياسة المهادنة المتجدِّدة مع الصليبيين (أي الدفاع) - وكان هذا نتيجة ضعف القدرة السياسية والعسكرية في السابق - إلى سياسة الهجوم في العمق داخل المناطق التي كان الصليبيون يسيطرون عليها ، وقد اتَّسمت سياسته هذه بالمرونة والصبر والمرونة ، وبهذا تمكَّن من تحقيق الوحدة الضرورية التي أرادها^(٢).

ومن باب إعداد الجيش الإسلامي كان صلاح الدين يهتم بإعداد جنده إعداداً عسكرياً جيِّداً، فكان يتعهدهم بالعناية ، ويسمح للمحارب أن يُحارب ساعات ثم يستريح ، أو يذهب إلى ذويه كما هو الحال في أرقى الجيوش الحديثة^(٣)، وفي الشتاء كان يُعطي العساكر إجازة^(٤).

وثمة أحداث عظيمة وقعت مع صلاح الدين دلَّت على ذكائه وحنكته:

- من ذلك ما روي أن السلطان كان رافضاً رفضاً قاطعاً للصلح مع الصليبيين ، وقد نقل ابن شداد عنه قوله: (متى صالحناهم لم نُؤمن غائلتهم ، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج ، والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت)^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧

(٢) انظر: صلاح الدين - القائد وعصره - ١٨٦

(٣) الحروب الصليبية - ٢٠٣

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٦٥

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٠٢ - ٢٠٣

-وتتجلى سياسية صلاح الدين بوضوح في ذلك الموقف الذي حكاه صاحب "كتاب الروضتين" ، فقد ذكر أنه لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه ، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته ، فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: (هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حوت بها قصور المصريين على أكتافنا ، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك ، وعمّا تصديت له تصدك ؛ وأنت قد تعدّيت طورك ، وتجاوزت حدك ، وأنت أحد غلمان نور الدين ، وممن يجب عليه حفظه في ولده). فلما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه ، وبالغ في إكرامه ، والإحسان إليه ، ثم أحضره بعد ثلاثة لسماع الرسالة منه ، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة ، وقع بتلك التمويهات العاطلة ، لم يُعره السلطان رحمه الله طرفاً ولا سمعاً ، ولا ردّ عليه خفضاً ولا رفحاً ، بل ضرب عنه صفحاً وتغاضياً ، وترك جوابه إحساناً وتجاوياً ، وجرى في ميدان أريجته ، واستنّ في سنن مروءته ، وخاطبه بكلام لطيف رقيق ، وقال له: (يا هذا اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسدّ الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكفّ عادية المعتدين)^(١).

-ومن الحوادث الدالة على حكمته ، وحنكته العسكرية ما روي أنه أرسل كتاب تعزية حاراً إلى ملك بيت المقدس الصليبي يتأسّف فيه على فقد والد الملك الراحل ، ويدعو الملك الجديد إلى احترام ما كان بينهما من موثيق.

وقد أخذ الناقدون ذلك على صلاح الدين ، ولكن هذه حنكة سياسية تحسب لصلاح الدين ، ولا تحسب عليه ؛ لأنه أدرى بظروفه الحربية ، فهو يعرف أن المعركة إذا سبقت ميعادها المناسب قد تكون نتيجتها وخيمة بالنسبة له ، وفي الملك الجديد شباب مندفع ، وقد تُسوّل له نفسه أن ينقض الهدنة ، فيضطر البطل إلى النزال دون استعداد كافٍ ، فمن الحكمة كلّ الحكمة أن يكتب إليه معزياً ، وأن يُدكّر بمعاهدته مع والده ، وأن يُعلن تمسّكه الشريف بما كان من تعاهد . لقد كانت رسالة التعزية هذه مصدر هدوء نفسي للمتعهدين معاً ، وإذا تركت لصلاح الدين أن يفرغ إلى إعداد خطة منتظرة ؛ فقد أكسبته وقتاً طيباً كان في حاجة إليه^(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٣٤٦

(٢) انظر : صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٢١٥ - ٢١٦

وبعد ، فهذا غيظ من فيض عن أخذ هذا السلطان بأسباب القوة وحنكته ودهائه ، مما كان له أكبر الأثر في تقدم الدعوة في عهده ، وعهد مَنْ تبعه من ملوك الدولة الأيوبية .

المطلب الثامن: الشورى

الشورى مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام ، حث الله سبحانه وتعالى عباده عليه في عدد من الآيات القرآنية ، وأكّدته شواهد من السنة النبوية.

ويدل على مكانة الشورى في الإسلام تسمية الله سبحانه وتعالى لسورة كاملة في القرآن بالشورى ؛ تنبيهاً لأهميتها ، وعظيم مكانتها ، كما أن الله تعالى ذكر من أوصاف المؤمنين المستجيبين لأمر الله تعالى تشاورهم فيما بينهم في أمورهم، فقال جلّ وعزّ: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) ^(١).

كما أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه ، مع عدم حاجته لآرائهم ، لأن الله تكفل بإرشاده وتوجيهه ، ولكنّ الهدف من ذلك إرشاد الأمة الإسلامية إلى أهمية الشورى ، وأثرها العظيم ، قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ^ط وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ^ط فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ^ط فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ^ج إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ^(٢).

واستجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر الله ، وتوَكّد ذلك السنة العملية ، فقد كان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس مشورة لأصحابه في أحواله كلّها، في السلم والحرب ، في الحياة

(١) آية ٣٨ - سورة الشورى

(٢) جزء من آية ١٥٩ - سورة آل عمران

الخاصة والعامة ، وكانت عبارته عليه الصلاة والسلام إذا أراد استشارة أصحابه في أي أمر: (أشيروا علي)^(١) ، طالباً من أصحابه مشورتهم .

ومن أبرز الأمثلة على حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على استشارة أصحابه ما حدث قبل غزوة بدر ، فقد روي عن أنس ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ شَاوَرَ ، حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ . قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُحْيِضَهَا الْبَحْرَ لِأَخْضَانَهَا ، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْعِمَادِ لَفَعَلْنَا)^(٢) .

وكان صلى الله عليه وسلم يستشير النساء أيضاً فقد روي أنه بعد أن تم صلح الحديبية ، لما فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَضِيَةِ الْكِتَابِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: قَوْمُوا فَاخْرُجُوا ثُمَّ اخْلِقُوا. قَالَ الرَّاوي: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَثْمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلْمَةَ ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلْمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ ؟ اخْرُجْ ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بُدْنَهُ ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا ، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا)^(٣) .

ولقد اعتنى دعاة الدولة الأيوبية بالتشاور فيما بينهم ، وكان تمسكهم بهذا المبدأ العظيم من عوامل نجاحهم في الدعوة إلى الله ، ويؤكد هذا الأمر شواهد عديدة من تاريخهم ، وكان أكثر ملوكهم تمسكاً بهذا المبدأ العظيم مؤسس الدولة صلاح الدين الأيوبي ، فقد كان رحمه الله - قبل تأسيس الدولة الأيوبية- لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوي الأمين ، ويرجع في

(١) رواه مسلم في كتاب: التوبة ، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ، ٩٦/١٧ ، برقم ٦٩٧١

(٢) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير ، باب غزوة بدر ، ٩٩ / ١٢ ، برقم ٤٥٧٦

(٣) رواه البخاري في كتاب: الشروط ، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٩٧٢/٢ ، برقم ٢٥٨١

جميع مصالحه إلى رأيه المتين^(١)، وبعد أن أسّس الدولة الأيوبية عُرف عنه أنه كان كثير الشورى لأصحابه^(٢)، ولقد اقتدى به إخوانه وأبناءؤه من بعده.

وسأتحدث عن اهتمام دعاة الدولة الأيوبية بمبدأ الشورى من خلال النقاط التالية:

١ - أبرز المستشارين في الدولة الأيوبية

٢ - مجالس الشورى في الحرب

أولاً: أبرز المستشارين في الدولة الأيوبية

عُرف عدد من الدعاة في عهد الدولة الأيوبية بالحكمة والحنكة والفقہ وسداد الرأي ، مما جعل الحكّام والناس يأخذون رأيهم ، ويلجؤون إليهم فيما يعرض عليهم من قضايا ومشكلات. ومن هؤلاء الدعاة :

١ - الملك العادل:

كان أمراء الدولة الأيوبية يحترمون الملك العادل ، فقد روي أن صلاح الدين كان يُعظّمه ، ويعمل برأيه في جميع أموره ، ويتيمّن بمشورته ، ولا يُعلم بأن العادل أشار على السلطان بأمر فخالفه، وكان الأمراء إذا اجتمعوا للمشورة وكان الملك العادل حاضراً سُمع رأيه ، وإن لم يكن حاضراً كُتب له وأخذ برأيه^(٣).

وهذا في دلالة واضحة على حُسن رأي العادل وحنكته ، كما يدلّ على اهتمام الأمراء بالشورى، وتمسّكهم بهذا المبدأ العظيم.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٢٠٥

(٢) الكامل في التاريخ - ١٢ / ٥٠

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ١٩١ - ١٩٢

٢ - القاضي الفاضل:

كان السلطان صلاح الدين شديد الوثوق بمكان القاضي الفاضل ، دائم الاعتماد ، والاستناد إلى إحسانه ، فإن استقدمه خاف على من وراءه من المهام ، وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام ، وكان يُكاتبه دائماً بشرح الأحوال رغبة في استشارته^(١).

وكان رحمه الله عندما يعزم على الخروج للغزاة يبدأ بزيارة القاضي الفاضل ، ليستضيء برأيه فيما يريد أن يفعله ، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه^(٢)، ولقد صرح رحمه الله بسداد رأي القاضي الفاضل فقال عنه: (لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي الفاضل)^(٣). وقد اقتدى ملوك الدولة الأيوبية بمؤسسهم فكانوا يُقدِّرون القاضي الفاضل ويعملون برأيه.

٣ - زين الدين بن نجا:

خصّ صلاح الدين نفسه بزين الدين علي بن ابراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي ، وجعله من مستشاريه ، وكان يعمل برأيه ؛ لسداد رأيه ، وسعة حيلته ، وكان يسميه عمرو بن العاص ، ويصوّر أبو شامة طبيعة العلاقة بين الاثنين فيقول: (وكان السلطان يستشيريه ، ويروقه تدبيره ، ويميل إليه ، لتقديم معرفته ، وكرمه سجيته)^(٤)، وكذلك كان كثير من أرباب الدولة ، وأهل السنة في مصر ، فقد كانوا لا يخرجون عمّا يراه لهم ابن نجا ، وقد روي أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قال له: (إذا رأيت مصلحة في شيء فاكتبه إلي بها ، ما أعمل إلا برأيك)^(٥).

٤ - القاضي ابن شداد:

كان أفراد البيت الأيوبي يعودون دائماً إلى القاضي ابن شداد ويستشيرونه^(٦)، وماذاك إلا لعظم قدره ، وسداد رأيه وحنكته في حلّ المشكلات ، وثمة حادثة وقعت بينه وبين صلاح الدين تبين

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٢٣٨

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ٢ / ٢٥٥

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٦ / ١٥٧

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٢ / ٨٥

(٥) ذيل طبقات الحنابلة - عبد الرحمن بن رجب - ١ / ٤٣٧ - ٤٣٨

(٦) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٥

ذلك، وتؤكد على ثقة صلاح الدين برأيه ، وذلك بمسارحته بتطبيق ما أشار به عليه ، فقد روي أن صلاح الدين عرض له ما يهّمه ، فاستشار القاضي ابن شداد ، فقال له: قد وقع لي واقع وأظنّه مفيداً إن شاء الله ، وما هو إلا الإخلاق إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتماد في كشف الغمّة عليه ، فقال: وكيف نصنع؟ فقال ابن شداد: اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلي على العادة بالأقصى، موضع مسرى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويُقدّم المولى التصدّق بشيء خفية على يد مَنْ يثق به ، ويصلي ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك: (إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصره دينك ، ولم يبق لي إلا الإخلاق إليك ، والاعتصام بملكك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل) ، فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ، ففعل صلاح الدين ذلك كله ، وصلى ابن شداد إلى جانبه على العادة، وصلى ركعتين بين الأذان والإقامة ، وراه ساجداً ، ودموعه تتقاطر على شبيبته ، ثم على سجاداته ، حتى جاء الفرج^(١).

ثانياً: مجالس الشورى في الحرب

حرص الدعاة المجاهدون في هذا العصر على عقد مجلس للشورى قبل الإقدام على ابتداء أي خطوة في معركة من المعارك ، فقد كان القائد يُبادر باستشارة جنده، والاستئثار برأيهم ، كما أن الجند كانوا يسارعون بإبداء رأيهم ووجهة نظرهم فيما يعود على الجيش الإسلامي بالخير والفلاح. وتؤكد الشواهد التاريخية لهذا العصر على ذلك الاهتمام بالشورى ، مما يعطي القادة والجند درساً في الحث على الأخذ بهذا المبدأ العظيم ، والتطبيق العملي له في كل جوانب الحياة ، ولا سيما الشؤون العسكرية.

ومن أبرز الشواهد التاريخية على الشورى في الحرب في العهد الأيوبي التالي:

١- لما بلغ السلطان صلاح الدين عزم الفرنج على قصد القدس أحضر الأمراء ليلة عنده ، فلما اجتمعوا أمر القاضي ابن شداد أن يكلمهم ليحثهم على الجهاد ، فذكر ما يسر الله من ذلك، وكان ممّا قاله: (إن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة على الموت في لقاء

(١) النوار السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٢

العدو ، ونحن أولى مَنْ تأسى به ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة ، والتحالف على الموت ، فلعلّ ببركة هذه النيّة يندفع هذا العدو) ، فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه^(١) .

فقال صلاح الدين بعد أن سكت زماناً: (الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الإسلام وَمَنْعَتُهُ ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلّقة في ذمكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين مَنْ يلقاه إلا أنتم ، فإن لَوِثْتُمْ أَعْتَتِكُمْ طوى البلاد كطيّ السجلّ للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا كله ، وأكلتم مال بيت المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلّقون بكم ، والسلام) ، فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: (يا مولانا نحن ممالكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا ، وكبرّتنا ، وعظمتنا ، وأعطيتنا ، وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، وهي بين يديك ، والله ما يرجع أحدٌ منا عن نُصرتك إلى أن يموت) ، فقال الجماعة مثل ما قال ، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس ، وطاب قلبه^(٢) .

٢- طلب الصليبيون من المسلمين عقد صلح بينهم وبين المسلمين ، بشرط أن تعود لهم القدس وسوريا ، مع شروط أخرى ذكروها ، فعقد المسلمون مجلساً للتشاور، وإبداء رأيهم في هذه الشروط ، وبعد مداوات تمّ الاتفاق على الجواب التالي: (القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف مَنْ كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله ، وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة ، ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها)^(٣) .

٣- لما انتهى المسلمون من فتح بيت المقدس قرروا أن يتوجّهوا إلى صور ليفتحوها ، فرحلوا إليها سنة ٥٨٣ هـ ، فوجدوها مدينة حصينة قد بالغ الصليبيون في تحصينها ، وحفروا حولها خندقاً، وشحنوها بالأسلحة والعُدَد والمقاتلة ، فحاصرها المسلمون ، وطال حصارهم عليها، وأصاب الضجر والملل الكثيرين من أمراء المسلمين ، فأشاروا على قائدهم صلاح الدين بالرحيل حتى لا تفتى الرجال،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٤ / ٣٠٦

(٢) المصدر السابق - ٤ / ٣٠٧

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ١٩٤

وتقلّ الأموال ، ولا سيما بعد أن اشتدّ البرد عليهم ، وعندئذ استشار صلاح الدين الفقهاء والعلماء الذين كانوا معه ، وفي مقدّماتهم عيسى الهكاري ، فأشاروا عليه بالمصابرة والاجتهاد والثبات إلى الفتح ، لئلا يضيع ما تقدّم من الأعمال وإنفاق الأموال ، وقد أخذ صلاح الدين برأي العلماء والفقهاء ، وطلب من جنده الصبر والثبات وعدم تعجّل الأمور حتى تتمّ المهمّة بنجاح ، فوافقوه دون أن يُخلصوا النية له ، ولم يصدّقوا القتال ، ولذلك اضطر المسلمون للرحيل عن صور ، وتوجهوا إلى عكا ، تاركين أمر حصار هذه المدينة لوقت لاحق^(١).

٤- دعا السلطان صلاح الدين بعد انتهاء معركة عكا لعقد مجلس الشورى ، وقد حضره أرباب المشورة والأمراء ، وأمثال القاضي ابن شداد والعماد الأصفهاني الكاتب ، وذلك للبحث في أمر عكا ، وقام صلاح الدين بإلقاء خطبة عليهم ، قال فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل في بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر ، جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم ، فلينجزن كل منكم ما عنده في ذلك)^(٢).

وبعد مشاورات ومناقشات كثيرة انقسم أعضاء المجلس إلى فريقين ، فقد أيّد الفريق الأول الاستمرار في القتال قبل أن يجمع العدو شمله ويسعفه البحر بالإمداد ، بينما كان رأي الفريق الثاني الاستجمام والراحة في الخروبة حتى يتقوّوا على القتال فيما بعد ، واضطر صلاح الدين أن ينزل عند رأي المعارضين ، وانتقل العسكر إلى الخروبة ، وهناك أصيب الفقيه عيسى الهكاري بمرض أدى إلى وفاته ، وهو في ركاب صلاح الدين ، مستعداً كعادته لتلبية نداء الجهاد في سبيل الله ، وقد جاء رحيل السلطان وعساكره عن عكا فرصة كبيرة للصليبيين انتهزوها ، وأحكموا حصارهم حول عكا ، وحصّنوا أنفسهم ، واتخذوا كل الاحتياطات اللازمة لحماية أنفسهم من الأيوبيين ، وقد نتج عن هذا ضياع عكا في النهاية بعد حصار دام عامين كاملين^(٣).

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ٣ / ٤١١ - ٤١٣

(٢) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٣٢٢

(٣) المصدر السابق - ٣٥٥

ولقد كان نزول السلطان عند رأي المعارضين اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم عندما شاور جنده من شباب الصحابة قبل غزوة أحد ، فلما أشاروا عليه برأيهم عمل به ، مع عدم اقتناعه بذلك الرأي^(١).

٥- قبل فتح بيت المقدس قرر كبار قادة الصليبيين مفاوضة المسلمين لتسليم المدينة مقابل عهد أمان بشروط مناسبة ، وخرج وفد من الكبراء والوجهاء للتفاوض مع المسلمين ، لكن قائد المسلمين صلاح الدين رفض العرض بشدة وقال: (لا آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة هجرية ، فإنهم استباحوا القتل) ، وعاد الوفد دون الحصول على الأمان ، وترددت الرسل بين الجانبين في المفاوضات مدة خمسة أيام ، أصّر المسلمون فيها على رأيهم الحازم، ثم إن قائد الصليبيين هدّد المسلمين بتخريب الدور وقبة الصخرة ، وقتل الأسرى الموجودين بالقدس ، وإتلاف الأموال التي عندهم ، عندها عقد المسلمون مجلساً للشورى ، انتهى إلى قبول تسليم المدينة بالأمان حسب الشروط التي سيحددها الجانب الإسلامي^(٢).

٦- في سنة ٥٨٥ هـ لما كان المسلمون محاصرين لقلعة شقيف أرنون ، قرر الصليبيون في صور فرض الحصار عليها ، فقرّر المسلمون عقد مجلس شورى لا تُحاذ قرار فيما يجب أن يفعلوه إزاء اقتراب هذا الخطر الصليبي ، وكان هذا المجلس ينعقد كلّما دعت الحاجة إليه ، ويتكوّن من صلاح الدين وإخوانه وأولاده والأتباع ، ووزيره القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني ، وبهاء الدين بن شداد ، ولقد كان رأي قائدهم صلاح الدين الإسراع بمهاجمة الصليبيين قبل وصولهم إلى عكا ، بينما كان رأي مجلس الشورى ترك الصليبيين حتى يصلوا إلى عكا ، عندئذ يزحف الجيش الإسلامي عليهم فيحاصروهم ، فاضطر صلاح الدين للنزول عند رأي المجلس ، ويذكر العماد الأصفهاني في هذا الصدد: (وتبيّن لنا بالعاقبة أنّ الرأي السلطاني كان أصوب ، فإن نزالهم بعد نزولهم كان أصعب)^(٣).

٧- لما هاجم الصليبيون من صور مدينة عكا ٥٨٥ هـ ، وحاصرتّها جميع الجيوش الصليبية ، سقطت بأيدي الفرنج في سنة ٥٨٧ هـ ، بعد صراع دموي حاد ، ومصابرة عظيمة من المسلمين ، وتداول الطرفان الصراع ، ونال كل طرف من الآخر، وانتهت الحرب بعقد صلح الرملة بين ريتشارد

(١) السيرة النبوية - ٣-٤ / ٦٣ ، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - ٣٨١ قال الشيخ مهدي رزق الله في حكمه على هذا الحديث: "رواه الطبري بإسناد حسن ، وصححه الحاكم ، وصححه الألباني بمجموع طرقه".

(٢) صلاح الدين-القائد وعصره - ٣٢٨ - ٣٣٠

(٣) الفتح القسّي في الفتح القدسي - ٢٩٧ - ٢٩٨

قلب الأسد والأيوبيين في سنة ٥٨٨ هـ ، ولم يكن صلاح الدين يميل إلى عقد الصلح ، وعندها عقد المسلمون مجلساً للتشاور في أمر الهدنة ، وقد كان رأي صلاح الدين عدم قبول الهدنة^(١) ، وقد كتب العماد الأصفهاني بأسلوبه رأي صلاح الدين: (نحن بحمد الله في قوة ، وفي ترقب نصره مرجوة ، وقد ألقنا الجهاد ، وألقنا به المراد ، والفظام عن المألوف صعب، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو ، رأيي أن أخلّف رأي الهدنة ورائي ، وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي ، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه)^(٢).

٨- جرت معركة قوية بين الأيوبيين والصليبيين أُسر فيها عدد كبير من قوات المملكة الصليبية، فعقد المسلمون بعد هذا النصر مجلس مشورة بقيادة صلاح الدين ، وقد ضمّ كبار أمراء جنده وأهل حاشيته ، وتبادلوا فيها الآراء حول مختلف الجوانب المتعلقة بحصن بيت الأحران الذي أنشأه الصليبيون ، وكان سبباً لكثير من المعارك والقحط والغلاء في بلاد الشام . واستقرّ الرأي في نهاية النقاش على إبقاء قطعة من الجيش بقيادة عز الدين فرخشاه في بانياس للحراسة ، وعودة صلاح الدين والأمراء والجند إلى دمشق ؛ للاستعداد والتجهيز لحملة كاملة تمكّنه من تحقيق الهدف الأساسي، وهو الاستيلاء على حصن بيت الأحران^(٣).

وبهذا يتبيّن لنا أهمية الشورى في الإسلام ، والفوائد العظيمة التي يجنيها الداعية عند استشارته لأصحابه .

المطلب التاسع: علو همة الداعية:

من أبرز عوامل نجاح الدعوة علو همة الداعية ، وقبل البدء بالحديث عن ذلك سأنتقل إلى معنى الهمة في اللغة والاصطلاح .

الهمة لغة: هَمَّه الأمرُ هَمًّا وَمَهْمَةً وَأَهَمَّهُ فَاهْتَمَّ ، واهْتَمَّ به . ولا هَمَامٌ لي (مبنيًا على الكسر).
والهَمَّةُ: واحدةُ الهَمَمِ ، والمِهْمَاتُ من الأمور: الشدائدُ المِخْرَقَةُ .

(١) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة - ١٨٤ - ١٨٨

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي - ٦٠٣

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره - ٢٢٤

وَهُمْ بِالشَّيْءِ يَهُمُّ هَمًّا: نواه ، وأرآده وعزم عليه^(١).

أما الهمة في الاصطلاح: فهي توجُّه القلب وقصده بجميع قُواه إلى جانب الحقِّ؛ لحصول الكمال له أو لغيره^(٢).

وقد وصف ابن القيم الهمة العالية فقال: "علو الهمة ألا تقف النفس دون الله ، ولا تتعوّض عنه بشيء سواه ، ولا ترضى بغيره بدلاً منه ، ولا تبيع حظّها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية ، فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم ، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم ، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها ، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان"^(٣).

إن اتّصاف الداعية بعلو الهمة من أبرز العوامل المؤدّية إلى نجاح دعوته ، وحماتها من الخذلان والزلل . فذو الهمة العالية لا يرضى من الأشياء إلا أعلاها ، أما من دنت همته وانحطّت فهو يرضى بأن يكون في الصفّ المتقاعس المتأخر. ومن أعظم ما يهتم به الداعية هداية الناس ، فيبذل جهده في نصحتهم وتوجيههم .

ولو تأملنا سيرة عظماء رجالات الإسلام من الرعيل الأول ومن بعدهم لرأينا أنّ أهم سبب لنجاح دعوتهم -بعد توفيق الله لهم- هو علو همّتهم ، فقد وقفوا حياتهم لحراسة الملة ، وخدمة الأمة، ولو لم يتحلّوا بعلو الهمة لما انتشرت هذه الدعوة في أقاصي المعمورة ، ولما جعل الله لهم لسان صدق في الآخرين .

وكان أسوة أولئك الهمامين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي حمل همّ هذه الدعوة على عاتقيه ، وبذل جهده في هداية البشرية إلى الدين الحق القويم .

وبهذا يتضح لنا جلياً أنّ لعلو الهمة في الدعوة إلى الله شأنًا عظيمًا ، وهي صفة لازمة لكلّ داعية يريد أن تُكَلِّل دعوته بالنجاح .

ولو سبرنا أغوار التاريخ وأحوال الدعاة على مرّ الزمان والعصور لوجدنا أنّ القاسم المشترك بينهم جميعاً هو علو همّتهم في دعوة الخلق إلى طريق الحق وهدايتهم إلى الصلاح والفلاح.

(١) لسان العرب - مادة همم - ١٢ / ٦١٩

(٢) التعريفات - ٣٢٠

(٣) مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية - ٣ / ١٧١

وفي الدولة الأيوبية تميّز عدد من ملوكها وعلمائها بهم عالية ، واستطاعوا بهمهم تلك الرقي بعبادتهم وعلمهم ودعوتهم وجهادهم . والأمثلة على علو هممة ملوك الدولة الأيوبية وعلمائهم كثيرة ، وسأكتفي هنا بذكر بعضها .

من ذلك ما صرّحت به بعض المراجع التاريخية بعلو هممة بعض منهم ، وذكرت شواهد لذلك ، ومن الأمثلة على ذلك:

لما حدّر القاضي ابن شداد صلاح الدين من المخاطرة بنفسه مبيّناً له أنه سور الإسلام وممّته ، قال له صلاح الدين: أنا أستفتيك ما أشرف الميتين؟ قال القاضي: الموت في سبيل الله ، فقال: (غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتين) ، ثم أخبره أنه يرغب في أن يركب البحر ، ويغزو مواطن الفرنجة في أوروبا لنشر الإسلام ، ويُعلّق ابن شداد على ذلك فيقول: "فانظر إلى هذه الطويّة ما أظهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه"^(١).

وفي رواية أخرى أن صلاح الدين قال لابن شداد: "أحكى لك شيئاً من نفسي ، إنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسّمت البلاد ، وأوصيت ، وودّعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، وأتبعتهم (أي الكفار) حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت"^(٢).

فصلاح الدين يرنو إلى ما وراء البحار لنشر الدعوة الإسلامية غير هيّاب بالمخاطر التي تعتوره، وذلك شأن الداعية الجسور الذي يضع همّ الدعوة ، وهداية الناس نُصب عينيه وفق مركزه ، وإمكاناته التي هيّها الله له ، ومثل صلاح الدين جدير بمثل هذه المطامح العالية ، ومن هنا دخل الرجل التاريخ من أوسع أبوابه.

وقد شهد المؤرّخون لصلاح الدين بهذه الهمة العالية ، قال الذهبي عنه: "كان مهيباً شجاعاً كثير الغزو عالي الهمة ، وكانت له همّة في إقامة الجهاد ، وإبادة الأضداد ما سُمع بمثلها لأحدٍ في دهر"^(٣). وقال صاحب شذرات الذهب: "ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً ، وبُعداً وقرباً ، ولم يبلغ ستين سنة"^(٤).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - ٢٢ - ٢٣

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي - ٦

(٣) سير أعلام النبلاء - ٢١ / ٢٧٩ - ٢٨١

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٢٩٩

ومن الملوك الذين وُصفوا بعلوِّ الهمة الملك الصالح ، فقد قال عنه صاحب الشفاء: "كان عالي الهمة ، عفيفاً ، طاهر اللسان والذليل ، كثير الصمت"^(١).

ومن الأمراء الذين ذكروهم التاريخ بعلوِّ همّتهم العالية بهاء الدين قراقوش ، وزير صلاح الدين ، فقد وصفه صاحب وفيات الأعيان: "أنه كان صاحب همة عالية ، حسن النية ، لذا وثق صلاح الدين بمعرفته وكفائته ، واعتمد في أحوال المملكة عليه"^(٢).

إن علوِّ همة هؤلاء الأفاضل ، وسعة طموحهم يعطيان الداعية درساً مهماً في أهمية اتصاف الداعية بهذه الصفات العظيمة ، فشحن الداعية نفسه بعلوِّ الهمة ، والطموح البعيد يساعده على التخطيط الجيد لدعوته ، ويسهّل عليه الوصول إلى هدفه الدعوي المنشود.

وقد مرّ بنا سابقاً في فصول هذه الرسالة الكثير من المواقف لملوك هذه الدولة وعلمائها في العديد من المجالات كالعبادة وطلب العلم والدعوة والجهاد دلّت دلالة واضحة على علو همّتهم ، ولولا الله عزوجل ثم وجود هذه الهمة لديهم لما نجحوا في إرشاد المجتمع إلى طريق الحق ، ولما استطاعوا أن يفتحوا ما فتحوه من بلاد ، ويوصلوا الدعوة إليها .

إنّ الدعاة الأقوياء مذ تيقظوا ما ناموا ، ومذ سلكوا طريق الدعوة ما وقفوا ، فهّمهم الصعود والارتقاء بالنفس ، باذلين جهدهم الحثيث في إيصال الدعوة الإسلامية إلى البشرية جمعاء، مُضحّين في ذلك الغالي والرخيص ، متطلعين إلى هداية الله الموعودة: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)^(٣) (٤).

مما تقدم يتبين لنا خصوصية أجواء الدعوة الإسلامية ، وازدهارها في العصر الأيوبي ، وذلك بما هياه الله سبحانه من ملوك حريصين على هذه الدعوة مهتمين بما راعين لما يصلح شأنها ، فبدلوا الأموال والأوقات والإمكانات المتاحة لهم ، كما أن توافر العلماء والرجال المخلصين دفع بهذه الدعوة أشواطاً متقدمة مما كان له أثر كبير في تحقيق نجاح متميز للدعوة وقضاياها في هذا العصر.

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - ٣٨١

(٢) وفيات الأعيان - ٤ / ٩١-٩٢

(٣) الآية ٦٩ - سورة العنكبوت

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٤ / ٢٩٩

وينبغي أن نستذكر التركة الثقيلة التي ورثها هذا العصر عن العصور السالفة قبله ، فقد كان في تلك العصور ، وعلى طول البلاد وعرضها جهل وضعف في البنية العلمية للناس مما أخر سير الدعوة.

وعلى كل حال فينبغي الاعتراف بأنَّ تحقيق الدعوة الإسلامية للنجاح في هذا العصر أمر لا يقاس بطبيعة الحال بالعهود الزاهرة الأولى ، ولكنه يعدُّ نجاحاً إذا ما قيس بعهود الأمة قبله وبعده.

ومن هنا فإننا وبكل يقين نعدُّ العصر الأيوبي ولا سيما وقت حكم صلاح الدين عصراً متميزاً فريداً له مكانته في تاريخ حكم أهل السنة والجماعة.

فرحمة الله على هذا القائد المظفر وعلى الدعاة المصلحين في هذا العصر ، وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير.

الخاتمة

الحمد لله الذي أعانني في هذه الدراسة العلمية التي تناولت حقبة من تاريخنا المجيد، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم.

لقد خرجتُ من هذه الدراسة إلى أن الوضع الديني والاقتصادي السائد قبيل قيام الدولة الأيوبية وفي بداية نشأتها كان وضعاً سيئاً إلى حدّ بعيد ، ولاسيما في مصر مركز الدولة العبيدية الرافضية. وبقضاء الدولة الأيوبية على الدولة العبيدية ، واستيلائها على مصر والشام واليمن وغيرها تحسّنت الكثير من الأوضاع ، وعاد للمذهب السنيّ هيئته ، و بدأ الخير والاستقرار يعمّان أرجاء البلاد التي حكمها الأيوبيون.

وقد تبين من هذه الدراسة أيضاً أهم سمات الدعوة الإسلامية لهذا العصر ، وقد وُجد في هذا العصر بفضل الله نموذج أمثل للداعية الحقّ ، تمثّل في شخصية مؤسس الدولة صلاح الدين الأيوبي ، إذ توافرت في شخصيته رحمه الله ما يحتاج إليه الداعية من صفات أساسية وصفات لازمة. وأظهرت الدراسة أنّ تعدّد الفتوحات الإسلامية ، وجهاد المسلمين ضد الصليبيين كان من السمات الدعوية الهامة أيضاً لهذا العصر ، بالإضافة إلى النشاط العلمي المميّز ، والحرص على توجيه الدعوة إلى غير المسلمين.

وتبيّن من خلال البحث أن الدعوة الإسلامية في هذا العصر مرّت بعدد من المراحل ، وفق الظروف المحيطة بها ، فبدأت بمرحلة المداراة ثم انتقلت إلى مرحلة الجهر ثم انتهت إلى مرحلة الانكماش التدريجي حتى سقوط الدولة الأيوبية وزوالها.

ثم بيّنت الدراسة أنّ دعاة الدولة الأيوبية اعتنوا بموضوعات الدعوة الرئيسة: وهي العقيدة والشريعة والأخلاق ، فكان نشر عقيدة السنة والقضاء على ما يخالفها هو شغلهم الشاغل ، وكان لتعظيم أوامر الشريعة الإسلامية ، ولتطبيق أحكامها مكانة كبيرة في نفوسهم ، كما كان التخلّق بالأخلاق النبويّة السامية مما يحرص عليه دعاة تلك الدولة.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى تنوّع أصناف الدعاة والمدعوين في ذلك العصر، فممارسة واجب الدعوة لم يكن حكراً على العلماء والوعاظ والخطباء بل شملت الملوك والأمراء والمستشارين والوزراء ، كما وُجّهت الدعوة لكلّ من يحتاج إليها سواء أكان ملكاً أم أميراً أم من عامة الناس ، أم من أهل الذمة والصليبيين.

وكشفت الدراسة عن أبرز الوسائل والأساليب الدعوية التي استخدمها الدعاة وعُنى بها في ذلك العصر ، وكيف كان لها الدور الكبير في إيصال الرسالة إلى المدعوين . كما بيّنت اهتمام الدعاة بتنوع تلك الوسائل ، والأساليب واختيار ما يناسب المدعو تبعاً لوضعه ، فتعدّدت الوسائل من رسائل ومناظرة وخطابة وجهاد ، كما تعدّدت الأساليب من قدوة وموعظة وحكمة وتعليم وتربية ، واستخدام ذلك كلّ من أجل إيصال الحق للمدعوين وإقناعهم به. كما تطرّقت إلى أبرز الميادين الدعوية التي أدّى بها الدعاة رسالتهم الدعوية ، من مدارس ومعارك وقصور ومساجد.

كما كشفت هذه الدراسة عن أهم المعوقات الداخلية والخارجية التي واجهت الدعوة في العصر الأيوبي ، وكيف كان لها الأثر الكبير في تأخّر الدعوة . ومن هذه المعوقات الفرق الضالة والتي كانت تؤلّف خطراً داخلياً كبيراً وعائقاً في مسير الدعوة، ولكن وقوف الدولة الدائم في وجهها خفّف من حدّة خطرهما.

ومن عقبات الدعوة البارزة التي أظهرتها الرسالة التعصّب المذهبي فيّنت آثاره السيئة وموقف بعض الملوك منه ، وكان لهذا الموقف الدور الكبير في التخفيف من مظاهره . كما كان الضعف الديني والخلط بين السنة والبدعة يؤلّفان عائقاً كبيراً أمام تقدّم الدعوة وسيرها الصحيح . ومن أهم المعوقات التي تجلّت في هذه الدراسة التنافس بين الأمراء الأيوبيين ، وما ترتّب على ذلك من ضعف الأمة عن مواجهة أعدائها. كما كان للترف الذي ابتلي به بعض الحكام ، والجوائح التي أصابت الأمة أثّر في تقليل فرص النجاح في المجال الدعوة في تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي.

ولقد كان الصليبيون عائقاً كبيراً أمام المسلمين في ذلك العصر ، وقد أشغل التجهيز للجهاد أمامهم ، والاستعداد له المسلمين كثيراً عن واجبه الدعوي المنوط بهم ، وأنهكهم من الناحيتين الجسدية والفكرية.

تم بيّنت الدراسة النتائج الدعوية لجهود الدعاة في هذا العصر ، وكان من أبرزها تصحيح مسار العقيدة وتصفيتها من الشوائب التي أصابها بسبب العقائد الباطلة التي هيمنت على بعض البلاد في ذلك العصر ، وكان من أبرزها العقيدة الراضية .

وكان تعيّر نظرة كثير من النصارى للإسلام والمسلمين ودخول طوائف منهم في الدين الإسلامي من أبرز النتائج العظيمة للدعوة في هذا العصر ، والتي كان لها أثر كبير في المجتمع

الإسلامي وشرائحه . كما أن محاولة تحقيق وحدة العالم الإسلامي والوقوف في وجه المدّ الصليبي كانا نتيجتين عظيمتين لجهود الدعاة في هذا العصر المبارك .

وقد نتج عن الجهود الدعوية المبذولة في ذلك العهد أن ازدهرت الحركة العلمية ، فُوجد الكثير من العلماء في شتى التخصصات ، وألّفوا فيها مصنّفات علمية موسوعيّة ، وحُفظت مكانة الحرمين الشريفين وبُذلت الجهود لرعايتهما أحسن الرعاية .

وتمّ الكشف في هذه الدراسة عن أهم العوامل التي ساعدت على تقدّم الدعوة ونجاحها في العصر الأيوبي، فبيّنت أن من أبرز تلك العوامل كان الاهتمام بالعلم من قِبَل الملوك والعلماء والنساء، بالإضافة إلى الإصلاحات التي قامت بها الدولة لتيسير أمور الناس ومعاشهم ، وانتقاء أفضل الولاة المؤهلين ، مع الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واللجوء إلى الله تعالى في الملمات وشكره تعالى على ما يسّره من الفتح ، كلّ ذلك كان من العوامل الهامة التي أثرت في الدعوة ، وساعدت في نجاحها .

وكان حرص الملوك على انتقاء البطانة الصالحة ، وأخذهم بأسباب القوة والحنكة العسكرية ، وتمسّكهم بمبدأ الشورى النبوي ، مع علو همّتهم وتطلّعهم دوماً إلى معالي الأمور وترفعهم عن سفاسفها ، ساعد ذلك كلّ على توفير الجوّ المناسب ، والترية الخصبة لجني ثمار الدعوة اليانعة .

وفي ختام هذه الرسالة أعرض أهم النتائج التي وصلت إليها ، وبعض التوصيات في ضوئها .

أما بالنسبة لما توصّلتُ إليه من نتائج فهي كالتالي :

١ جرز من خلال هذه الدراسة أن ما اتّسمت به الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية من سمات مميزة ساعد في توفير بيئة مناسبة للدعوة الإسلامية في ظلال هذه الدولة ، وساعد إلى حدّ كبير في تقدّم الدعوة الإسلامية في أرجائها .

٢ كما ظهر أنه لا بد للداعية من وضع خطة مرحلية محكمة قبل البدء في دعوته، وذلك

ليضمن أفضل النتائج المرجوة من دعوته ، كما أظهرت أن انكماش الدولة ونهايتها هو نتيجة

حتمية للتنازع والاختلاف .

٣ ومن نتائج الدراسة أن العناية بموضوعات الدعوة من عقيدة وشريعة وأخلاق يسهم إلى حد بعيد في تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية ، والوصول إلى ما ينشده الداعية من نجاحات وإصلاحات.

٤ كما بينت الدراسة أن الإسهام في المجال الدعوي ليس حكراً على العلماء وطلبة العلم ، فقد أدلى كل من الملوك والأمراء والوزراء بدلوه ، وأسهموا في تقدم الدعوة في زمانهم إسهاماً فعّالاً.

٥ تبين من هذه الدراسة أنه ينبغي للدعاة في كل زمان ومكان أن يحرصوا على أن تكون دعوتهم موجهة لكل أصناف المجتمع وطبقاتهم ، فلا يكون التركيز على صنف من المدعوين دون الآخر ، فلكلّ منهم الحق في إيصال رسالة الإسلام له.

٦ ظهر من خلال هذه الدراسة عظيم الفائدة بالإطلاع على أهم ما استُخدم في هذا العصر من وسائل وأساليب وميادين دعوية ، وتبين أنه لا بد للداعية من استخدام كافة الوسائل والأساليب الدعوية المتوافرة لديه ، مع التنوع فيها على ما يقتضيه الحال ، وليحرص على تنوع ميدان دعوته فلا يقتصر على ميدان دون آخر.

٧ كما أوضحت أن أي دعوة إصلاحية لا بد أن يقف في وجهها عوائق داخلية أو خارجية ، تُعيق نجاحها وتحدّ من تقدّمها ، والداعية الحصيف يحاول جهده مقاومتها والقضاء عليها ليستطيع إنجاح دعوته وإيصالها إلى المدعوين .

٨ أوضحت الدراسة نتائج الدعوة الإسلامية في هذا العصر ، والعوامل التي أسهمت في نجاحها، وهذا يعطي الداعية الحق الذي يروم جني ثمار دعوته درساً مهماً في التركيز على العوامل التي تساعد دعوته على الوصول إلى النجاح.

وأودّ في ختام هذه الدراسة أن أقدم بعض التوصيات التي أراها مناسبة بعد أن عشت مدّة زمنية واسعة مع أبوابها وفصولها ومباحثها:

١ أوصي بأن تُعنى أقسام الدعوة في الجامعات الإسلامية بدراسة مراحل التاريخ الإسلامي ، واستنباط الدروس منها ، والتعريف على مسيرة الدعوة الإسلامية فيها ؛ وذلك لأن في التاريخ ضوءاً كاشفاً يفيد الحاضر الذي نعيشه بما يحمله هذا التاريخ من تجارب ثرة للدعاة والمختسبين.

٢ كما أوصي بالتعاون العلمي مع الأقسام المختلفة في الجامعات للإفادة من الرسائل العلمية في التخصصات المختلفة كالتاريخ والتربية والحضارة ؛ وذلك لأن في هذا التعاون خيراً للدراسات المعمّقة ، كما أن فيها توفيراً للوقت والجهد على الباحثين ؛ لكيلا تتكرر الجهود في المجال الواحد.

٣ وأوصي أخيراً بدراسة هذا الفيض الكبير من علماء العصر الأيوبي ودعاته ، ممن لهم جهود في خدمة مذهب أهل السنة والجماعة ؛ ليكون في هؤلاء إثارة لهمم دعاة عصرنا ، ودفع للمزيد من الجهود في سبيل الدعوة.

٤ كما أوصي بإعطاء كل ذي حق من رجالات التاريخ الإسلامي حقه ، فننصفه إن استحق الإنصاف ، ونذكر هباته وأخطائه إن وقع له شيء من ذلك ، ولا ننسى أبداً أن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويُردّ إلا نبينا صلى الله عليه وسلم.

وفي ختام هذه الرسالة ، أسأل الله تعالى أن يبارك في عملي هذا وينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس

وتتضمّن :

- ١ - فهرس الآيات القرآنية
- ٢ - فهرس الأحاديث النبوية
- ٣ - فهرس الأعلام
- ٤ - فهرس المصادر والمراجع
- ٥ - فهرس الموضوعات

١- فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	الآية
سورة البقرة		
٤١	٨٣	(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)
٤٢	١٥٣	(يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)
٢٠٤	١٩٠	(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)
٢٠٢	١٩٣	(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)
٢٠٣	٢١٨	(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
٢٨٧	٢٣٢	(ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)
١٤٢	٢٣٥	(وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)
٢٩٩	٢٥١	(وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)
٧٣	٢٥٦- ٢٥٧	(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَٰؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

		يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
٢٥٦	٢٦١	(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
٣٠٠	٢٦٩	(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)
٢٨٧	٢٧٥	(فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ)
سورة آل عمران		
٤٠٥	٢٦	(قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
٦٥	٢٨	(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)
١٩٦	٥٣	(رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

١٤١- ٢٦٥	٩٢	(لَنْ تَأَلَوْا أَلْبَرَّ حَتَّىٰ تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)
٤	١٠٢	(يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ)
١٨٢	١٠٣	(وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)
٤٣٧	١١٠	(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)
٢٧٠	١٣٥	(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَصْرُوهَا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)
٢٤١	١٣٩	(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)
٤٠١	-١٤٦ ١٤٧	(وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

١٢٥- ٢٨٩ ٤٤٩	١٥٩	(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ^ط وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ^ط فَاعْفُ عَنْهُمْ ^ط وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ^ط وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ^ط فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ^ج إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ^ط)
٢٩٥	١٨٧	(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ^ط وَأَشْتَرُوا بِهِ ^ط ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ^ط)
٢٢٦	٢٠٠	(يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^ط)
سورة النساء		
٤	١	(يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ^ج وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ^ج وَاللَّارْحَامَ ^ج إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ^ط)
١١١- ١٢٧	٥٨	(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ^ج إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ^ط إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ^ط)
٢٨٩	٦٣	(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ^ط)
٤٤٤	٧١	(يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ^ط)

٢٠٤	٧٥	(وَمَا لَكُمْ لَا تُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا)
٣٨٨	١١٥	(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ ۗ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)
١٠٢	١٢٧	(وَدَسِّفْتُونَا فِي النِّسَاءِ ۗ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا)
١٠٢	١٧٦	(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۗ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَهُوَ أَخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۗ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وُلْدٌ ۗ وَإِنْ كَانَتْ أُمَّتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۗ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
سورة المائدة		
٢٩٥	٢	(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۗ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ ۗ

		وَالْعُدُونَ ^ج وَاتَّقُوا اللَّهَ
١٢٧	٨	(يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ^ج أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)
١٢٧	٤٢	(وَإِنَّ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ^ج إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)
-٢٤٢ ٢٦٩	٥٤	(يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ^ج ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ^ج وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)
١٧٧	٦٧	(يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ^ج وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ^ط إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)
سورة الأنعام		
١٨٨	٤٣	(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ)

١٩٩	٤٥	(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ^ج وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
١٨٨	٦٤	(قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)
٢٥١-٤٠	٩٠	(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ^ط فَبِهَدْيِهِمْ أَقْتَدِهِ ^ط قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ^ط إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)
٤٠٧	١٢٢	(أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ^ج فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ^ج كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
١٤٦	١٥٢	(وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ^ج ذَلِكَمُ وَصَّكُمْ بِهِ ^ج لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)
٣٤٠	١٦٤	(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)
سورة الأعراف		
١٣٢	١٣	(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)
٢٨٨	٩٠-٨٥	(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ^ط قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^ط قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ^ط

		<p>فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ ۗ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ</p>
٢٧٠	٢٠١	<p>(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)</p>
سورة الأنفال		
٤٠١	٩	<p>(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)</p>
-٢٢٩ ٣٧٧	٤٦	<p>(وَاصْبِرُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)</p>
-٢٠٤ -٢٢٢	٦٠	<p>(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ</p>

<p>٢٢٥- ٤٤٤</p>		<p>الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلَمُونَ</p>
<p>٢٤٠</p>	<p>٦١</p>	<p>(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)</p>
سورة التوبة		
<p>٢٤٢</p>	<p>١٤</p>	<p>(قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)</p>
<p>٢٠٥</p>	<p>٣٦</p>	<p>(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۗ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)</p>
<p>٢٤٢</p>	<p>٣٨</p>	<p>(يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۗ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۗ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا)</p>

٢٠٢	٧٣	(يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ^ط وَبئسَ الْمَصِيرُ
١٤٢	١١٤	(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)
٣١١	١٢٢	(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً ^ج فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)
سورة يوسف		
٣٢٠	١٢	(أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)
٣٢٠	١٧	(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ^ط وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)
٤٥	٣٦-٤١	(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ^ط قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آخِزًا بِرَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ^ط نَبِينَا بِتَأْوِيلِهِ ^ط إِنَّا

		نَزَلْنَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ.....)
٧٤	١٠٨	(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ^ط وَسُبِّحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
سورة الحجر		
١٣٥	٤٧	(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّٰ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرٍِّّٰ مُّتَقَبِلِينَ)
٢٩٥	٨٨	(وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
سورة النحل		
٧٣	٣٦	(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ^ط فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ^ج فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ)
١٠٢	٤٤	(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)
-١٩٣ -٣٠٠ ٢٨٩	١٢٥	(أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^ط)

		وَجَدَلَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
١٢٠	١٢٨	(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)
سورة الإسراء		
٣٠١	١٠٦	(وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)
سورة مريم		
٢٨٩	٤٧-٤١	(وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا.....)
سورة الأنبياء		
٢٨٢	٩٢	(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)
سورة الحج		
١٨٦	١	(يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

١٨٤	٤٠	(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ^{طه} إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ^{عزير})
٢٠٢	٧٨	(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)
سورة المؤمنون		
٧٣	٢٣	(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^{طه} أَفَلَا تَتَّقُونَ)
سورة النور		
٢٧١	٢٢	(وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^{طه} وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ^{طه} أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ^{طه} وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
١١٠	٥١	(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ^ج وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
سورة الفرقان		
٢٠٢	٥٢	(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا)

		كَبِيرًا
١٣٧	٦٣	(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)
سورة الشعراء		
١٧٥	٢١٤	(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)
١٣٢	٢١٥	(وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
سورة العنكبوت		
-١٨٦ ٤٦٠	٦٩	(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)
سورة لقمان		
٢٧٢	١٧	(يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)
سورة الأحزاب		

١٨٦	٢١	(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)
٤٠٥	٢٧	(وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)
١١٠	٣٦	(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)
٢٥٣	٤١	(يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)
٤	٧١-٧٠	(يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا  يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)
سورة سبأ		
٢٠٥	٢٨	(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)
سورة فاطر		

٤٠٧	٢٨	(إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)
سورة الصفات		
١٤٢	١٠١	(فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)
سورة الزمر		
٣٩	٩	(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)
١٣٢	٦٠	(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)
سورة غافر		
٦٤	٢٨	(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...)
سورة الشورى		
٤٤٩	٣٨	(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)
٣٠٦	٤٠	(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ

		فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
سورة الزخرف		
٢٧٩	٢٢	(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ)
سورة محمد		
٢٤١	٣٥	(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَىٰ السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)
سورة الحجرات		
٢٨٢	١٠	(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)
سورة الذاريات		
١٣٨	٢٤	(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)
٢٩٥	٥٥	(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)
سورة المجادلة		
-٣١١ ٤٠٧	١١	(يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

		دَرَجَاتٍ ^ج
سورة الحشر		
٢٨٢	٩	(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)
١١٦	١٠	(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيْمَانِ ...)
سورة الممتحنة		
٢٥١	٦	(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)
٣٩٢	٨	(لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)
سورة القلم		
-١٢٥ ١٧٥	٤	(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

سورة نوح		
٢٨٨	٤-٢	(قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٢﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ)
سورة الجن		
٣٤٣	١٨	(وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)
سورة الإنسان		
٢٣٧	٨	(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)
سورة البينة		
٣٨	٥	(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۗ)

٢- فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
٦٥	- (اِئْتَدُوا لَهُ فَبئس ابن العشيرة . أو بئس أخو العشيرة.....)
١٣٨	- (أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فوالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث....)
٣٢١	- (آخَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَرَارَ.....)
٢٦٥	- (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ...)
٢٢٤	- (استعينوا على إِنْجَاحِ الحَوَائِجِ بِالكِتْمَانِ...)
٤٥٠	- (أشيروا علي)
٢٦٥	- (أصابَ عَمْرَ بْنَ الحِطَّابِ أَرْضًا بِحَيْرٍ ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْمُرُهُ...)
٢٦٩	- (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)
٢٠٤	- (أُمرْتُ أَنْ أَقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ....)
١٩٨	- (إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي ، كل منافق عليم اللسان)
٤١	- (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه)
١٣٩	- (إن الله كريم يحب الكرم ويجب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها)
٤١	- (إن الله يحب الرفق في الأمر كله)
٢٨٢	- (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ)
٢٩٦	- (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عِزٌّ وَجَلٌّ....)
٣١٢	- (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علّمنا سنن الهدى ، وإن من سنن الهدى....)
٣٠٧	- (إن فَيَّ شَابًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِدْنِي بِالزُّنَا...)
١٤٢	- (إن فيك خصلتين يجبهما الله: الحلم والأناة)
٢٣٦	- (انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى سَبَّحُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ . وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ...)

٧٣-٤٦	- (إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا...)
١٢٥	- (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)
٢٩٥	- (إنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم)
٣٠١	- (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المُفَصَّلِ فيها ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ...)
١١٢	- (إنَّه لَيْسَ بِدَوَاءٍ ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ)
٣١٣	- (أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير...)
٤٢٧	- (الإيمانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...)
٣٢٤	- (بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّجُلِ فَقَالَ..)
٢٨٩	- (تصدقن، فإن أكثرن حطب جهنم) ، فقامت امرأة من وسط النساء)
١١٦	- (تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم)
٢٣٧	- (جئ بشمامة بن أثال - سيد بني حنيفة - أسيراً ، فُرِطَ بِسَارِيَةِ الْمَسْجِدِ.....)
١٤٩	- (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ...)
٦٢	- (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء من بعدهم قوم..)
٢٩٥	- (الدين النصيحة: لله ولكتابه ورسوله ، وأئمة المسلمين وعامتهم)
٢٠٤	- (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة فقلت: يا رسول الله من خير...)
٢٠٣	- (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد)
١١٥	- (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، وذكر منهم..)
١١٦	- (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله...)
٤٥٦	- (شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم جنده من شباب الصحابة...)
٤٢	- (الصبر عند الصدمة الأولى)
٢٧٠	- (صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلَاتِي الْعَشِيِّ ...)
٢٢٩	- (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله)

٢٣٦	- (غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، غِبْتُ عَنْ...)
٢٣٦	- (في غزوة أحد نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنوده: (من يأخذ هذا..))
٢٩٠	- (كان النبي صلى الله عليه وسلم يَتَخَوَّنُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةً السَّامَةِ عَلَيْنَا)
١٩٧	- (كان جذع يقوم إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما وضع له المنبر، سمعنا....)
١٢٥	- (كان خلقه القرآن)
٢٢٥	- (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتب الصفوف ويُعَبِّئُهُمْ عِنْدَ الْقِتَالِ بِيَدِهِ...)
٣١٢	- (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا التَّشَهُدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ...)
٣١٢	- (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ...)
١٣٩	- (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)
-١١٧	- (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا)
٣١٨	
٤٢٦	- (كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل ...)
١٧٨	- (كَتَبَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ ...)
١١١	- (كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله ، وعرضه)
٢٩٦	- (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ...)
٣٢٠	- (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فأنبطأ بي جملي وأعيا فأتى علي ..)
٣٠٠	- (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ....)
٢٣٤	- (لا والله ما أعطينا الدنيا من أنفسنا في الجاهلية ، فكيف وقد جاء الله ...)
٢٨٢	- (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)
٤٢٧	- (لا يسترعي الله عبداً رعية يموت حين يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه الجنة)
٣٢٠	- (لِتَعْلَمَ الْيَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً أَنِي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ)
-٢٥٠	- (لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب قال لأصحابه.....)
٤٥٠	

١٧٥	- (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ، قَالَ: جَمَعَ....)
٤٠١	- (اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام.....)
٣٠٠	- (اللهم علمه الحكمة)
١٣٤	- (اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا.....)
٢٩٦	- (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر...)
١١٩	- (لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)
١٤٩	- (لولا أي أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها)
١٤٢	- (ليس الشديد بالصُّرْعَةَ ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)
٤٢	- (ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر)
٤٦	- (ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي ...)
١٣٢	- (ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)
١٤٧	- (ما غرّت على امرأة ما غرّت على خديجة ، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني...)
٤٢٧	- (ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)
٢٥٧	- (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط...)
٣١٢	- (ما منكّن امرأة تُقدّم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجّاباً من النار)
٢٨٢	- (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه...)
٣١١	- (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا....)
٢٧٠	- (مرّ النبيّ بقوم يلقحون. فقال: (لو لم تفعلوا لصلح) قال: فخرج شيصاً. فمر...)
-١١٧	- (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله...)
٢٩٦	
٢٦٥	- (من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه ورية...)
٢٦٩	- (من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله الناس ، ومن أسخط الله برضى الناس....)
٢٥٦	- (من تصدق بعدل تمّة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب....)
٣١٢	- (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة....)
٣٩	- (من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين)

٤٢٥	- (نحن أولى بموسى منهم)
٣١٣	- (هذا أمين هذه الأمة)
٤٢٥	- (واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الدليل)
٣٣٤	- (والذي نفس محمد بيده لو بدأ لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن...)
٣٣٤	- (والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم...)
٤٥٠	- (والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن...)
٢٧١	- (والله لا أنزعها منه أبداً)
٣٢٠	- (والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي ...)
٢٥٣	- (يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً)
١٢٧	- (يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)
٣٢٤	- (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك.....)

٣- فهرس الأعلام

- إبراهيم بن عبد الواحد العماد المقدسي-٩٠-١٥٢-٣١٦
ابن الأثير-٢٢-٥٠-١٣٤-١٣٨-١٤٤-١٥٥-٢١٨-٣٥٦-٣٧٥-٤٠٤-٤٠٥
أحمد بن إدريس الصنهاجي القراني-٦٠-١٨٩-١٩٥
أحمد بن القاضي الفاضل-٤١٥
أحمد بن عمر المقدسي-١٦٣
أرناط-٥٦-١٢١-١٧١-٢١٠-٢٢٠-٢٤٣-٢٤٤
أروى الحرّة الصليحية-٢٥
أسامة بن منقذ-٨٩-١٢٩-٢١٧-٣٩١-٣٩٢
الأشرف بن العادل-٣٠-٣٣-٨٢-٨٣-٩٠-١٠٧-١٣٦-١٤٠-١٥٠-١٥٣-١٦٢-١٦٧-
١٨٩-٢٧٦-٢٨١-٢٩٥-٣٣٧-٣٣٨-٣٥٩-٣٧١-٣٧٢-٣٧٥-٣٧٦-٤١٥-٤٢٤-
٤٣٨
الأصفهاني-٣٦-٣٩-٤٩-٢١٧-٢١٨-٣٦٤-٤٠٨-٤٥٥-٤٥٦-٤٥٧
الأفضل بن صلاح الدين-٣٢-٣٣-٧٠-٨٧-١١٦-١٤٠-١٤٥-١٥٥-٢١٥-٢٢٧-
٢٥٩-٢٦٣-٢٧٣-٣٤٣-٣٤٥-٣٦٦-٣٧٠-٣٧١-٣٧٤-٣٧٥-٣٩٨-٤٠٢-٤١٢-
٤٢٢
أقسيس بن الكامل-٣٦٤
أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي-٣٣٦
الأجد بن صلاح الدين-٨٧-١٦٦-٢٧٤-٣٤١
الأوحد بن العادل-٣٠
آيبك المملوكي-٣٣
آيبك بن عبد الله-٣٦٢
أيطغان بن ياروق-١٢٢
بدر الجمالي-٢٣
بدر الدين الأسدي-٣٤٥

بدر الدين لؤلؤ- ٣٣٦

بدر الدين الهكاري- ٣٣٣

البرازيلي- ٤٢٠

أبو البركات الهاشمي- ٣١٩

برناردي بلا بكفورت- ٥١

البرهان البلخي- ٣٦٠

ابن البري- ٤١٧

بطرس- ٣٨٦

بكتمر- ١٥٢

بكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب- ٢٦٣

أبو بكر الصديق- ٢٧٢-٢٧٣-٣٣٧-٤٢٨-٤٠٤-٤٥٣

البكري- ٤٢٠

بنت الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل- ٣٤٠

بهاء الدين بن شداد- ٣٩-١٠٠-١٠١-١١٣-١١٥-١٢٩-١٣١-١٣٣-١٣٨-١٤٣-

١٤٤-١٦٦-١٨٩-٢١٨-٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٦-٢٥٧-٣٣١-٣٣٣-٣٣٤-٣٤٣-

٣٤٧-٣٧١-٣٧٥-٤٠٤-٤١٠-٤٢٣-٤٣٧-٤٤٨-٤٥٣-٤٥٤-٤٥٦-٤٥٧-٤٦٠-

بهاء الدين عبد الملك بن القاهر- ٣٣٣

بهاء الدين قراقوش- ٤٥-٤٣١-٤٣٥-٤٣٧-٤٤٥-٤٤٧-٤٤٩-٤٦٣

البوصيري- ٤١٥

بوهند- ٥٤

تاج الدين المسعودي- ٣١٩

التاج الكندي- ٤١٣-٤١٨

تاج الملوك- ٤٢

تقي الدين بن الصلاح- ٣٣٦-٣٣٩-٣٤٠-٣٧٢

توران شاه - ٣١-٣٢-٤٨-٤٩-٨٠-١٠٤-١٤١-٢١٢-٢١٣-٢١٨-٣٣٠-٣٥٥-

٤٧١-٣٦٨

توماس آرنولد-٥٣-٦١-٣٩٥

ثمّامة بن أثال-٢٣٨

جاروخ-٣٣٥

أبو جعفر بن موسى-٣٦٣

جفري-٢٤٥

جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي-٤٣٧

جمال الدين الحصري-١٦٣-٢٧٧-٤١٢-٤١٦-٤١٨-٤٢٠

جمال الدين الريغي-١٥٤-٢٨١

جمال الدين المصري-٣٣١

جمال الدين المقدسي-٢١٩-٣٣١

جمال الدين بن الحاجب عثمان بن عمر-٤٢٠

جمال الدين بن منقذ-١٩٢

جمال الدين محمد بن كمال الدين الشريشي-٣٣٢

جمال الدين يعقوب الحاكم -٣٩١

الجمال السبتي-١٠٧

الجمال بن الحافظ-٤١٩

الجواد-١٠٩

ابن الجوزي-١٦٣-١٦٧-٢٩٢-٢٩٤-٣٣٧-٣٥٧-٣٩١

أبو حامد محمد بن كمال الدين - ٢٨٥

الخرستاني-١١٨-١٣١-١٣٧-١٦٢-٢٥٦-٢٧٥-٤٢٣

حسام الدين بن لاجين-١٠٧

حسام الدين لؤلؤ-٢١٧-٢٤٤-٢٦٢

حسام الدين محمد الإخسيكتي - ٤١٨
أبو الحسن السامري - ٣٦٤
أبو الحسن علي بن قبيس - ٣٣٨
الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني - ٤١٦
الحسن بن منصور قاضيخان - ٤١٩
الحصري - ٤١٣
حنبل بن عبد الله الرصافي - ٤١١
أبو حنيفة - ٣٣١ - ٤١١ - ٤٢٠
خاتون بنت الملك عز الدين مسعود بن قطب الدين - ٣٣٨
ابن خلكان - ٢٣ - ٩٣ - ٢٦٧ - ٣٣٠
دانيال - ٣٩١
الداهري - ٤١٣
الدخوار عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي - ٣٣٦
الدمياطي - ٤١٥
الدولعي - ٩١ - ١٩٩
الذهبي - ٢٢ - ٤٧ - ٧٨ - ٨٢ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٤ - ١١٣ - ١٣٠ - ١٣٣ - ١٣٥ -
١٣٩ - ١٤٥ - ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٥ - ١٦٠ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٨ - ١٩٥ - ٢١٥ - ٢٣٩ - ٢٥٥ -
٣٤٢ - ٣٥٢ - ٤١٢ - ٤١٥ - ٤٢١ - ٤٢٤ - ٤٤٠ - ٤٦٠
راشد الدين سنان بن سلمان - ٧٨ - ٧٩ - ٢٠٨
رانيود - ٣٩٠
ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب - ٢٧١ - ٣٤٠ - ٤٣٠
ابن رسول اليميني - ٣١
ركن الدين منكورس - ٣٣٢
روبرت أوف سانت ألبانس - ٣٩٠
ريتشارد قلب الأسد - ٤٣ - ٢٢٧ - ٢٣٤ - ٣٠٥ - ٣٩٠ - ٤٥٧

زكي الدين المنذري - ٤١٩-٤٢١
الزخشيري - ٦٤-٤١١
زمرد خاتون - ٣٣٨
ابن زهير الدمشقي - ١٢٨
سابق الدين عثمان - ٤٣٥
أبو سالم بن همام الحلبي - ١٠٤
سبط ابن الجوزي - ٢٠١-٢٦١-٢٨٢-٢٩٢-٣١٠-٣٧٧-٣٧٨-٤١٨-٤٢٠-٤٢١-٤٢٤
ست الشام ابنة نجم الدين أيوب - ٢٦١-٢٦٨-٢٨٤-٣٣٧-٣٦٩
سراج الدين الأرموي - ١٩١
أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال - ٥٤-٣٤٣-٤٣٦
ابن سلام - ٣٣٥
السلفي - ٨٨-١٤٤-١٤٦-١٦٠-٣١٦-٤٠٨-٤١٤-٤٤١
سليمان المغربي - ١٢٢
سنقر - ٨٧
السهروردي الساحر - ٨٣
سيبويه - ٤١٠-٤١١
السيرافي - ٤١٠
سيف الإسلام طغتكين بن أيوب - ٧٠-١٢٠-٢١١٢١٧-٣٧٠-٣٧١
سيف الدين أيازكوج - ٣٣٣-٣٣٨
سيف الدين عبد الله بن عمر الحنبلي - ١٥٦
سيف الدين علي بن جندر - ٣٣٣
سيف الدين غازي - ٢٣
سيف الدين فارس الدوادار - ٣٣٢
شاه أرمن - ٢٠٩
سيف الدين المشطوب الهكاري - ٤٤١-٤٥٤

شاوړ-٢٢-٢٣-٢٦-٣٠٢-٣٥٥-٤٤٥

شبيب الحراني-٣٧٣

شجاع الدين بن البيضاوي-٤٦٦

شجرة الدر-١١٩

الشرف الإربلي-٤١٧

شرف الدين أبو حامد بن أبي عصرون-٣١٦-٤١٦-٣٣٧-٤٤١

شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم-١٦٢

شرف الدين محمد بن عروة-١٦٢-٣٣٤

شمس الدين أحمد بن الخليل-٤٢٤

شمس الدين الخويي-١٦٣

شمس الدين بن أبي عمر-١١٨

شمس الدين بن عطاء-١١٨

شمس الدين بن الكمال-٣٣٠

شمس الدين بن المقدم محمد بن عبد الملك -٤٥-٣٧٣

شمس الدين بن كمال المقدسي-١٥٢-٣١٥

الطوسي-٢٨٠-٣١٥-٣٣٢

الشافعي-٩٥

ابن الشهيد السمرقندي-٤١٨

الشهرزوري-٨٢-١٣٤-٣٣٢-٣٣٤-٤٤١

الشيخة بنت سعد الخير-٣١٧-٤٢٠

ابن الشيرازي الدمشقي-١٣١-٣٣٤

شيركوه بن محمد-٩٩-١٠٨-١١٤-١٦١-٢٨٧-٣٨٢-٤٣٩
أسد الدين شيركوه الكبير-٢٢-٢٣-٢٧-٢٨-٤٥-٩٨-١٠٤-١١٣-١٤١-٣٠٥-٣٢١-
٤٥٠-٣٧٤-٣٣٦-٣٣٣
ابن الصابوني-١٢٠
صارم الدين بزغش-٨٠-٤٣٦
صارم الدين خُطْبُبا - ٣٧١
صارم الدين قايماز النجمي-٢٦٢-٣٣٩
الصالح اسماعيل بن نور الدين-٣٠-١١١-٢٠٧-٢٠٨-٢٧٦
صالح بن الحسين الجعفري-٥٩
الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل-١٩١-٣١٥
صدر الدين أحمد بن شهاب الدين علي الكاشي-٣٣٨
صدر الدين بن حمويه-٤٢٤
صدر الدين بن درياس الشافعي-٧٦
صدر الدين شيخ الشيوخ-٥٥-٤٤٣
صدر الدين بن المجاور-١٦٧-٣١٩
صدر الدين محمد بن عبّاد الخلاطي-١٢٩-٤١٧
صدقة الحراني-٤١٣
ابن صدقة-٤١٣
ابن صَعْرَى - ٣٦٤
ابن الصفراوي-٣٤٢-٤١٢
الصفوي بن قابض-٤٤٢
صفية خاتون - ٣٧٨
ضرغام-٢٨
الضياء بن الأثير-٣٦٧
ضياء الدين محاسن-٣٤٠

ضياء الدين محمد بن الحسن العجمي - ١٣٠-٣٣١

ضياء الدين المقدسي - ٩١-١٥١-٣٣٥-٤٤٠

الضياء الطبري - ١٢٢

ضيقة خاتون بنت الملك العادل - ١٠٦-١٣١-٣٣٧

طاشكتين - ٣٧٤

أبو طاهر بن عوف الزهري - ٤٠٩

ابن طبرزد - ٤١٣

الطحاوي - ٨٩

الطرّاز - ٨٨-٩٠

الظاهر - ٣٢-٣٣-٥٥-٥٩-٧٠-٨٣-٨٤-٩٤-١٠٦-١٣٢-١٣٨-١٤١-١٦٨-١٨٩-

٢١٠-٢١٨-٢٢٩-٢٦٧-٢٧٧-٢٨٧-٢٩٥-٢٩٨-٣١٢-٣٣٤-٣٣٥-٣٣٦-٣٤٠-

٣٦٧-٣٧٦-٣٧٧-٣٧٩-٣٨٤-٤٠٤-٤١٣-٤٢٣-٤٣٢-٤٣٩

الظاهر بيبرس - ٢٧٨

الظاهر خضر بن صلاح الدين - ٣٧٣

عائشة بنت الحافظ معمر بن الفاخر - ٤٢٢

عائشة بنت المجد عيسى - ٤٢٢

العادل - ٣٠-٣٣-٥٤-٧٠-٨٢-٩٠-١٠٣-١٠٤-١١٤-١١٥-١١٩-١٢٠-١٢٣-١٣١-

١٣٢-١٤١-١٤٦-١٥٣-١٦١-١٦٣-١٦٤-١٨٤-١٨٧-١٩٢-١٩٦-٢٠٢-٢١٨-

٢٢٩-٢٣٦-٢٤٢-٢٤٧-٢٥٥-٢٥٧-٢٦١-٢٦٤-٢٦٧-٢٧٧-٢٧٨-٣١٢-٣٣٣-

٣٤٧-٣٥٧-٣٥٨-٣٦٣-٣٧٠-٣٧٦-٣٧٧-٣٨٠-٣٨١-٣٨٥-٤٠٢-٤٢٣-٤٣٣-

٤٣٧-٤٣٩-٤٤٤-٤٤٥-٤٦٠-٤٦٤

عاشوراء زوجة الأمير أيازكوج الأسدي - ٣٣٨

العاضد الفاطمي - ٢٢-٢٣-٢٤-٢٨-٢٩-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٧٥-٧٩-١٠٢-١٠٣-

١٤٨-٢٦٠-٢٦٢-٢٨٠-٣٠٢-٣٠٣-٣٠٤-٣٦٩-٣٧٥-٣٨٥-٤٣٦-٤٤٧-

عبد الأحد بن حسن بن الحافظ لدين الله - ٣٥٥

- عبد الرحمن بن منقذ - ٢٢٣
- عبد الصمد الكاتب - ٣٥٣
- عبد العزيز بن عبد الواحد - ٨١
- عبد الغني المقدسي - ٩١-١٦٨-٢٧٢
- عبد العزيز الجيلي - ٣٦٤
- عبد الكرم بن محمد الراجعي القزويني - ٤٢٠
- عبد اللطيف السهروردي - ٤٣٦-٤٣٧
- عبد الله الأذري - ٢٨٠-٣٣٢
- عبد الله بن بَرِّي النحوي - ٤١٣
- عبد الله بن أبي الحسن الجَبَّائِي الطرابلسي - ٦١
- أبو عبد الله القرطبي - ٣٣٦
- أبو عبد الله المهدي - ٢٥
- عبد الله اليونيني - ٨٧-٩٢-١١٥-١٥٥-١٦٣-١٦٦-٢١٧-٢٧٣-٣١٧-٣٩٠
- عبد الله بن علي بن شكر - ٣٤٧-٣٦٤
- أبو عبد الله محمد بن عمر المقدسي - ٣٣٢
- عبد المجيد بن عمر بن القدوة - ١٩٥-١٩٦
- عبد المنعم بن عمر الغساني الأندلسي الجلياني - ٤٢٤
- عبد النبي بن مهدي - ٤٩-٨٠-٢١١
- عبد الواحد الصوفي - ٣٩١
- عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري - ٨٢
- عثمان بن عفان رضي الله عنه - ٢٤-٣٠٣
- ابن العديم الحنفي - ١٣٧-٣٧٧
- عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب - ٣٣٧
- عز الدين بن فرّخشاہ - ١٤١-٤٨٥
- عز الدين بن عبد السلام - ٩٥-١١٩-١٨٩-٢٦٨-٢٧٧-٢٧٨-٣٠٦-٣٦٠-٣٦٦

عز الدين عثمان بن الزنجيلي-٢٦٨
عز الدين قليج أرسلان بن سعود-٣٤١
عز الدين محمد بن عبد الغني-٢٥٦-٤١٣
عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه-٣٣١
عز الدين موسك الهذباني-١١٧
العزير ٣٢-٣٣-٤٩-٥٩-٧٠-١٠٣-١٠٤-١٠٩-١١٤-١٣١-١٤١-١٥٢-١٥٤-
١٥٧-١٦٩-٣٢١-٣٣٥-٣٥٩-٣٦٣-٣٧١-٣٧٢-٣٧٦-٣٧٧-٣٨٠-٣٨١-٣٨٤-
٤١٤-٤٢٣-٤٤٠-٤٦١
العزير الفاطمي-٢٤
عزيزة خاتون بنت الملك قطب الدين-٣٣٧
ابن عساكر-١٥٢-١٦٠-١٦٢-٢١٨-٢٥٥-٢٦٠-٢٧٤-٣٥٨-٤١٧-٤٤٠-
عصمة الدين بنت معين الدين أنر-١١١-١٦٠-٢٦٢-٢٦٨-
عفيف بن عبد القاهر سكرة اليهودي-٤٢٧
عفيفة بنت أحمد الفارانية-٤٢٢
ابن عقيل-٣٦٢
علاء الدين خرّم شاه بن عز الدين مسعود-١٤٠
علم الدين قيصر-٤١٣
علي الآمدي-٨٢-٨٣-٢٦٨-٤١٤-٤٢٠-
علي الحريري-٣٧٠
أبو علي الفارسي-٤١١
علي الموصللي-٣٣٥
علي بن أبي طالب-٢٤-٣٠٣
علي بن بنت أبي سعد-٤٠٩
علي بن عريف النحاسين-٢١٣
علي بن محمد الصليحي-٢٥

علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي-٥٩
العماد الأصفهاني-١٠٨-١١٧-١٣٥-١٤٤-١٦٨-١٧٠-٢١٤-٢١٧-٢١٨-٢٢٨-
٢٣١-٢٥٣-٢٥٩-٢٨٣-٣٤٢-٣٤٣-٣٨٤-٤٥٦-٤٥٧-٤٥٨-٤٦٧
أبو عماد الدين الفتوح عثمان-١٥١
عماد الدين زنكي-٢٣-٢٤-٢٧-٩٨-١٢١
عماد الدين صاحب سنجار-١٢١
عماد الدين بن المشطوب الهكاري-١٤١-٢٨١
عمارة اليماني-٧٦-١١١-٣٥٦
عمر بن الصالح نجم الدين أيوب - ٣٧٨
عمر الخلاطي-١٣٠
عمر بن الخطاب-٢٧٤-٣٠٦-١١١-٢٠٤-٢٨٨-٢٩٥-٣٦٤-٤٥٤-٤٦٣-٤٦٨
عمر بن دحية-٤١١
عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي-٢٩٥
أبو عمرو بن الحاجب-١٦٤-٢٧٩-٢٨٠-٤١٨
أبو عمرو بن الصلاح-٨٣-١٩٧-٣١٨-٤٢٣
ابن عنين-٤٣٨
عيسى (عليه السلام)-٥٥-٨٠-٣٦١
عيسى العوام-٢١٦
عيسى الهكاري-١٢٣-١٦٣-١٧١-٢٢٠-٢٢١-٢٢٩-٢٨٧-٣٨٠-٤٢٢-٤٣٤-٤٣٧-
٤٤٩-٤٥٠-٤٦٣-٤٦٤
أبو الغنائم محمد بن المعلم-٨٦
غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام-١٩٧
فاطمة بنت سعد الخير الأنصاري-٤٢١
أبو الفتوح بن العاضد-٦٧
فخر الدين عثمان الياروقي-٣٣٦

فخر الدين محمد بن عمر الرازي-١٩٧

فخر الدين يوسف بن حمويه-٥٥-١٩٣

ابن فرج-١٦٢

فريدريك الثاني-٥٥-١٩٣

الفضل بن البانياسي-٤١٢-٤١٣

ابن القابلة الحنبلي- ٩١

أبو القاسم بن البزري - ٤٤٩

القاسم بهاء الدين أبو محمد-٤١٦

أبو القاسم بن حصين - ٤١٦

القاسم الرُّعيني الشاطبي-٣٣٩-٤١٧

أبو القاسم بن رواحة-٣٣٧

أبو القاسم بن الصفراوي-٣٤٥-٤١١

أبو القاسم محمود بن المبارك-٣٣٧

القاسم بن مهنا-٤٥١

أبو القاسم الواسطي-٢٤

القاضي الفاضل-٦٦-٨٣-٩٨-١٠٠-١٠١-١١٢-١١٤-١٢٣-١٣٦-١٣٧-١٤٥-

١٥٢-١٥٤-١٦٢-١٨٢-١٨٣-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩١-٢٥٨-٢٦١-٢٦٣-

٢٦٦-٢٧٢-٣٣٩-٣٤٥-٣٤٦-٣٥٨-٣٦٨-٣٨٠-٣٨١-٤٠٢-٤٠٣-٤١٥-٤١٧-

٤٣٦-٤٣٧-٤٤٠-٤٤٥-٤٤٧-٤٤٩-٤٥٠-٤٥١-٤٦٠-٤٦٥

القاضي شهاب الدين-١٤٤

القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه- ٣٣٤

قديد القفاص-٨٠

قطب الدين ينال بن حسان-٤٥٦

القطب النيسابوري-٣٩-٨٩-١٣٨-٢٧٠-٤٠٨

ابن قيم الجوزية- ٤٦٧

الكامل بن العادل-٣١-٣٣-٥٥-٥٨-٦٠-٧٩-٨٤-٩٠-٩١-٩٤-١٠٤-١٠٩-١١٧-
١٢١-١٢٢-١٣٠-١٣٥-١٤٧-١٦١-١٧٣-١٩١-١٩٣-٢٠٢-٢١٨-٢٧١-٢٧٥-
٢٧٦-٢٧٩-٢٩٨-٣١٧-٣٦٣-٣٦٩-٣٧٧-٣٧٨-٣٧٩-٣٨٢-٤١١-٤١٢-٤٢٣-
٤٢٩-٤٣٢

الكامل بن شاور-٤٥٣

الكامل محمد بن غازي-٢٥٨-٢٨٧

الكتبي-٢٧٨-٤٤٠

ابن كثير المؤرخ-٢٣-٧٥-٨٣-٩٠

ابن كثير المفسر-٤٠٧

كريمة بنت عبد الوهاب بن علي-٤٢١

ابن كسا البليسي-٣٦٨

كمال الدين الشريشي-٣٣٥

كمال الدين بن الشهرزوري-٤٤٩

كمال الدين موسى بن منعة-٣٣٦

كمشكين-٢٠٩-٢١٠

الكنز-٣٥٨

أبو الكيزان الظاهري-٣٦٣

لوزيفيان-٢٤١

المتني-٣٦٨

المجاهد بن صلاح الدين-١١٣-٢٢٧-٣٧٧-٣٨٢

المجد البهنسي-٣٦٨

مجد الدين طاهر الكلابي الحلبي-٣٤٢

مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني-٨٣-١٩٥-٢٥٦-٤٢٠

مجد الدين قاضي الطور-٣٣٤

مجد الدين محمد بن محمود الأستروشي-٤١٨

محاسن الدين بن عبد الملك الحموي-١٥٦

المحسن بن أبي المضاء-٣٢١

المحسن-١٣٧-٤١٢

ابن المحلي القاضي أبو محمد عبد الله -٤١٠

محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي-٩٠-٩١-١٥٧-١٦٣-١٦٥-١٩٧-٢٥٨-٢٨٧-٣١٨-

٣٢٠-٣٢٢-٤٢٠-٤٢١

محمد بن علوان بن مهاجر الموصللي-٣٣٦

محمد بن عليّ الزكي-٨٤

محمد بن محمد العيدي-٤١٧

محمد بن يونس الموصللي-٤١٩

أبو محمد عبد القادر الرهاوي-٣٣٥

محمود بن همام الدمشقي-٩١-٢٨٣

محيي الدين بن الجوزي-٣٣٩-٣٩٥

محيي الدين بن الثقفي-٤١٤

محيي الدين بن العربي-٨١

محيي الدين بن زكي الشافعي-٢٠١

مختار بن محمود الزاهدي-١٩٧

المستضيء بنور الله العباسي-٢٣-٧٦-٢٠٦-٢٠٨-٤٥٤

المستنصر العبيدي-٢٥

مسطح بن أثاثة-٢٧٤

مسعود يوسف بن الكامل-٣١-٤٩-٣٦٩-٣٧٨-٣٧٩

مظفر الدين كوكبوري-٩٣-٣٣٥-٤٣٠

المظفر تقي الدين بن عمر-٤٦-٩٩-١١٣-١١٦-١٢٨-١٤١-١٦١-٢١٨-٢٢٩-٣٠٨-

٣١٨-٣٣٥-٣٤١-٣٦٢-٣٦٤-٣٨٢-٤١٢-٤٢٣-٤٣٣

المظفر غازي بن العادل - ٣٧٨-٣٠
أبو المظفر محمد بن علوان الموصلبي - ٣٣٦
معاذ بن جبل - ٤٦-٣٢٩
أبو المعالي محمد بن يحيى القرشي - ١٥٤
أبو المعالي مسعود بن محمد النيسابوري - ٣١٨-٣٢٢
المعظم - ٨٩-٩٩-١٠٦-١٤١-١٥٤-١٣٧-١٦١-١٦٤-١٦٨-٢٠٢-٢١٤-٢١٨-
٢٧٨-٣١١-٣٣٣-٣٤٠-٣٤١-٤٠٢-٤٠٤-٤١٠-٤١٤-٤١٨-٤٢٩-٤٣٣
معظم شمس الدولة - ٣٧٦
المعظم عيسى بن العادل - ٣١٨-٣٣٤-٣٣٧-٤٢٥
مُكثّر بن عيسى الهاشمي - ١٠٦
المكرم الصليحي - ٢٥
الملك القاهر - ٣٧١-٣٣٤
المنصور - ٤١٣-٤٢٣-٤٢٩-٤٥١
مهذب الدين بن النقاش - ٤٢٤
أبو موسى الأشعري - ٢٤٧
موسى عليه السلام - ٥٥-١٩٥-٣٣٨-٤٢٦
الموفق عبد اللطيف - ٤٠-١٣٥-٢٥٥-٢٧٥-٢٨٦-٤٠٩
الناصر (صاحب حماة) - ٣٧١
ناصر الدين الحسين بن علي - ٣٣٥
ناصر الدين محمد بن العزيز - ١٠٣
الناصر داود - ٣٧٨-٣٨٢
الناصر صلاح الدين بن العزيز - ٣٣٥
ابن النجار - ٤١٢
نجم الدين الخبوشاني - ٦٩-٧٦-١٠٣-١٢٠-١٥٦-٢٨٣-٣٢٢-٣٣٨-٣٦٣

نجم الدين بن أيوب - ٢٧-٢٨-٦٩-٩٨-١٠٤-١٢٠-٢٥٧-٢٦٥-٢٨٠-٢٨٢-٢٨٣-
٣٠٥-٣٠٦-٣٢١-٣٢٤-٣٢٥-٣٤٠-٣٧٤
نجم الدين عبد الله بن محمد بن شاس الجذامي السعدي - ٤١٩
نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي - ١٩٧
ابن نجية - ١١١-٣٢٠-٤٢٣
نزار بن المستنصر - ٢٥
نصير الدين محمد بن عبد الله السامري - ٤٢٠
نور الدين أرسلان شاه - ٤١٩
نور الدين محمود زنكي - ٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-٢٧-٢٨-٢٩-٣٢-٤٨-٦٨-٦٩-١٠٤-١٠٥-
١١١-١١٣-١٢١-١٤٦-١٤٨-١٤٩-١٥١-١٨٢-٢٠٨-٢٠٩-٢٢٣-٢٢٦-٢٥٥-
٣٠٥-٣٢١-٣٢٤-٣٤٨-٤٥٤-٤٥٦-٤٥٩
النووي - ٨٨-١٥٦-١٦٣-٢٧٧-٢٩٨-٢٩٩-٢٦٨-٤١٥
النيسابوري - ٣٩-٨٩-١٣٧-١٦٦-١٦٧-٢٦٧-٣١٥-٣١٩-٤٠٨
ابن هائل - ٣٣٨
هبة الله العويرس - ٣٥٦
هولاكو - ٣٠-٢٧٥
يحيى الأندلسي البياسي - ٤٢٤
يحيى الثقفي - ٤١٣
يوسف الرحي - ٤٢٤
يوسف عليه السلام - ٤٥-٣٢٣
يونس الفاروقي - ٤٠٩
يونس بن يوسف الشيباني - ٣٧٥

٤- فهرس المصادر والمراجع

- إتخاف الورى بأخبار أم القرى ، النجم عمر بن فهد بن محمد ، تحقيق: فهيم محمد شلتوت ، ط ١ مكتبة الخانجي ، مصر ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
- الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة ، أحمد بن إدريس القراني ، ط ١ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .
- إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ط دار الكتب ، بيروت .
- أدلة الوجدانية في الرد على النصرانية ، أحمد بن إدريس القراني ، تحقيق: عبد الرحمن دمشقية ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨
- أساس البلاغة ، جار الله أبي القاسم الزمخشري ، تحقيق: عبد الرحيم محمود ، ط دار المعرفة ، بيروت .
- أصول التربية الإسلامية ، عبد الرحمن النحلوي ، ط ١ دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٩م .
- أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ، ط ٣ مؤسسة الرسالة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، د/ عبد الرحيم بن محمد المغذوي ، ط الأمانة العام لجائزة المدينة المنورة ، ١٤٢١هـ .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين الشنقيطي ، ط دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
- الأطلس التاريخي ، عدنان عطار ، دمشق .
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، محمد بن علي بن شداد ، تحقيق: يحيى عبارة ، دمشق ، ١٩٧٨م
- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط ٦ دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤م .
- الإمام النووي ، عبد الغني الدقر ، ط ٤ دار القلم ، دمشق ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .
- الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ، د/محمود ياسين التكريتي ، ط وزارة الثقافة العراقية ، بغداد ، ١٩٨١م .
- البحث العلمي ، عبد العزيز الربيع ، الطبعة الثالثة ، الرياض ، ١٤٢٤هـ
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، محمد بن أحمد بن إياس ، تحقيق: محمد مصطفى ، ط ٢ ، مصر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- البداية والنهاية ، عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير ، تحقيق: د/ عبدالله التركي ، ط ١ هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، عائشة عبد الله باقازي ، ط ١ دار مكة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية ، د/ سليمان عبد الغني مالكي ، الرياض ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- بلوغ المرام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام ، القاضي حسين أحمد القرشي ، مصر ، ١٩٣٩م .
- تاج العروس ، الزبيدي ، تحقيق: علي شيري ، بيروت ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .
- تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر ، الملك المؤيد بن أيوب ، تحقيق: محمود ديوب ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- تاريخ الإسلام ، الذهبي ، تحقيق: عمر تدمري ، ط ١ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- تاريخ الإسلام السياسي ، د/ حسن ابراهيم حسن ، ط ١ مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٦٧م .
- التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، ط ٥ المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، د/ أحمد شلبي ، ط ٣ ، مصر ، ١٩٧٧م .
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ، د/محمد سهيل طقوش ، ط ١ دار النفائس ، بيروت لبنان ، ١٩٩٩هـ/١٤٢٠م .
- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، أحمد سعيد سليمان ، ط دار المعارف ، مصر ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، د/عبد الباسط بدر ، ط ١ ، ١٩٩٣م .
- تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، د/فتحية النبراوي ، ط ٧ دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٤م .
- تاريخ مدينة دمشق ، الحافظ ابن عساكر ، تحقيق: محب الدين العمروي ، ط دار الفكر ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
- التحرير والتنوير ، محمد بن الطاهر بن عاشور ، ط دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٩٧م .
- تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ، صالح بن الحسين الجعفري ، تحقيق: د/ محمود قده ، ط ١ مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م .
- التدرج في الأساليب الدعوية وأثره في الدعوة إلى الله ، عبد الله عياد الجهني ، المدينة المنورة رسالة ماجستير كلية الدعوة ، ١٤١٣هـ ، ١٤١٤هـ .
- التعريفات ، الجرجاني ، تحقيق: ابراهيم الأبياري ، ط ٣ دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- تلبس إبليس ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ السيد الجميلي ، ط ٨ دار الكتاب العربي ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المئان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ط ٣ مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- ثلاثة الأصول وأدلتها ، الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ، الرياض ، مؤسسة النور .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري ، تحقيق: د/ عبد الله عبد المحسن التركي ورفاقه ، ط ١ دار هجر ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
- جامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي ، تحقيق: د/عبد الله التركي ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- الحافظ ابن عساكر ، د/ محمد مطيع الحافظ ، ط دار القلم ، دمشق ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، د/ جميل حرب ، ط ١ ، جدة ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .
- الحروب الصليبية ، رفيق التميمي ، ط ١ مطبعة اللواء ، القدس ، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م .
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، السيوطي ، تحقيق: حسن أبو الفضل ابراهيم ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .
- الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري ، د/عبد الرحمن سليمان المزيني ، ط مؤسسة المدينة للصحافة ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٤هـ .
- خريدة القصر وخريدة العصر ، العماد الأصفهاني ، تحقيق: د/ شكري فيصل ، ط مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .
- الخطابة ، محمد أبو زهرة ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٨٠م .

- الخطط (انظر المواعظ والاعتبار) ، المقريري .
- الدارس في تاريخ المدارس ، عبد القادر بن محمد النعيمي ، تحقيق: جعفر الحسني ، ط مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
- درء الاعتراض ، ابن تيمية ، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ .
- الدعوة ، حمد بن ناصر العمار ، ط ١ كنوز إشبيلية ، الرياض ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- دعوة المسلمين للنصارى ، سليمان بن عبد الله الرومي ، ط ١ مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .
- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة: د/حسن إبراهيم حسن وآخرين ، ط ٣ مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
- الدعوة-قواعد وأصول ، د/جمعة أمين عبد العزيز ، ط دار الدعوة ، القاهرة .
- الدولة الفاطمية في مصر ، د/ محمد جمال الدين سرور ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦م .
- الذيل الروضتين ، للحافظ أبي شامة المقدسي ، ط ٢ دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤م .
- ذيل طبقات الحنابلة ، زين الدين عبد الرحمن بن رجب ، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م .
- ذيل مرآة الزمان ، قطب الدين اليونيني ، ط دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- رحلة ابن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير ، ط دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٦م .
- الرد على النصارى ، صالح بن الحسين الجعفري ، تحقيق: د/ محمد محمد حسانين ، ط ١ مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م .
- رسالة إلى ولدي ، ابن الجوزي ، تحقيق: عمر عبد المنعم ، ط دار السلام ، مصر ، ١٩٩١م .
- زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن القيم ، تحقيق: طه عبد الرؤوف طه ، مصر ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .
- زبدة الحلب من تاريخ حلب ، كمال الدين بن العديم ، تحقيق: سامي الدهان ، ط منشورات المعهد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٥١م / ١٩٦٨م .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط مكتبة المعارف ، الرياض .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تقي الدين أحمد بن علي المقريري ، تحقيق: محمد مصطفى زيادة ، مصر ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م .
- سنا البرق الشامي ، الفتح بن علي بن محمد البنداري ، تحقيق: فتحية النبراوي ، ط مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
- سنن الترمذي ، تحقيق: أحمد شاكر ، دار إحياء التراث العربي
- سنن الدارمي ، الإمام الدارمي ، تحقيق: حسن الأسد ، ط ١ دار المغني ، الرياض ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .
- سير أعلام النبلاء ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، ط ١ مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥هـ / ١٩٥٨م .
- السيرة النبوية ، ابن هشام ، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه ، ط مؤسسة علوم القرآن ، جدة .
- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، مهدي رزق الله أحمد ، ط ١ مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- سيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، بدر الدين العيني ، تحقيق: فهيم شلتوت ، ط دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، دار الفكر ، بيروت .
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، أحمد بن إبراهيم الحنبلي ، تحقيق: ناظم رشيد ، ط وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨م .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ، ط دار الفكر ، بيروت .
- الصحاح ، الجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري ، تحقيق: د/ مصطفى ديب البغا ، ط ٣ دار ابن كثير ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- صحيح الترغيب والترهيب ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط ١ دار المعارف ، الرياض ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .
- صحيح الجامع الصغير ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط ٣ المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢م .
- صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي ، د/ محمد رجب البيومي ، ط ١ دار القلم ، دمشق ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- صلاح الدين-القائد وعصره ، د/ مصطفى الحياي ، ط ١ دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٢م .
- صيد الخاطر ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، تحقيق: د/ عبد الرحمن البر ، ط دار اليقين ، المنصورة ، ١٤١٣هـ .
- طبقات الشافعية الكبرى ، عبد الوهاب السبكي ، ط عيسى الحلبي ، القاهرة ، ط ١ مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .
- الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية ، سهام مهدي جبار ، ط المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٧م .
- العبر في خبر من عبر ، الذهبي ، تحقيق: محمد السعيد زغلول ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- عز بن عبد السلام (سلسلة أعلام المسلمين-٣٩) ، د/ محمد الزحيلي ، ط ١ دار القلم ، دمشق ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- عقائد الثلاث والسبعين فرقة ، أبو محمد اليميني ، تحقيق: محمد عبدالله الغامدي ، ط مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ١٤١٤هـ .
- علم دراسة الأديان عند المسلمين ، د/محمود قدح ، نشر دار البخاري ، المدينة المنورة .
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين أبو العباس المعروف بابن أبي أصيبعة ، مصر ، ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م .
- الفاطميون في مصر ، د/ حسن ابراهيم حسن ، مصر ، ١٩٣٢م .
- فتاوى ابن الصلاح ، تحقيق عبد المعطي قلعي ، ط ١ دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .
- فتاوى سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، تحقيق: مصطفى عاشور ، ط مكتبة القرآن ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، دار الفكر .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- فتح القسّي في الفتح القدسي ، العماد الكاتب الأصفهاني ، تحقيق: محمد محمود صبح ، ط الشركة الدولية للطباعة ، مصر ، ٢٠٠٣ .
- فقه الموازنات الدعوية ، د/ معاذ محمد البيانوني ، دار الإبداع ، الكويت ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
- فوات الوفيات ، محمد بن شاكر الكتيبي ، تحقيق: د/ إحسان عباس ، ط دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م .
- القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيوزيادي ، ط مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .

- القواعد أساسية في البحث العلمي ، د/ سعيد صيني ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٥هـ .
- القواعد الأحكام في مصالح الأنام ، عز الدين بن عبد السلام ، مصر .
- الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ط دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- كتاب الاعتبار ، أسامة بن منقذ ، تحقيق: قاسم السامرائي ، ط دار الأصاله ، الرياض ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة ، تحقيق: ابراهيم الزبيق ، ط ١ مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
- كشاف اصطلاحات الظنون ، محمد التهانوني ، تحقيق: علي دحروج ، ط ١ مكتبة لبنان ، ١٩٩٦م .
- كنز الدرر وجامع الغرر ، دواداري ، تحقيق: د/سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر ، ١٣٩١هـ / ١٩٩٨م .
- كيد الشيطان لنفسه قبل خلق آدم ، عبد الرحمن بن علي الجوزي ، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري ، ط ١ مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ .
- اللسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت .
- اللطائف في الوعظ ، ابن الجوزي ، تحقيق: محمد ابراهيم سنبل ، ط دار الصحابة ، طنطا ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- لفظة الكبد إلى نصيحة الولد ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، ط ١ مكتبة الإمام البخاري ، مصر ، ١٤١٢هـ .
- المجموع شرح المهذب ، الإمام محيي الدين بن شرف النووي ، ط مطبعة الإمام ، القاهرة .
- مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن قاسم ، مجمع الملك فهد ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م .
- مدارج السالكين ، ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية ، ١٩٧٢م .
- المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية - د/ صالح بن حمد العساف ، ط ٣ مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- مدخل إلى علم الدعوة ، د/ أبو الفتح البيانوني ، ط ٢ مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- مرآة الزمان ، سبط ابن الجوزي ، ط دائرة المعارف العثمانية ، الدكن ، حيدر آباد ، الهند .
- المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٠م .
- مسند أحمد ، بإشراف د/عبد الله التركي ، ط ١ مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م .
- مسند أحمد ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، مكتبة التراث ، مصر .
- مصباح المنير ، أحمد بن محمد الفيومي ، ط ١ المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- المصنف ، الإمام أبي بكر بن أبي شيبة ، تحقيق: محمد عوامة ، ط شركة دار القبلة ، جدة ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- معالم الشريعة الإسلامية ، د/ صبحي الصالح ، ط ٤ دار العلم للملايين ، ١٩٨٢م .
- معجم البلدان ، شهاب الدين ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- معجم الكبير ، للحافظ الطبراني ، تحقيق: حمدي السلفي ، ط ٢ دار إحياء التراث العربي .
- معجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية ، قام بإخراجه: ابراهيم مصطفى وزملاؤه ، إشراف عبد السلام هارون ، مجمع اللغة العربية ، مصر .
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، أحمد مصطفى طاش كبري زادة ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ، جمال الدين بن واصل ، تحقيق: جمال الدين الشيبان ، مصر ، بدون تاريخ .
- مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، ط دار القلم ، دمشق ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

- مقامع الصלבان ومراتع أهل الإيمان ، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي ، تحقيق: د/محمد شامة ، تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية ، ط ٢ مكتبة وهبة ، مصر ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، ط دار إحياء التراث العربي ، ٢٠٠٣م.
- مكتبات المساجد ، د/مكي الرفاعي ، ط ١ مركز الملك فيصل ، الرياض ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- الملل والنحل ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق: أحمد فهمي أحمد ، ط ٢ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- مناهج البحث وتحقيق التراث ، د/ أكرم العمري ، ط مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة.
- مناهج الجدل في القرآن الكريم ، د/ زاهر الأملعي ، ط ٢ ، الرياض ، ١٤٠٠هـ .
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، ط ١ دائرة المعارف العثمانية ، الدكن ، حيدر آباد ، ١٣٩٥م.
- المنهل الصافي ، يوسف بن تعزي بردي ، تحقيق: د/ محمد محمد أمين ، مصر ، ١٩٩٣م.
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المقرئزي ، بيروت .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين بن تعزي بردي ، ط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م .
- النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، د/محمد جمال الدين سرور ، ط ١ دار الفكر العربي ، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد ، تحقيق: جمال الدين الشّيبان ، ط ١ ، مصر ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، د/ماجد عرسان الكيلاني ، ط ٣ دار القلم، دبي ، الإمارات ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .
- الوابل الصيّب من الكلم الطيب ، شمس الدين الزرععي الدمشقي ، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض ، ط ١ دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- وفيات الأعيان ، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلّكان ، تحقيق: د/ إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٢م.

٥- فهرس الموضوعات

الإهداء.....	٢
شكر وتقدير.....	٣
المقدمة.....	٤
٣ تعريف مصطلحات البحث.....	٥
أولاً: تعريف الدعوة.....	٥
أ-التعريف اللغوي للدعوة.....	٥
ب-التعريف الاصطلاحي للدعوة.....	٥
ثانياً: الإسلام.....	٦
ثالثاً: العهد.....	٦
رابعاً: الدولة.....	٧
٢-أهمية الموضوع.....	٧
٣- أسباب اختيار الموضوع.....	٧
٤-أهداف الموضوع.....	٨
٥-تساؤلات البحث.....	٩
٦-الدراسات السابقة.....	٩
٧-منهج البحث.....	١٣
٨-حدود الدراسة.....	١٥
٩-تقسيمات البحث.....	١٥

الفصل التمهيدي

المبحث الأول : الموقع الجغرافي.....	١٨
المبحث الثاني : الأحوال السائدة قبيل الدولة الأيوبية.....	٢١
المبحث الثالث : نشأة الدولة الأيوبية والأحوال السائدة فيها.....	٢٦
الفصل الأول : سمات الدعوة الإسلامية ومراحلها في عهد الدولة الأيوبية	
المبحث الأول : سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.....	٣٥

المطلب الأول: وجود نموذج الداعية الأمثل.....	٣٧
أولاً- صفات الداعية الأساسية.....	٣٨
٧ - قوة الصلة بالله.....	٣٨
٨ - الإخلاص.....	٣٨
٩ - العلم.....	٣٩
١٠ - القدوة الحسنة.....	٤٠
١١ - الرفق.....	٤١
١٢ - الصبر.....	٤٢
ثانياً- صفات الداعية اللازمة.....	٤٣
١ - التخطيط للدعوة.....	٤٣
٢ - انتهاز الفرص.....	٤٤
٣ - ترتيب الأولويات.....	٤٥
المطلب الثاني: الفتوحات.....	٤٨
المطلب الثالث: الجهاد ضد الصليبيين.....	٥٠
المطلب الرابع: النشاط العلمي.....	٥٢
المطلب الخامس: دعوة غير المسلمين.....	٥٣
أولاً- توجيه الدعوة إلى الرؤساء.....	٥٣
ثانياً- توجيه الدعوة إلى العامة.....	٥٦
ثالثاً- جهود العلماء في دعوة غير المسلمين.....	٥٩
رابعاً- جهود العامة من المسلمين في دعوة غير المسلمين.....	٦١
المبحث الثاني: مراحل الدعوة	
المطلب الأول: مرحلة الإدارة.....	٦٤
المطلب الثاني: مرحلة الجهر.....	٦٩
المطلب الثالث: مرحلة الانكماش.....	٧٠

الفصل الثاني: موضوع الدعوة

المبحث الأول: موضوع العقيدة.....	٧٢
تمهيد.....	٧٣
المطلب الأول: الباطنيون.....	٧٥
المطلب الثاني: دعاة باطل.....	٨٠
المطلب الثالث: علوم المنطق والأوائل.....	٨٢
المطلب الرابع: المنجمون.....	٨٥
المطلب الخامس: الوقوف أمام المنكرات العقدية.....	٨٧
المطلب السادس: الحرص على العقيدة الصحيحة.....	٨٩
المطلب السابع: مخالفات بعض ملوك الدولة الأيوبية.....	٩٣
المبحث الثاني: موضوع الشريعة.....	٩٧
تمهيد.....	٩٨
المطلب الأول: تعظيم أوامر الشريعة الإسلامية.....	٩٩
أولاً: الاهتمام بأصول الدين الإسلامي وركائزه الأساسية.....	٩٩
ثانياً: الحرص على استفتاء العلماء.....	١٠٢
ثالثاً: الحرص على إزالة المنكر.....	١٠٤
أ - إنكار منكرات تتعلّق بالجانب الاقتصادي.....	١٠٤
ب - إنكار منكرات تتعلّق بالمساجد.....	١٠٦
ت - إنكار منكرات تتعلّق بجوانب متفرقة.....	١٠٨
المطلب الثاني: تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.....	١١٠
أولاً: الحرص على تنفيذ الأوامر الشرعية والدعوة إليها.....	١١٠
ثانياً: الابتعاد عما نهى الشارع الحكيم عنه والدعوة إلى ذلك.....	١١٣
ثالثاً: تطبيق أحكام السنة النبوية الشريفة.....	١١٥
رابعاً: التطبيق العملي لأحكام الشريعة الإسلامية.....	١١٨

المبحث الثالث: موضوع الأخلاق.....	١٢٤
المطلب الأول: خلق العدل.....	١٢٧
المطلب الثاني: خلق التواضع.....	١٣٢
المطلب الثالث: خلق الكرم.....	١٣٧
المطلب الرابع: خلق الحلم.....	١٤١
المطلب الخامس: خلق الوفاء.....	١٤٦
المطلب السادس: خلق الورع.....	١٤٩
المطلب السابع: أخلاق ممنوعة.....	١٥٤

الفصل الثالث: أصناف الدعاة والمدعويين في عهد الدولة الأيوبية

تمهيد.....	١٥٧
المبحث الأول: أصناف الدعاة في عهد الدولة الأيوبية.....	١٥٨
المطلب الأول: الملوك.....	١٥٩
المطلب الثاني: الأمراء والوزراء والمستشارون.....	١٥٩
المطلب الثالث: العلماء.....	١٦١

المبحث الثاني: أصناف المدعويين في عهد الدولة الأيوبية.....	١٦٥
المطلب الأول: الملوك والأمراء.....	١٦٦
المطلب الثاني: العامة.....	١٧٠
المطلب الثالث: أهل الذمة والصليبيون.....	١٦٨

الفصل الرابع: وسائل الدعوة وأساليبها وميادينها في عهد الدولة الأيوبية

المبحث الأول: وسائل الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.....	١٧٤
تمهيد.....	١٧٥
تعريف الوسائل في اللغة والاصطلاح.....	١٧٦
المطلب الأول: الرسائل والرسول.....	١٧٧

أولاً: أهمية وسيلة الرسالة.....	١٧٧
ثانياً: رسائل الحكام.....	١٧٨
ثالثاً: رسائل العلماء.....	١٨٤
رابعاً: الرسل.....	١٨٩
المطلب الثاني: المناظرة.....	١٩٢
أولاً: تعريف المناظرة.....	١٩٢
ثانياً: أهمية وسيلة المناظرة.....	١٩٣
ثالثاً: الملوك الذين استخدموا هذه الوسيلة.....	١٩٤
رابعاً: العلماء الذين استخدموا هذه الوسيلة.....	١٩٤
المطلب الثالث: الخطابة.....	١٩٧
أولاً: تعريف الخطابة.....	١٩٧
ثانياً: أهمية وسيلة الخطابة.....	١٩٧
ثالثاً: استخدامها في العصر الأيوبي.....	١٩٨
المطلب الرابع: الجهاد.....	٢٠١
أولاً: تعريف الجهاد.....	٢٠١
ثانياً: أهداف الجهاد وغاياته.....	٢٠٣
ثالثاً: فتوحات الأيوبيين.....	٢٠٥
رابعاً: أبرز مجاهدي العصر.....	٢١٥
خامساً: الجهاد ضد الصليبيين.....	٢١٩
سادساً: آداب الجهاد.....	٢٢٢
أ - التخطيط والاستعداد للجهاد.....	٢٢٢
١ - التدريب العسكري المكثف.....	٢٢٢

- ٢ - التحصينات العسكرية.....٢٢٣
- ٣ - توحيد القوى العسكرية.....٢٢٣
- ٤ - مواقف تدلّ على استعداد الأيوبيين وتخطيطهم للجهاد.....٢٢٤
- ب - الصبر.....٢٢٦
- ١ - صبرهم في حصار مدينة صور.....٢٢٨
- ٢ - صبرهم أثناء حصار مدينة صفد.....٢٢٩
- ٣ - صبرهم عند فتح مدينة كوكب.....٢٣٠
- ٤ - صبرهم في حصار مدينة عكا عندما أخذها العدو قسراً من المسلمين....٢٣٠
- ٥ - صبر المسلمين عند تخريب عسقلان.....٢٣٢
- ت - الإصرار على الجهاد.....٢٣٢
- ث - تشجيع الجيش على القتال.....٢٣٥
- ج - المعاملة الحسنة مع الأسرى.....٢٣٧
- ح - التسامح ومنح الأمان في الوقت المناسب.....٢٤٠
- خ - عزة الجندي المسلم.....٢٤١
- المبحث الثاني: أساليب الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.....٢٤٦
- تعريف الأسلوب في اللغة والاصطلاح.....٢٤٧
- المطلب الأول: أسلوب القدوة الحسنة.....٢٤٩
- أولاً: أهمية أسلوب القدوة الحسنة.....٢٥٠
- ثانياً: القدوة في الإكثار من العبادة.....٢٥٣
- ثالثاً: القدوة في الإنفاق في سبيل الله.....٢٥٦
- رابعاً: القدوة في الجرأة في قول الحق.....٢٦٩
- خامساً: القدوة في الحرص على مصالح الناس.....٢٨٢
- المطلب الثاني: أسلوب الموعظة الحسنة.....٢٨٦
- أولاً: تعريف الموعظة الحسنة.....٢٨٧
- ثانياً: أهمية أسلوب الموعظة الحسنة.....٢٨٨

٢٩١.....	ثالثاً: أشهر الوعاظ الأيوبيين.....
٢٩٣.....	رابعاً: نماذج من مواعظ الدعاة الأيوبيين.....
٢٩٨.....	المطلب الثالث: أسلوب الحكمة.....
٢٩٩.....	أولاً: تعريف الحكمة.....
٢٩٩.....	ثانياً: أهمية أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله.....
٣٠٠.....	ثالثاً: نماذج من حكمة دعاة الدولة الأيوبية.....
٣٠١.....	أ-التدرج.....
٣٠٤.....	ب-مراعاة الأولويات.....
٣٠٥.....	ج-مراعاة اختلاف الظروف.....
٣٠٦.....	د-استخدام المنهج المناسب.....
٣١٠.....	المطلب الرابع: أسلوب التعليم والتربية.....
٣١١.....	أولاً: أهمية أسلوب التعليم والتربية.....
٣١٤.....	ثانياً: جهود الدولة الأيوبية لدعم مسير العلم والتربية.....
٣١٥.....	ثالثاً: نماذج من الدعاة المعلمين.....
٣١٧.....	رابعاً: العناية بتعليم الأطفال وتدريبهم.....
٣٢٠.....	خامساً: الاهتمام بالترفيه.....
٣٢٣.....	المبحث الثالث: ميادين الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.....
٣٢٦.....	المطلب الأول: ميدان المدارس.....
٣٢٨.....	أولاً: اهتمام الملوك الأيوبيين بميدان المدارس.....
٣٣١.....	ثانياً: اهتمام الأمراء الأيوبيين بميدان المدارس.....
٣٣٢.....	ثالثاً: اهتمام علماء بني أيوب بميدان المدارس.....
٣٣٦.....	رابعاً: اهتمام نساء بني أيوب بميدان المدارس.....
٣٣٨.....	خامساً: اهتمام الدعاة بتحويل بعض الأبنية إلى مدارس.....
٣٣٩.....	المطلب الثاني: ميدان المعارك.....
٣٤١.....	المطلب الثالث: ميدان القصر.....

المطلب الرابع: ميدان المسجد..... ٣٤٣

الفصل الخامس: معوقات الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

المبحث الأول: معوقات داخلية..... ٣٤٩

المطلب الأول: الفرق الضالة..... ٣٥١

١- العبيدية..... ٣٥١

٢- الاسماعيلية الباطنية..... ٣٥٦

المطلب الثاني: التعصب المذهبي..... ٣٥٧

موقف الملوك الأيوبيين من التعصب المذهبي..... ٣٥٨

آثار التعصب المذهبي..... ٣٥٩

المطلب الرابع: الضعف الديني..... ٣٦٢

المطلب الخامس: الخلط بين السنة والبدعة..... ٣٦٨

المطلب السادس: التنافس بين الأمراء الأيوبيين..... ٣٧٠

موقف العلماء والدعاة من النزاع بين أبناء البيت الأيوبي..... ٣٧٤

المطلب السابع: الترف..... ٣٧٧

المطلب الثامن: الجوائح..... ٣٧٨

المبحث الثاني: معوقات خارجية..... ٣٨١

الفصل السادس: نتائج الدعوة وعوامل نجاحها في عهد الدولة الأيوبية

المبحث الأول: نتائج الدعوة في عهد الدولة الأيوبية..... ٣٨٦

المطلب الأول: تصحيح المسار العقدي..... ٣٨٨

المطلب الثاني: دخول الكثير من غير المسلمين في الإسلام..... ٣٨٩

المطلب الثالث: تغيير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين وتأثرهم بعادات المسلمين

وأخلاقهم..... ٣٩١

المطلب الرابع: وحدة العالم الإسلامي..... ٣٩٤

المطلب الخامس: انحسار المدّ الصليبي..... ٣٩٥

- المطلب السادس: رعاية شؤون الحرمين..... ٣٩٦
- المطلب السابع: ازدهار الحركة العلمية..... ٣٩٨
- المبحث الثاني: عوامل نجاح الدعوة في عهد الدولة الأيوبية..... ٣٩٩
- المطلب الأول: صدق اللجوء إلى الله تعالى وشكره على الفتح..... ٤٠١
- أولاً: أمثلة على الاستعانة بالله واللجوء إليه في الملمات والشدائد..... ٤٠٢
- ثانياً: أمثلة على شكر الله تعالى على ما أنعم به..... ٤٠٥
- المطلب الثاني: الاهتمام بالعلم..... ٤٠٧
- أولاً: اهتمام ملوك بني أيوب بالعلم..... ٤٠٨
- ثانياً: اهتمام العلماء بالعلم..... ٤١٤
- اهتمام العلماء بالمذاهب الأربعة..... ٤١٧
- أ - علماء المذهب الحنفي..... ٤١٨
- ب - علماء المذهب المالكي..... ٤١٨
- ت - علماء المذهب الشافعي..... ٤١٩
- ث - علماء المذهب الحنبلي..... ٤٢٠
- ثالثاً: اهتمام النساء بالعلم..... ٤٢٠
- رابعاً: اهتمام الملوك بالعلماء..... ٤٢١
- خامساً: اهتمام الدولة الأيوبية بالأطباء..... ٤٢٣
- المطلب الثالث: الإصلاحات..... ٤٢٦
- أهم البلاد التي حظيت باهتمام الأيوبيون..... ٤٣٠
- المطلب الرابع: تعيين الولاة..... ٤٣٥
- المطلب الخامس: الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٤٣٧
- أولاً: اهتمام الملوك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٤٣٧
- ثانياً: اهتمام العلماء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٤٣٩
- المطلب السادس: صلاح البطانة..... ٤٤١

المطلب السابع: الأخذ بأسباب القوة والحكمة العسكرية.....	٤٤٤
المطلب الثامن: الشورى.....	٤٤٩
أولاً: أبرز المستشارين في الدولة الأيوبية.....	٤٥١
ثانياً: مجالس الشورى في الحرب.....	٤٥٣
أبرز الشواهد التاريخية على الشورى في الحرب في العهد الأيوبي التالي.....	٤٥٣
المطلب التاسع: علو همة الداعية.....	٤٥٧
خاتمة : وفيها نتائج البحث والتوصيات	٤٦٢
الفهارس : أ- فهرس الآيات.....	٤٦٨
ب- فهرس الأحاديث.....	٤٨٧
ج- فهرس الأعلام.....	٤٩٢
د- فهرس المصادر والمراجع.....	٥٠٨
هـ- فهرس الموضوعات	٥١٤